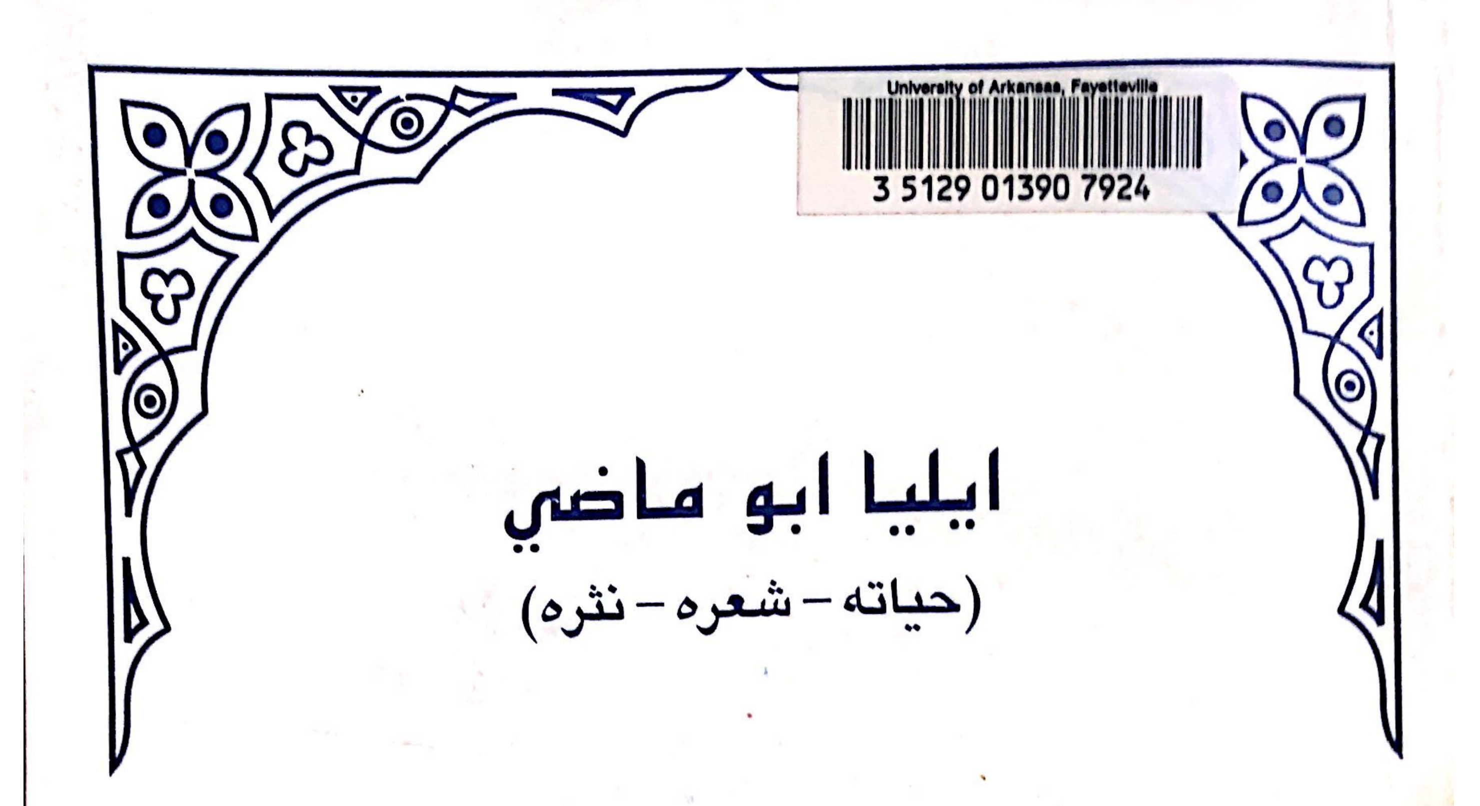


ايليا ابو ماضي

(حياته - شعره - نثره)

تأليف

الدكتور عفيف نايف حاطوم

دار الثقافة
بيروت - لبنان

ايليا ابو ماضي

(حياته - شعره - نثره)

تأليف

الدكتور عفيف نايف حاطوم

دار الثقافة
بيروت - لبنان

الطبعة الاولى
١٩٩٤ - ١٤١٤هـ

حياته

تنقسم حياة الشَّاعر المَهْجَريّ إِيليَّا أبو مَاضي الى ثلاثة اقسام رئيسة؛ ألاَ وهي:

أوَّلا: حياته في بلدة المُحَيدِثَة، وذلك منذ ولادته فيها عام ١٨٩٠م لغاية مغادرته إِياها عام ١٩٠٧ م، قاصداً مدينة الاسكندرية.

ثانياً: حياته في الاسكندرية - مِصْر، حيث اقام فيها منذ سنة ١٩٠١م لغاية سنة ١٩١٢م.

ثالثاً: حياته في الولايات المتحدة الاميركية التي ظل مقيما فيها منذ وُصُوله إِليها عام ١٩١٢م حتى توفي فيها عام ١٩٥٧م.

١ - حياته في لبنان

وُلِدَ الشاعر المَهْجري الكبير إِيليَّا ضاهر أبو ماضي - في قرية المُحَيْدِثَة - لبنان - في ٢١ أيار سنة ١٨٩٠م.[١] وحينما بلغ الخامسة من عُمْره أرسله والدُه ضَاهِر

---

(١) ورد في الرسالة التي بعث بها مُراد ابي ماضي شقيق شاعرنا الى الاديب الاردني يعقوب عُويدات ما يلي:
«... ولدت في شهر نيسان سنة ١٨٨٨م. من ابوين هما ضاهر ايليا ابي ماضي وسلمى بنت اسكندر (ابو عَزِيْز) وتاريخ الولادة الانف سجله المرحوم والدي على نسخة من التوراة كما سَجَّل تاريخ ولادة ايليا في ٢١ ايار سنة ١٨٩٠م.

الذي كان يتعاطى في مسقط رأسه - بلدة المحَيْدِثة - مهنة التجارة والحياكة ونظم القرّادي والمعَنّى. [1] الى مدرسة القرية الابتدائية، ولم يكد يمضي على وجوده فيها مُدّة سنتين متتاليتين حتى بدأ يدرك في قرارة نفسه أنه قد أصبح باستطاعته ان يصحح بنفسه ساعة يشاء اخطاء معلمه اللغوية. اذ يروى عنه أنَّه بينَما كان خارجاً ذات مساء من مدرسته تلك برفقة أحد زملائه فيها وجد نفسه يقترب منْ زميله هذا الذي كان يسير متمهلا بقربه ويقول له بصوت مرتفع قليلا: افتدري يا اخي بأن معلمنا الذي يعلمنا اللغة العربية قد اخطأ خطأ لغويا فاحشا، وذلك لدى قراءته لاحد ابيات القصيدة التي كان يلقيها على مسامعنا في هذا الصباح في الصَّفّ.

ولم يكد ابو ماضي يتم كلماته تلك حتى أحسَّ بيد تقرص اذنه قرصا خفيفا وبصوت معلمه الذي كان سائرا خلفه ساعتئذ وذلك من غير ان يشعر به يطن في اذنيه قائلا له بلهجة مشوبة بالتهديد والوعيد: افتجرؤ ايها الفتى المهووس الاحمق على تصحيح اخطائي وانتقادي ناسيا انني شاعر واديب [2].

لقد كان ابو ماضي في صِغره يخشى ذلك المعلم، ويخشى معه عصاه، حيث كان يجبر تلاميذه كل صباح على حفظ خمسة او ستة ابيات من الشعر، كانَ يختارها لهم من كتاب «مَجاني الادب». أمَّا المتكاسلون فكانوا يعاقبون اشدَّ العقاب في آخر كل يوم منْ ايَّام الاسبوع حيث كانوا يجدون "الفَلَقة" [3]، واقفة لهم بالمرصاد. فكان ذلك اليوم بالنسبة اليهم جميعا أشبه بأيَّام الدَّينونة، اذ كثيرا ما كان هؤلاء التلاميذ يدهنون في صباح ذلك اليوم العصيب ايديهم واقدامهم بدم «الحرادين» لكي تنزلق عصا معلمهم عنها بسهولة من غير ان تسبب لهم ألما.

وحينما بلغَ ابو ماضي الثامنة من عمره ارسله والده برفقة شقيقه الاكبر مُراد

---

(١) ذكر مراد شقيق شاعرنا في رسالته التي ارسلها الى الاديب الاردني يعقوب عويدات بصراحة المهن التي كان والدُه يتعاطاها في قرية المحيدثة. كما ذكر ايضاً له فيها عدد الاولاد الذين رزق بهم والده فقال: رزق الله الوالِدَ خمسة ذكور أنا اكبرهم وابنة واحدة.. وكان والدي يتقن الحياكة والتجارة والسكافة وينظم القِرّادي والمعَنَّى. وكان صوته يساعده على التغنّي بقصة الزير في السهرات البيتية على ما اذكر «حيث يدعى للقصدان فيجتمع الجيران للاستماع»..

(٢) مقابلتي بالمُحَيْدثة بتاريخ ٨ تموز ١٩٦٣م. للسيد جورج متري الخوري جار ابي ماضي وزميله على مقاعد الدّراسة.

(٣) الفَلَقُ جمع أفلاق: عود يربط حبل من أحد طرفيه الى الأخر وتجعل رجلا المجرم داخل ذلك الحبل وتُشَدَّا فيُضْرَب عليهما.

الى مدرسة اليسوعية في بكفيا. وجل ما نعرفه عن طفولته في تلك الحقبة من حياته أنه كان تلميذا ساخرا متهكما على نفسه، وكذلك على وجهاء ضيعته، حيث كان في بعض الاحيان يتسلّق احد الحيطان أثناء عودته منَ المدرسة إلى البيت في المساء ليلقي على مسامع رفقائه من الطلاب العائدين معه الى منازلهم بعض الابيات الزَجَليَّة الهجائية الساخرة المتعلقة ببعض الرجال الوجهاء المتنفذين في ضيعته؛ وهي ابيات كان يحفظ قسما كبيرا منها عن والده، أمّا القسم الآخر المتبقي منها فقد كانت قريحته الفياضة تجود بها عليه آنذاك. ولا يزال بعض جيران ابي ماضي المسنين يتذكرون حتى الآن هذين البيتين من ابيات الزَّجَل اللذين كان ابو ماضي ينشدهما على مسمعهم وذلك كلما وجد احدهم يطلب منه لدى التقائه به ان يحدثه عن ذلك البرغوث الذي كان متعودا ان يزوره كل ليلة في منزله ليوقظه منْ نومه ويزعجه كل الازعاج؛ (١)

أيْش بِحْكيْلكُم عن البرغُوثْ بِحْكيلكُم بكلام مَزْبوطْ.

أيْش بحكيلكمْ عالسّكّيْت مِنُّو مبارحْ أيْشْ قَضَّيْتْ.

وحينما كان ابو ماضي ينتهي مِنْ انشاد هذين البيتين على مسمع من كان يطلب منه ان ينشدهما له كان يطلب منه جار آخر له وبالحاح أنْ يُحَدثه على الفور عنْ ذلك الجرْدَوْن الثقيل ذي الحجم الكبير الذي كان يزور منزله في كل ليلة، فكان ابو ماضي يجيبه على الفور قائلا له وبلهجة حزينة؛ (٢)

عِنّا جردونْ يا إخْوانْ بيطلعْ قنطارْ بالقَبَّانْ

لِمّن يجيْ ساعةْ بالليلْ يبقى يُصْهلْ مِثِلْ الخيلْ

كان عِنّا من القمحْ كَيْل رَوَّحهم بلَيْلِه دَخَّانْ

ولقد كانت مخيلة ابي ماضي قبل ان يتجاوز التاسعة من عمره مخيلة ضيقة لا تتعدى حدود السواقي التي تَفْصل بين قريته المُحيدِثة والقرى المجاورة لها، حيث كان يعتقد بأن حدود العالم كله ينتهي عند حُدُودِ هذه السواقي؛ (٣)

---

(١) ذكرت لي هذين البيتين جارة ابي ماضي السيدة جميلة عفيش وذلك لدى قيامي بزيارتها بتاريخ ١٠ ايلول سنة ١٩٦٤م في منزلها الذي اقعدتها فيه الشيخوخة.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) جريدة «السمير» تاريخ ٢٧ شباط سنة ١٩٢٧.

«لا يفصل بين المحيدثة وبكفيا وبحرصاف (قال ابو ماضي) غير سواق صغيرة يجف الماء فيها في فصل الصيف، وليست في الشتاء بالحواجز التي يعجز اجتيازها، وإننا لنذكر كيف كنا ونحن اطفال صغار نخشى ان نجتاز الى ما وراء تلك الحدود الدولية، وكيف كنا نتصور الناس وراء الساقية غير الناس فإذا جاوزناها انكمشنا، كأننا في ارض غير مأمونة. وكثيرا ما كان الاولاد ينظرُوْن الينا كأننا قادمون من المَرِّيْخ...».

لقد عاش ابو ماضي سنوات طفولته سعيدا خلي البال فلم تعرف الهموم سبيلها الى قلبه. إذ كثيرا ما كان يجد نفسه اثناء طفولته يلعب مع اترابه في ذلك الوادي الظَلِيْل وادي قريته المحيدثة المُسَمَّى بوادي الدِّلْب، حيث كان يتسلق فيه الاشجار ويخوض وحل الشتاء ويبري الاغصان متخذا منها خيولا مطهمة، مسابقا بها الريح ويتشيطن ما شاء له ان يتشيطن وهو يركض فرحا جَزِلا مجتازا الحقول والكروم وقاطعا الوديان وكل ذلك برفقة بعض الاتراب.

وحينما بلغ ابو ماضي الحادية عَشْرَةَ منْ عمره ارسل خاله الذي كان مقيما في مدينة الاسكندرية رسالة الى والده يَطْلُبُ فيها منه ان يرسل اليه على جناح السرعة ولده ايليا ليساعده في ادارة محله الذي كان يبيع فيه الدخان، فاستشار ذلك الوالد الطَّيِّب الحنون ولده ايليا ولَمَّا وجده موافقا على السفر الى الاسكندرية بناء على رغبة خاله طلب منه ان يحزم حقائبه استعداداً للسفر في الحال.

وصل ابو ماضي الى مدينة الاسكندرية سنة ١٩٠١م وبعد ايام قليلة من وصوله اليها وجد نفسه يبيع الدخان في دكان خاله المدعو قَبَلان اسْكَندر (١).

«لقد دعاني خالي (قال ابو ماضي) صاحب محل الدخان في الاسكندرية وسلخني من المدرسة عمدا لأُساعدَه في عمله في المحل ولهذا خرجت من المدرسة في عمر باكرٍ جدا لا يزيد عن الاحدى عَشْرَةَ سنة. غير أني لم استسلم للقنوط، وشعرت بدافع يحدوني للمطالعة والدرس فكنتُ اسهر الليل دارسا منقبا على ضوء الشموع، وانصرفت بعد ان مكنت نفسي من القواعد العربية في كتاب «الغرَاوِي» الى معالجة الشعر ونظمه في هذه الليالي».

---

(١) «جريدة الهاتف» البغدادية ٢٤ كانون الاول سنة ١٩٤٨م.

ظل ابو ماضي يعمل في دكان خاله هذا مدة سنتين متتاليتين، ولَمَّا وجد شقيقه الاكبر مُراد يفتح دكانا خاصا به لبيع الدخان، انتقل على الفور لمساعدته حيث نَسَّاه بعطفه وحَدَبِهِ عليه عطف وحَدَبَ والديه اللذين كانت رياح الحياة القاسية قد حملته منذ سنوات قليلة بعيدا عنهما وهو بأشد الحاجة اليهما:(١)

«يهاجر الانسان من وطنه (قال ابو ماضي) ويضرب في مناكب الارض وتحول بينه وبينه الجبال ويستغرق في المشاغل والمطالب والمشاكل فينسى اترابه وأصحابه وتغيب عنه صور المنازل والمراتع التي كان فيها ولكن صورة واحدة لا تنمحي من ذاكرته ولا تغيب عن مخيلته وهي صورة أُمِّه..»

ولم يكن هناك من شيء ينسي ابا ماضي مرارة الاغتراب وفرقة الاهل والاقارب والاخوان سوى جلوسه وسط ادباء وشعراء الحي الذين كانوا يأتون في بعض الاماسي لزيارة شقيقه جاعلين من دكانه اثناء جلوسهم فيه سوقا شبيها بسوق عكاظ. (٢)

وقد ظل ابو ماضي يعمل في هذا الدكان مدة عام ونصف تقريبا، ولم يفارقه إلاَّ بعدما وجد شقيقه يبيع دكانه هذا، ويستقل الباخرة عائدا إلى لبنان.

فما كان من ابي ماضي الذي كان قد بلغ آنذاك الرابعة عشرة من عمره الا ان عاد ليعمل من جديد بائعا للدخان في دكان خاله المدعو قبلان اسكندر، وهو نفس الدكان الذي كان قد التحق به وذلك بعد وصوله الى الاسكندرية بأيام قليلة. وحينما بلغ ابو ماضي السابعة عشرة من عمره بدأ ينظم القصائد وينشرها في بعض المجلات والجرائد المصرية. فكان من اوائل نظمه قصيدة له توخى فيها ان يقص قصة فتاة ماتت منتحرة بعدما وجدت اهلها يعقدون قرانها، رغما عنها، على شاب لم تكن تهواه. وقد نشرت هذه القصيدة لابي ماضي لاول مرة في جريدة «الاكسبرس» الاسبوعية التي كان يصدرها آنذاك السيد نَظْمي نَسيم الذي أبى ان يقدم هذه القصيدة الاجتماعية لقراء جريدته الا بعدما تَوَّجها بمقدمة قصيرة عَرَّف

---

(١) جريدة «السمير» السبت ١١ أيار سنة ١٩٤٠م.

(٢) انظر رسالة مراد شقيق ابي ماضي الاكبر التي ارسلها الى الاديب الاردني يعقوب عويدات وهي رسالة عثرنا عليها لدى زيارتنا لمنزل مراد في ميامي فلوريدا سنة ١٩٦٣م وذلك بعد وفاته وقد وجدناها بين اوراقه واستلمناها يداً بيد من قرينته.

فيها الشاعر ايليا ابو ماضي الى القراء، ثم ارسل بعد ذلك بأيام قليلة رسولاً الى ابي ماضي طالبا منه بواسطته الحضور الى ادارة جريدته للتعرف عليه شخصيا. فذهب ابو ماضي على الفور وقابله في ادارة جريدته. ولمّا وجد صاحبُ تلك الجريدة ان ابا ماضي لم يزل بعد صغير السن. راح يشجّعه على نظم الاشعار والاستزادة منها شرط ان يلجأ خلال نظمه لها الى قراءة دواوين كبار الشعراء القدماء والمحدثين قصد الحصول على اكبر قدْر من الثقافة الشعرية التي تيسّر على الشاعر أيّ شاعر بَعْدَ حصوله عليها سبل تذليل القوافي وجعلها طوع بنانه. ولم يكن ابو ماضي مكتفيا فقط في تلك الفترة من حياته بنظم القصائد الاجتماعية، بل كان ينظم ايضا مع نظمه لها الشعر الوطني والسياسي وينشره في مجلة «الزّهور» [١] وهو شعر طارت له بسببه شهرة واسعة في بعض المحافل الادبية بحيث ظنّت تبعا لذلك بعض الصحف المصرية آنذاك ان اسم ايليا افندي ابو ماضي هو اسم مستعار لشاعر مصري قديم [٢].

ولما ترامى الى مسامع والد أبي ماضي الذي كان مقيما آنذاك في المُحَيْدثة انباء تدخّل ابنه إيليّا بالسياسة، خاف عليه من السجن والاضطهاد، ورأى انه لو ترك ابنه مقيما في الاسكندرية فسيسبّب له الكثير من القلق ووجع الرأس. فأرسل من اجل ذلك الى ابنه مُراد الذي كان قد سافر الى الولايات المتحدة مباشرة بعد وصوله الى لبنان قادما من الاسكندرية رسالة قال له فيها: [٣] «يا ابني لا اريد مالا ولا مساعدة ولا هدية ولكن برضاي عنك ابعث الى اخيك ايليا ان يلحق بك وحبب اليه السفر لان مصيره هنا وخيم العواقب». وحينما علم اصدقاء ابي ماضي المصريون بنبأ سفره المفاجىء هذا ارادوا ان يثنوه عن عزمه حيث راحوا يقولون له: رايح اميركا يا ايليا تجيب فلوس ابق معنا فنحن نُؤدّيها لكَ... » فقرَّرَ ابو ماضي مغادرة الاسكندرية مغادرة نهائية نزولا عند رغبة والده ورغبة شقيقه مُراد. حيث وجد نفسه يغادرها في عام ١٩١٢م قاصدا لبنان. وذلك قبل ان يسافر الى الولايات المتحدة وقد تمكن ابو ماضي قبل مغادرته الاسكندرية من طبع اول ديوان له وهو ديوانه المُسمّى بـ «تذكار الماضي» وذلك على مطابع «المطبعة المِصْرية».

(١) كان يصدر في مصر مجلة «الزهور» مواطنان لبنانيان هما: انطون الجميّل، وامين تقي الدين.
(٢) جريدة «السّمير» ٨ كانون اول سنة ١٩٤٨.
(٣) انظر جريدة الف باء السورية ٢١ كانون الثاني ١٩٤٩م.

إقامة مؤقتة قصيرة في لبنان

غادر ابو ماضي الاسكندرية في اليوم الخامس عشر من شهر حزيران سنة ١٩١٢ [١] عائدا الى لبنان. وبعد وصوله اليه بأيام قليلة بدأ يتدخل في السياسة من جديد، حيث شرع يدل الناس على اخطائهم بصراحته المعهودة، ويحثهم على ترك وتجنب بعض التقاليد والعادات الموروثة عن الاباء والاجداد. فسببت له اراؤه الجريئة تلك كثيرا من العداوة والبغضاء، وخاصة مِنْ قِبَل المعارضين لافكاره السياسية والمناهضين لارائه التقدمية، فراح اقرباؤه ينصحونه، خوفا منهم عليه، بترك الناس وشأنهم، وبالبحث عن وظيفة تكفل له القوت او القيام بعمل ما يكون فيه بعض الصلاح او الجدوى له ولوالديه. فكان يضرب بنصائحهم تلك عرض الحائط. فراح ينظّم الحفلات ويدعو الناس الى حضورها، حيث كان يلقي في خلالها بعض قصائده النارية الحماسية. ولم يكن يتورع في قصائده تلك عن مهاجمة رجال السلطة الحاكمة آنذاك مهاجمة مباشرة: [٢].

« حاولنا مرة تمثيل رواية في المحيدثة (بِكَفَيَّا) (قال ابو ماضي) ولكن البعض ارادوا منعنا. وقد نظمت قصيدة لتلقي في هذه الحفلة. ولَمَّا قرأتها على الدكتور اسعد عفيش الشاعر طلب مني حذف الابيات التي فيها تعريض، غير ان الشيخ ابراهيم المنذر قال لي:

اقرأ القصيدة ثم شَمِّر واركض.. اقمنا المسرح على سطح فرن وامامه جلس المتفرجون ووقف حول المسرح والدي وبعض الاصدقاء كحراس لمنع المعارضين من احراق المسرح ولقد القيت القصيدة، فنالت الاستحسان. وكان جورج سكاف يطلق رصاصة لكل بيت منها، وجمعنا ثلاثين ليرة ذهبية ريع الحفلة لتنفق على الفقراء ».

وبعد اقامة له قصيرة في بلدته المحيدثة لم تتجاوز الثلاثة اشهر فقط ادرك ابو ماضي انه ليس باستطاعته ان يبقى مقيما في قريته تلك من غير ان يصادف فيها بعض المتاعب وذلك بسبب العصبية والحزازات الشخصية التي كانت تسيطر آنذاك على عقول بعض ابناء قريته تلك [٣] « فاذا حدث (قال ابو ماضي) ان فريقا فَتَح طريقا جاء الخُوري وسَدَّ الطريق. وهنا بدأت العرائض تتتالى، فريق يطالب بفتحها، وفريق يطالب بسَدّها.. ».

---

(١) « جريدة الهاتف » البغدادية ٢٤ كانون الاول سنة ١٩٤٨م.
(٢) انظر جريدة « السمير » تاريخ ٢٤ كانون أول سنة ١٩٤٨ م.
(٣) المرجع نفسه.

فَصَمَّمَ ابو ماضي من اجل هذه الامور السطحية التي تلعب السياسة فيها والمصالح الشخصية دورا فَعّالا على تقريب موعد سفره الى اميركا الشمالية التي كان شقيقه مراد قد سبقه اليها بسنوات قليلة.

وحينما وجد ابو ماضي ايام انتظاره لموعد سفره القريب المرتقب تمر رتيبة بطيئة متثاقلة، راح يسلّي نفسه خلالها بالتنزه في الغابة الجميلة المحيطة بقريته إحاطة السوار بالمعصم. إذ كان يذهب اليها كل صباح وعلى كتفه بندقية للصيد، وتحت ابطه زَوّادَتهُ المؤلفة من «الجبن والزيتون والتين المطبوخ». [1] ولم يكن يفارقها عائدا الى منزله الا بعد ان تكون الشمس قد اصبحت موشكة على الغروب. ولدى إشراقة شمس ذلك اليوم، يوم موعد سفره، ودّع ابو ماضي والديه واهله وداعا مُؤَثِّراً كوداعه لمراتع طفولته، ومسقط رأسه، ونزل الى بيروت واستقل منها الباخرة التي حملته الى نيويورك، وهو عازم في قرارة نفسه «على هجر الشعر وطلاقه» [2] طلاقا أبديّا وذلك بعدما حصل له ما حصل من متاعب ومضايقات بسببه في قريته المحيدثة التي لم تتعدَ اقامته فيها بعد وصوله اليها من الاسكندرية سوى ثلاثة اشهر فقط.

حياته في الولايات المتحدة (من سنة ١٩١٢م - لغاية سنة ١٩٥٧م)

وصل ابو ماضي برفقة شقيقه الاصغر متري الى نيويورك في عام ١٩١٢م. [3] ولقد صادف يوم وصوله اليها يوم عيد اكتشاف القارة الاميركية على يد كرستوف كولمبس. ولم يكد نظره يقع، وهو واقف على سطح السفينة التي كانت تقترب بركابها رويدا من رصيف الميناء، على تمثال الحرية المنتصب على مدخل ميناء نيويورك حتى وجد نفسه يهتف بهذين البيتين من الشعر اللذين نراه يقول فيهما: [4]

نفسي اخلدي ودعي الحنينَ فإنما — جَهْلٌ بُعَيْدَ اليومِ أن تَتَشَوّقَا

أصبحْتِ حيث النفسُ لا تخشى أذى — أبداً وحيثُ الفكرُ يَغدُو مُطلَقَا

(١) انظر جريدة السمير ٢٤ كانون اول ١٩٤٨م.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) انظر رسالة مراد شقيق أبي ماضي الى الاديب يعقوب عويدات. ص ٩.

(٤) انظر ديوان ابي ماضي «الجزء الثاني». وتوجد نسخة من هذا الديوان في مكتبة الظاهريه بدمشق. وهو لم يطبع إلاّ مَرّة واحدة فقط.

ولَمَّا ادرك ابو ماضي في قرارة نفسه بعد وصوله إلى نيويورك بأَيَّام قليلة ان ارض شوارعها لم تكن في الحقيقة مفروشة بالذهب منتظرةً - حسبما قيل له - كل عابر سبيل لكي يضع منه في جيبه ما يشاء بلا مقابل. انتقل منها قاصدا «سنسناتي اوهايو» التي كان شقيقه مراد يملك فيها متجرا صغيرا متواضعا، ولدى وصوله اليها التحق على الفور بمتجر شقيقه هذا، حيث ظل يعمل عنده مدة خمس سنوات متتالية [1] استطاع في خلالها التعرف على السيد نجيب دياب صاحب جريدة «مرآة الغرب» التي كانت تصدر في نيويورك آنذاك، اذ كان صاحبها السيد نَجِيبُ دياب ينشر لابي ماضي كل القصائد التي كان يبعث بها اليه. وكانت أوَّلُ قصيدة نشرها له هي قصيدته التي بعنوان «أُمَّةٌ تفنى وأنتم تلعبون» ولَمَّا وجد ابو ماضي قصيدته تلك تحتل الصفحة الاولى من صفحات تلك الجريدة السَيَّارة، ادرك في قرارة نفسه أنَّه لم يُخلق لمزاولة مهنة التجارة او الاستخدام في المتاجر، وإنَّما خُلِقَ لمزاولة مهنة الادب، ونظم الشعر الذي كان شيطانه يوحي اليه به بين الحين والحين. ولقَد كانت زيارات شيطان شعره له تنسيه في اكثر الاحيان واقعه الذي كان يعيش فيه، مثلما كانت ايضا تنسيه زبائن اخيه الذين كانوا يأتون الى متجره لشراء ما يلزمهم من سلع ضرورية، إذ كان ابو ماضي في كثير منَ الأحيان ينسى ان يسجل في دفتر الديونات السلع التي كان يبيعها لهم دينا، كما كان ايضا اذا ما باع احد الزبائن سلعة ما، كان يبيعه إياها في اغلب الاحيان بنصف ثمنها، وكل ذلك بسبب اصابته بمرض الذهولِ والنِّسيان اللذين كانا يعتريانه كلما وجد نفسه مستسلما لشيطانَ اشعاره. [2] وبعدما تبين لابي ماضي انه سيكون سببا مباشرا في افلاس متجر شقيقه؛ إنْ هو ظَلَّ فيه يعمل مستخدما، قرر مغادرته نهائيا والسفر الى مدينة نيويورك. حيث وصل إِلَيْها سنة ١٩١٦م. وما ان وطئت قدماه ارضها حتى بدأ يحرر في «المجلة العَرَبِيَّةِ» التي كان يشرف آنذاك على تحريرها بعض الشباب الفلسطيني المهاجر. وبعد مُدَّة قصيرة جدًا، ترك ابو ماضي عمله في تلك المجلة، وانتقل ليعمل محررا في جريدة «الفتاة» [3] لصاحبها السيد شكري بخاش. وبعد ان حرر في هذه الجريدة مدة شهرين ونصف الشهر تَقْرِيباً غادرها ثُمَّ

---

(١) انظر رسالة مراد شقيق أبي ماضي الى الاديب يعقوب عويدات. ص ٩.

(٢) جريدة «الف باء» السورية ٢١ كانون الثاني ١٩٤٩م.

(٣) انظر تاريخ الصحافة العربية للفيكونت فيليب دي طرازي ص ٤١٢ جزء ٤.

انتقل عام ١٩١٨م، الى جريدة مرآة الغرب [١]. وذلك بعد ان وعده صاحبها السيد نجيب دياب باطلاق يده في تحرير جريدته تلك كما لوكان صاحباً لها. وبعدما شرع ابو ماضي يعمل في جريدة مرآة الغرب، راح يجمع قصائده التي لم يجرؤ على نشرها في ديوانه الاول المُسمَّى «تذكار الماضي» الذي كان قد سبق له ونشره قبل مغادرته الاسكندرية عام ١٩١٢م. وكذلك اخذ يجمع القصائد التي نظمها اثناء اقامته في سنسناتي اوهايو، بالاضافة الى تلك التي نظمها ايضاً خلال اقامته في نيويورك حيث قام بطبعها جميعا عام ١٩١٩م. في ديوانه الذي اسماه «ديوان ايليا ابو ماضي الجزء الثاني». ولو لم تسخر الاقدار لابي ماضي مهاجراً مفضالاً، تبرع له بقسم كبير من نفقات طبع هذا الديوان لما تمكن من طبع ديوانه هذا على نفقته الخاصة، وذلك بسبب ضيق ذات يده في تلك المرحلة من حياته. وقد أتَمَّ طبعه على مطابع جريدة «مرآة الغرب» بعد ان كتب له المقدمة جبران خليل جبران. وقد زين اول صفحة من صفحاته بصورة ذلك المهاجر المحسن المفضال الذي تكرم عليه بنفقات طبع قسم من ديوانه هذا. وهو لم يكتف فقط بتلك الصورة التي نشرها له في مقدمة ديوانه حتى شفعها ايضاً بهذه الابيات الشعرية التقليدية التي كانت تعتبر افضل بضاعة شعرية عنده في ذلك الحين:[٢]

انت أمرؤٌ صاغ المُهَيْمنُ رُوحَهُ — منْ جَوْهَرَيْن: اللُّطْفِ والحُرِّيَّهْ

لَكَ هِمَّةٌ مِثْلُ الزَّمـانِ كبيرةٌ — ويـدٌ كمُنْسكب الغَمَامِ سَخيَّـهْ

وفي عام ١٩٢٠م. اصبح ابو ماضي عضواً في الرابطة القلمية التي كـان قد اسسها في مدينة نيويورك الاديبان الكبيران جبران خليل جبران ومخائيل نعيمه اللذان حرصا اشد الحرص ان يجعلا رابطتهما هذه رابطة لا: «ينطوي تحت لوائها الا رجال تقاربت اذواقهم وتآلفت ارواحهم وانتفى التحاسد من قلوبهم»[٢] وبما انهما لم يجدا سوى عشرة رجال من الادباء الذين كانوا يعيشون ويعملون في المهجر الشمالي متمتعين بهذه الصفات التي اشترطا توفرها في كل عضو اديب وشاعر يريد الانتساب إلى هذه الرابطة اكتفيا بهم وهؤلاء العشرة مرتبين حسب

---

(١) المرجع نفسه.
(٢) انظر كتاب «سبعون» - المرحلة الثانية - تأليف الاستاذ مخائيل نعيمة ص ١٧٠.

السن وهم: [١] رشيد ايوب، ندره حدّاد، جبران خليل جبران، وليم كاتسفليس. وديع باحوط، الياس عطاالله، نسيب عريضه، مخائيل نعميه، ايليًا ابو ماضي، عبد المسيح حدّاد».

فهذه الرابطة التي تأسست لاول مرة في اليوم العشرين من شهر نيسان سنة ١٩٢٠م. لم تتمكن إلاّ من عقد اجتماعين رسميين لها، فالاجتماع الاول عُقد في ادارة جريدة السّائح، وكان ابو ماضي غائباً عنه، والثاني عقد في مَنْزل جبران خليل جبران في مدينة نيويورك وقد حضره ابو ماضي شخصياً [٢]. وقد اختار اعضاء الرابطة جبران خليل جبران عميداً لها، والاستاذ ميخائيل نعيمه مستشاراً. حيث كلّفوه بكتابة دستورها واختاروا الاستاذ وليم كاتسفليس خازناً..

ولقد كان جميع اعضاء «الرابطة القلمية» منْ كتّاب وشعراء وعلى رأسهم الاستاذ نعيمه يعملون جاهدين على إخراج الادب العربي من دور الجمود والتقليد الى دور الابتكار في جميل الاساليب والمعاني [٣]. وكان الاستاذ مخائيل نعيمه الذي كان الشاعر نسيب عريضه يعتبر مكانته بين جميع اعضاء الرابطة مثلما كانت مكانة بيلنسكي» الناقد الروسي عند الروسيين لا يعتبر: «كل ما سطر بمداد على قرطاس ادباً، ولا كل من حرر مقالاً، او نظم قصيدة موزونة بالاديب وانما الادب الذي كان يعتبره ادباً هو ذلك الادب الذي: «يستمد غذاءه من تربة الحياة ونورها وهوائها» [٤]. والاديب الذي يعتبره أديباً، هو ذلك الاديب الذي: «خص برقة الحس ودقة الفكر وبُعْد النّظر في تموجات الحياة وتقلباتها، وبمقدرة البيان عمّا تحدثه الحياة في نفسه من التّأثير.. [٥] وذلك من غير ان يهتم لا: «بمَدْح أمير، او تهنئة موظف بمولود، او رثاء والد، او صديق. وإنما يجب ان يكون اهتمامه كله مُنْصبًا في ادبه على ذلك الحيوان المستحدث الذي اسمه الانسان، عله يتمكن من خلال اهتمامه به من ان يدله على الطرق المُثْلى التي يجدر به أنْ يسلكها، كي يصل الى السعادة والهناء في الحياة. ولقد كان لهذه التوجيهات والارشادات التي كان

---

(١) كتاب «سبعون» المرحلة الثانية ص ١٧٠.
(٢) ذكر لي هذه الحقيقة الاستاذ مخائيل نعمة لدى إلتقائي به في منزله وذلك في عام ١٩٦٣م.
(٣) انظر كتاب جبران خليل جبران لميخائيل نعيمه ص ١٦٠.
(٤) انظر كتاب سبعون. المرحلة الثانية. ص ١٧١.
(٥) المرجع نفسه.

الأسْتِاذ نعيمه لا يبخل بها على اعضاء الرابطة القلمية، اثرها الفعَّال المُجْدي في ادبهم واعمالهم الشعرية، اذ كان بعضهم يتوخى استشارته، وأخذ رأيه فيما يتعلق ببعض آثاره. وذلك قبل أن يُقْدِمَ على نشرها واذاعتها بين الناس.

فهذا جبران خليل جبران يبعث اليه في عام ١٩٢١م برسالة يقول له فيها: «بعثت الساعة الى عبد المسيح قطعة صغيرة للنشر انظر فيها يا اخي فإن وجدتها غير حَرِيَّه بالنشر قُلْ لعبد المسيح أن يحفظها في قرنة مظلمة حتى رجوعي [(١)] وها هو الاستاذ نسيب عريضه يقول لالاستاذ ميخائيل نُعَيْمَة في احدى رسائله اليه: «اقترح عليك ان تطالع كل كتاب من اليازجي الى الآن، وتكتب لنا فصلاً عن كل منهم، ليعلم القوم انهم لم يحصلوا الا على القشور في كل ما مَرُّوا عليه، في ادب المدح ،والهجو، وصف الكلام الفارغ الثقيل. وعسى أن تكون لنا مثل «بِيْلنسكي» عند الروسيين و «سانت بوف» عند الفرنسيين[(٢)]

لقد كان في نظرنا لِلأُستاذ نعيمه بعض التأثير لا كله على شعر ابي ماضي الذي كان يأبى كلما التقى به صدفة في احدى المناسبات او احدى محطات «الصبواى» في نيويورك الا ان يطلعه على بعض اشعاره المستحدثة، طالباً منه أن يدلي له برأيه الخاص فيها من حيث قيمتها الفنية. حيث نرى الاستاذ نُعَيْمَه يقول لابي ماضي بعدما وجده ينتهي من قراءة بعض قصائده على مسمعه، وذلك لدى اجتماعه به في احد الايام في غرفته المتواضعة التي كان يقيم فيها في حي بروكلن: «إنَّ شعرك هذا يا ايليا ليس بشعر أمَّا أنتَ فشاعر شاعر». [(٣)]

وهناك دليل آخر يثبت الى حد ما تأثير الاستاذ نعيمة في شعر ابي ماضي وهذا الدليل كامن في تلك القصيدة التي بعنوان «نحن الشعراء» والتي كان ابو ماضي قد ارسلها عام ١٩٢١م الى الاستاذ نعيمة كي ينشرها له في كتاب مجموعة «الرابطة القلمية» [(٤)]، الذي كانوا مزمعين اصداره في عام ١٩٢٠م وهو كتاب كان

---

(١) «جبران خليل جبران» تأليف ميخائيل نعيمة ص ٢٤٩م.
(٢) سبعون ـ المرحلة الثانية ـ ص ٣١.
(٣) المرجع نفسه ص ١٥٢م.
(٤) لم تستطع الرابطة القلمية بعد تأسيسها عام ١٩٢٠ م ان تنشر من هذه المجموعة التي كانت تزمع نشرها في كل عام سوى كتاب واحد اصدرته عام ١٩٢١م. وقد اضطرت لنشر مجموعتها الأولى والأخيرة« حسبما يقول الاستاذ نعيمه في كتابه سبعون المرحلة الثانية ص ١٧٢. الى إقامة حفلة في أكبر مسرح في بروكلن جنت منها أربعة آلاف دولار ذهب بعضها لطبع المجموعة وبعضها الأخر مساعدة لجريدة السائح.

اعضاء الرابطة ينشرونه في كل عام متعمدين ألاً ينشروا فيه لاعضاء الرابطة إلاَّ احدث القصائد والمقالات والقصص التي لم يسبق لها ان نشرت منْ قَبْلُ في كتاب او جريدة.

وقد نشر الاستاذ نعيمه هذه القصيدة لابي ماضي في تلك المجموعة ولكن بعد ان حذف منها المقطع الاخير، لانه قد كان في نظره مقطعاً متسماً بالضعف والركاكة معنًى واسلوباً.. فسكت ابو ماضي عن هذا العمل على مضض وذلك لان الشاعر اي شاعر يعتبر كل بيت من ابيات قصيدته بمثابة ولد من اولاده لا يستطيع اهماله او التخلي عنه حتى ولو كان ولداً عاقاً او مشوه الخَلْق..

وقد اخذ اثر هذا العمل يتفاعل، يوماً بعد يوم، في نفس ابي ماضي. وذلك بالاضافة الى حوادث اخرى سياسية وشخصية كانت تقع بينه وبين بعض اعضاء الرابطة.. وهي حوادث جعلته يقاطع متعمداً اجتماعات الرابطة التي كانت تعقد في كل يوم اربعاء من كل اسبوع، حيث كان بعض اعضائها الحاضرين في تلك الاجتماعات الاسبوعية يتناقشون ببعض المسائل الادبية والشعرية. كما كان كل واحد ايضاً من بينهم يحرص في تلك الاجتماعات ان يقرأ على مسامع زملائه في الرابطة آخر ما جادَتْ عليه به قريحته الفياضة، طالباً منهم أن يُدْلُوا برأيهم الصريح بهذا الانتاج الاخير له، وذلك قبل أن يُقْدم على نشره. وحينما كانت آراؤهم تختلف كانوا يجعلون من الاستاذ نعيمه حكماً عادلاً فيما بينهم.

وعلاقة الاستاذ نعيمه بجبران ونسيب عريضة وعبد المسيح حدّاد وشقيقه ندره كانت من افضل العلاقات واصفاها على الاطلاق اما علاقته بايليا ابي ماضي فلم تكن علاقة متينة خالية من الشوائب والادران. ودليلنا على ما نَقُول تلك الصورة الكاريكاتورية التي رسمها الاستاذ نعيمه لابي ماضي في كتابه «سبعون» - المرحلة الثانية ص ١٧٩. وهي صورة ليست خالية تماماً من التجني والافتراء، وقد جاء فيها قوله عنه: «في قيافته (اي ابي ماضي) بساطة قروية تفتقر الى الذوق، فياض القريحة، طموح، لجوج، في بلوغ مطامعه، سريع الاقتباس، واسع الحيلة في كسب رزقه وفي الوصول الى اهدافه، متقلب في صداقاته وعداواته حَسْبما تمليه مصلحته، فيه شيء من طبيعة الحمامة وشيء من طبيعة العَقْرب».

فهذه الصورة التي شاء الاستاذ نعيمه ان يرسمها بواسطة الكلمات لابي

ماضي هي صورة مبالغ فيها كل المبالغة في نظرنا. إذ إنَّ أبا ماضي لم يكن يتحوَّل في بعض الاحيان من حمامة وديعة الى عقرب سام الا حينما كان يجد بعض اعدائه يحاولون النيل من شهرته الادبية او سمعته الشخصية. أمَّا فيما يتعلق باتهامه من قبَل الاستاذ نعيمه بالسرقة والاقتباس، سرقة بعض اشعاره الجيدة الصوغ، لفظاً، ومعنى، عن بعض الشعراء الغربيين الكبار، فهي تهمة قد تولى ابو ماضي دفعها عنه وذلك من خلال بعض مقالاته التي كان ينشرها في مجلته ثم جريدته «السمير» التي كانت السهام القاتلة لا تفتأ توجه الى صدره بسببها وهي سهام كان ينجو منها في كل مرة بأعجوبة.

ومهما يكن من امر تلك العلاقات الباردة التي كانت قائمة بين ابي ماضي وبين بعض رفقائه في الرابطة القلمية وخاصة من بينهم الاستاذ نُعَيْمَه، فإننا لا يسعنا الا أنْ نعترف بأثر الرابطة على شعر أبي ماضي وكذلك بأثر الاستاذ نعيمه عليه الذي زعم أنه لولا ارشاداته العلمية، وتوجيهاته، ونصائحه التي كان يسديها لابي ماضي من وقت لآخر لظل هذا الاخير كياناً مشوشاً، لا هم له طوال حياته سوى ان يهجو ويرثي ويمدح متكسباً بشعره مقتفياً آثار الشعراء القدماء اسلوباً ومعنًى.

فالنصائح والارشادات التي كان الاستاذ نعيمة يسديها لابي ماضي قد اثرت في نظرنا في شعره الى حد ما تأثيراً جزئياً لا كلياً وذلك لان هناك اثراً آخرَ فَعَّالاً أثَّر في شعر ابي ماضي كل التأثير، دافعاً إياه دفعاً نحو طريق التجديد، ألا وهو أثر الاغتراب الذي اعترف به ابو ماضي نفسه وذلك حيث قال:(١)

أنَا كالكَرْمَةِ لو لم تَغْتَرِبْ ما حواها النَّاسُ خمراً في الخَوَابي

فاغتراب ابي ماضي اتاح له فرصة الاطلاع على بعض الآداب الغربية اطلاعاً مفيداً واسعاً، بالرغم من المامه الماماً ضعيفاً باللغة الانكليزية التي تمكن بفضل مطالعاته الكثيرة فيها، من أن يلم بها بعد وصوله الى اميركا بعدة سنوات الماماً حسناً مَكَّنَه من تعريب بعض الروايات الاجنبية، ونشرها تباعاً في مجلته ثم جريدته «السَّمير» كما مكنه ايضاً هذا الالمام الحسن باللغة الانكليزية من قراءة

---

(١) انظر ديوان ابي ماضي المسمَّى «تبر وتراب». ص ٧٦.

دواوين مشاهير الشعراء الغَرْبِيِّين. حيث انتجت مطالعاته تلك لها، إضافة إلى مطالعاته لدواوين كبار شعراء العربية وعلى رأسهم المتنبي الذي كان ابو ماضي يحفظ كل شعره تقريباً عن ظهر قلب، عجيناً مختمراً صنع ابو ماضي منه اكثر قصائده المشهورة كقصيدة، الطلاسم، والعنقاء، والاشباح الثلاثة، وغيرها كثير من القصائد الجَيِّدَة الصَّوْغ، لفظاً، ومَعْنًى.

وفي عام ١٩٢١م. عقد ابو ماضي قرانه على الآنسة دورا، الابنة الكبرى لصاحب جريدة مرآة الغرب السيد نجيب دياب الذي كان أباً لخمسة إناث، فراح ابو ماضي بعد أن صاهر السيد نجيب دياب يعمل محرراً في جريدة مرآة الغرب وهو يحلم بأن تؤول ملكية قسم منها إليه فيما بعد ولكن حلمه الذهبي هذا لم يلبث طويلاً في مخيلته حتى تحوَّل الى مجرد اضعاث احلام فقط، وذلك بعدما توفيت «حماته» حيث تزوج «حَمُوُهُ» بعد وفاتها باشهر قليلة من السيدة «انجيلينا دياب» التي احتلت في قلبه بعد زواجه منها المحل الارفع، والاسمى، فانساه وجوده بقربها وجود بناته جميعهن وخاصة من بينهن زوجة أبي ماضي نفسه السيدة دورا. فأخذ أبو ماضي بعد هذا الانقلاب المفاجيء في حياة «حَمْيِهِ» يفكر تفكيراً جدياً وذلك منذ بداية عام ١٩٢٥م. بترك عمله بجريدة «مرآة الغرب» وانشاء مجلة، ادبية، سياسية، خاصة به تحمل اسمه وتذيع اخباره، شرط ان يسمح له بانشائها ابناء الطائفة الارثوذكسية في المهجر الشمالي الذين كانوا يحرصون اشد الحرص على ان تظل جريدة «مرآة الغرب» الجريدة الوحيدة الناطقة باسمهم المدافعة عنهم والمذيعة لاخبارهم في المهجر الشمالي.

وحينما ايقن ابو ماضي في عام ١٩٢٦م. ان الكرسي الذي كان يجلس عليه في جريدة «مرآة الغرب» قد بدأ يتزحزح، رويداً، رويداً، من تحته، راح يجمع قصائده التي كان قد نظمها بعد صدور ديوانه الثاني في عام ١٩١٩م. متوخياً بذلك ان يتمكن من أن يصدرها في ديوان مستقل بها. ولقد حققت الاقدار مشيئته تلك وذلك حينما مَكَّنَتْهُ من طبع ديوانه الجديد هذا في عام ١٩٢٧م. على مطابع جريدة «مرآة الغرب» نفسها. وهو الديوان الذي اسماه «الجداول» وقد بلغ بواسطته قمة شهرته الشعرية في العالم العربي كله.

ولقد كان ابو ماضي يمضي الليل بطوله ساهراً في مطبعة جريدة «مرآة الغرب» منتظراً بفارغ الصبر انتهاءه من طبعها واعدادها، للتوزيع على القراء في

صبيحة اليوم التالي، بمساعدة القيّمين عليها، والعاملين فيها، لينصرف بعد ذلك، والفجر قد اوشك على البزوغ الى طبع بعض الصفحات من ديوانه الجديد هذا، إذ كثيراً ما كان يضطر في بعض تلك الليالي إلى النَّوم حتى الصباح على احد المقاعد الخشبية، داخل تلك المطبعة، وذلك بسبب عدم تمكنه نظراً لضيق الوقت لديه من الذهاب الي منزله الكائن في حي بروكلن - نيويورك - والعودة منه الى مدينة نيويورك نفسها ليستأنف من جديد في ساعة مبكرة عمله فيها وذلك في مكتبه في جريدة مرآة الغرب. (١)

بعدما تمكن ابو ماضي في عام ١٩٢٧م. من اصدار ديوانه «الجداول» قرر في عام ١٩٢٨م. ان يترك تركاً نهائياً عمله في جريدة «مرآة الغرب» التي ظل يعمل على تحريرها مدة عشر سنوات تقريباً، وهو لم يكن لديه من سلاح خلال تلك السنوات العشر العجاف من حياته سوى سلاح الارادة القوية الفولاذية التي لا تلين ولا تكسر الا بصعوبة. تَرَك ابو ماضي عمله في تلك الجريدة وهو آسف على وقته الذي اضاعه فيها سُدى. وقد كان مدى اسفه على تركها لا يقل عن مدى اسفه على مفارقته لمنشئها، وخاصة بعدما وجده قد اضحى «مغلوباً على امره». (٢)

وقد ظل ابو ماضي بعد أن ترك عمله في جريدة «مرآة الغرب» مدة ثمانية اشهر يعمل جاهداً على اصدار مجلة او جريدة تحمل اسمه، ويستطيع الاعتماد عليها، اعتماداً كلّياً، في مجابهة نوازل الدهر وطوارق الحدثان. فراح يطوف من اجل ذلك على ابناء الجالية العربية المنتشرين في شتى الولايات القريبة من نيويورك، والبعيدة عنها، وقد وجد نفسه ذات يوم يرهن صك التأمين (٣) على حياته ليوفر نفقات اصدار اول عدد من مجلته التي سماها «السَّمير» حيث ابصر العدد الاول منها النور بتاريخ ١٥ نيسان سنة ١٩٢٩م.

وقد وصف ابو ماضي للقراء في مقدمة ذلك العدد الاول مدى العناء الروحي والجسدي اللذين عانى منهما كل المعاناة خلال تلك الاشهر الثمانية التي سبقت ظهور «السَّمير» فقال: (٤)

---

(١) ذكر لي هذه الحقائق الاستاذ فؤاد الخوري الذي ظل يعمل محررا في جريدة «السَّمير» مدّة خمسة عشر سنة وذلك لدى التقائي به في نيويورك عام ١٩٦٣م.

(٢) جريدة «السَّمير» ٩ ايلول ١٩٢٩.

(٣) انظر عدد السَّمير الممتاز الذي اصدره ابو ماضي اثناء وجوده في لبنان وذلك في الثاني من شهر حزيران ١٩٤٨م.

(٤) «السَّمير» ١٠ نيسان ١٩٢٩م.

«ثمانية شهور لم يتحرك فيها هذا القلم بنثر، ولا بنظم. ثمانية شهور كانت كل لحظة فيها كأنها ثمانية شهور، حتى خلتُ أنّ الزمن يخشى رزيئة او مصيبة او نكبة اذا هو اسرع في المسير. وما كانت الشهور بالمدة الطويلة لولا ما في النفس من اشواق، ولولا ما للاديب من رغائب في الحياة، لا يجدها بين أكوام الذهب ولا في كنوز الحجارة الثمينة، وإنما يجدها في عَبْرة يسكبها من عينيه، أو دمعة يكفكفها من عين باكية، او ابتسامة يردها الى ثغر كئيب. تلك هجْعَة لم تكن باختياري ولكنها جاءت في وقتها وكانت نافعة، فلولاها لم يتسع امامي المجال للتفكير في اصدار هذه المجلة، واعداد الوسائل اللازمة لاخراجها الى حيّز الوجود..».

فأبو ماضي إذاً لم يكن يحلم بأن يصبح صاحب ثروة من شق «القصبة» حينما اصدر مجلته الادبية النصف شهرية تلك، بل كان يهدف هدفاً وطنياً انسانياً ألا وهو ابقاء ابناء الجالية العربية في المهجر الشمالي على صلة وثيقة بوطنهم، وبلغتهم، وبأدبائهم وشعرائهم القدماء والمحدثين.

ليس باستطاعتنا أن نحلل شخصية ابي ماضي تحليلاً دقيقاً وافياً اذا ما حاولنا في دراستنا لسيرة حياته ان نفصل بينه وبين رفيقة دربه ومنارة مستقبله «السَّمير». فكأننا، ونحن نحاول ذلك، نتوخى أنْ نفصل ما بين الماء وبين الخمرة الممزوجة به في قدح او زجاجة. وذلك لان تلك «المَجَلّة» قد اصبحت بعد اصداره لها شغله الشاغل، وهَمّه الوحيد في الحياة. بحيث كانت تراوده في اكثر الاحيان حتى عن نفسه إذ إنّه لم يعد يشغله طَرف »اكحل»، او تحمله كأس مشعشعة على أجنحة من الخيال أو اللذة الوهمية. فهو لم يكن بعد مدة قليلة من اصداره لها يخرج منتصراً من احدى المعارك الكلامية حتى يجد نفسه يخوض بسببها معارك اخرى أقسى وأشَد. إذ إنّ العقبات كانت تنتصب أمام عينيه بعد اشتغاله بالصحافة الواحدة تلو الاخرى وكأنها عامود من نار. فكان يذلل بعضها بقوة إرادته، اما البعض الآخر فقد كان يوشك لولا قوة ارادته ان ينتصر عليه كل الانتصار. فكان ابو ماضي في ساعات الضيق لا يجد امامه سوى ذلك «المشترك» الغيور عليه وعلى مجلته. فكان يلجأ إليه طالباً منه العون والنجدة، محاولاً استرضاءه بشتى الوسائل والسبل، وهو عالم في قرارة نفسه أنّ الطريق الذي يسير عليه طريق شاق وطويل

ومملوء بالاشواك والمصاعب والعراقيل ولكنه كان قد هَيَّأ نفسه سَلفاً لتحمل اية مشقة او عذاب، دون ضجر او تأفف. وذلك بسبب شعوره العميق في قرارة نفسه، بعجزه التام عن مفارقة القلم والمحبرة والقرطاس: (١)

«اجل قد رَجعت الى حومة الصحافة (قال ابو ماضي) لانني احسب كل يوم انفقه في غير خدمة قومي وبلادي ولغتي ليس مِنْ عُمْري؛ بل أنا اعتبر الفناء في امتي وجوداً والوجود في غير امتي فناء.. ولئن تدمِني اشواكها احب الى نفسي من ان ينثر عَلَيَّ سواها الورود والرياحين. أنا لامتي ضاحكاً وباكياً.. وانا لها ضاحكة وباكية».

وقبل ان يصدر ابو ماضي اول عدد من اعداد مجلته الادبية المتواضعة استشار عدداً من اصحابه. فمنهم مَن نصحه باصدار جريدة بدلاً من مجلة. ومنهم مَنْ اشار عليه باصدار «مجلة» بشرط ان تكون في البداية شهرية تصدر مرة واحدة في الشهر كما كانت الاصوات المُثَبِّطَة للعزائم تترامى إلى مسمعه، قائلة له: (٢)

تَبّـاً لِعَـيْش الكَـتَـبَـةْ تَبّـاً لَهُ مـا أصْـعَـبَـهْ

تَبّـاً لِعَـيْشٍ يُرْتَجَىٰ مِنْ شَقِّ تِلْك القَـصَـبَـةْ

وبعد ان وازن أبو ماضي بين جميع هذه الآراء المختلفة المتضاربة وجد نفسه يقول مع «جُحَا» (٣): ان المرء لا يستطيع ان يرضي كل الناس وحينما سألته نفسه عن مغزى قوله هذا اجابها ساخراً مبتسماً: «لانه انسان». ولكنه كان قد قرر بعد تفكير طويل تخلله اقدام تارة واحجام طوراً ان يصدر مجلة نصف شهرية ولم يكد يمضي على صدورها اشهر قليلة حتى وجد بعض الناس يحسدونه عليها كما وجدهم يحسدونه على شهرته الادبية ومهنته الصحفية الجديدة ورأهم يتمنون أَن يصلوا الى ما وصل اليه وكل ذلك من غير ان يدركوا مبلغ العناء الروحي والجسدي اللذين كان يعاني منهما بسبب مجلته تلك. وقد شاء ان يطمئن حساده لعلهم يقلعون عن

---

(١) السَّمير ١٥ نيسان ١٩٢٩م.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) المرجع نفسه.

حسدهم الدائم له فاخبرهم في مقاله الذي جعله بعنوان «محسود» عن الامراض التي يعاني منها وتسبب له آلاماً مبرحة بين الحين والآخر، وعن المتاعب الكثيرة التي عرفها بسبب مهنته الجديدة وقد استهل مقاله هذا بقوله: (١)

«قال لي احدهم بالامس انني احسدك. فوقعت عبارته من نفسي موقع الدهشة والاستغراب؛ لانه قال شيئاً كان يجول في نفسي ان اقوله له.. لأنَّني احسده. أمَّا انا فلا اعرف فيَّ ما يستوجب أن يحسدني عليه احد. بل اعرف فيَّ اشياء يلذ للمرء ان يحمد الله؛ لانها ليست فيه. مثال ذلك: إنَّ الذي يحسدني لا يعلم أنَّني مصاب بداء في معدتي، يمنعني من تناول بعض المآكل التي اجد فيها لذة كبرى، وهو لا يعلم أنَّني ألاقي مشقَّة كبرى في كتابة الفصول التي يقرأها، كهذا المقال فإنَّني أكتبه بالألم، والعذاب. ثم هو لا يعرف أنني اعتبر اكثر ما اكتبه من المقالات على غير شيء منَ الجمال، واتمنى لو لم اكتبها.. وأنني في عذاب روحي عظيم من جرَّاء رغبتي في الكتابة، وبمعرفتي بمواقع العجز في نفسي.. والذي يحسدني لانني غير مصاب بالروماتيزم لا يدري ان اسناني اصطناعية! والذي يحسدني لانني ادخن كثيراً ولا يُؤذيني التدخين لا يعلم أنني اذا جرعت نصف كأس من الخمر امرض ثلاثة ايام.. والذي يحسدني على منصب اشغله، لا يعلم كم في هذا المنصب من التعب والجهد، وما فيه من وجع الرأس، وعذاب الروح، وإنّي على يقين ان الذين احسدهم انا ليسوا في الحقيقة كما اتصور او كما يتراءَون لي.. فقد يكون الرجل الذي احسده، مصاباً بمرض في قلبه، أو غارقاً في الدين إلى الخنَاق، او في قلبه جُرحٌ ثَخِيْنٌ من الحزن، لا يندمل مهما تقادم الزمن عليه..».

لقد كان ذلك المقال اشبه بمرآة صافية انعكست عليها نفسية ابي ماضي بأجلى معانيها، وأتَم صورها، حيث اطلعنا من خلال مقاله هذا، على بعض الجوانب الخَفيّة في حياته الخاصة والعامة. وهي جوانب لولم يطلعنا عليها بنفسه لما استطعنا اكتشافها عنده بأنفسنا. وهذه الجوانب الخفية قد عَبّدت امامنا الطريق الذي سنسير عليها، ونحن نتناول بالدراسة والتحليل اكثر أشعاره.

وإننا نستطيع أن نستنتجَ استناداً الى هذا المقال ثلاث حقائق رئيسة ألا وهي:

---

(١) السمير ١ تموز سنة ١٩٢٩م.

١ ـ إنَّ أبا ماضي قد كان مصاباً بعد تجاوزه لعتبة شبابه بسنوات قليلة بمرض في قلبه. وقد ظل ذلك المرض نفسه ملازماً له طوال حياته، ولم يشأ ان يفارقه إلاَّ بعد ان حمله على أجنحته السوداء الى عالم الأبدية.

٢ ـ وبأنَّه قد كان مديوناً بمبالغ من المال، بسبب مجلته تلك وقد كان دينه هذا سبباً مباشراً في جعله في اكثر الاحيان يريق ماء وجهه على اعتاب التُّجار «والمشتركين» الاغنياء، طالباً منهم العَوْن، والمَدَد، ليتمكن من ابقاء مجلته على قيد الحياة.

٣ ـ وبأنه قد كان شَقيّاً تعيساً في حياته، إن في عمله او في منزله وهو حينما كان يدعو القراء في بعض أشعاره إلى الابتسام الدائم في وجه المصائب لم يكن كلامه موجهاً اليهم بقَدْر ما كان موجَّهاً إلى نفسه الحزينة، الثائرة عليه وهي نفس لم تكن لتقنع الا بِكُلِّ ما هو افضل واسمى في الحياة.

ولقد كانت «نَفْسه» تلك تزداد حدّة عليه، وتعاتبه اشدّ العتاب واقساه، كلما وجدته يسير وهو حافي القدمين على احدى الطرق الطويلة الشائكة. ولكنَّه لم يكن يأبَه بما كانت تقوله له، أو يستجيبُ لتوسلاتها، كاستجابته لنداء «مَجَلَّته» التي اصبح بسببها جَوَّاب آفاق. فما ان كان يستقر به المُقَام في نيويورك، حتى يجد نفسه مدعّواً إمَّا الى القاء كلمة في حفلة «تنصير مولود جديد» [(١)] او بمناسبة تدشين كنيسة، او ناد، او لزيارة مشترك غيور على «السمير» وصاحبها [(٢)]. وهو في بعض الاحيان كان يضطر الى قطع آلاف الاميال إمَّا في القطار، أو في السيَّارة ليتمكن من الوصول في الموعد المناسب الى الحفلة التي دعي لإلقِاء كلمة او قصيدة فيها. وكان همه الاوحد منْ وراء رحلاته تلك الكثيرة المتعددة ايجادَ اكبر عدد منَ المشتركين لمجلته تلك التي كانت بأمَسِّ الحاجة الى مساعدة ابناء الجالية اللبنانية، والعربية لها، مساعدة فعَّالة، لتتمكن من اكمال رسالتها على اكمل وجه، وذلك بواسطة مساعدتهم، وتأييدهم لها ولا شيء كان يخفف عنه عناء السفر، ويطردُ عن جسده المتعب شبح الجهد، والعناء الا رؤيته لأَحد مواطنيه صدفةً في

---

(١) السّمير ١ آذار ١٩٣٠م.
(٢) السّمير ١٦ كانون الثاني ١٩٤٦م.

القطار الذي كان مسافراً فيه. فكان يتجاذب، وذلك المواطن له، اطراف الحديث إذ كان يشعر وهو يستمع اليه بأنه لم يغترب في ذلك القطار عن اللغة التي يلذ بها سمعه، وتتراءى لروحه في تضاعيفها خيال أُمَّتِهِ ووطنه » [١]

وقد اثمرت تلك الرحلات ثماراً يانعةً، فاستطاع ابو ماضي، بفضل سهره المتواصل، وعمله الدائب، أن يبقي « غرسته » السمير على قيد الحياة. وخاصَّة في عامها الاول فكانت الساعات تمرّ به، وهو مستغرق في عمله، كَأَنَّهَا دقائق. ولم تكن الابتسامة تفارق شفتيه، ولَكنَّ قلبه قد كان، في خلال ذلك، قلباً يكاد ان يقطر دماً: [٢]

« انقضت على نَشْأَة « السَّمير » (قال ابو ماضي) سنة كاملة كانت أيَّامُها لاستغراقنا في العمل تتسرب كما تتسرب دقائق الماء من فروج الأصابع. فلم نشعر بمُرُورها حتى كأنما جنَّح الدهر أيامها ،ولياليها. وما كُنّا لنستغرق في العمل لولا ما نجده من اللّذة وقد يكون الالم أحياناً من لذاذات النُّفوس ».

وقد كان يجد من بعض المهاجرين تشجيعاً ومساعدة، أمَّا بعضهم الآخر فقد كان يفرش في طريقه الاشواك بدلاً من الورود. ولولا تشجيع المشجعين، ومناصرة المناصرين له لكان « الى جنة القنوط اقرب » [٣] فكان يزداد، يوماً بعد يوم بالرغم من كل ذلك ثقة بنفسه، وحُبّاً للحياة، وتصميماً اكيداً على مواصلة الجهاد، مهما كلفه ذلك من تضحيات وصادف من عقبات.

أما قَلَمُه فقد كان قلماً سيَّالاً، يقطر في بعض الاحيان عسلاً، وشهداً وفي احيان كثيرة كان لا يقطر إلاّ عَلْقماً. وهو قلم، كثيراً ما نرى ابا ماضي يستخدمه في بعض الاحيان لكي يُعَبِّرَ بواسطته عن مدى احساسه بالالم العميق تجاه بعض المتقاعسين الذين رأهم لا يهتمون بالادب، ولا يقيمون وزناً للأدباء. فكان يسلِّط الاضواء عليهم، نازعا برقع الرياء عن وجوهم، وان هو لم يذكر صراحة اسمائهم، فقد كانوا في قرارة انفسهم يعلمون بدورهم بأَنَّهم المعنيون بتلك القِصَّة او بذلك

---

(١) السَّمير ١ آذار ١٩٣٠م.
(٢) السَّمير ١ نيسان ١٩٣٠م.
(٣) المرجع نفسه

المقال. وكان قد سمع ذات يوم، بأنباء تاجر يحتقر الادباء، فذهب لزيارته بنفسه،علّه يستطيع خلال زيارته له اقناعه بالعطف على كل حامل قلم، وحينما وجد بأنه، بعد ان قام بزيارته، لم يزل عند رأيه الذي ارتآه في الشعر خاصة، وفي الادباء عامّةً، عاد ليخبر القراء بأسلوبه الساخر اللاذع بما جرى بينه وبين ذلك الاريحيّ المفضال من مناقشات ومحاورات، فقال: (١)

سَمِعْتهُ مَرَّة (أيْ ذلك التاجر) ينتقص اقدارهم (أي الادباء) فحزنت اشد الحزن؛ لأنَّني مِمَّن بلاهم الله بحب الادب، وكدت انقم على الحياة، لأنها لم تحبب اليَّ الغنى، فأسعى في طلابه وأحوزه.. وبلغ منْ حزني أني كدت احسب كلّ مَنْ رزقه الله ثروة مثل هذا الرجل في رأيه، فصرت اخشى الدنو منهم؛ ولي فيهم عدد من الاصدقاء لِئَلا اسمع منهم ما سمعته منه. بل صرتُ اخشى أن اصير أنا نفسي غنياً لئلا تتبدل عقليتي، ونفسيتي. أجل حزنت كثيراً، ولكنّني لم انقم على هذا الرجل، بل كنتُ أحمد الله في سِرِّي انه يملك ثروة وانه سعيد؛ لأنه قَدرَ ان يكون صاحب ثروة. ولكنني طالما رَجَعت الى نفسي الثائرة فقلت لها: يا هذه - ان غاية الأدب والفن والفلسفة هي جعل الحياة جميلة، محبوبة، وجعل الناس سعداء فإذا كان المال وحده يؤدي هذه الوظيفة فلتكن له السيادة في الارض وليكن الكل مِنْ جنوده بل من عبيده!».

فلم يكن ابو ماضي - في نظرنا - شديد الالحاف في طلب المال من ذلك الغني المفضال وكذلك من سواه من المشتركين منْ ابناء الجالية في المهجر الشمالي لكي يصبح صاحب ثروة طائلة، يتمكن بواسطتها منْ أن يرتفع الى مستوى اصحاب الثروات والعقارات فيجالسهم ويجالسونه، ويحدثهم، ويحدثونه. ولكن السبب الرئيسَ في ذلك الالحاف من جانبه يعود في نظرنا، وقبل كل شيء، الى مجلته «السَّمير» نفسها التي لم يكن لها من مورد تعتمد عليه خلال مرحلة نموِّها إلا بَدَل الاشتراك الذي كان بدلاً زهيداً جِداً (٢).

فلذلك لم يكن ابو ماضي يرفض بعض الهدايا التي كانت تقدم اليه من قبل

---

(١) السَّمير ١ تموز ١٩٣٠م.
(٢) السَّمير ١٥ شباط ١٩٣٢م.

اصدقائه وانصار مجلته وحينما كان يهديه مشترك ما هدية جميلة، كان يبادر الى شكره على صفحات مجلته تلك حتى ولو كانت الهدية عبارة عن قلمين بسيطين إذ كان سروره بهما يبلغ مداه لاعجابه الشديد «بسلامة ذوق مهديهما» [١] وكثيراً ما كانت الهدايا تتوالى عليه المرة تلو الاخرى فتارةً كان يُهْدَى إليه ديك فيسيل لعابه «على لحمه، الناعم، الطري. ثم تمشي في رقبته السكين، فيتحول الى مرق في الصحون» [٢]. وطوراً كانت تصل الاريحية ببعض المشتركين النصراء الى حَدِّ إرسال مكتب ثمين، ومعه عدد من الكراسي الفاخرة مشاركة منه في تأثيث مكتب «للسمير» لكي يصبح افضل من جميع مكاتب الجرائد العربية في المهجر» [٣].

اما اثمن تلك الهدايا واشدها وقعاً على نفسه فقد كانت هدية الشيخ ابراهيم المنذر وهي عبارة عن برقية [٤] صفراء كان قد ارسلها إليه في الثامن من شهر كانون الاول سنة ١٩٣١م.

وقد حملت اليه نبأ وفاة والده في المحَيْدثه، فشعر بالالم والمرارة ولكنه طوى الضلوع على السهم. حيث فزع بعد ذلك الى قلمه فاعانه على نظم قصيدته التي بعنوان «أبي» وقد عَبَّرَ فيها عن مدى شعوره باللوعة والاسى بسبب عدم تمكنه من القاء النظرة الاخيرة على جسد والده الطَّيِّب الحبيب. وذلك قبل ان يُوْضع في مثواه الاخير. وقد اخترنا من قصيدته تلك قوله فيها: [٥]:

طَوَى بَعْضَ نَفْسيْ إذ طواك الثَّرى عَنِّي ... وذا بعضُها الثَّاني يَفيضُ به جَفْني

فليسَ سوَى طَعْم المَنِيَّة في فَميْ ... وليس سوى صوت النَّوادب في أذْني

فواه لو أَنِّي كنتُ في القَوم عِندما ... نظرتَ الى العُوَّادِ تسألُهُمْ عَنِّي

ويا ليتما الارضُ انطوى لي بساطُها ... فكنتُ مَعَ الباكينَ في ساعة الدَّفنِ

فاعظمُ مَجْدِيْ كان أنَّك لي أبٌ ... واكبرُ فخرى، كان قولُك: ذا إبني

---

(١) السّمير ١ شباط ١٩٣٣م.
(٢) السّمير ١٥ شباط ١٩٣٧م.
(٣) المرجع نفسه
(٤) السّمير ١٥ كانون الثاني ١٩٣١م.
(٥) المرجع نفسه.

أحتى وداعُ الأهلِ يَحْرِمُهُ الفتى أيا دهرُ هذا مُنْتهى الحيفِ والغَبْنِ

وحينما ادرك بفطنته أن هذه القصيدة ليست كافية ومعبرة اصدق تعبير عما كان يجيش في صدره من معاني الحب والوفاء لوالده الذي لم يكن جانياً عليه كل الجناية حينما جاء به من عالم الغيب الامين الذي كان موجوداً فيه قبل مجيئه الى هذا العالم، عالم الشك والغواية والقلق والاسى والضلال، فكساه في احدى مقالاته عنه اثواب التُجّار، وجعله يتنقَّل خلال شبابه وشيخوخته بين شواطىء الاسكندرية وبَرّ الاناضول ليبيع الحرير، ويستنبط انوال الحياكة. وكل ذلك من غير ان يدرس عِلم الهندسة في احدى الكليات او الجامعات. وهو لم يشأ في نظرنا ان يضفي على والده كل هذه الصفات الا بسبب خشيته مِنْ أنْ يعيِّره المعيرون بالمهن «المتواضعة» التي كان والده يتعاطاها في قريته المحيدثة: [1]

«كان والدي رحمه الله (قال ابو ماضي) شديد الثقة بنفسه. هاجَرَ مراراً الى القطر المصري وكان كلما احس بالتجارة تشد خيوطها حَول روحه الوثّابة، انفلت منها وعاد الى لبنان عودة الصقر الى الفضاء الرَّحب.. وقد كان رحمه الله من ذوى الاجسام السليمة من العلل لا يتعاطى شيئاً من المشروبات الروحية ولا المنبهات سوى العطوس وان هو لم يدرس المكانيكيات كان ذا ولع شديد بها، وقد حمله هذا الولع ايام كانت صناعة «الدّيما» [2] في مجدها على استنباط نَوْل [3] عرضه ثلاثة اذرع ولطالما كُنَّا، ونحن اطفال، نشاهد الناس يأتون من اماكن بعيدة للتفرُّج على ذلك النَّوْل..».

وقد اصيب ابو ماضي في شهر ايار من نفس العام الذي فجع فيه بموت والده بصدمة اخرى قوية لا تقل عن صدمته بموت والده وذلك لدى سَماعه بنبأ وفاة صديقه الصدوق جبران خليل جبران الذي كان له افضل صديق في «الرَّابطة القَلَميَّة». حيث وجد نفسه يحزن على فقده، حزن رفيق عَلَى رفيق، وعشير على عشير. ولَمَّا وجد أنه لن يتمكن - لاسباب قاهرة، خارجة عن إرادته - منَ الذهاب

---

(١) السمير ١٥ كانون الثاني ١٩٣١ م.

(٢) الدّيما: ضَرْب من النسيج.

(٣) النول ج أنوال: خشبة الحائك أو آلته ينسج عليها ويلف عليها الثوب وقت النَّسيج.

الى بوسطن لمرافقة جثمان جبران الى مَقرِّهِ الاخير، - وذلك وفاءً منه لعهد الاصدقاء الامناء - فزع الى عدد مجلته «السَّمير» الذي كان مهيئاً للطبع في تلك الليلة فأهداه برمته الى روح رفيقه الراحل الكبير. وقد جاء في هذا الاهداء قوله: (١)

الى الذي كان كالوردة يوزع روحه أريجاً زكيًا.

الى الرفيق الذي كان لكل رفيق كنفسه.

إلَى

روح جبران ترفع «السَّمير» هذا العدد. لا زالت ذكراه عذبة في الافواه.

ولما ادركت الحياة بأن الانسان حينما يفقد حنان الاب، وعطف الصديق الصدوق، يصبح الكون ضيِّقاً في نظره، بالرغم من كبره واتساعه، عادت الى شاعرنا مسترضية إياه فانعمت لذلك عليه بمولود ذكر بينما كان مقيماً فيْ نوروالك كونكتكت - في الثاني من مايو سنة ١٩٣٣م (٢) فسمَّاه «روبرت» فاصبح ابو ماضي بعد ولادة طفله الجديد هذا اباً لثلاثة ابناء ذكور لم يرزق سواهم. فَقرَّ الدهر عينيه بولدين من اولاده، أمَّا ابنه الاوسط (٣) فقد اصيب بعاموده الفقري بعد أن صدمته احدى العربات، في احد الشوارع، وهو في العاشرة من عمره. فَسَبَّبَت له تلك الصدمة شللاً دائماً، وتركته كسيحاً، مقعداً، طيلة حياته في منزله. فكان لتلك الحادثة التي وقعت لابنه أعمق الأثر في نفسه. حيث تركت في قلبه جرحاً ثخيناً من الحزن الذي لا يندمل مهما تقادمت عليه الايام والسنون. إذ اضحى كلما اراد ان يُنَفِّسَ عَنْ نفسه بعضاً مِنْ كُربتها يلجأ الى اسلوب الايحاء والرمز، مضحكاً بواسطته بعضَه على بعضِهِ الآخر. وخصوصاً حينما كان ينظر الى المِرْآة فيتبين له من خلالها أنه لم يكن جميلاً كل الجمال إذ كان ناتيءَ الجبهة أصْلع الرأس خفيف العارضين، زهيدَ الجسم، قصير القامة، يظنه الذي يراه واقفاً أنه جالس. ولقد كان بالاضافة الى كل ذلك يخفي خلف نظارتيه السميكتين عينين صغيرتين غائرتين، مثلما كان يخفي أيضاً أَلمه عن أعين الناس مِنْ جرَّاء تعاطيه لمهنة الصحافة، وهي

---

(١) السَّمير ١ أيار ١٩٣١م.

(٢) انظر جريدة «الصداقة» الخميس ٤ ديسمبر سنة ١٩٥٨ العدد ٣٣١م.

(٣) ذكر ليْ هذه الواقعة المؤلمة الاستاذ فؤاد الخوري حينما قابلته في نيويورك عام ١٩٦٣م.

مهنة تجبر صاحبها على الاستخدام والاستعطاف والخضوع خضوعاً كلياً لمشيئة المشتركين والمناصرين.

وحينما كان أبو ماضي يحاول ان يهرب من واقعه المؤلم هذا، ليلوذ بِحِمى نصْفه الافضل كان يرجع عن حماه خائباً مدحوراً، شاعراً في قرارة نفسه بأنَّه قد خُلِقَ ليعاركَ الزمن وحيداً، منفرداً، ولا سلاحَ عنده سوى سلاح قريحته الشِّعرية الفَيَّاضة، وعزيمته الفولاذية القوية.

وإذا ما كنا نريد ان نكشف بعض الخفايا التي كانت تختفي في صدر ابي ماضي وتسبب له كثيراً من الالم، والحزن، والازعاج، في حياته، فما علينا الا ان نورد له هذا المقال الذي كان قد نشره في أحد الأيام في مجلته «السَّمير» وذلك في الباب الخاص الذي جعل عنوانه «مذكرات أَحْمَق»، وقد استهله بقوله:[1]

يسأل كثيرون صاحبَ «السَّمير» مَنْ «أنا» فلا يجيب، لأنَّه عاهدني على أنْ لا يَبُوحَ باسْمي إلاَّ إذا بُحْتُ به «أنا» وانا لن ابوح به، لانني كلّما طرحتُ على نفسي هذا السؤال ذاته، وقفتُ حائراً، ذاهلاً. فكيف أُخبرُ الناس بشيءٍ أجهله؟! وبعضهم يسأل إذا كنت عَزَباً أمْ متزوجاً؟ وهل أنا جميل الصورة ام دميمها؟ وهل أنا غني؛ ام فقير؟ وما هي مهنتي إذا لم أكن تاجراً او تجارتي إذا لم اكن مستخدماً..؟ وكلُّها اسئلة يصعب عليها الجواب وإن ظنَّها الكثيرون سهلة. فأنا لا اقدر ان اقول أنني أعزب، لأني «تزوجتُ» ولا أن أقول أنني «متزوج»؛ لانني الآن وحدي. كما أنَّني لا استطيع أن أُحَدِّدَ الجمال، والقبح. فكثيراً ما نظرتُ إلى وجهي في المرْآة فرأيتني في أتم صورة ومن لا يرى نفسه جميلاً عندما يكون وحده؟! ولم أسْمَعْ احداً يقول انني دميم الخَلْقِ. فلا بُدَ إذاً منْ أحد أمرين: إمَّا إنِّي جميلُ الصُّورة او إنَّ النَّاس حولي جبناء مرّائون..».

وليس هناك ادنى شك بأن كاتب هذا المقال هو أبو ماضي نفسه. وقد كتبه بأسلوبه الخاص الساخر اللاذع المتسم بالايحاء والايماء دون التصريح.. وهو اسلوب قد كان كثيراً ما يلجأ إليه في اكثر «يومياته» التي كان ينشرها تباعاً في

---

(١) مجلة السِّمير ١٥ أيلول سنة ١٩٣١م.

جريدته «السَّمير» واننا لنجد انفسنا جِدُّ مقتنعين بأن هذا المقال مكتوب بقلم أبي ماضي، وليس بقلم كاتب آخر سواه ودليلُنا على ذلك قوله في خِتام مقاله: «رَضيْتُ لنفسي، أن انشر ما اكتب، دون أن اعلن اسمي وأنا لي الحق، لا اظنّ أحد ينازعني فيه أن اختار السكوت كُلما سأل احد مَنْ هو هذا «الاحمق» صاحبُ المُذكرات. اختارُ الصَّمت لعَلّي اصير غَنياً. فقد قالت العرب: إن الصمت من ذَهَب».

فهو قد كان إذاً تبعاً لِقوله في نهاية مقاله هذا، يلوذ بالصمت المتعمد، كُلّما سأله سائل، طالباً منه الايضاحَ عنِ الاسم الحقيقي لكاتب هذه «المُذكِرات الأَحْمَقيَّة» التي كان هو في نظرنا يكتب اكثرها بقلمه. وذلك لاسباب عديدة نذكر من بينها: أنَّه قد كان خلال اصداره لمجلته تلك ألِفها وياءَها وكُلَّ شيء فيها. إذ إنَّه كان يَتَوَلّى بنفسه صَف حروفها، بَعْد أن تكتمل لديه كلُّ موضوعاتها، وايصالها إلى منازل المشتركين، واماكن اعمالهم، إما بواسطة البريد، وإما يداً بيد. وكل ذلك بسبب قلَّة الموارد لديه في تلك الفترة من حياته. وقد ظلَّ أبو ماضي يقوم بنفسه تقريباً بالكثير منْ اعباء مجلته تلك عِدَّة سنوات، من حياتها وحياته إذ كان خلالها يمَنّي نفسه بأن يتمكن في يوم منَ الأيَّام منْ أن يَجْعَلَ مِنْ مَجَلّتِه هذه أرقى المجلاَّت الأدبيَّة وأوسعها انتشاراً، ليس فقط في المهجر الشِّمالي بل ايضاً في كافة انحاء العالم العربي. وحينما تبين له فيما بعد أنَّ قُرّاء الادب في المهاجر قليلو العدد، قرَّر أن يحوّل مجلته السَّمير هذه، من مجلة ادبية نصف شهرية الى جريدة يومية تُعْنَىْ بشؤون السياسة، مثلما تُعْنَى بشؤون الادب. وقد كان يزداد اقتناعاً على اقتناع بصواب وجهة نظره هذه وذلك كُلما وَجَدَ بعض المشتركين يحاولون التهرُّب منْ دفع بدل الاشتراك الزهيد. إذ كان أَكْثَرُهُمْ يعللون هربهم منه إمّا بضيق الوقت لديهم، او بعدم اهتمامهم بالادب والمتأدبين كافة أمَّا بعضهم الآخر فقد كان لا يدفع له بدل الاشتراك الا بعد تهديد ووعيد: (١)

«فنرى واحدَهُم (قال ابو ماضي) يَقْبَلُ المجلة او الجريدة ويمتّع نفسه بمطالعتها الشَّهر كُلَّه، ويأبى له جوده «الحاتِمي» أن يكون انانياً، فيمتع بها انسباءه، وعشراءه، وجيرانه وجاراته حتى إذا طُولب ببدل الاشتراك، اصابته نوبة عصبيّة

---

(١) مجلة السَّمير ١ تموز سنة ١٩٢٢م.

وصاح قائلاً: أنا غير مسؤول عن البَدَل، لأنَّني لم اجدْ اشتراكي، لماذا لم تقطعوها عَنِّي عندما انتهت المدة؟».

فهذا المشترك في نظر ابي ماضي هو شرٌ من المختلس، لأنَّه لم يكتف باختلاس بعض الاموال التي انفقت في سبيل اصدار تلك المجلة بل عمد ايضاً بعد اختلاسه لها الى اختلاس وسَرِقَة حقوق بعض الادباء الذين نشروا مقالاتهم في تلك المجلة. وهم ادباء لم يكن لهم هَمٌّ من وراء نشر مقالاتهم فيها سوى هم اسعاد امتهم والعمل على رقي الانسان في مجتمعه، مهما تعددت مشاربه واختلفت اوطانه. وهذا الاغتصاب اغتصاب بَدَل الاشتراك الزهيد من قبل بعض المشتركين لم يكن هو الاغتصاب الوحيد الذي كان يزعج أبا ماضي، ويقلقُه. بل كان هناك ايضاً معه اغتصاب آخر من نوع جديد، تولى القيام به في احد الايام البنك الذي كان ابو ماضي مُودِعاً فيه كلَّ ما يستطيع ان يقول أنَّه له، في تلك الفترة من حياته. وهو البنك المسمى ببنك «فاعور» الكائن في مدينة نيويورك حيث كان ابو ماضي شديد الثقة بأصحابه، معتقداً في قرارة نفسه بأن صخرة جبل طارق تتزحزح من مكانها وذلك البنك لا يتزحزح من مكانه قيد أُنْمُلة. وبأن رياح الضائقة المالية الخانقة التي اجتاحت الولايات المتحدة الاميركية منذ بداية عام ١٩٣٠م وظلت مستمرة مدة اربع سنوات متتالية لم تعصف به لتبدد كل الودائع الموجودة فيه.. ولكن ثقته اللامحدودة التي كان يضعها في هذا البنك واصحابه قد تزعزعت في قرارة نفسه وتلاشت فيها كل التلاشي، وذلك حينما وجد نفسه يذهب ذات صباح الى ذلك البنك بالذات قاصداً ان يسحب من حسابه الخاص فيه بعض المال لينفقه على اصدار مجلته السَّمِير التي كانت قد بلغت آنذاك حوالى العام ونصف العام من عمرها.. وما إن وصل ابو ماضي الى امام الباب الرئيسي لذلك البنك، حتى وجده مقفلاً؛ وامامه يقف جمهرة من الناس، وهم يقرأون بأسى وحسرة، الاذاعة الملصقة على حائط مدخله. وهي إذاعة وجد فيها ابو ماضي بعد انتهائه من قراءتها الخبر المفزع الذي ارعبه، واربكه، ألا وهو خبر افلاس ذلك البنك وقد استرعى انتباهه في تلك اللحظات الصعبة القاسية من حياته جماعةٌ من الناس الذين كانوا جالسين على الرصيف امام الباب الرئيسي في الشارع العام: فهذا يقلب شفتيه استغراباً وهذا يهز رأسه أسفاً وهذا يهز يديه حَنَقاً، واستنكاراً، ولكن (قال ابو ماضي) لا صراخ

المرأة الباكية المفجوعة على ثروتها الضائعة، ولا همسُ الهامسين ولا لَغطُ اللاغِطين، استطاع أن يفتح الباب، وهو باب وراءه كل ما استطيع أن اقول أنه لي..» .[١]

وقد وجد نفسه، بعد ذلك، يعود ادراجه، قاصداً مكتبه، في إدارة مجلته، وهو يضحك من نفسه على نفسه. لعله يستطيع بواسطة ضحكاته المصطنعة تلك ان يستعيد قسماً من رشده وصَوابه اللذين افقدته إياهما تلك الصدمة المؤلمة المزعجة:[٢].

«شيء، مزعج، مؤلم، محزن، مثير للغضب (قال ابو ماضي)، ولكنّني بَدَلاً من ان اثور واغضب، ضحكت ضحكة الظافر، المنتصر، لاني في الواقع ظافر منتصر، فأنا اديب عربي، والاديب العربي كما يعلم الناس ابداً فقير، وأبداً مديون. أما الآن فهو دائن ودينه ليس في ذمة شاعر او كاتب مثله بل في ذمة معهد تُقدَّر ثروته ببضع ملايين!. أليس هذا انتصاراً مبيناً؟ بَلَى!».

فأخذ ابو ماضي بعد ان اصيب بتلك الصدمة القاسية يجاهد من جديد جهاداً مستميتاً وذلك لكي لا تقتلع رياح «الضائقة الاقتصادية» غرسته الصغيرة «السَّمير» التي اضحى من فرط خشيته عليها، ينظر الى المستقبل بعين الشك والخَوْفِ والقلق وخاصة بعدما وجد ان اضرار تلك الازمة الاقتصادية الخانقة لم تعد مقتصرة على البيوتات التجارية والمؤسسات المالية بل تعدتها لتصل حتى إلى رجال الفكر والقلم:[٣]

«اربع سنوات (قال ابو ماضي) لم تتفتح فيها المسامع الا على انباء الكوارث، ولم تقع الايدي إلاّ على الدموع والجراح. فقد اناخت الازمة بكلاكلها على التجار، فسحقت كثيرين ورزح تحتها كثيرون. وكان من نتائج هذا الكساد تكاثر عدد البطّالين حتى امتلأت بهم شوارع اميركا التي كان الناس يتوهمون أنّها مفروشة بالذهب. وصار المرء اينما مشى، تمتد اليه الايدي المستعطية وتطرق اذنه هذه العبارة - انا جوعان! - وبين هذه الايدي الممدودة للاستجداء أيْدٍ طالما وزعت منْ قَبْلُ الصَّدقات وجادت بالهبات وبين الشِّفاه التي خرجت منها هذه العبارة الهائلة

---

(١) مجلة السَّمير ١٥ شباط سنة ١٩٣٣م.
(٢) المرجع نفسه
(٣) السَّمير ١ نيسان سنة ١٩٣٣م.

ـ انا جوعان ـ شفاه كانت الى عهد قريب لا يخرج منها القول إلا أمراً ونهياً..».

ولم تكد هذه السنوات الاربع العِجاف، توشك على الانقضاء ـ ألا وهي سنوات تلك «الضائقة الاقتصادية» التي كانت تجتاح آنذاك الولايات المتحدة ـ حتى بدأ ابو ماضي في عام ١٩٣٣م. يتنفس الصُعداء، فاستعاد ثقته بنفسه، واسترد ابتسامته الضائعة منه، وراح يشكر القدر؛ لأنه لم يضطره للاستجداء، خلال سنوات تلك الازمة القاسية. فهو وان كان قد انتصر على تلك الايام السوداء بعض الانتصار لا كُلّهُ. فالفضل في انتصاره عليها، يعود إِلَىٰ تلك الرحلات التي كان يقوم بها خارج نيويورك. حيث كان في خلالها يطوف على منازل المشتركين الغيورين عليه وعلى مجلته، وهي رحلات كانت تترك في نفسه انطباعات شَتَّى. مبهجة وغير مبهجة..

فها هو يصف بقلمه، في احدى مقالاته، ما حدث معه في احد المطاعم، خلال احدى رحلاته تلك وصفاً دقيقاً، قد شاء من خلاله أن يظهر مدى تأثره من الذين كانوا يعاملونه بجفاء كما شاء فيه ايضاً ان يظهر مدى تألمه من بعض المشاهد الانسانية المؤثرة التي كان يقع عليها نظره بين الحين والآخر:[1]

«وكان النهار قد انتصف في ساعتنا (قال ابو ماضي واصفاً للقراء ما حدث له داخل احد المطاعم في احدى رحلاته خارج نيويورك) وظننا اننا سَنُلاقَىٰ بالتَّرْحاب، ولكننا ما لبثنا أن عرفنا ان النهار لم ينتصف بعدُ، في ساعة المطعم. فقد نهضت الينا عجوز شمطاء وهي تقول: لا طعام قبل الساعة الثانية عشرة؟ فحَوْقلنا لهذه الصدمة المنكرة، واخذتنا نوبة من الضحك. فقال لها واحد مِنَّا: لا بأس، يكفينا شيء من القهوة، فأجابته، وهي ما تزال على كُلُوحتها: لا قهوة! ولم يكن هناك مطعم آخر فاضطررنا ان نتحامل على انفسنا حتى بلغنا بلدة «لويستون» فدخلنا الى مطعم انيق، ودرنا بمائدة تطل على الطريق، ونحن نضحك من عقلية تلك العجوز الشمطاء. ولَكن ما كاد الطعام يوضع امامنا حتى شاهدنا رجلاً ينفتل، ويسقط امام السيَّارَة، وكأنما إنْقَضَّتْ عليه صاعقة. ثم رأيناه ينتفض في الارض كالدجاجة المذبوحة. وقد كان من تأثير هذا المشهد علينا ان نهضنا وتركنا الطعام كما هو حتى القهوة... وأَيَّةُ شهية تبقى مع هذا المشهد!».

---

(١) السمير ١٥ أيلول سنة ١٩٣٤م.

وحينما بلغ ابو ماضي الخامسة والاربعين من عمره اجرى بينه وبين نفسه كشف حساب. وهو كشف راحَ يوازن فيه بين الاعمال التي قام بها في الاعوام المنقضية من حياته وتلك التي يجب عليه ان يقوم بها فيما بَعْدُ، كي يصبح مستقبله اكثر وضوحاً وإشراقاً. ولقد وجد بعد اجرائه لهذا الكشف من الحساب أنه لم يزل بَعْدُ في بداية طريقه الشّاق الطويل. فندم ساعتئذ - ولات ساعة مندم - على اشتغاله بالصحافة، وخاصة على تلك الساعة المشؤومة في حياته وهي الساعة التي فكّر فيها باصدار مجلته تلك. وهو حينما شرع يحصي الساعات العصيبة التي عرفها، واجتازها، في السنوات المنقضية من عمره، وجد أنها ست ساعات فقط فذكرها في مقاله الذي ذَيَّلَهُ بِلَفْظَةِ «بطّال»، ونحن اذا ما امعَنّا النظر في كلمات ذلك المقال، كلمة بعد كلمة، وسطراً بعد سطر، يتبيّن لنا، بما لا يدع مجالاً للشك، بأن ذلك «البطّال» لم يكن سوى أبي ماضي نفسه: (١)

«إنني احب ان انسى (قال ابو ماضي) ست ساعات من تاريخ حياتي الماضية:

١ - الساعة التي صَفَّيْتُ فيها حسابي مع المعمل لأوّل مَرَّة. (فهذا المعمل الذي صفّى أبو ماضي حسابه فيه تصفية نهائية ليس في نظرنا سوى معمل الشوكولاته الذي كان قد عمل فيه بعد ايام قليلة من وصوله إلى نيويورك قادماً من لبنان (٢). وهو قد ظل يتجاهل عمله المتواضع هذا امام معارفه وقراء «سميره»، وخاصة بعد ان تحسنت احواله المادية، وذاعت له شهرة أدبية وشعرية واسعة. وأمّا سِرُّ هذا التجاهل لهذا المعمل من جانبه، فهو يعود في نظرنا الى خشيته من ان يُعَيِّرَه خصومه الالداء بعمله المتواضع هذا الذي كان يقوم به).

٢ - الساعة التي سَلَّمْتُ فيها مجهود اثني عشر عاماً لشياطين البورصة في نيويورك. (انه يقصد بكلمة شياطين البورصة اصحاب ذلك البنك بنك فاعور الذي افلس عام ١٩٣١م. وكان ابو ماضي ضحية من ضحاياه الكثيرين.)

٣ - الساعة التي أَحْبَبْتُ فيها.

٤ - الساعة التي اصغيت فيها الى رجل يرشق، بقوارض الكلام، رجلا،

---

(١) السّمير ١٥ كانون ثاني سنة ١٩٣٥م.

(٢) ذكر لي هذه الحقيقة الاستاذ راجي ضاهر رئيس جريدة «البيان» وذلك لدى التقائي به في نيويورك عام ١٩٦٣م.

حسناته اضعاف سَيِّئاته. دون ان اذكر له ما اعرفه من الحسنات والصفات المستحبة في الذي يذمه. (أنه يقصد بذلك الرجل الذي حسناته اضعاف سيئاته «عمه» الاستاذ نجيب دياب الذي ظل ابو ماضي يعمل محرراً في جريدته «مرآة الغرب» مدة عشر سنوات متتالية اضطر بعد انقضائها الى مفارقته ومفارقتها وذلك بعدما وقعت بينهما الواقعة المُرَّةُ بسبب أَلسِنَةِ بعض الحساد المغرضين.

٥ ـ الساعة التي استدنت فيها مالاً من اصدقائي، على أمل ارجاعه اليهم في اقرب وقت فَمَرَّ اكثر من عام دون أن أفي من ذلك المال شيئاً.

٦ ـ الساعة التي أنا فيها.

إن لَعن ابي ماضي لوجوده في الحياة وذلك بسبب هذه الساعة الأخيرة من الساعات الست التي وجدها مشؤومة عليه، ليدلنا دلالة واضحة على مدى يأسه من تحسن حالته المادية في ذلك العام نفسه ألا وهو عام ١٩٣٥م. وقد تَجَلّى يأسه هذا بأجلى مظاهره في الكلمة التي القاها في حفلة تكريم احد الصحفيين في المهجر، ولقد اخترنا منها قوله فيها: [(١)]

« إِنَّ خير، ما تُكَرِّم به أُمَّة أديبُها، هو الاقبال على نتاج روحه، ودماغه. فالكاتب عند الغربيين يثري بكتاب واحد. أَمَّا عندنا فكلما زاد انتاجه كلما اشتد به الضَّنْكُ».

لقد كان ابو ماضي كلما اشتد به اليأس من صلاح احواله في المستقبل القريب كلما ازداد اقتناعا على اقتناع بوجوب تحويل «مجلته» الادبية المحدودة الانتشار الى جريدة سياسية يومية، عَلَّه يصبح بامكانه ـ بعد اصدارها ـ أن يسد نفقاتها فلا يعود مضطرا للاستدانة من جديد بسببها. و أَنَّى له ان يحقق رغبته الغالية تلك على قلبه وصاحب جريدة «مرآة الغرب» السيد نجيب دياب معتبر، هو وجريدته، من قِبَل اكثر وجهاء الطائفة الارثوذكسية في المهجر الشمالي، الاديب والصحافي الوحيد الذي يجب ان تظل جريدته الناطقة الوحيدة بلسانهم المعبرة عن آرائهم والمدافعة عن طائفتهم كل المدافعة..

---

(١) السمير. ١٥ نيسان ١٩٣٥ م.

وقد ظَلَّ أبو ماضي مكبّا على اصدار مجلته في مواعيدها المحددة، منتظرا الفرصة المناسبة التي تمكنه من تحويل مجلته هذه الى جريدة يومية سياسية. وهذه الفرصة المناسبة التي كان ينتظرها قد لاحت له اعلامها وذلك حينما وجد نفسه في التاسع من تموز سنة ١٩٣٦م يغادر مكتبه في ادارة مجلته ويتوجه الى منزل « حَميْهِ » السيد نجيب دياب، ليلقى عليه نظرة الوداع وذلك قبل ان يلفظ « حَمُوْهُ » آخر أنفاسه. متناسياً الحزازات والمشاحنات الكلامية القديمة التي شجرت بينهما على صفحات الصحف. وما ان شاهد ابو ماضي حَمَاهُ السيِّد نجيب دياب راقداً على سريره في منزله وهو يعالج سكرات الموت حتى اقترب منه مصافحاً إيَّاهُ، فما كان من « حَمِيْه » هذا إلاَّ أن صافحه ساعتئذ بحرارة حيث اوصاه خيرا بجميع اولاده من بعده، كما أوصاه أيضاً بالعمل قَدْرَ استطاعته لتظل جريدة « مرآة الغرب » حيَّة من بعده. فوعده ابو ماضي خيرا. ثم فارقه بعد ذلك وهو على يقين من ان وداعه هذا له، سيكون الوداعَ الابدي الأخير.

وبعد وفاة السيد نجيب دياب بأيَّام قليلة معدودة اوقف ابو ماضي مجلته الادبية عن الصدور، وشرع يشرف بنفسه على اصدار جريدة « مرآة الغرب ». ففي تلك الاثناء دارت مفاوضات بينه وبين السيدة « انجلينا دياب » وهي مفاوضات قد انتهتْ بمسودة اتفاقية لم يكتب لها ان تبصر النور، وذلك بعدما وجد ابو ماضي ان اكثر بنود تلك الاتفاقية لم تكن في صالحه. وهو بدلا من ان يصرح علانية برفضه توقيع تلك الاتفاقية التي كاد بموجبها ان يصبح للمرة الثانية محررا لجريدة « مرآة الغرب » راح يحاور ويداور حتى تمكن في نهاية المَطَاف من اظهار السيدة « انجلينا دياب » امام اعين انصار جريدتها من وجهاء الطائفة الارثوذكسية الكريمة بمظهر المتعنت المستبد برأيه كل الاستبداد. فبدأ انصارها يتخلّون عنها الواحد تلو الآخر وذلك بعدما ادركوا بفطنتهم « هذا التعنت من جانبها .. »

وقد تمكنت من معرفة هذه الحقيقة بعد عثوري في منزل مرَاد شقيق ابي ماضي الذي كان مقيما قبل وفاته في ولاية فلوريدا على احدى الرسائل التي كان ابو ماضي قد بعث بها اليه من نيويورك في خلال تلك الفترة العصيبة من حياته. وهي فترة قد كان كل مستقبله متوقفا عليها. وقد وجدت ابو ماضي يقول في رسالته هذه لشقيقه مراد: « ... أُحبُّ أن تكونَ مطمئن البال لاني لم أخْطُ خطوة واحدة الا

وقد ضمنت السلامة فيها ٨٠٪.. وانني لاشعر ان ادمغة القوم كلها (اي ادمغة انصار السيدة انجلينا دياب) لن يجول فيها خاطر الا بدا لي بكل الوانه، ولكن لا أحب ان يدركوا هذا الامر. بل اريد أن يشعروا أنهم اذكياء، وأنهم موفقون في مساعيهم الى ان يدركوا من تلقاء انفسهم انهم لم ينجحوا فيما سعَوْا اليه من جراء تعنتها وتعنت محاميها.. وسيظهر عدد «المرآة» وفيه البيان الرسمي، للبوسطة. وسأرى أي أسم يكون في خانة المحرر، ومدير التحرير. فإنَّ هذا الأمر، سيفضح المكتوم، ولا شكَّ أنها كانت ستضع اسم امين زيدان، وكانت قد تهيَّأتْ لتضع اسمي، ومنه يعلم الناس أني لستُ في «المرآة». ويأتي بعد ذلك الاعلان في الصحف وينتهي كل حديث...»

ولقد سارت الامور بعد ذلك بمدة قصيرة حسبما يشتهي ابو ماضي الذي لم يتوان بعدما اكتسب إلى صَفِّه عددا غير قليل من ابناء طائفته ووطنه عن تحويل مجلته الى جريدة سياسية. وهي جريدة تمكّن من ان يصدر اول عدد منها بتاريخ ٢ تشرين الثاني سنة ١٩٣٦م. (١)

صدرت جريدته اليومية السياسية تلك وكانت حالتها في الاشهر الاولى من صدورها اشبه بحالة المنطاد المثقل باكياس الرمل الذي لن يتمكن من التحليق عالياً في اجواز الفضاء إلاّ بعدما يتخلص من اكياسه الرملية تلك.. ولم تكن تلك الاكياس على حد تعبير ابي ماضي نفسه سوى ادوات مطبعته القديمة التي كان مضطرا اضطرارا ان يطبع عليها بالرغم من قِدَمِهَا اعداد مجلته «السَّمير» وذلك قبل ان يُحوّلها الى جريدة. حيث تَبَيَّنَ له فيما بعد انه ليس بمقدوره ان يصدر جريدة يومية من غير ان تكون لها مطبعة جديدة، او مستعملة. ولكن بحالة جيدة. وقد اتيحت لابي ماضي فرصة ذهبية، استغلها خير استغلال . وذلك حينما وجد جريدة «الاصلاح» (٢). تتوقف فجأة عن الصدور في نيويورك، فاشترى مطابعها بعد توقفها بثمن «معقول». وبعد تَمَكُّنِهِ من شراء تلك المطبعة اصبح يشعر بأن اتعابه لم تعد بلا طائل وخاصة بعدما أيقنَ أن عدد المشتركين في جريدته تلك قد اخذ يتضاعف ويزداد فَتَحَسَّنَتْ تبعًا لذلك حالته الماديّة بحيث وجد نفسه بعد تَحَسُّنِهَا

---

(١) جريدة الهاتف البغدادية ٢٤ كانون الأول ١٩٤٨م.
(٢) سمير ١٧ أيار ١٩٣٧ م.

يسجد «للبغل الذهبي» سجود المتعبّدين في الهياكل والصوامع. فانشغل ببريق الذهب عن الادب والمتأدبين فلم تعد قريحته تجود عليه بعد ذلك الا فيما ندر بالشعر الرّصين الجيّد. إذا إن المال الوفير في نظرنا وحسبما هو شائع، ومعروف - عدو لدود للخَلق والابداع. ولم يكن المال وحده الذي بدأ يتدفق على ابي ماضي في تلك الفترة من حياته يشغله عن الشعر والابداع، بل كان عمله الصحفي هذا يشغله ايضاً عنه. بحيث اضحى نظره كلما اوشكت قريحته ان تجود عليه باحدى القصائد، أو يهم بتناول قلمه، وهو جالس امام مكتبه في ادارة جريدته، ليسطر على الورق بعض مقالاته او «يومياته» لا يقع إلا على رسائل القُرّاء الكثيرة المكدّسة امامه على مكتبه؛ وهي رسائل قد كان يجد نفسه مُرْغماً على الاجابة عليها في اقصر وقت ممكن خشية ان يسارع اصحابها الى قطع بدل اشتراكهم الزهيد في جريدته جريدة السّمير.

واننا لنجد ابا ماضي، يظهر إظهاراً جلياً، مدى امتعاضه من تلك الرسائل، ومرسليها، وذلك من خلال قوله:[1]

«أنا الآن جالس الى مكتبي، أنظر الى الرسائل المتناثرة المتلبدة فوقه كأوراق الشّجَرِ فأحار بأيّها ابدأ، وعلى أيّها أُجيب! كل شيء حولي في هذه الساعة من اللّيْل بارد ساكن الا القلم يجرى على القرطاس، وإلا دخان السيكارة الذي يتصاعد وَيَتَلوّى كالافاعي.. فأصغي فلا اسمع إلاّ عنين الترام، وذخيره، كلما مَرَّ، وما اكثر ما يُمرّ! ولو جئت اعدد هذه الرسائل التي امامي، واذكر ما فيها، لوجب أن ابقى في مكتبي الى الصباح، ويبقى فيها شيء كثير، ويبقى في النفس شيء أكثر..»

أمّا الشيء الوحيد الذي كان يزعجه بعض الازعاج، فقد كان يكمن في اضطراره للاقامة في نيويورك، وعدم تمكنه من مغادرتها إلا لماماً. وذلك بسبب كثرة مشاغله الصحفية. فهو لم يكن تَوّاقاً الى مفارقتها، ضَجَراً منها، ومن سكانها، بل كان يتوق الى مفارقتها، لمدة قصيرة، عَلّهُ يتمكن في خلالها من قضاء فترة ممتعة في احد الجبال، أو القُرَى ذات المناظر الخلاّبة الفتّانة المدهشة المُحَيّرَه للالباب والاخذَة بمَجَامع القلوب:[2]

---

(١) السمير ٧ كانون الأول ١٩٣٦م.
(٢) السمير ٨ تشرين أول ١٩٤٠ م.

« ما خرجتُ من نيويورك مرّة (قال ابو ماضي)، واطللت على الفضاء المترامي الذي يمتد كما امتد البصر، إلاّ شعرتُ كأَنَّ روحي كانت موثقة، وسقطت عنها القيود والاغلال أو أنها كانت في بحر زاخر، متلاطم، وخرجتْ منه الى الشط الهادىء الأمين.

وليست «نيويورك» خالية من المحاسن والمفاتن الطبيعية ففيها من هذه اشياء ليست في اي مكان آخر، تحت الشمس. ولكنها لشدة الزحام فيها، لا يصل اليها المرء حتى يكون الشوق اليها قد مات في نفسه، فهو ان لم يمرّ في نفق لا مؤنس فيه. غير مصابيح الكهرباء التي تبدو وكأنها شموع في دير موحش، فإنه لا بد ان يمر في شارع يشبه واديا بين جبلين تركض فيه السيارات كأَنَّها المِعْزَى الشاردة».

فتشبيهه للمصابيح المتلألئة في الشوارع العامة في مدينة «نيويورك» بالشموع في دير موحش، وتخيّله لانفاق «الصبواى» الموجودة تحت ارضها التي كان يجتازها كل صباح ومساء، سيرا على قدميه، واديا بين جبلين، لَيَدُلُّنا دلالة واضحة على ما كان ينتابه في تلك السنة من حياته ـ ألا وهي سنة ١٩٤٠م ـ من القلق والعناء الروحي اللذين كان سببهما معشوقته الغالية جريدته «السَّمير» التي نراه يخاطبها في مطلع سنة ١٩٤٠م قائلا لها، وذلك بمناسبة مرور اثنتي عشرة سنة على صدور اول عدد منها: (١)

أيّتها الرَّفيقة الغالية:

ها قد انقضت سنة اخرى ونحن نسير معا في موكب الحياة نقتلع الاشواك التي امامنا، وننثر الرياحين وراءنا للذين يأتون بعدنا، لعلهم يَرَوْنَ الدنيا جميلة..

عندما لقيتك وتعارفنا كانت الدنيا شبه متزلزلة، لِمَا اصابها من الازمات والناس فوقها كالسكارى، لِمَا بوغتوا به مِنَ النكبات والضَّربات. لقيتك ايام كانت الثروات المدخورة تَذُوبُ وتتلاشى كلمح البصر.. لقيتك ايتها الرفيقة الغالية، وكان بي مثلما بالناس من وَجَل، واشفاق، وشك في المستقبل فَلمّا رأيتك تحول الخوف والاشفاق الى شجاعة واقدام، وانقلب الشك الى ايمان ويقين.. ومَشَيْنا معاً ولكن إلى أين. لم يكن لي قصر أنيق يليق بك يا حوريتي، ولكنَّك كنتِ نبيلة متواضعة،

---

(١) السمير ٢ كانون الثاني ١٩٤٠ م.

فَرَضيتِ بالكوخ الصغير الذي بنيته لك بساعدي. فاقمنا فيه فترة من الدهر هانئين كـأَنَّنا طائران في عش آمن. وكنت أنتِ حورية تضحكين، وكـأنك في فِرْدَوْس. وكنت أنا، لأنَّكِ مَعي ولي احسب أنني ساكن في قصر من ذَهَب الشمس، فانشد، وأُغَنِّي.

وكـان الناس يَرَوْن ابتسـامتك، ويسمعون اناشيدي، فينْسَوْنَ كـآبتهم، وهمومهم ويطربون. ونشعر نحن كلما طَربوا أنّنا قد قُمنا بالمَهمَّة الموكولة الينا فنزداد مَسَرَة وطرباً، ونندفع في التغريد والانشاد. فكم من ليلة احييتها ساهرا وحدي، لا افكر بأحد إلا أنتِ. وكم من نهار مشرق، ضاحك، خرج الناس فيه إلى الشواطىء والجبال، ينتجعون الراحة والسرور، وبقيتُ أنا في المدينة من أجلك. وكم ذَهَبْتُ في الارض احدِّث الناس عَنْك، وكم سرتِ انت في جوانب الدنيا تُحَدِّثين الناس عنّي.. وها أنا وأنتِ بعدَ هذه السنوات، نشعر لتعلق احدنا بالآخر، كأنّنا لم نتلاق الا أمسِ.. فما زلتِ جميلة في عَيْنَيّ، وحبيبة إلى نفسي. كما كنتِ منذ أول يوم تعارفنا. وما زلتُ انا ذلكَ المحبّ الذي وقف حياته عليكِ».

ولم يكن ابو ماضي يعاني من بعض المتاعب التي عرفها في حياته بسبب معشوقته «السَّمِير» هذه التي كانت وَحْدَها مَوْرد رزقه، بل كانت هناك ايضاً متاعب كان يَجِدُ بنفسه في طلابها كلما وجد أنها لا تَجِدُ في طلابه.. وإننا لنذكر من بينها تلك المعارك «الكلامية» الحامية الوَطيسْ التي كانت تقع من حين لآخر بينه وبين احد الادباء، او بعض الاصدقاء الذين انقلبوا فيما بعد الى اعداء. وكان أجَلُ بعضها يكاد أن يمتد لسنوات طويلة او ينتهي الى ما لا تحمد عُقباه، لولا تدخّل بعض العقلاء من ابناء الجالية اللُّبنانية في المهجر الشِّمالي.[1]

ولقد كان ابو ماضي بفضل قلمه الساخر السَّيَّال يخرج منتصراً على اعدائه بعد كل معركة كلامية من تلك المعارك التي كان يقودها ضُدّهم. أطال أجلها أم قصر. حيث كان في خلالها يكلّمهم بلغة شبيهة بلغتهم ويبيعهم بضاعة من جنس بضاعتهم. وخاصَّة حينما كان يجد اكثرهم يحاولون النيل من سمعته الشخصية. وذلك باتهامهم إيَّاه إما بالبخل والتقتير والشحاذة من المشتركين او الاقتباس،

(١) كتاب «سبعون» للاستاذ مخائيل نعمة – المرحلة الثانية ص ١٧٩.

اقتباس معاني اكثر قصائده الجيّدة المشهورة ممّن سبقه من الشعراء الغربيّين، وخاصة قصيدته «الطلاسم» التي اتهمه صاحب جريدة «السائح» السيد عبد المسيح حداد باقتباسها اقتباسا كُليا عن قصيدة للشاعر الاميركي ادكار الن بو، وهذه التهمة تهمة الاقتباس او ما يسمى بالسرقة الشعرية اتهمه بها ايضا الكثيرون من الادباء النقاد [١] ومن بينهم الاستاذ ميخائيل نعيمه في كتابه سبعون ـ المرحلة الثانية ـ وقد تمكن ابو ماضي من تفنيد وضحض مزاعم اكثر هؤلاء المغرضين الذين كانوا يرتدُون امامه ثياب الاصدقاء بينما قلوبهم مشحونة بالحقد عليه، والحسد منه. وهو حينما اعياه في نهاية المطاف امر هؤلاء الحساد الاعداء له، قرّر تجاهلهم، وعدم الرد عليهم نظراً «لان الماء والخشب لا يستويان» في نظرد. أمّا الصحافيون الذين كانوا ايضا يناصبونه العداوة ويضمرون له ولجريدته البغضاء فقد قرر بدوره تجاهلهم تجاهلا كُليا. وذلك لأنه قد كان بمقدوره ان يهدي لقرائه على صفحات جريدته «السّمير» تلك «فِكراً تَبْقىٰ إذا الطّرْسُ احترقْ». بينما غيرُها من الجرائد وخاصة في المهجر الشمالي كانت لا تهدى لقرائها انذاك سوى حِبْرٍ وورق فقط.[٢]

وحينما وجد أبو ماضي في أحد الايام، مناصرا من انصار جريدته، والمعجبين بشعره، وبقريحته الفياضة الخلاقة، يطالبه بعدم الاكتراث بما يقوله هؤلاء المتقولون عنه او الاهتمام بآراء المهاجمين لجريدته، والمحاولين النيل من سمعتها وسمعته، أجابه بقوله محاولا من خلاله اقناعه بأنه ليس بوسعه السكوت عن اعدائه، لكي لا يظهر امامهم بعد سكوته عنهم بمظهر الرجل الضعيف المتخاذل المذنب حقًا: [٣]

«فأنت (قال أبو ماضي) لا تدير ظهرك للذئب، إذا سطا على غنماتك، ولا تقف تتفرج على الثعلب، وهو يتسلل الى دجاجاتك، ولا تدع الجرذان تعبث في بيتك. بَلْ كلّما شعرتَ بالذئب قادما ليفترس شاتك، أو عنزتك، اسرعت الى

---

(١) انظر كتاب «فريسة ابي ماضي» لروكس بن زائد العزيزي.

(٢) حينما حوّل ابو ماضي مجلته الأدبية السمير الى جريدة يومية سياسية جعل شعارها هذين البيتين:

أنا لا أهدي إليكم ورقاً ... غيركم يرضى بحبر وورق

انما أهدي الى ارواحكم ... فكرا تبقى اذا الطرس احترق

(٣) السمير ٩ أيار ١٩٤٢ م – العدد ١٥٥

البندقية لتقتله. واذا عَرَفت ان ثعلبا يتسلل إلى دجاجاتك نصبتَ له فَخًا أو اعددت له العصا. أما الجرذان فتقاتلها بالسُّم. فاذا كان هذا شأنك، والاعتداء واقع على شاةٍ أو دجاجة وبعض الطعام. فماذا تفعل اذا كان الاعتداء واقعاً على شرفك وسمْعتِكَ!».

وقد وَجَد ابو ماضي اصوات الكثيرين من اعدائه تختنق في حناجرهم، وذلك بعدما استطاع أن يشتري لجريدته «السَّمير» بناية، مؤلفة، من ثلاثة طوابق، في حي بروكلن - نيويورك - ليجعلها تأوِي اليها، برفقة العاملين على إصدارها، وهي هادئة مطمئنة، كاطمئنان صاحبها على مستقبلها. وقد اقام ابو ماضي احتفالا بهيجا بمناسبة تدشين هذا البناء الجديد لجريدته «السَّمير»، وذلك في الثاني من تشرين الثاني سنة ١٩٤٣م.

ولقد تمكن ابو ماضي من ان يظل متابعا اصدار جريدته تلك مُحَسِّنا مستواها، يوما بعد يوم، وذلك بفضل انصرافه انصرافا كلّيا إليها، وحرصه عليها، كحرصه على اولاده.

فهو قد كان في كل عطلة من العُطَل الصيفية وغيرها، يقوم برحلة خارج نيويورك قاصدا الاتصال اتصالا مباشرا بمشتركي «السَّمير» وزيارة وكلائها الذين كانوا منتشرين في شتى اقطار المهجر الشمالي، حاثا إيَّاهم على بذل ما بوسعهم، في سبيل ايجاد اكبر عدد من الانصار. وقد كان ابو ماضي يَحْرِصُ أشد الحِرصُ على كَسْب تأييدِ رجال الاكليروس الاجلاء من ابناء طائفته، لجريدته تلك. إذْ كان اكثرهم يضعون بتصرفه امكانياتهم المحدودة لدى زيارته لهم، متحمِّلين منه بصدر رحب بعض مداعباته ونكاته البريئة.

فحينما كان احدهم يأتي لاستقباله بسيارته التي «تعطَّل منها جناح، وتحطَّم مصباح، وانكشف دولاب، وطارت قبضة الباب» [1] وذلك لدى وصوله الى الولاية او المدينة التي كان مقيما فيها ليطوف به بواسطتها بعد استقباله له بحفاوة على منازل المشتركين والانصار، كان ابو ماضي يستقلّ تلك السيارة على مَضَض، مهنّئا، بحرارة صاحبها، على خروجه سالما مُعَافَى بعد كل جولة كان قد جالها «إمَّا مع

(١) السمير ١٨ ايلول ١٩٤٤ م.

العامود او القطار او الجدار» وهو لم يكن يكتفي فقط بتهانيه القلبية تلك، بل كان يُفكّر بعد ذلك بنظم قصيدة يصف فيها الحالة الكئيبة المحزنة لتلك السيارة المنكودة الحظ. ولكنه كان لا يلبث طويلا حتى يطرد تلك الفكرة من مخيلته، وذلك نظرا لضيق الوقت لديه بسبب كثرة مشاغله الصحفية والادبية.(١)

وكان ابو ماضي يكثر زياراته اثناء رحلاته الصيفية تلك لمدينة مونتريال المضيافة التي كان يوجد له فيها عدد لا يستهان به من الاصدقاء المخلصين له كل الاخلاص الذيّن كان اكثرهم يحملونه في سياراتهم ويطوفون برفقته على منازل المشتركين في جريدته قاطعين بصحبته مئات الاميال من غير ان يشعروا بالتعب والارهاق منصتين باهتمام الى مداعباته لهم التي لم يكن يقصد من وراءها سوى تفكهتهم، واضحاكهم، بغية طرد السأم والملل من نفوسهم، وازاحة كابوس التعب ولو الى حين عن كواهلهم. حيث نراه يقول ذات مرة لصديقه الجالس بقربه في سيارته اثناء تطوافه به على منازل المشتركين في مونتريال.(٢)

- لقد استعذَبتْ اذني كلمة - «إشبين» - الكثيرة الدَّوران على السنة ابناء الجالية العربية في «مونتريال». ألا يُوجَدُ عندك طفل لاكفله لك واصير اشبينا له!.

فأجابه صديقه هذا ضاحكا:

أُطْلُب من الله لكي يعيدني من جديد طفلا، فتكفلَني وتصيْرَ انت اشْبيني.

فأجابه ابو ماضي ساعتئذ وهو متصنع الجِدَّ والوَقَار:

«اتعتقد ان الله يستجيب دعائي، وخاصة دعاء صحافي مثلي. واذا ما استجاب لدعائي، محققا رغبتك هذه، فسأصبح مضطرا لحملك بين ذراعي بدلا من ان تحملني انت بسيارتك هذه.»

وفيما كان ابو ماضي يَتَذَوَّق حلاوة انتصاره المؤَقَّت على اعدائه واعداء جريدته السَّمير الذين كانوا يبذلون كل ما في وسعهم للنيل من سمعتها وسمعة صاحبها بشتى الوسائل والسبل وجد نفسه يخوض في سنة ١٩٤١م غِمَار معركة

---

(١) السمير ١٨ أيلول ١٩٤٤ م.
(٢) السمير ٧ آب ١٩٤٤ م.

ضروس، وهي معركة دارت رحاها بينه وبين «مطبعة» جريدته تلك التي بدأت اوصالها تخور كما تخور اوصال البعير المسن والتي كان قد اشتراها كما سبق لنا واسلفنا من صاحب جريدة «الاصلاح» بعد ان تَوَقَّفَتْ عن الصدور نهائيا. وقد استطاع ابو ماضي ان يذلل هذه العقبة الكأداء التي اعترضت طريقه فجأة، ولكن بعد تضحيات مادية كبيرة من جانبه حيث نجده بعد ذلك يثابر على اصدار جريدته في مواعيدها غير عابيء بما كان يصادف من متاعب وينتابه من ارهاق بسببها.

وحينما كان يجد بعض اصحابه يطالبونه بايقاف جريدته تلك عن الصدور خوفا منهم عليها، من ان تتوقف توقفا قَسْريا، في يوم من الايام، كان يجيبهم بتعال قائلا لهم: «إذا كان للجرائد العَرَبيَّة ان تموت في هذه البلاد فلتمت على الاقل في مجد وجلال».

وكما كان ابو ماضي يسهر اجفانه من اجل ابقاء جريدته «السَّمير» هذه على قيد الحياة في تلك الفترة من حياته؛ وهي فترة كان قد بلغ فيها السادسة والخمسين من عمره. كذلك كان يُحَمِّلُ جسده المضنوك الذي كان في تلك الحقبة من حياته بأمس الحاجة الى الراحة والهدوء عناء القيام ببعض الرحلات، وخاصة منها تلك التي كان متعودا القيام بها خلال العطلة الصيفية من كل عام والتي كان في خلالها يقوم بزيارة وكلاء «السَّمير» الذين كانوا منتشرين في شتى اقطار المهجر الشمالي، والذين كانت لهم اليد الطولى في ازدهارها وبقائها. حيث كان ابو ماضي يتوخَّى ان يحلّ ضيفا على احدهم، لدى وصوله الى المدينة التي يقيم فيها. فكان هؤلاء الوكلاء لجريدته الساهرون عليها مَجّانًا يسارعون الى استقباله مرحّبين بقدومه اجمل ترحيب وافضله؛ وهم متشوقون لرؤية وسماع اخباره واشعاره، مؤمّلين في قرارة انفسهم ان يذكرهم بالخير فيما بعد على صفحات جريدته بعد أن يعود الى مَقَرِّ عَمَله في نيويورك. ولم يكن ابو ماضي يتورّع إمَّا عن مداعبتهم او رسم صورة كاريكاتورية لا تخلو من سخرية بريئة بواسطة قلمه لبعض هؤلاء الوكلاء لجريدته، وهي صورة قد كان اصحابها ينظرون اليها بعين الرضى والاغتباط لا بعين الحقد والانتقام. وذلك لانهم قد كانوا يعلمون في قرارة انفسهم بأن أبا ماضي قد كان يرسم تلك الصورة لهم قاصداً التفكهة والاضحاك ليس إلاَّ. ومن

الصور الجيدة الساخرة التي رسمها ابو ماضي بقلمه، هذه الصورة التي رسمها لوكيل جريدته في مدينة غراند ربيدس - مشغن، الذي سارع الى الحفاوة به لدى التقائه به صدفة على درج الكنيسة اثناء خروجه منها بعد حفلة «السيامة» فما كان من وكيله هذا إلاّ ان اقلّه بسيارته ساعتئذ، وراح يطوف به بواسطتها على منازل المشتركين. وقد تعجّب ابو ماضي اشد التعجب بعدما وقعت انظاره على هذا الوكيل لجريدته حيث رأى عينيه تبدوان وكأنهما نائمتان بسبب اقتراب الاجفان فيها من الاجفان «وقد ازداد حيرة على حيرة حينما وجد ان هاتين العينين لصديقه هذا «بالرغم من كثرة شغفهما بالتحديق بالاشياء والناس لم تَظْفرَا بَعْدُ برؤية ذات سوار، تشاركه الحياة، وتدخل الى قلبه السرور والاطمئنان» . (١)

ولقد ظل ابو ماضي معتقدا في قرارة نفسه وذلك بعدما حَوّلَ في عام ١٩٣٦م مجلته الادبية «السَّمير» الى جريدة يومية سياسية بأن تلك المهنة الصحفية التي احترفها هي «مِحْنَةٌ لا مهنة» (٢) وقد ظل معتقدا بهذا الاعتقاد حتى تجاوز السابعة والاربعين من عمره حيث نراه يصاب بعد وصوله الى هذا العُمُر بالقنوط، والاحساس الشديد، بالوهن في العظام. وقد تمكن ابو ماضي في سنة ١٩٤٠م من طبع ديوانه الذي اسماه «الخمائل» وهو آخر ديوان تمكن من طبعه خلال حياته، وهو ديوان سَبَّب لصاحبه شهرة شعرية لا تقل عن الشهرة التي حظي بها ديوانه «الجداول». واننا لنجد قريحة ابي ماضي بعد صدور ديوانه «الخمائل» تصاب الى حد ما بالشح والفتور. إذا إنها لم تعد تجود عليه بعد ذلك الا فيما ندر بالشعر الجيد الرَّصين. ودليلنا على ما نقول اكثر قصائده المنشورة في ديوانه الاخير «تبر وتراب» الذي نشر بعد موته. وسرُّ هذا الضمور الذي اصاب قريحة شاعرنا عائد الى احساسه بحاجته الماسَّة الى اراحة جسده المتعب كحاجته الماسة ايضاً الى الترويح عن نفسه. بحيث اصبحت تبعاً لذلك لعبة التويست لعبته المفضلة في كل وَقْتِ الفرَاغ. ولقد كان سروره هذا يتضاعف حينما كان يجد في هذه اللعبة شريكةً له من ذوات السوار الجميلات المُهَذَّبات.

---

(١) السمير ١٥ آب ١٩٤٧ م.
(٢) المرجع نفسه.

زيارة ابي ماضي للبنان في سنة ١٩٤٨م.

تلقى ابو ماضي دعوة خاصة من منظمة «اليونسكو» العالمية لحضور مؤتمرها الذي عقد في بيروت بتاريخ ١٧ تشرين الثاني سنة ١٩٤٨. حيث اختير وأخذُ الادباء الصحفين العرب ليمثلا في هذا المؤتمر رجال الصحافة والادب في المهجر الشّمالي.

غادر ابو ماضي نيويورك قبيل انعقاد هذا المؤتمر بايام قليلة قاصدا وطنه الاول لبنان الذي كان قد مضى على مفارقته له لاول مرة نحو ستة وثلاثين عاما تقريبا وكانت مطيَّتُه في سفرته الطويلة هذه الطائرة التي كثيرا ما كان يتهيّب ركوبها في كل رحلاته السابقة مفضلا عليها إمَّا القطار او السيارة، ولكِنه بعدما جَرَّبها في هذه المرة، ووجدها تقطع المحيط الاطلنطي بركابها في اقل من تسع ساعات فقط، صار لا يعتقد ان هناك مطية سواها بامكانها ان تختصر المسافات بين القارات كل الاختصار كما تختصرها هذه «المطيّة» بالذات.

وما ان وطئت قدماه ارض الوطن حتى قام على الفور بزيارة قصيرة لبلدة «المحيدثَة» مسقط رأسه. حيث شعر بعدما وقعت عيناه فيها على المكان الذي كان يوجد فيه منزله الذي ابصر فيه النور، برعشة خفيفة انتابته، وهي رعشة تنتاب كل عائد الى وطنه بعد ان يكون قد مضى على مفارقته اياه زمن ليس باليسير: (١) «واني لاذكر الان (قال ابو ماضي) الرعشة الروحية التي احسست بها عندما اطللت على مراتع الطفولة مع انها ليست اجمل من اية بقعة مثلها في الارض. وقد تكون بقاع كثيرة اغنى منها، واحسن صورة، ولكن ليس فيها مثل سحرها عندي على الاقل..».

وبعد قليل من وصوله الى المنزل الذي أبصر فيه النور، وقف امامه، وراح يُفَتِّشُ بناظريه عن شجرتي التوت اللتين كان في اثناء طفولته يستظل بظلهما ويلهو بقربهما واللتين ظلت صورتهما عالقة في مخيلته طيلة سنوات غربته. وحينما لم يجد لهما أيَّ اثر، استفسر عَنهما، ولَمَّا اخبر بانهما قد قُطِعَتا لتصبحا طَعاما

---

(١) السمير ١٠ آذار ١٩٤٩ م.

للنار في احد ايام الشتاء البارد، انحدرت حينذاك «الدموع من عينيه حزنا عليهما». (١)

وقد اقام اهل قريته له حفلة تكريمية على شَرَفِهِ في مدرسة الضيعة الابتدائية التي كان قد سبق له وتلقى على مقاعدها اثناء طفولته مبادىء القراءة والكتابة.

وكان لتلك الحفاوة التي لقيها من ابناء قريته أبلغ الأثر في نفسه. بحيث اوحت اليه فيما بعد بأيام قليلة بقصيدته التي جعل عنوانها «وطن النجوم»، وهي التي نراه يشيد في مطلعها بوطنه لبنان وبجميع ابنائه البررة، منتقلا بعد ذلك الى وصف أيَّام طفولته وذكرياته الحلوة في خلالها، وذلك حيث قال: (٢)

وطنَ النُّجُـــوم أنا هُنَا حَـــدِّق أتَذْكُــرُ مَنْ أنا
أنــا ذلــك الــولــدُ الــذي قـــد كـــان مَـــوْلِدُهُ هُنَا
ولَكَمْ تَشَـيْطَنَ كي يقــولَ النـاسُ عَنْه تَشَـــيْطَنَا
حَمَلَ البَشَاشَةَ والطَّلاقةَ مِــنْ رُبُــوعِــك لـلـدُّنَــى

فقصيدته هذه قصيدة طويلة، وهي تعتبر من عيون شعره لا بل من عيون الشعر العربي. ولقد استرعى انتباه ابي ماضي لدى اقامته في بيروت الفنادق الفخمة الشاهقة الموجودة فيها، وهي فنادق قد شُيِّدت خصّيصا لِتُحَدِّثَ العالَمَ عمَّا يوجد في بيروت من معالم التقدم والازدهار والعمران. وكما شُدِهِ ابو ماضي بمظاهر العمران في بيروت شُده ايضا بمرأى ذلك «الحيوان الادمي» الا وهوَ «الحَمَّال» الذي كثيرا ما كان نظر ابي مَاضي يقع عليه واقفاً في بعض الشوارع، وهو يحمل على ظهره حِمْلاً ثقيلا، منتظرا مرورَ السيارات، ليتمكن بعد مرورها من اجتياز الشارع من جهة الى جهة. وقد بلغ به التأثر الشديد في ذات مرة حدّا جعله يهمس في اذن زميله الذي كان واياه واقفين في شرفة الفندق الذي كانا فيه مُقيمَيْنِ:

- لماذا يكلف العَتَّالُ جسمه هذه المَشَقَّة، ولا يستعين بالدولاب؟

---

(١) السمير ٢٦ تشرين الثاني ١٩٤٨ م.
(٢) تبر وتراب ص ٧.

فأجابه زميله بلا اكتراث:

- ليس في العَتَّالين من يَمْلِكُ ثمن عَجَلَةٍ. ثم وجده بعد ذلك يستطرد قائلا له: ولكن لماذا تهتم بهؤلاء؟ ربما كانوا أروح بالا منِّيْ، ومنكَ؟!.

فتأثر ابو ماضي اشدَّ التأثُّر من هذا الجواب الذي اجابه به زميله هذا. وسبب تأثره عائد الى كونه قد شاهد: «اخا له في الانسانية قد نزلت به الضَّرورة الى مرتبة الحَيَوان الاعْجَميّ» (١)

وحتى خادم الفندق الذى كان ابو ماضي ينزل فيه ضيفا على الحكومة اللبنانية قد وجد نفسه يعفيه من مَشَقَّة إحضار طعام الافطار اليه في الصباح، وذلك بعدما علم أنَّه مُحَرَّم عليه استعمال المِصْعد. فكان تَبَعاً لذلك يتناول طعام افطاره في قاعة الطعام الرئيسة في ذلك الفندق لكي لا يجشم ذلك الخادم المسكين مَشَقَّة الصعود الى غرفته الكائنة في الطابق الرابع من ذلك الفندق حاملا اليه طعام إفطاره. وقد ازدادت نقمة ابي ماضي على بعض الناس الذين رأهم يكلفون اطفالا لم يتجاوزوا بَعْدُ الرابعةَ عشرةَ من اعمارهم القيام بأعمال تُعَرِّضُ حياتَهُم للخطر. كإدارة المصاعد وغيرها، دون ان يكونوا «مُؤَمِّنِيْنَ في كل حياتهم ضد حوادث العمل الطارئة. وذلك في احدى شركات التأمين على الحياة».

وقد خطر لأبي ماضي في المأدبة التي اقامها رئيس الجمهورية اللبنانية الشيخ بشارة الخوري في قصر الرئاسة على شرف الوفد المسافر لحضور مؤتمر «اليونسكو» خاطر اراد تنفيذه في الحال. حيث وجد نفسه يهمس في اذن زميله الاديب الشيخ خليل تقي الدين الذي كان جالسا الى المائدة بقربه قائلا له:

- إنَّ في اميركا عادة طريفة، وهي سرقة ملعقة او صحن صغير او اي شيء في مأدبة كهذه كتذكار .. وانا تحدثني نفسي ان اضع هذه الفوطة الصغيرة الجميلة في جيبي، لأنها لا تَصْلَحُ أن توضع على الركبتين، لصغرها، ولا يجوز ان يمسح بها الفم لاناقتها وطرافتها.. فرد عليه زميله قائلا له:

- لماذا تريد سرقتها؟ انا اسال فخامة الرئيس ان يهديها اليك. وبعد ذلك

---

(١) السمير ٣١ كانون الثاني ١٩٤٩ م.

التفت الى فخامة الرئيس وقال له: يا فخامة الرئيس ان للشعراء مذهبا مشهورا وهو أنّ مَنْ سرق واسترق فقد استحق، وايليا يراود هذه الفوطة ليسرقها!

فاجابه فخامة الرئيس مازحا مبتسما: حذارِ حذار إنّها مِلْك الدَّوْلَة.

فطرب الحاضرون لهذه الدعابة الخفيفة وطغت عليهم موجة من الضحك والابتسام.

وكم كان سرور ابى ماضي عظيما لدى التقائه بعميد الادب العربي الدكتور طه حسين مرّتين: المرة الاولى في الاذاعة اللبنانية، والمرة الثانية في فندق «السان جورج» حيث وجد الاستاذ الدكتور طه حسين يسأله لدى التقائه به عن سبب نزوحه عن وادي النيل؟ فأخبره بأن هناك اسباباً كثيرة حملته على ذلك من بينها انتشار المخابرات في اكثر الشوارع والمنازل، والمنتديات. بحيث كان المرء يتحفظ في حديثه حتى مع اعز اصدقائه، بينما الرقابة كانت شديدة على الاقلام، والشعراء يطاردون، ويُزَجُّ بهم في السجون وكأنهم مجرمون.

وكان قد جرى بين ابي ماضي في اثناء تلك الزيارة وبين الأستاذ مخائيل نعيمة عتاب وعناق وذلك خلال الجلسة الحالمة التي جمعتهما في احد الايام في احد المقاهي الواقعة على شاطىء صخرة الروشة في بيروت. حيث كانا اثناء جلوسهما معا يشاهدان البحر وقد راح يشاركهما الضحك والابتسام، وذلك من خلال تلاطم امواجه التي تترك بعد تلاطمها تموجات بيضاء كان يتلو بعضها بعضا، وهي راقصة شادية. (١) وقد وجدا الذكريات تنتفض في آن واحد في صدريهما وخاصة منها ذكريات «الرابطة القلمية» واعضائها جميعا، وعلى رأسهم جبران خليل جبران حيث وجدا نفسيهما يقرران ان يحجا معا في القريب العاجل الى قبره في بُشَرّي، ولكنهما حينما وجدا أن الطريق الى الارز قد كان محفوفا بالمكاره في ذلك الشتاء ذي البرد القارس، عدلا عن القيام بتلك الزيارة، مكرهين». (٢)

وقد اعجب ابو ماضي اشد الاعجاب بتلك النفحة الروحية التي رأها مسيطرة

---

(١) السمير ١٦ شباط ١٩٤٩ م.
(٢) المرجع نفسه.

على عقول ابناء الشرق كافة الذين يرجع اكثرهم في كل شأن من شؤون حياتهم الى «القوة العليا» الغير منظورة وذلك كلما تحرجت لديهم الامور المنظورة وادركهم التعب في معالجتها.

وقد كان لتلك النفحة الروحية اثر فعّال حتى عند الحلاّق الذي كان ابو ماضي يحلق عنده ذقنه. فلمّا سمعه ذات صباح يهمهم ويتمتم بين الحين والاخر، وهو يحلق له ذقنه وبعد ادراكه بأنه لم يستوعب من تمتمته تلك سوى هذه العبارة «يا ارحم الراحمين» طفق يقول في نفسه: «إن الصلاة واجبة في المسجد، والكنيسة. وفيها للروح تعزية، وللقلب راحة، وهناء. غير أنها في الشرق ليست للمسجد وحده بل لدكان الحلاق أيضا..؟!. [1]

وحينما وجد ابو ماضي أحد الصحفيين يسأله ذات يوم من ايام زيارته القصيرة للبنان، أسئلة مُخرجة، تتعلق بقصيدته «الطلاسم». وهي اسئلة كان يرمي من ورائها الى معرفة ما اذا كان ملحدا في قصيدته تلك ام لا؟! أجابه قائلا: «انا لم اشكّ يوما واحدا، لذلك لم اؤمن يوما واحدا. ذلك لان لكل انسان إلهه، فالهي الذي اؤمن به، واعبده ليس ذلك الاله ذا اللّحية الطويلة الكثيفة، والصولجان الفولاذي، والحاجبين المقطبين، ذلك الاله المنتقم المتربص بل إلهي هو الجمال والرأفة والرضى والحنان». [2]

ولما وجد ابو ماضي ذلك الصحفي اللامع يسأله، وذلك في خلال مقابلته الصحفية التي اجراها معه عن رأيه الخاص في شعره الذي نظمه، أجابه بقوله: انني راض عنه؛ والبرهان أنني نظمته ثم قرأته، ثم نشرته، واذعته. ولكنني أريد أن اعرف رأي الناس فيه، أريد أن أعرف هل نَشّط شعري أمّة؟ هل مسح دمعة؟ هل خلق ابتسامة على ثغر حزين؟ هل دفع بغني لان يضع حسنة في كف فقير؟. [3]

وكان ابو ماضي قد جَرّب حياة الليل في بيروت حيث ذهب ذات ليلة برفقة بعض اصدقائه لتمضية سهرة هادئة في احدى «العلب الليلية» التي تتوافر فيها على

---

(١) السمير ٣ شباط ١٩٤٩ م.
(٢) السمير ١٧ شباط ١٩٤٩ م.
(٣) المرجع نفسه.

حد زعمه متعة العين والروح والاذن ». [١] وقد طرب اشد الطرب، وانتشى أشد النشوة لدى سماعه للمغنية التي كانت تُشنّف في تلك الليلة اسماع الحاضرين بصوتها العذب الشجي. فأوحى صوتها اليه وكذلك جمالها الرائع الفتّان بهذه الابيات المُرتَجَلة التي يقول فيها: [٢]

شَربَت عيناك رُوحيْ فهي في عَيْنَيْك سِحْرُ

واذابَ الحُبّ قلبي فهي في كأسي خَمْرُ

هذه الليلة دُنْيا كُلُّ ما فيها يَسُرُّ

لا تَقُل: ليلٌ ويمضي ليس لِلّذّة عُمْرُ

وقد غادر أبو ماضي في آخِرِ الليل تلك الصّالة التي جرَّب فيها نشوة المتعة البريئة وهو يقول لرفاقه الذين كانوا ايضا ساهرين معه في نفس تلك الصالة: إنّ حياة الليل في هذه الملا هي لا تَذْهَبُ بالمال وحدَه بل كثيرا ما ذهبت بالصّيت والصِّحّة، وليس في الدنيا شيء اغلى منْ هذين..» [٣]

وقد ختم ابو ماضي زياراته الكثيرة المتعددة هذه، بالزِّيارة التي قام بها لكلية البنات، وهي زيارة قام بها بناءً على دعوة خاصّة وجهتها اليه مديرة تلك الكلية السيدة سلوى نَصّار. ولم يكد يستقر به المُقام على الكرسي في احد الفصول حتى فُوجيء بأسئلة الطالبات الموجودات في ذلك الفصل، تنهال عليه منْ كلّ حَدَب وصَوْب: فهذه تسأله عن رأيه في «البَعْث والنُّشور» و « الحياةِ والموت»؟ وتلك تريد ان تعرف منه كيف نظم أوّل قصيدة له، وأخرى تريد ان تعرف لون بشرة ربّة إحدى قصائده الغزلية «أهي سمراء أم شقراء» [٤] وبعد ما طرحن عليه اسئلتهن المُحْرِجة تلك، وأجابهن عليها بدوره قدْر المُستَطاع، وجد الكثيرات يطلبن منه ان يوقع لَهُنّ في دفتر «التّذْكار». فنزل في الحال عند رغبتهن، ثم ودعهن بعد ذلك وودع اساتذتهن، والمديرة، وغادر تلك الكلية وهو يجر وراءه اذيال الفخر

(١) السمير ١٥ شباط ١٩٤٩ م.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) السمير ١٥ شباط ١٩٤٩ م.
(٤) السمير ٣ شباط ١٩٤٩م.

والإعجاب بملكته الشعريِّة الخلاّقة الفذّة.

وكان ابو ماضي قد تَلَقّىَ في السابع من كانون الثاني، اثناء زيارته للبنان، دعوةً من الحكومة السُّورية لزيارة دمشق فلبّى تلك الدعوة، وصدره مُثلج باسمى آيات الشّكر والامتنان. ولدى وصوله الى دمشق، أقيمت له في مدرج جامعتها الكبرى، حفلة تكريمية، نقلتها الاذاعة السورية. وقد حضر تلك الحفلة فخامة رئيس الجمهورية السيّد شكري القوتلي الذي ابى الا أنْ يُجْلس أبا ماضي عن يمينه، مظهرا بذلك شِدَّة اعجابه بوطنيته، وبقريحته الفيّاضة الخلاّقة. وبعدما ألقى أبو ماضيَ قصيدة عَصماء في ذلك الاحتفال، زيَّن فخامة الرئيس شكري القوتلي صدره بوسَام الاستحقاق السوري،[1] تقديراً منه لمجهوداته المشكورة في حقل الوطنية والشِّعر. فاغرورقت عينا أبي ماضي في تلك اللحظات بالدموع، دموع الفرح والحزن في آن معا. أما فَرَحه فقد كان مصدره تلك الحفاوة البالغة التي لقيها خلال حلوله ضيفا على الحكومة السورية وشعبها المضياف، وأمّا حزنه فقد كان مصدره انشغال خاطره على جريدته «السَّمير» التي كان قد أوْكل أمْر تحريرها واصدارها إلى شقيقه الاكبر مُرَاد اثناء غيابه عنها. ولما وجد ابو ماضي بعد ذلك بأيّام قليلة شقيقه الاكبر مُرَاد هذا يبعث اليه ببرقية مستعجلة طالبا منه فيها العودة الى نُيويورك، والاشراف فيها شخصيا على اصدار جريدته وذلك نظرا لكونه قد اضحى بدوره مُتعَب الجسم، ومحتاجا الى الراحة. استقل الطائرة من دمشق قاصدا نيويورك، حيث وصل اليها بتاريخ ١٧ كانون الثاني ١٩٤٩م. ولدى وصوله اليها استأنف فيها من جديد عمَلَهُ الصحفي. وهو عمل كان يُسَبِّبُ له الكثير من وجع الرأس والاجهاد، والعناء الروحي، والفكري.

ولقد ظل ابو ماضي بعد وصوله الى نيويورك، مُواظبا على اصدار جريدته، في مواعيدها المحدّدة، وكل ذلك مِنَ غير ان يعبأ لا بحاجة جَسَده المُتعب المنهوك الى الراحة والهدوء، ولا حتى بقلبه المريض الذي كاد في عام ١٩٥٠م أن يحمله الى عالم الابدية. حيث اوشك في تلك السنة على التوقُّف عن الخفقان، لولا رحمة الله

---

(١) السمير ٢ كانون الثاني ١٩٥١ م.

وعناية الاطباء. وقد اضطرَّ ابو ماضي بعد اصابته بنوبة قلبية حادة في ذلك العام بالذات الى دخولِ المستشفى، والمكوث فيها مدة شهرين متتاليين، غادرها بعدهما، عائداً إلى منزله، وهو مقتنع كل الاقتناع بأنَّ تلك الوَعْكة الصِّحية التي أَلَمَّت به على حين غِرَّة كاللص، والقت به على فراشه لم تكن شراً كلَّهَا، [١] وذلك لانها قد فتحت عينيه على حقيقة غالية، لم يكن من قَبْلُ جاهلا لها، ولكنَّه لم يكن يُوْليها حقها من العناية والتقدير. وهذه الحقيقة متجسدة، حَسَبَ زعمه، في كون حرية الانسان تظل له ما دامت له صحته، فاذا ما فقدها، تصبح شؤونه، كلُّها، بعد فقده لها، مرهونة بمشيئة الطبيب الذي يشرف على علاجه اثناء مرضه. فإذا ما وصف له طبيبه الذي يعالجه دواءً «عَلْقَميّ المَذَاق» وجب عليه أن يتجرّعه، وهو متهلّل باسم، وكأنه يذوق الشَّهد. واذا ما نهاه عن الحراك فعليه ان يتحوّل الى خشبة وان لا يشكو، وإنْ خدرت اعصابه وتصلبت اعضاؤه، وَتَقَصَّفَتْ عظامه من الجمود والسكون.. وإذا لاح للطبيب أن يَحُول بين المريض ومطالعة الجرائد والاصغاء الى الراديو، وأن يَحْظُرَ عليه استقبال الزُّوَّار، فالامر كلّه له. واذا نصح له ألا يتكلم إلا بمقدار فعليه ان يعد الكلمات التي تخرج من بين شفتيه. وإذا ما استطاع المريض أن يتهرب بعض التهرب مِن أوامر الطبيب، فليس باستطاعته أن يهرب مِنْ أوامر الممرضة التي تَحْرِص بدورها حرصاً شديداً على تنفيذ أوامرالطبيب التي هي في الحقيقة اوامرها. فإذا ما كان المريض مستغرقا في نوم هادىء لذيذ وخطر للممرضة ان توقظه فعليه ان يستيقظ وينسى احلامه ورُؤَاه. واذا كان مستيقظا يستمع الى الراديو او يطالع مجلة او كتابا وشاءت الممرضة ان يضجع فما اسهل من ان تناوله حَبَّة من حبوب النوم. ولا تمضي دقائق حتى تثقل اجفانه شيئا فشيئا، فيستغرق في بحر عميق من الكرى فيذهل وذلك حسب زعم ابي ماضي نفسه حتى عن الممرضة الا اذا كانت من ذوات الجمال فيحلم بها اثناء نومه.. [٢].

وقد كان ابو ماضي كُلَّما وجد نفسه شاعرا بالألم الشديد اثناء استلقائه عَلَىٰ فراشه في المستشفى، أو متضاقيا اشد المضايقة من اوامر طبيبه المشددة وتصرفات

---

(١) السمير ١٨ كانون الثاني ١٩٥١ م.
(٢) السمير ١٨ كانون الثاني ١٩٥١م.

المرضة حيّاله يردد قول الفيلسوف الالماني «نيتشه» : كلّ مصيبة تصيبني ولا تقتلني، فهي قُوّة جديدة لي». [1]

وفي العاشر من ديسمبر سنة ١٩٥٠م، غادر أبو ماضي المستشفى الذي ظل يعالج فيه مدة شهرين، وعاد الى منزله حيث لزمه مدة ثلاثة اشهر متتالية، من غير أن يقوم في خلالها بأي مجهود فكري او جسدي [2] وذلك بناء على أوامر طبيبه الذي كان مشرفا على معالجته اثناء وجوده في المستشفى. وبعد ما تماثل للشفاء، واستعاد قسما من صحته، عاد الى مكتبه في ادارة جريدته ليستأنف فيه من جديد جهاده الصّحفي المرير، وليس له من هَمّ، بعد عودته إليه، سوى هَمّ اعادة جريدته الى الصدور بعدما اضطر إلى حجبها عن القراء خلال فترة وجوده في المستشفى. وكذلك في منزله. وقد تَمكّن ابو ماضي بعد فترة قصيرة من جعل الحياة تَدُبُّ من جديد في اوصال جريدته تلك التي عادت للظهور مُجَدَّدا بعد احتجاب قَسْرِيَ دام عدّة اشهر.

وحينما وجد ابو ماضي ابنه البكر العالم الطبيعي الدكتور ريتشارد يعقد قرانه في السادس عشر من ايلول ١٩٥١م على فتاة اميركية تدعى ماري لويز في احدى الكاتدرائيات، القى في تلك المناسبة كلمة باللغة الانكليزية وهي اللغة التي شاء ان يخطب بها ولاول مرة في حياته، وذلك اكراما منه لعيني عروسة ابنه الحسناء تلك. وقد اقتطفنا من كلمته تلك قوله فيها :

«إن أحد الحكماء قال: لكي يُتمِّم الانسان واجباته في هذه الحياة عليه ان يفعل ثلاثة أمور :

١ ـ أن يؤلف كتابا.

٢ ـ أن يزرع شجرة .

٣ ـ أن ينجب ولداً.

الكتاب، لتظل المعرفة مستمرة في الدنيا. والشجرة لتبقى الحياة فيها اخلال

---

(١) السمير ١٨ كانون الثاني ١٩٥١ م.

(٢) السمير ١٠ ديسمبر ١٩٥٠ م.

والجمال. والولد لكي تستمر البشرية نامية. وانا اعتقد أني قد اتممت هذه الواجبات التي فرضها الحكيم القديم على الانسان. فاخرجت اربعة كتب علاوة على جريدة «السَّمير»، وزرعتُ بِضع شجيرات، ورزقني الله ثلاثة اولاد. ولمّا كانت هذه أوّل مرّة اخطب فيها باللغة الانكليزية اكراما لعروستنا التي احببناها كلّنا من قلوبنا، فكل ما اتمناه لريتشارد ولها، أن يؤلفا كتابا، وان يزرعا شجرة وان ينجبا ولدا وأن تباركهما الحياة، وتملأ قلبيهما بالاماني الحلوة وتملأ بيتهما بالبَرَكات..

لقد كان ابو ماضي خلال القائه لكلمته هذه، في تلك المناسبة السعيدة، شاعراً في قرارة نفسه بأنّه قد استطاع أنْ يُتِمّ تلك الأمور الثلاث التي أَوصى بها ذلك الحكيم كلَّ انسان طامح إلى إتمام واجباته في الحياة. فَهْو بَدلا من ان يُؤَلِّفَ كتاباً، واحداً، استطاع ان يؤلف خمسة دواوين، وأن يؤسس بالإضافة إليهم مجلته، ثم جريدته «السَّمير» وهو بالرغم من عدم تمكنه من ان يزرع شجرة واحدة طوال حياته، فقد تمكن من زرع بعض الاعمال الخَيِّرَة الانسانية في ارض طيبة، قد اثمرت ثمارا يانعة فيما بعد. إذ إنَّه قد كان له اليَدُ الطُّولَى في بناء مستشفى «تَلّ شيْحا» ومَصَحّ «ضَهْر البَاشق» (١). حيث كان يحث المهاجرين على صفحات جريدته على التبرع بسخاء منْ أَجْلِ إتمام هذين المَشروعين الخَيِّرين.

وحينما حَدَثَتْ الهَزَّةُ في لُبْنان، وفاض نهر «أبو علي»، وسبَّب فيضانه التَّشريد، لمئات العائلات في سنة ١٩٥٦م، راح ابو ماضي يدبِّج المقالاتِ وينشرها على صفحات جريدته، حاثا، منْ خلالها، المهاجرين على التبرع بسخاء. وقد جاء في احدى مقالاته تلك قوله: (٢)

«... كُلّما لاحت لِخيالي هذه المشاهد، الكئيبة، المحزنة، المزلزلة للروح، أحسستُ كأنّ كلّ قطرة من روحي تهتف بي: إلى النجدة، الى النجدة، الى النجدة. هذا وقت المَدَد والمعونة. بل هذا هو الوقت الذي يبرهن فيه الانسان عَمّا أودع الله فيه منْ عطف، وحنان وحبّ لأخيه الانسان.»

فَهْوَ حينما كان يشارك ابناء وطنه المقيمين منهم، أو المغتربين، في افراحهم

---

(١) السمير ٧ شباط ١٩٤٩ م.
(٢) السمير ٢٨ آذار ١٩٥٦م.

ومصائبهم لم يكن يبغي من وراء مشاركته لهم أيَّ مَطلب شخصيٍّ، أو هدف ماديّ. إذ كان بطَبْعه ميّالا الى التواضع. وتواضعه هذا قد تجلّى بأجلى مظاهره في الكلمة التي القاها في الحفلة التي اقامها على شرَفِه اعضاءُ الحِلْف الشّرقيّ في نيويورك، في التاسع من شهر تِشْرين الثاني ١٩٥٢م. حيث نراهُ يقول في كلمته:(١)

وبَعْدُ أيُّها السّادة.

إذا كان شاعر مِثْلي يستحقّ أن يُكافأ، لأنّه سلّط مصباحه على ناحية جميلة في الحياة، ليراها الناس. فكم يستحقّ الذين وضعوا الزَّيت في مصباحه. وكم يستحق الذين وضعوا المصباح في يده؟ «صَدّقوني، إنّكم اكرمتموني من قَبْلُ، بل اكرمتم كُلّ شاعر انسانيّ عندما مسحتم دَمْعَ اليتيم، وكَسَوْتُمْ جسد العاري. وضمّدتم جراح الطّعين. وأمَّنْتُمْ الخائف، وانصفتم المظلوم أمّا أنا فمعتقدي هُوَ أني لا استحقّ المُكافأة، ولا يَحِقّ ليْ أن أطلبها، لأن الشاعر عندما تنفتح عيناه على جمال في الطبيعة، أو في النّاس، لا تَتِمّ سعادتُه ولا تكمُل مهمته، إلا اذا نَقَل ذلك الجمال إلى كلّ العيون».

ولقد كان أبو ماضي، كُلَّما ازداد تقدّماً في السِّنّ، كلما ازداد تكاثر الحُساد والاعداء من حَوْلِهِ

فكَان عدد حسّاده يتضاعف سنة بَعد سنة، وخاصّة بعدما وجدوه يحتفل احتفالا مَهيباً في اوتيل سان جورج - بنيويورك - في الخامس منْ كانون الاوّل سنة ١٩٥٤م باليوبيل «الفِضّيّ» لجريدته «السَّمير». وقد شارك في هذا الاحتفال الكبير عدد غير قليل من رجال الجالية العربية في المَهْجر الشّمالي. حيث وجد أبو ماضي نفسه يقف خطيبا فيهم، وقوف الظافر، المنتصر بقوّة عزيمته، وصبره، وجَلَده، على عواصف الزَّمن، وتقلبات الاحداث.. إذ إنّه قد توخّى في خطبته تلك أنْ يشكر اصدقاءه الذين ساعدوه في جهاده الصَّحَفيّ، المرير، كل المساعدة كما توخّى أيضا فيها أن يشكر اعداءه الذين «لولا عبثُهم به - حَسَبَ زعمه - لما استطاع أن يقترب من عالم اللّألاء والنُّور». (٢)

---

(١) السمير ٢٧ تشرين أول ١٩٥٢ م.
(٢) السمير ٧ كانون أول ١٩٥٤م.

وقد خص بشكره أيضاً في تلك المناسبة، رفيقة حياته، قرينته الفاضلة السيدة دورا التي ظلّت، له طوال حياته، نِعْمَ القرينةُ، والرفيقةُ. وقد اخترنا من خطبته الطويلة تلك قوله:

«... تَزدهم الآن في نفسي، وتَضجّ ذكريات كثيرة، ذكريات حوادث مرَّتْ بي، وذكريات اناس مررت بهم في طريق العمر، واكادُ أهُمّ وأنتمْ تحتفلون بعيد «السَّمير» أن أقصّ عليكم حكاية هذه المؤسسة الادبية، وكيف نشأت؟ وكيف كانت الدنيا وكان الناس عندما نَشَأتْ...؟ فهذه كلها من التاريخ تاريخ القلم العربي في المهجر الشمالي الاميركيْ وفي هذا الموقف يطيب لي أن أحَيّ رفقائي في «السَّمير» والايدي والاقلام التي اعانتني في جهادي القريب منها، والبعيد. وأخُصّ بالشكر شخصا لم ينضّد في «السَّمير» حَرْفاً، ولم تنشر له «السَّميرُ» مقالا ولا قصيدة، ولكنه كان الملاك الحارسَ «للسَّمير» ولي. فمن هو هذا الشخص؟ هو هذه السيدة الجالسة إلى يميني. فلو لم تكن هيَ هيَ، لما استطعتُ أن اكون أنا أنا! أعني رفيقة حياتي. وهناك شخص آخر، ذو فضل جَمّ على «السَّمير». كنتُ اتمنى لو أنَّه حاضر معنا، لتحيط به هذه العواطف المحيطة بي، اغني به شقيقي مُراد الذي منعه من الحضور تَوَعُّكُ صِحَّته..».

وكان ابو ماضي في السنوات الاخيرة مِنْ حياته عازما عزما اكيدا على مواصلة الجهاد، والكفاح وعدم الاخلاد الى الراحة التي كان جسده المنهوك، وفكره المكدود، قد أصبحا محتاجين اليها كل الاحتياج. وهو قد كان كُلّما نَصَحه أحد الناصحين، طالباً منه أنْ يوقف جريدته «السَّمير» عن الصدور، ليتمكن بعد ايقافها من ان ينال قِسْطا مِنَ الراحة، راحة النَّفْسِ والجَسَدِ، يجيبه قائلا: (١)

ما دام بريق الحيَاة يشع في عينيّ فأنا مُداوم على مَهَمّتي في هذه الدِّيار..»

وكان للوسام الذي منحه إياه سيادة المطران ايليا كرم، خلال احتفال ابي ماضي «باليوبيل الفضيّ» لجريدته «السَّمير» أبلغ الأثر في نفسه. إذا إنه «وجد في هذا التقدير رمزاً خطيراً وشرفاً كبيراً» وهو تقدير استمد منه قوته المعنوية التي ظلت

---

(١) السمير ٩ كانون أول ١٩٥٤ م.

تساعده كل المساعدة في الايام المتبقية من حياته. «على مجالدة التجارب والتغلب على الشر بالخير» [١] مُتوخياً أن يظل دائما وابداً جديراً بحمل هذا الوسام ومُستحقاً له كلّ الاستحقاق [٢].

وقد وجد ابو ماضي في عام ١٩٥٥م جسده الذي ظل يتعبه بلا هوادة أو رحمة مُدَّة طويلة، قد بدأ يضعف شيئا فشيئا ضعفا بلغ به حَدَّ الوَهن. وبدلاً من أن يوقف ابو ماضي جريدته تلك عن الصدور، ايقافا نهائيا، نظرا لشعوره بالضُّعف والكلل. قرَّر أن يتابع اصدارها ولكن ثلاث مرات في الاسبوع، بدلاً من الخمس مرّات. وهو لم يقدم على القيام بهذه المغامرة الخطيرة إلا بَعدما حَصَل على موافقة أكثر مُشتركي جريدته الكرام [٣].

وفي تلك الاثناء راح أبو ماضي، يجمع قصائده التي نظمها بعد اصداره لديوانه «الخمائل» في سنة ١٩٤٠م مُؤمّلاً أن يجعلها بين دفّتي ديوان جديد له، كان قد اختار عنوانه بنفسه ألاَ وهو «تِبْر وتُراب» ولكنَّ المَرَض - مرض القلب - فاجأه من جديد. فاضطر بسَبَبِه إلي الدُخول إلى المستشفى سنة ١٩٥٧م. حيث مَكثَ فيها مُدَّة شهرين تقريبا. فها هو يقول مخاطباً بلهجة، حزينة، مُؤثِّرة، وهو راقد على سريره في المستشفى مشتركي جريدته «السَّمير» طالبا منهم الصَّفح والغُفْران، لاضطراره لِحَجب «سَميره» عنهم ريثما يستعيد منْ جديد صِحَّته، وعافيته التي خَسِرها منْ اجلهم وَحدهم، ليس إلاّ [٤].

« إلى قراء «السمير» ومحبيها، وما انصارها، ومحبوها، إلا اخواني، وأصدقائي، أُوجِّه هذه الكلمة، وأنا في المستشفى، منذ أيام لِعِلَّة لم تَكُن في الحِسْبان. وليست العِلَّة التي اعانيها، بالعِلَّة التي لا تُداوى، ولكن طور النقاهة منْ أيَة عِلَّة يستغرق وقتا وقد نصح لي الاطباء بالانقطاع عن العمل والتفكير، انقطاعا تاما، مُدَّة تتراوح بين شهرين على الاقل، وثلاثة أشهر، على الكثير. ويريدُ الطبيبُ

---

(١) السمير ٩ كانون أول ١٩٥٤ م.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) اسمير ٢ حزيران ١٩٥٥م.
(٤) السمير ٢٨ حزيران ١٩٥٧م.

منّي أن اكون بعيداً عن كلّ أمر مزعج. ولا سبيل إلى ذلك إلا بوقف «السّمير» عن الصُدور، وهي هُدنة بين الجسم المتعب، المنهوك، والعمل. وهي فُرصة تتيح لكل واحد منّا أن يفكّر في أنّ الاستجمام ضروري للإنسان سواء أكان كاتبا، او تاجرا، او عاملا او فنانا.. وإلى أن تنقضي هذه الهُدْنة او العطلة نسأل الانصار ان يواصلوا صاحب «السّمير» بالدُّعاء».

وبعدما بدأ ابو ماضي يتماثل للشفاء، غادر ذلك المستشفى الذي كان يعالج فيه، بعد ان سمح له بذلك اطباؤه، وعاد إلى منزله حيث لَزِمَه بَعْد ذلك مدَّة ثلاثة أشهر تقريباً. كان في خلالها يترقب الفُرصَة السانحة التي يتمكن في خلالها من اعادة اصدار جريدته «السّمير» التي ظل يعمل طوال حياته على ابقائها ناميةً حيّة في حياته، وبعد مماته. ولكنَّ الأقدار أبَت أن تحقق له ما كان يرغب، ويشتهي. إذ إنّه قضى نَحْبَه فجأةً بالسَّكتَة القَلبية في الساعة الرابعة من ليلة الثالث عَشَرَ مِنْ شَهْر نوفمبر ١٩٥٧م [1].

غادر ابو ماضي هذا العالم الفاني، بعد أن ترك فيه مَجْدا شعريا لا يقلُّ بحال من الاحوال - عن المجد الشّعري الذي تركه كبار الشعراء - الأفذاذ في أدبنا العربي.

---

(١) مقابلتي للسيدة دورا ابي ماضي قرينة شاعرنا في منزلها بيروكلن - نيويورك عام ١٩٦٣ م.

نثره

عَرَف النَّاس أبا ماضي شاعرا يُحبّب إليهم «الحياة»، ويدعوهم «للابتسام» كُلَّمَا رماهم الدهر بسهم من سهامه الطائشة.. ولكنهم لم يعرفوا شيئا عن أبي ماضي «الكاتب»، لأنَّ آثاره الأدبية ما زالت غير مطبوعة حتى عصرنا الحاضر.

وكان ابو ماضي نفسه قد بدأ يفكر قُبَيْل وفاته بحجب جريدته «السَّمير» عن الانظار، ليتمكّن مِنَ الانصراف انصرافا كُليًّا إلى العناية بآثاره الادبية، علّه يتمكن من جمعها في كتاب قبل ان يسحب النسيان ذَيْلَه عليها.

ودليلي على ما أقول، تلك الرسالة التي بعث بها أبو ماضي عام ١٩٥٧م إلى الاديب مُحْسن جَمَال الدين وقد جاء فيها قوله: «تسألني عن منظوماتي الجديدة إنها أشياء مبعثرة هنا وهناك، وبعضها مشى عليه النسيان. أمَّا «السَّمير» فهي الآن محجوبة لِمَرض أصابني منذ اربعة اشهر، دنا بي منْ عالم الابدية. ولَمَّا برئْت منه قَرَّرت اعتزال الصحافة والانصراف الى العناية بآثاري الادبية بعد ان استوفي نصيبي مِنَ الراحة.» (١)

فهذه الآثار الادبية التي فكَّر ابو ماضي أنْ يعتني بجمعها قبل وفاته بأشهر قليلة، ليست في نظرنا سوى «يَوْمِيَّاته» التي كان ينشرها تَبَاعا في جريدته «السَّمير» وقد بلغ بعضها حدّا من الرَّوعة والإجادة في الاسلوب، والمَعْنى، جعل الاستاذ مخائيل نعيمة، بالرغم من مواقِفِهِ العدائية المعروفة من شخصية ابي ماضي،

---

(١) مجلة الأديب فبراير ١٩٥٨م. الجزء الثاني - السنة السابعة عشرة.

وأدبه، يدلي برأيه الخاص فيها حيث قال: « فيما يتعلق بنشر ادباء المهجر الشّمالي، فلا يوجد في نظرنا سوى مقالات جبران خليل جبران التي تستحق النشر والاهتمام، وكذلك « بعض » المقالات التي كان يكتبها ايليا ابو ماضي ». (١)

وكان الشاعر المَهْجري جورج صَيْدح، الذي اشرف بنفسه على طبع ديوان ايليا أبي ماضي المُسمّى « تِبْر وتُراب » بعد موت صاحبه عام ١٩٥٧م. قد حاول جاهدا ان يجمع هذه اليَوْميَّات، وأن يَضمّ إليها بعض « المقالات »، لعله يتمكن من طبعها في كتاب، ولكنه لم يتمكن من العثور إلا على عدد قليل منها لا يَفيْ بالغرض المطلوب. (٢)

أمَّا نحن، فقد قاد الحظ خطانا، أثناء وجودنا في نيويورك، الى منزل ايليا ابي ماضي في حي بروكلن. حيث قابلتني زوجته دُورا وولداه ريتشارد وبوب بالتَّرحاب. ولم يبخلوا عَلَيَّ ببعض المعلومات التي طلبتها منهم، ولم ينكروا وجود اعداد جريدة « السَّمير » لديهم. وهي الاعداد التي توجد فيها تلك « اليوميات ». بعد أن ظَلُّوا ينكرون وجودها عندهم سنين طويلة لاسباب قد نَجْهل سِرَّها. فسمحوا لي بالاطلاع عليها، وبنسخ، ونقل ما أشاء منها. وحينما وجدتُ أنَ الوقت لن يسمح لي بنَسخها، او تصويرها كلها لجأتُ الى صاحب الجلالة « المِقصّ » فأعانني على الاحتفاظ سِرّاً بعددٍ لا يستهانُ به منها..

وكان ابو ماضي قد كتب بعض « المقالات » اثناء اقامته في - سنسناتي أوهايو - بين عامي ١٩١٢ - ١٩١٦م. وقد نشر اكثرها في جريدة « مِرْآة الغرب » فجاءت مقالاته في تلك الفترة من حياته ضعيفة الاسلوب، سطحية المعاني. وقد كان يَتَعَرَّضُ في اكثرها لخصومه الذين كانوا يناصبونه العَداء، ويعارضون آراءه السياسية المتطرفة في تلك الايام. (٣) أما « مقالاته » التي كان ينشرها في « مِرْآة الغرب » بعدما أصبح محررا لها عام ١٩١٨م. فلم أتَمَكَّنْ من الحصول عليها في آيَّة مكتبة عربية أَو اميركية في نيويورك. وقد قيل لي إنَّ الحريقَ الذي شَبَّ في إِدارة تلك الجريدة قد أتى على اكثر هذه الاعداد.

---

(١) مقابلتي للاستاذ مخائيل نعيمة في منزله الكائن في بسكنتا - وذلك في سنة ١٩٦٤م.

(٢) مقابلتي للاستاذ جورج صيدَح وذلِكَ في منزله بباريس - عام ١٩٦٣م.

(٣) استطعت العثور على اعداد جريدة مرآة الغرب التي صدرت بين عامي ١٩١٢م و١٩١٦م. في مكتبة القلعة - بالقاهرة - مصر.

فمعرفتنا إذاً لآثار أبي ماضي النثريّة تبدأ بحلول عام ١٩٢٩م؛ وهو العام الذي قرّر فيه اصدار مجلته الادبية «السّمير».

وقد اخترتُ منَ مجلته تلك مقالا له كتبه بعنوان «المرأة في الشّعر العربي» حيث تحدث فيه عن دور المرأة في المجتمع العربي القديم، وكيف انّ الشعراء القدماء حينما وصفوها وتحدثوا عنها جاءت اوصافهم لها، وآحاديثهم عنها آحاديثاً وأوصافاً خارجية سَطحية، لا أثر فيها للمعاني المبتكرة، او التحليلات النَّفسية الدقيقة. بل استعاروا في أوصافهم لها أوصافا كان يصفها بها شعراء عاشوا في عصر يختلف عن عصرهم وفي بيئة تختلف عن بيئتهم في شتى الوجوه والحالات. فهي وان كانت قديما ساكنة في الخيام وعلى وجهها بُرْقُع لا يظهر من خلاله سوى عينيها. اصبحت في عصرنا الحاضر لا تطيق المكوث طويلا في دارها، ولا أن ترى بُرْقُعاً يغطّي وَجْهَهَا، وخاصّة بعدما حصلت على حريتها، واصبحت تتمتع بنفس الحقوق التي يَتَمَتَّعُ بها الرجل في المجتمع. فلا يجدر بنا إذاً أن نظل نصفها بما كان يصفها به شاعر قديم حيث كان ينظر إليها، فلا يرى فيها، سوى أنّها سِلْعَة تُبَاع وتُشْترى: «ويحزنك (قال ابو ماضي) أن تجد في النّاس من يطرب لوصف وجه المرأة بالقمر، وتشبيه قدّها بالخَيْزرانة، ووجهها بالفجر. إنّ المرأة أكثر من وجهها، وشعرها وخدّيها، وثغرها وجيدها. وليس أحقّ منَ الشعراء بالتنقيب عَمّا في نفسها وقلبها من الكنوز الثمينة. فأيُّ خيال هذا، أنْ يقول شاعر تَقَدَّمَكَ بألف سنة أنّ وجه المرأة كالقمر، فتقول انتَ أنّ وجهها هو القمر؟ وأنْ يزعم انها تضحك عن بَرَدٍ نَظيم، فترددُ أنتَ هذه الاستعارة كأنك الصّدى»[1].

ولم يكتف أبو ماضي بالتّعريض بهولاء الشعراء المُحْدَثين الذين لاهَمَّ لهم سوى تقليد القدماء في اوصافهم، ومعانيهم. بل راح يُعرّض اشد التعريض ببعض الشعراء الذين يَتَعمّدون «معارضة» القصائد القديمة المشهورة، لاعتقادهم بان تلك المعارضة ستجلب اليهم المجد، والشهرة، وستجلسهم على عروش من ذهب:[2] «وليس في المعارضة بمعناها الحاصل في الاذهان (قال ابو ماضي) شيء منَ الفائدة، ولا الجمال إلاّ إذا عَمَد اليها المَرء في أوّل عهده بالشعر لِلمران. فمَنْ تعمّدها بعد انقضاء هذا الدور عليه، فقد كتب على نفسه أنّهُ لا يزال في مكانه الأوّل. اذ لا

(١) السمير ١٥ نيسان ١٩٢٩م.
(٢) السمير ١٥ آب ١٩٢٩م.

يمكن ان يكون المرء شاعرا بالمعنى الصحيح، حتى يخرج من هذه الحومة وَيسْتَنَّ لنفسه سَنَنَاً خاصّاً به، ويطلُع على النّاس بآية مِن عندهِ لا آثر فيها لبِنات غيره. فالشاعر المطبوع لا يقلد». وإنا لنجد أبا ماضي في إحدى مقالاته، يتناول قلمه، ليرسم لنا من لوح الذاكرة صورة «كاريكاتورية» لصديقه جبران خليل جبران. فجاءت صورته تلك صورة، حَيَّة، معبِّرة اصدق تعبير عن أدب صاحبها وَشخصيته، وموضحة كُلَّ التوضيح لنفسيته، في شتَّى حالات بُؤسها، ونعيمها وعاداتها وتقاليدها: «إِنَّه رَبْعَةُ القامة (أي جبران) بل هو إلى القصَر أميل. أبيض البشرة. في ملامحه يقظة وبشاشة. تطالع في وجهه الوسيم طهارة الطِّفل، ووداعته. هو فوق الثانية والاربعين مِن عُمره ولكنه لأَمْرٍ مَا لا يحبّ أن يسمع أنَّه جاوز هذه السِّنّ. وهذا غريب من جبران الذي يعتقد بالولادات المتعدّدة. فهو يحمل عصا عند خروجه للتَّجوال، ويرتدي قميصا لينة الطوق. أمَّا الطَّوق الابيض المَكْوي، فلم يُر قطُّ حول عنقه. وهو لا يَتكَّلم إلاَّ اللغة العاميَّة أيَّا كان محدّثه. ويجد لذَّة في ذلك ويطرب كثيرا للحكايات العامية، والقصص التي تُرْوىٰ عن القرويّين.. ولوع بالموسيقى الى درجة قصوى، ولاسيَّما الموسيقى الشرقيَّة. يكتئِبُ كثيراً، ولا يغضب إلاَّ قليلا. أى إِذا جاء أَمْرٌ على غير ما يتوقَّع او يودّ إربَدَّ وجهه أسفاً وجزعاً. فاذا تكلَّم، وهو في تلك الحالة، لمستَ مِنْ الفاظه الدُّموع تنحدر مِنْ قلبه إِلى قلبك. وقد يكون الامر لا يستحق الحزن، ولَكنَّ جبران يحزن له، ويتأثر حتى إِنّه ليرى في الدُّعَابة فاجعة». (١)

فهذه الصُّورة الحيَّة، المرسومة بدقَّة، وعناية، أَظهرت لنا بجلاء نفسيَّة جبران خليل جبران حيث بدا مِنْ خلالها طِفلا، وديعا، يضيق صدره بالنقد البنَّاء، ويبكي لأتفه الاسباب وهو يكره كلَّ الكره، بالرغم مَنْ تحسُّن احواله المادية، أن يلفّ حول عُنُقه طوقا ابيضَ، مكوياً، جذّابا. ومما لفت نظرنا في هذا المقال إتِّهَامُ ابي ماضي فيه لجبران بالسَّرِقة والاقتباس: «وفي كتابه المَجنون (قال ابو ماضي) بعض حكايات شَرقيّة، متداولة على السنة الشيوخ، والعجائز فيْ لبنان كحكاية الطائر الذي اشتهى عند الشروق ثَورا، كبيرا، وأكَلَ عندما استقام الظِّلُّ دودة حقيرة. وهو أكثر الادباء مطالعة، ولكنَّك لا تجد لذلك أثرا في حديثه، أو كتاباته إلاَّاذا كنت من مَهرة

---

(١) مجلة السمير ١ كانون أول ١٩٢٩م.

النُّقاد..» (١). ولم يَخفَ على جبران ما جاء على لسان ابي ماضي في ذلك المقال منْ تعريض به، وبأدبه. لذلك وجدناه يقول له لَدَى التقائه به في أحد الأيام صُدْفة في محطة الصَّبْواي في نيويورك: لقد كان بأمكانك يا ايليا ان تكتب عَنِّي أحسن منْ هَيْك..» (٢)

أمَّا الشاعرُ المهجريّ رشيد أيُّوب فقد رأى أبو ماضي أنَّه شاعِرٌ تَقرأ شعرهُ فيُخَيَّل إليكَ أنَّ رُوحَهُ قاتمة مكفَهِرَّة كسماء كانون في ليلة دكناء وأن قلبه كالرَّبْع الخالي لا نَبْتَ فيه ولا ماء. ولكن هذا الباكي في قوافيه ليس كَمَا يُوهِمك شعرُهُ فهو قَلَّما يُرَى غير مُتَهَلل وقَلَّما حضر مجلساً إلاَّ وحضرت معه النادرة المستملحة والنكتة المستحسنة. وأمَّا قلبه فهو قَلْبٌ طاهرٌ بريء، وأمَّا أفته الوحيدة فهي كونه يحبّ القهوة السَّادَة التي لا سُكَّرَ فيها لأنَّها تُنَبِّهُ الدِّماغ ولكنَّه يشربها وينام «وإذا ما نام رشيد فقد تعَطَّلَت حركة الكائنات وألقى اللَّه على الدُّنيا السُّبات»(٣). وقد تعمّد رشيد ايوب فيما يبدو الا يجعل قلبه مغرما بذوات الحسن والدلال لذلك أبى كل الاباء ان يجعل طيف حوَّاء يطرق مخدعه ولو حتى في المنام: «نام آدم قديما (قال أبو ماضي) فأضاع ضلعا ووجد بعده انيسة لطيفة اما رشيد فانه على كثرة ما يَغْفَى، لم يفقد بعد قلامة ظفر، ولم يكسبه النوم حتى خيال حسناء، وإلا لسمعناه يتغزل بالطيف كبعض الشعراء. استعصى حاجباه على الشيب فكلما جاء فؤاده ولمته بالحجج البيضاء الناطقة على كونه قد تخطى عصر الشباب منذ عهد بعيد، انبرى الحاجبان الاسودان يفندان ويكذبان. فقد ابيضت سوالفه معلنة تخطيه عصر الشباب ولكنه تعهد حاجباه وشعره بالخضاب..» (٤). وفيما يتعلق بحب رشيد ايوب للمظاهر الغشاشة الكاذبَة وشدة تعلقه بحقيبته الجلدية التي يظن من يراها وهو يحملها بأنها تحوى جواهر ولآلىء. فقد تحدَّث ابو ماضي عنها بأسلوبه الساخر، في مقاله هذا، وذلك حيث قال: «يقضي رشيد معظم نهاره في القسم الاعلى من المدينة (أي نيويورك) حيث تُجَّار السَجّاد، والبضائع البيضاء والجلابيب المهللة، ويرجع عند المساء الى منزله في بروكلن مثل التجار. وأَيًّا رأيته، رأيت في

(١) السمير ١ كانون الاول ١٩٢٩م.
(٢) السمير ١٥ كانون الثاني ١٩٣٥م.
(٣) السمير ١٥ حزيران ١٩٣٢م.
(٤) السمير ١٥ حزيران ١٩٣٢م.

يده حقيبة صغيرة، تحسبها لشدة تمسكه بها مَلأى بالحُليِّ والجَواهر أو الصكوك والسندات المالية، او بالاوارق والوثائق السياسية السِّريَّة، ولَكِنَّ شيئا من هذا ليس فيها، فالجواهر تجهل الطريق الى حقيبة الشاعر. وإنَّ اكتشاف سر «ابي الهَوْل» اسهل من اكتشاف السر المدفون في هذه الحقيبة الغريبة اللون، والشكل. فهو لا يفتحها امام احد ولعل الافضل أنْ تبقى مقفلة فما فيها غير أوراق تَحْوِي اعترافات المُسَوكرين على اعمارهم، وتقارير الاطباء عنهم».

فبالاضافة الى هذه المقالات «النقدية» اللاذعة التي اجاد ابو ماضي في كتابتها، أيّما إجادة، فهناك بعض المقالات الاجتماعية التي كان يهدف من وراءها الى اصلاح الفرد والمجتمع. ومن بين هذه المقالات مقال له كتبه بعنوان «سَمِعتُ» وقد تعرض فيه بالنقد لفئة من الناس رأهُم لا هَمَّ لهم في الحياة سوى تلفيق الاخبار، واختلاق الاكاذيب، واتّهام العباد. فأراد أن يحذّرنا من شرّ هؤلاء المفسدين حيث نراه يطلب منهم الاقلاع عن تلك العادة السَّيِّئة المتأصِّلَة في نفوسهم، لكي لا يُسَبِّبُوا لضحاياهم الكثير من المتاعب والآلام: «إنني والله، (قال ابو ماضي) لا احذر الاسد الضاري انطلق منْ عرينه في طلاب الفريسة، كما احذر هذا الذي يأتيني متكلفا الابتسام ويقول لي «سمعت» وَتلُحُّ عليه أن يُسَمِّى لك الشخصي الذي فاهَ بما نقل اليك، فَيَتَخَلَّص منك قائلا: كنتُ أَوَدّ أنْ أُسَمِّيه لَكَ لتعرف عدوك من صديقك، ولتعلم ما في اخلاق الناس منْ ضَعْف. ولكنّني اخشى إذا انا سَمَّيته لَكَ أنْ تذهب اليه وتعاتبه». [1] وقد نصحنا بألاَّ نعيرَ هؤلاء المفسدين أُذنا صاغية لكي يَرْعَوُوْا عن غَيِّهم، وضلالهم، لاننا اذا اصغينا اليهم، ونحن نعلم أَنَّهم كاذبون اصبحنا شركاء لهم في الذنب وتقع علينا المسؤولية كما تقع عليهم: «وعندنا (قال ابو ماضي) أنَّ مَنْ يصدِّق الأَفَّاك مرّة فهو انسان فيه شيء منْ سَذاجة الطفل، وطهارة الملاك. فإذا صدَّقه مَرَّتين فهو «إنسان» فقط، أَمَّا اذا اصغى إليه بسمعه وهو يعلم انه آفَّاك، فهو شيطان يُصغي إِلى شيطان». [2]

والنَّاس في كُلِّ المجتمعات هم الناس. إذْ لا شُغْلَ لهم ولا عَملَ سوى التَّجْريح والانتقاد.

---

(١) السمير ١ حزيران ١٩٢٩م.

(٢) المرجع نفسه.

ولا احد ينجو من السنتهم مهما يتحاش الدنو منهم، أو الابتعاد بمسكنه عن مساكنهم .. فما علينا إذاً إلاّ أنْ نهيئَ انفسنا لتقبل اتهاماتهم الباطلة لنا بصدر رحب. وابلغ ردّ لنا على تلك الاتهامات هو «الصمت». فلنفعل ما يحلو لنا ان نفعله، ولنقل ما يحلو لنا ان نقوله، ما دامت ضمائرنا مرتاحة كل الراحة لما نقول ولما نفعل: (١)

«فان كان الانسان فقيرا فهو في نظر الناس (قال ابو ماضي) كسول سيّئ التقدير لا عقل له.

واذا كان غَنيّاً، فهو ذكي، ولكِنه غير صادق ولا مستقيم.

واذا لم يشتغل بالسِّياسة فهو مقصِّر بواجبه نحو بلاده.

واذا اشتغل بها فهو نفعي، أَو طالب منصب.

واذا ذهب الى الكنيسة فهو مرائيّ.

واذا لم يذهب فهو كافر او مستهتر بالدِّين.

واذا تصدّق او تبرّع للخير فهو يفعل ذلك للشّهرة.

واذا امسك يده عن الاحسان فهو بخيل.

حتى «الصحافي» الذي يخشاه الحكام ويطلب رضاه محترفو السياسة وأرباب المال فلم يعفه الناس من السنتهم: حَسْب زعم أَبي ماضي (٢):

«فاذا ما رأوه ضاحكا اتهموه بالنزق والطيش.

واذا طالبَ المشترك فهو لا يثق به او لا يحترم شواعره.

واذا لم يطالبه؛ فهو غير محتاج إلى بدل الاشتراك.

واذا لزم مكتبه قالوا: لماذا لا يخرج لتسقط الاخبار.

واذا خرج لتسقط الاخبار قالوا: لماذا لا يلزم مكتبه، ويهتمّ بأشغاله».

ولقد كتب ابو ماضي «مقالاً» جَعَلَ عُنوانه «نيويورك» ناسبا إياه لشاعر مجهول فيها. ولم يكن ذلك الشاعر المجهول في نظرنا سوى ابي ماضي نفسه.

---

(١) السمير ١ حزيران ١٩٢٩م.
(٢) السَّمير ١٥ حزيران ١٩٢٩م.

وقد رأيناه يحدثنا في مقاله هذا عن مدى شعوره بالضجر والاسى من إقامته الدائمة في تلك المدينة الصَّاخبة التي شَبَّهها بالغادة المنحوتة من رُخَام. والتي تسحق بقدميها كُلَّ من يقترب منها، بعد أن تكون قد حطَّمت روحه بدولابها تحطيما. فها هو يخاطبها من اجل ذلك بلهجة ملؤها العتاب، والشكوى، قائلاً لها: (١)

« نيويورك » قد حطمت أرواحنا على دولابك..

وَسَحَقْتِنا تحت قدميك.

خذيني .. ايتها الغادة الرُّخَام.

واجذبيني مَرَّة أُخرى إلى صدرك.

فما أنا غير انسان ضعيف كسائر البشر.

قَبِّليني قبلاتِكِ العابسة، الباردة كحديدكِ.

والمسيني متَحَبِّبةً باناملك الحَجَرية.

ثم اقذفي بي هازئة ساخرة

إلى أعماق الظَّلام وحدي..

سأهجُرك أيتها المدينة الهائلة.

وأفر من سكانك الذين يتحركون كالاصنام.

واهرب من شوارعك المفروشة بالحَصى

الى سكينه القفر، وسلام الغابة.

ولَكِنْ سأعود اليكِ

سأعودُ للبحث عن اللَّبن، والعسل في الحديد، والحجر.

وامشى الى النهاية مهشم الجسم، والفكر، والروح.

ايتها المدينة التي تسمن وتَذْبحُ

كم عافكِ قَبْلى أُناس

---

(١) السمير ١ كانون الأول سنة ١٩٢٩م.

ثم عادوا متهافتين كالفراش

على لهيبك الخدّاع».

فهو كثيرا ما كان خلال اقامته في نيويورك يتمنّى ان تيسّر له الاقدار سبيل الفرار من تلك «المدينة» الصخّابة التي لا تسمن وذلك حسب زعمه إلا لتذبح جميع سكانها الذين يتحركون في شوارعها المفروشة بالاشواك كما تتحرك الاصنام. إنّه كان يفارقها في بعض الاحيان ولكن ما ان تغيب ابراجها عن عينيه حتى يشتد به الحنين اليها، وخاصة الى بعض «الجيران»[1] فيها الذين رأى اكثرهم ولا هَمَّ لهم ولا عمل إلاّ تسقط أخبار القاطنين حولهم، والوقوف بشتى الوسائل على اسرارهم.. فالجيران هم الجيران في كل عصر ومكان، كُلُّهم ظالم وكُلُّهم مَظلوم في نظر ابي ماضي. وأمّا الناس فَهُم قسمان: قسم لا يبالي بما يقوله عنه «الجيران» وقسم يحسب لاقوالهم الف حِساب. فكم منْ رجل لا يرتدي ثيابه، ولا يفرش منزله إلاّ اذا كان موافقاً لاذواق جيرانه، خوفا من انتقاداتهم وتقولاتهم. وخوفه هذا منهم قد جعله عبدا لرغباتهم. وقد لا يستطيع التخلص من ذلك الخوف المسيطر على نفسه منْهم إلا حينما يعلم أنّه مهما صنع وأيّ طريق سلك فلا بُدَّ له منْ أن يتناوله الناس بالنَّقْد والتجريح. «فهو حينما يكثر الخروج من منزله يقول بعضهم عنه: إنّه قَلَّما يكون في البيت.. وإذا قعد في بيته قال آخرون: إنّه لا يخرج من بيته إلا نادرا. أما اذا اقتنى سَيَّارة: فيعجب قوم: كيف قَدرَ أن يقتنيها. واذا لم تكن عنده سيارة: يتساءل آخرون لماذا لا يقتني سيّارة؟ اما اذا كان منزله هادئا مُرَتَّباً: زعم قوم ان حياته الزوجية مثال للحياة الهانئة السعيدة. وقال آخرون: «إنّما هذه مظاهر غَشَّاشة»[2].

إنّ اهتمامنا بما يقوله غيرُنا عَنّا، ومحاولتنا تقليد من هم اكثر منا جاها، ومالا، قد يجرّ علينا الكوارث، ويسبّب لنا المتاعب التي باستطاعتنا تجنّبها، والابتعاد عنها، فتبعاً لذلك فما علينا إذاً إلاّ ان نُفكّر بأنفسنا، تاركين الناس وشأنهم، لعلهم بدورهم يتركوننا وشأننا، ويقلعون عن التفكير بنا، والتحدث عن مشاكلنا. إذ إنّه لا يجدر بنا ان نفعل كما يَفعلون وان نتقوّل كما يتقوّلون. فمَنْ

---

(١) السمير ١٥ سبتمبر ١٩٣٠م.
(٢) المرجع نفسه

كان بمقدوره ان يقيم وليمة فليقِمْها؛ ومن اراد ان يشترى سيَّارةً فلْيَشْترِها؛ إن كان قادرا على شرائها. ومن شاء ان يدعو الى سهرة، فليدعُ إليها من يشاء ان كان هناك ما يدعوه لاقامتها. «أمَّا هؤلاء الذين يشترون السيارات، ويقيمون المآدب والولائم. ويكلِّفون انفسهم مَشَقَّة الاستدانة خشية أنْ يُتَّهموا بالبخل او الاملاق او يخرجهم الناس من عداد الاخيار المتمدنين، فلا يلبث امرهم ان ينفضح، ويسقطون كبيت من ورق، ويصبحون مضغة في أفواه الذين حسبوا لهم ألفَ حساب». (١)

وقد رأى ابو ماضي أنَّ خطر «الجيران»، المُتَقوِّلين، العاتبين على جيرانهم، أقل بكثير على الفرد في المجتمع من خطر «المرأة الثرثارة»، (٢) على الذين يكتب عليهم ان يعيشوا وإيَّاها تحت سقف واحد، او يقودهم حظّهم العاثر إلى الاجتماع بها في مجلس من المجالس. إذ لا يكاد يستقرُّ بها المُقام حتى ينطلق لسانها بالكلام، وتظلّ هي تتكلّم وتَتَكلَّمُ: «لانّها لا تقدر إلاَّ أنْ تتكلم». «وقد تكون حياتها خالية من المتاعب، ولا يوجد في نفسها أيّ أثر من آثار الخشية أو الخوف من المستقبل، ولكننا نجدها دائماً كثيرة الشكوى والتلهف، دائمة التذمر من المحيطين بها، أكانوا اقرباء لها ام غرباء عنها. وهي لا تتوانى عن التأفُّف: «من شؤون المنزل وأعباء العائلة وقد لا يكون في المنزل عِبْءٌ سواها.. وهي كثيرة الترديد لِما تسمعُ من صادق الاحاديث وكاذبها، وتكررها على كونها محضَ أحاديثَ. وسيان عندها كذبت ام صدقت، وساءت السامع ام سرّته..» فويل لمجالسها من لِسانها، فكلما اندفعت في الكلام كلّما اشتدّت حاجته الى ان يضع اصابعه في اذنيه او ان يشيح عنها بوجهه: «وقد يكون له في النوم نجاة ولكن كيف ينام المرء في العاصِفة». رأيها هو الرأى الصواب. وافكارها افضل الافكار التي يجب أنْ تسود في كل عصر وأوان. فالسامعون لا يجدر بهم أنْ يستمعوا إلاَّ لاحاديثها ولا يحق لأحدٍ حينما تتكلم أنْ يتكلم معها أو يقاطعها. فالنَّميمةُ ديدنه، والتصلّب في الرأى شعارها: «فهي كابوس على اصدقائها وأقربائها

---

(١) السمير ١٥ سبتمبر ١٩٣٠م.
(٢) السمير ١٥ تشرين اول ١٩٣٠م.

وأولادها وحتّى على زوجها لانّها لا تكترث بما يجول في نفسه من الافكار المتعلّقة بشُغله أو تجارته، بل كل الذي يهمها هو أنْ يسير معها في دنيا الاحاديث والنمائم وان يصغي اليها كما يصغي الى نبيّ يتكلّم».

فالنّاس بطبعهم مَيّالون الى الثرثرة والكلام. فالثرثرة لا تزهر ولا تثمر اشجارها إلاّ في بعض المجتمعات التي لا يجد افرادها متعة يقتلون بها أوقاتهم، أفضل من متعة الثرثرة، والنميمة، وغرس بذور الفتن، والشقاق بين الاهل والاصدقاء. ولَكِنَّ المرأةُ الثرثارة «لَيْسَتْ وَقْفاً على بيئة دون بيئة او قرية دون قرية أو مدينة دون مدينة لانها «كالزَّمان» الذي لا قَبْلُ له ولا بَعْدُ او كالضوء الذي لا يَخْتفي مِنْ مكان إِلا ليظهر في مكان..».

وحينما نريد ان يحصل لنا شرف اكتشافها فما علينا الا ان نفتح لها بابا من ابواب الكلام:

«كأن نلقي عليها بالتَّحيَّة، أو نسألها عن صحتها، وصحة زوجها. فتمضي تحدثنا بما اتفق لها في يومها، وما حدث من الشؤون في أمْسها، وما كان يمكن أنْ يقع في الليل لو لم تكن النوافذ مغلقة، او في الصَّباح لو لم تكن النوافذ مفتوحة، او في النهار لو لم تكن هي في المنزل.. ثم تنتقل بنا الى الكلام على اولادها وما فَعَلوا من الامور المدهشة التي يعجز عنها الأساطين، ثم الى اولاد الجيران وكيف يجب ان يكونوا..».

فهذه هي المرأة في نظر ابي ماضي التي يجب على الرجل ان يَستغني عَنْها وَحْدها؛ وذلك لعدم استطاعته الاستغناء عن سائر النساء وان يفر منها فِراره من «الافعى السَّامَّة».[١]

وهناك مقال كتبه ابو ماضي بعنوان «شيخ الصحافة»[٢] وقد رأيناه فيه يحمل بشدّة على فئة معيّنة من الكتّاب المحرّرين الذين بَنَوْا امجادهم على اكتاف بعض «المحسنين» الصامتين.

فأكبَرَ الناس فيهم هممهم العالية، وعبقرياتهم الخلاّقة التي جادت عليهم

---

(١) السمير ٥ تشرين اول ١٩٣٠ م.
(٢) السمير ١٥ تشرين الثاني ١٩٣٢ م.

بالافكار النّيّرة، والقصائد الجميلة، والمقالات النقدية وهم مطمئنون كُلَّ الاطمئنان بأنّهم سيظلون جالسين على عروشهم الوهمية ولن يتمكن احد من زحزحتهم عنها؛ لأنّ الذين ينافسوهم عليها؛ صُمٌّ بُكْمٌ، مع أن لكل واحد من هؤلاء المنافسين بَدَلا من اللسان الواحد «لسانين» «وبإمكانه ساعة يشاء ان يحرِّر عددا لا يستهان به من الصُحُف والمجلاّت وان يقدّم مجّانا كلّ يوم الى المحررين ما يحتاجون اليه من مقالات سياسية واجتماعية ونقديه أوهزلية ولكنه لغاية الآن لم تصدر بأسمه بَعْدُ مقالة او قصيدة ولا حتى نشرة صغيرة وسرّ ذلك انه متواضع زاهد بالمجد والشهرة وهو يعلم في قرارة نفسه انه لو اراد أن يتكلم مطالبا بحقوقه لمنعه من الكلام هؤلاء الذين يَخْشَوْنَ إن هو تكلم؛ «ان يعدل الجمهور عن الاعجاب بهم الى الاعجاب به وعن تكريمهم الى تكريمه..» وله قدرة فائقة على فعل المعجزات وجعل الجرائد تصدر في مواعيدها ومديرها غائب عن ادارتها.

وكُلّما عصت «المحرر» قريحته ونضبت الافكار من رأسه، فما عليه إلاَّ أنْ يمد يده ليتناوله بين أنامله فسرعان ما: «يصبح ماء الفكر لديه نميرا» وقد شاء ابو ماضي متعمداً الا يفصح لنا عن اسم ذلك «المحسن» المتواضع الا في نهاية مقاله هذا لكي يثير فينا عنصر التشويق والتلهف حيث نراه يقول في خاتمته وذلك باسلوبه المعهود المشوب بالسخرية اللاذعة والتهكم المرير:

«لا شك ان القارئ يتوق الآن الى معرفة هذا الكائن العجيب الذي يملك كل هذه القوة والسلطة ولا يملك في الوقت نفسه شيئا؟

إنّه رئيس التحرير الاكبر

إنّه شيخ الصحافة.

هو صاحب الجلالة - المقصّ..».

ثم نراه في مقال آخر له ينتقل ليحدثنا عن «النمائم في المطاعم» (1) حيث الناس يتحلّقون حول الطاولات لا ليأكلوا الطعام فقط بل ليأكلوا مع اللحوم والبقول

(1) السمير ٢٣ تشرين الثاني ١٩٣٦ م.

التي يتناولونها بشهيّة «لحوم الناس» الذين يَرَوْنهم قد نجحوا في الحياة عن أهليّة واستحقاق فيحاولون الحطّ من كرامتهم، ليرتفعوا هم بدورهم على اكتافهم؛ وهم يعتقدون في قرارة انفسهم بأن المناصب الرفيعة لم تُخْلَق إلاّ لهم وبأن دفة «التجارة» لا احد يسيِّرها كما يسيِّرونها بأنفسهم وذلك بسبب قدرتهم الفائقة على حل مشاكل العالم، ومعضلات الكون بكلمة واحدة، صادرة من افواههم المحشوة بالطعام والماء؛ [1]«فهذا اديب لم يرتفع له شأن إلاّ لأنّهم نصروه، وذاك تاجر لم ينجح لأهليَّةٍ فيه بل لما فعلوه هم في سبيله».. انهم يتذكرون معايب الناس ويَنْسَوْنَ معايبهم، ويلومون غيرهم ولا يلومون أنفسهم. فهم لا يفعلون إلاّ الصّواب اما ما يفعله غيرهم فهو الخطأ كل الخطأ والضلال كل الضلال. فهذه الفئة العيَّابة السَّبَّابة من الناس: «فيها منَ النّحل غداوته، وروحاته، ولكن الى غير الخير وفيها طبيعته عندما يشرع حمأته للسع ولكن ليس لها جناه.. وفيها منه شرهه الى ما عند غيره. فهم مثله يحومون على الازاهر ليمتصُّوا حلاوتها فاذا لم يبق فيها حلاوة هجروها الى سواها.. فكل الناس عِرْضة للوقوع تحت انيابهم فهم يذكرون الناس وينسون انفسهم لانهم على ما يظهر ليس لهم ما يستحقّ الذِّكر.

فالاولى بهم إذاً والاجدر الا يذهبوا الى المطاعم وصدروهم مَمْلُوءَةٌ بالحقد والغِلّ؛[2]

«لأن الطعام على الغلّ، يورث سوء الهضم، وسوء الهضم مجلبة للعلل..».

أمّا «القيْل والقَال»[3] فهو مرض عُضال ابتلى به بعض الناس الذين يرهفون دائما اذانهم لسماع الاخبار. أصحيحة كانت أم كاذبة؟ أمفيدة كانت ام مضرّة؟ ولا يَهُمُّهُم منْ امرها سوى انها قد أصبحت في افواههم مادة خصبة يَتَفَوَّهُوْن بها، في مجالسهم، وسهراتهم العائلية، وحتى على موائد الطعام.. فلا يلبث أنْ يدُبَّ الشقاق بين الأفراد، والجماعات ويحل الخصام مكان الوئام، بين الاب وابنه، والاخ واخيه، والصديق وصديقه الحميم.. وهذا المرض الخبيث لا ينتشر الا في القرى وفي الاحياء الكبيرة التي تشبه القرى حيث؛[4] «يشتغل الناس بالصغائر كأنها امور جسام، ويعرضون عن الامور الجسام في الحياة كأنها صغائر وتَوافِهِ مُبْتَذَلَة..».

(١) السمير ٢٢ تشرين الثاني ١٩٣٦م.
(٢) المرجع نفسه
(٣) السمير ٣ شباط ١٩٣٨م.
(٤) المرجع نفسه

أمّا في المدن الكبيرة فلا يجد الناس لديهم مُتَّسعاً كافياً من الوقت لسماع الاخبار الملفّقة وذلك بسبب كثرة مشاغلهم ووفرة متاعبهم الخاصة بهم.. فنراهم من اجل ذلك: «منصرفين الى العمل بايديهم وعقولهم وقلوبهم أمّا الالسنة منهم فلا تتحرك الا بما تقضى به الوظيفة أو المهنة؛» فانصرافهم الى العناية بأنفسهم والاهتمام بشؤونهم يجديهم اكثر مما يجديهم الاهتمام بسواهم والعناية بغير ما تقضى به مصالحهم فهم حينما يكفُّون ألسنتهم عن الناس يكفُّ الناس عنهم السنتهم فانصراف الناس الى معايبهم يصلحون من شأنها ويقوّمون ما أعوج من امرها اجدى لهم وأفضل من انصرافهم الى البحث والتفتيش عن العيوب في سواهم «وخير للمرء وأجدى ان يكتشف ما فيه من عيوب فيصلحها وتقصير فيتداركه من ان يصرف الوقت في عَدِّ هفوات الغير او توجيه الانظار الى عيوبهم ونقائصهم. فالانسان الذي لا يهتم بعيوب الآخرين يصبح انسانا له في الحياة غرض يجعله يتصل بها ويصير منها كالشذى من الوردة وكالنور من النجم وكالخرير من الجدول. ومن لم يكن له غرض كهذا أصبح كالسجين في غرفة مظلمة وصارت تلك الغرفة المظلمة هي كل دنياه.. وحَيْفٌ على الانسان ذى العقل الجبار الذي يخترق الحجب الكثيفة الى الخفايا البعيدة العميقة ان يمسي سجيناً في دائرة ضيقة صغيرة..»

اما «الحياة»[1] فهي في نظر ابي ماضي مُتَّسعة وحكيمة وكريمة معطاءة وهي لا تحبس عنَّا عطاءَها ولا تبخل علينا بحكمتها الا حينما ترى اننا قد اصبحنا غير جديرين بتحمّل اعباءها. فللنظرُ اليها كيف تعيد الينا الحبَّة التي نزرعها في ارضها الطيبة «سنبلة فيها الف حَبَّة»[2]. وهي اشبه بالحقل فيه الشوك والزهر وكلما أردنا ان نغرس فيه شجيراتنا ونزرع بزورنا فيجدر بنا ان نتعاون جميعا على اقتلاع اشواكه بأيدينا حتى ولو آذت اكفنا وآلَمَتْنَا اشدّ الايلام.. لاننا اذا لم نتحمّل بصبر وجلد وخز الاشواك ولسعاتها ونحن نقتلعها من حقولنا امتدت عروقها الى عروق بذورنا وغراسنا لتمتص ما فيها من رواء ولتحكم عليها بالذبول واليباس؛[3]

«والحياة حقل (قال ابو ماضي) لا يعطي البقل والحبوب والغلال الا اذا اعتنى به الزارعون وسهروا عليه من العوارض والآفات.. وكلّنا مسؤول عن هذا الحقل لأنّه لنا كُلّنا..»

(١) السمير ١٥ تموز ١٩٤٦ م. من مقال له بعنوان «ما هو غَرَضُكَ في الحياة».
(٢) المرجع نفسه.
(٣) المرجع نفسه.

وما اكثر تلك العوارض التي تعترض طريقنا في «الحياة» ويجدر بنا ان نقضي عليها قبل ان تقضي علينا. وقد لفت ابو ماضي انظارنا الى واحدة من بينها طالبا منّاأن نعمل على استئصال جذورها من اعماق نفوسنا ألا وهي «آفة النسيان»: «كأن ينسى الانسان صديقا له يتوقّع ان يذكره او كأن يتعهد بقضاء امر ويغفل عن قضائه. او كأن يكون في حالة فقر أو ضنك استغنى زَهَا واستكبر ونسي في أيام سعده شركاءه وزملاءه في ايام بؤسه وضنكه. او كأن يبذل وعوداً ويقطع عهودا لواحد او لجماعة انه سيفعل كذا وكذا اذا هم اعانوه على امر او ساعدوه على النجاة من شر فاذا قضى لبانته او نجا مِمّا كان يحاذره لم يذكر شيئا مِمّا جرى به لسانه من الوعود ولا شيئا مِمّا صنعه الناس منْ أجله».[1]

والكثيرون الكثيرون من الناس يدّعون أصابتهم بمرض «النِّسيان» لكي يبرِّروا بواسطته اعمالهم التي قد يحاسبون عليها او يتستّروا وراءه لكي يتمكّنوا من تحقيق بعض اهدافهم الشخصيّة فاذا هم حقّقوها عادت ذاكرتهم لتستوعب من جديد كلّ شيء وأمّا هؤلاء الذين بأمكانهم ان يباركوا لاعينيهم ويسامحوا اعداءهم فقد يجدون في «النسيان» الخلاص كل الخلاص والفرار كل الفرار من دنيا الحسرات والآلام: «انما هذه الآفة الهائلة (اى آفة النسيان) تصبح بركة عظمى عندما يصبح الانسان قادرا على ان ينسى اساءة الصديق وان لا يذكر مصائب الجار وان يَذْهَل عن عثرات العشير والرفيق وتصير بركة اعظم عندما يقدر الانسان ان ينسى همومه وأحزانه وبلاياه فيخرج بذلك من دنيا الالم والحسرات والغُصَص».[2]

وكثيراً ما نجد اناسا لهم جثث ضخمة وعقول اصغر من عقول الاطفال.. يحاولون السعي وراء الشهرة والشهرة منهم براء. لا لشيء إلاّ لأنّهم لم يفعلوا فعلا عظيماً يسبِّب لهم الشهرة بين الناس. وقد يُزَيِّن لهم غرورهم القتال ان يتحدثوا عن مشاهير الرجال وكأنهم كانوا لهم وما يزالون اصدقاء واخوان، وهم لم يسبق لهم ان عرفوهم او حدثوهم على الاطلاق:[3] «فلا يموت قائد مشهور ولا كاتب عظيم إلاّ وحاولوا بسذاجة الاولاد دون طهارتهم، أن يخبروا الناس بأنهم التَقَوا

---

(١) السمير ١١ كانون الثاني ١٩٣٩م. من مقال له بعنوان «نهر النِّسيان».
(٢) المرجع نفسه.
(٣) السمير ٩ آب ١٩٤٠م. من مقال له بعنوان «رأى المَلِك».

بذلك الرجل العظيم، وانهم حدّثوه وعرفوه حتى يتوهم السامع أنه أخوهم في الرّضاع وأنه كان يُآكِلُهُم ويشاربهم، وأنه هو الذي سعى ليلتقى بهم..».

يجدر بنا ان نسعى جاهدين لنتعرف على العظماء، ولكن الاولى والاجدر بنا ان نجعل العظماء انفسهم يحاولون التعرُّف علينا ولو عن طريق المراسلة. حينما نجعل اعمالنا وافعالنا تُحدِّثهم عَنَّا وتدلّهم على مكان وجودنا وليكن لنا من البحر عظة وعبرة: «فكم مَرّ عليه من أناس وجرت عليه سفن فهل سمعناه يتحدّث عن اولئك الرجال أو عن تلك السفن؟» (١)

فهؤلاء المتشدقون المفتخرون بمعرفتهم للعظماء حتى ولو كانوا يعرفونهم معرفة وهمية يظنُّون كلَّ الظَّنّ بأنهم حينما يَدَّعُون معرفتهم لهم ترتفع قيمتهم في أعين الناس.. ولكن ما ان ينفضح أمرهم بينهم حتى يصبحوا مضغة في الافواه، ونادرة يتندَّر بها هؤلاء المخدوعون بهم في أوقات فراغهم.. ونحن كيفما التفتنا وجدنا في المجتمع لهؤلاء الادعياء أمثالاً وأشباه أمَّا هؤلاء الامثال والاشباه فهم أهل «الهَوَس» (٢) الذين يعتقدون دائما بأن ارائهم هي الاراء الصائبة واقوالهم افضل الاقوال: «لذلك كيفما دار بك «المهووس» رأك على خطأ وكيفما درتَ به وجدتَ مشقَّة وتعبا..» فهم يحاولون دائما ان يفرضوا سيطرتهم على من حولهم لعلهم يتمكنون من ان: «يصرفوا الناس عن الاهتمام بالامور التي يملكونها الى الاشتغال بأمور لا يملكونها وما يعنيهم الى ما لا يعنيهم..» فلو تَمّ لهؤلاء السيطرة علينا وعلى عقولنا لَمَا بقي هناك: «رسّام يرسم صورة ولا كاتب يؤلف كتابا ولا مخترع يستنبط ويكتشف..» بل يصبح هم الناس كل الناس ان يتجادلوا فيما بينهم جدالا فارغا عقيماً، وان يتخاصموا كل المخاصمة حتى ولو كان خصامهم مَصْدَرُهُ: «امور لا تقع تحت الحس ولا العقل..»

وكان أبو ماضي يُؤْمِنُ كُلَّ الايمان بأن الانسان المفكر العاقل هو ذلك الانسان الذي: «يشكر عدوه كما يشكر صديقه». لما لهؤلاء الاعداء عليه من نِعَم وحسنات وبركات قد لا يجد لها مثيلا لدى اصدقائه الاوفياء..

---

(١) السّمير ٩ آب ١٩٤٠ م.
(٢) السّمير ٢٤ حزيران ١٩٤٦ م.

«فالانسان» مهما حاول الابتعاد عن كل ما يسبّب له المضايقة والانزعاج فلا بُدَّ له منْ أن يحظى بشرف اللقاء ببعض الخصوم الذين يتعمّدون تعمّدا مناصبته العداء، فان لم يَجِدَّ هُوَ في طلابهم جدّوا هم في طلابه، وراحوا يسعون بشتى الطرق والوسائل ليتعرفوا على شخصه.. فوجودهم من حوله قد يجعله يشكر ربه على نعمه التي انعم بها عليه[1]: «لأن الذي لا أعداء له هو أحد إثنين:

«إمّا انسان قد مات وإمّا انسان لم يولد بعد».

فالمرء حينما يصبح له أعداء يحاول ان يفعل المستحيلات لكي يسد في وجوههم كل الابواب التي باستطاعتهم ان ينفذوا منها اليه، فيبدأ بمحاسبة نفسه حسابا عسيرا، خوفا من ارتكاب معصية أو القيام بعمل ما قد يُحاسَب عليه من هؤلاء المحاسبين الفضلاء: «وخوف المرء من عدوه (قال ابو ماضي) هو الذي يحمله على اصلاح عيوبه وستر نقائصه. فالعَدُوُّ نعمة مستترة في نقمة وخير كامنٌ في شرّ وبركة تسوقها الحياة الى الانسان في شكل آفة. والحياة مع العدو مثل التصعيد في الجبل فيه مشقة ولكن فيه للجسم ترويض. أمّا الحياة مع الصديق فتشبه النزول في منحدر لا مشقة فيه ولكنه كثيرا ما رافقه الزلل وصاحبته العَثَرات..»[2].

فان كان لنا صديق وصداقته تسبّب لنا الزَّلل والعَثَرات فالأولى بنا الابتعاد عنه ليصبح بامكاننا ان نعامله كما نعامل الاعداء. فالصداقة في نظرنا درجات وأنواع والاصدقاء ليسوا كلهم سواء بسواء. فكم من صديق نعتمد عليه في الملمات ونستشيره في الامور العظام فلاَ يشير علينا الا بما فيه مصلحتنا ومنفعتنا. ولا يرشدنا إلاّ الى الطريق الصواب، اما الذي جعله صديقا مخلصا لنا فهو ذلك «القلب الطَّيِّب»[3] الذي يحمله بين ضلوعه. انه قلب لا أثَر فيه للغش أو الخداع. ولا للمداهنة والرياء. فهو حيثما وُجِدَ وُجِدَ معه الصفح والغفران والمسامحة والملاينة، فيرتاح الناس اليه كما ارتاح هو اليهم فيصبحون توّاقين إلى معاشرته، مرتاحين إلى مصاحبته، مسرورين بمجاورته: «فاذا كان لك جار (قال أبو ماضي) يَرْعَىْ ذمامك ويرى الحسنة فيك حسنات واذا رأى فيك سيّئة أغضى عنها كأنه لم ينظرها. واذا

(١) السمير ١٠ كانون الاول ١٩٤٠م من مقال له بعنوان «هل لك خصوم واعداء».
(٢) المرجع نفسه
(٣) السمير ٩ كانون الاول ١٩٤١م.

رأك في نشوة وطرب ومسرّة ترنّح معك، واذا رآك في غمرة حزن أو ألم أسرع الى نجدتك وتعزيتك، فاعلم ان اللّه قد أنعم عليك بأخ من غير أبيك وأمكّ وهو هذا الجار صاحب القلب الطّيّب».

فنقاوة القلب وطهارته ليستا وَقْفاً فقط على الصديق أو الجار بل نجد العالِمِ والغنيَّ محتاجين اليهما كل الاحتياج لترتفع منزلتهما في أعين الناس الذين يحتقرون ويذمّون كل صاحب علم لا يجود عليهم بعلمه ومعارفه، وكل صاحب مال لا يسخو بماله على محتاج: «فاذا تصلّب قلب العَالِم فإنَّ مهابة العِلم تبوخُ وتتلاشى، ويصير صاحبه كالكتاب الذي استقى منه مَعْرِفَتَه، لا يَرْجِعُ اليه الا عند حاجته اليه. واذا تحجَّر قلب الغَني، صار كالطّائر المحنّط، يحتفظ الناس به في المنزل والمتاحف لأنَّه ذو ريش نَفيسٌ. اما اذا حَنُوا إلى أناشيد الطيور فلا يرجعون اليه بل يرجعون إلى الطُّيور ذاتها».

وما اعجب اطوار الحياة وأعجبُ ما فيها اطوار ذلك الانسان الذي لا يدرك من اسرار الحياة شيئا، ونراه يتكلم عنها، كأنَّه قد كشف كل سر فيها، واحاط بكل ما تخبِّئه له الايام من خير او شر في مطاويها. فنراه كلما عثر امامه صديق او قريب انهال عليه باللوم والتأنيب: «كأنما هو لا يعثِرُ أبدا ناسيا أنَّ الاجيال مرّت تِلْوَ الاجيال والناس منهم الخاسر والرابح والنازل والصاعد».[1] فاذا ما عثر أحدنا او ساءت به الحال فلا يجدر بنا ان نتسرع في حكمنا عليه بل علينا أنْ نبحث عن الاسباب والمسبِّبات التي حملته على سلوك هذا الطريق أو ذاك: «فاذا جاع انسان وسرق رغيفا قال فلاسفة اللوم والتنديد: يا وَيحه كان الأولى به ان يسرق كنزا ما دام سيكون سارقاً، ولكن حاجة الجائع ليست الى كنز بل الى رغيف يسدّ رَمَقه. فالرغيف عنده في تلك الساعة أعظم كنز في الارض.

واذا اختلس رجل مالا من بنك يشتغل فيه او بيت تجاري قالوا ـ يا له من احمق ما حاجته بالمال؟ وهو مستخدم يقبض مرتبا يكفيه. وقد يكون الامر في الظاهر كما قالوا ولكن لماذا يعثِر المرء البصير المدرك وهو سائر في الشارع اتراه اختار العِثار».

---

(١) السمير ٢٣ كانون الثاني ١٩٤١ م.

فطالما ان هناك قوة خفية مسيطرة علينا تستطيع ان تجعل الشيطان الكامن في نفوسنا يستيقظ ساعة شاء فلماذا نصدر إذاً احكاما جائرة بحق هؤلاء الذين يرتكبون الهفوات والخطايا. فلنتركهم وشأنهم يتصرفون كما يحلو لهم؛ فهم أدرى منّا بما يفعلون. ولا يحق لنا ان نلوم الا اذا كنا نحن لا نلام: «فيا أيها الذين يدينون البشر (قال ابو ماضي) لا تَنْسَوْا انكم بشر مثل الذين تدينونهم. وانكم مثلهم تماما، معرَّضين للسقوط والعِثار، فلا تلوموا الذي يعثر الا اذا كنتم لا تعثرون. ولا تسخروا من الذين يَمْشُوْن على أقدامهم إلاَّ إذا كنتم انتم لكم أجنحة». [1]

أمَّا السعي الى المعرفة فهي صفة من الصفات المستحَبَّة التي يجب على كل انسان ان يتحلى بها: «لان النفس التي لا تلطِّفها المعرفة تظل الحيوانية غالبة على غرائزها، حبها لا صبر معه وبغضها قوة لا عدل فيها ولا رادع لها..» ولكن بحث الانسان عن المعرفة قد يقوده في كثير من الاحيان الى الهلاك والدمار، وخاصة حينما تستيقظ في صدره غريزة الفتك وحب الانتقام وهي اكثر ما تستيقظ في ايام الحروب التي يشيب لهولها الانسان حيث يجد نفسه في خلالها: «مُكْرها اكراها على ان ينسل الاولاد ليجعلهم عندما يكبرون حشايا للمدافع، ويزعم أنه يسوقهم الى ساحة المَجْد، وملكوت الخلود، أو أنَّه يصب القذائف المحرقة على المدينة العامرة، فيتركها خرابا يبابا، ويصبح يباهي أنَّه فتك ودَمَّر. او انه يسوق الى السجون مئات وألوفا من الخَلْق الذين يخالفونه في الرأى والعقيدة ولا يطرف له جفن، ولا يوبِّخه ضمير كأنما هو جَزَّار وهم اغنام». [2]

وقد شاء أبو ماضي في بعض «مقالاته» ان يجعل الحياة من حولنا جميلة ضاحكة فراح يدلنا على عيوبنا فيها علّنا نتمكن من سترها واقتلاعها من اعماق نفوسنا لكي لا نُبقي فيها إلاَّ كُل ما هو جميل ومبهج ومفيد لنا وللآخرين. ولم يكن ليكتفي بأن يشخِّص لنا الداء، بل كان يصف لنا معه الدواء. وخاصة حينما ادرك بَعْد التجربة والاختبار بأن «الصمت» هو أفضل دواء نقدمه لهؤلاء الذين لا يتقنون مهنة اتقانهم لمهنة الثرثرة والكلام. فكثيراً ما تجمعنا الصدف بانسان ما،

---

(١) من مقال له بعنوان «عثرات الحياة» - السمير ٢٣ كانون الثاني ١٩٤١م.
(٢) السمير ١٩ ايلول ١٩٤١م. من مقال له بعنوان، «من إنسان الى شيطان».

فنعجب بشكله ورصانته كل الاعجاب ولكن ما ان يندفع في الكلام، حتى يستولي علينا العجَب العُجَاب، من كيفية انقلاب هذا الجالس امامنا في لحظات: «منْ بَشَرٍ سويّ الى ضِفْدِعٍ، كأنّما مسخه ساحر عجيب..»

فما اكثر «الضَّفادع» في مجتمعنا وهي «ضفادع» قادرة مفكرة ذكية ولكن قدرتها وذكاءها لا يظهران ولا يبدوان الا حينما تكون جالسة وسط مياه مستنقع من المستنقعات او مختبئة وراء بعض الاعشاب التي لا تنمو ولا تزهر الا في المياه الراكدة الآسنة. ونحن مهما اوتينا من قدرة فائقة على حل المعضلات فقد لا نستطيع ان نحكم على رجل ما أجاهلا كان ام متعلما خَيِّراً كان أم شرِّيرا؟ الا بعد ان يتكلم في حضرتنا. فاما ان يزداد علوا وارتفاعا في أعيننا واما ان يسفل أمامنا الى اسفل السافلين: «فلو قضيت ساعات مع شخص لا يتكلم (قال ابو ماضي) فانك لا تحس له في نفسك شيئا من الاحتقار او الازدراء. بل قد تحس أنَّك في حضرة انسان قد يكون عالما كبيرا او فنانا مبدعاً أو بطلا من ابطال الاخلاق العالية. أو أنَّك مع رجل هو مِثل باقي الناس المعاصرين عِلماً وأخلاقا. فاذا حل عُقْدَةَ لِسانه، وخاض معك في الحديث، شعرتَ كأنك قد انتقلت من دنيا عليا الى دنيا سُفلى. وأنَّك كنتَ مع انسان مثلك، فصرت مع جرس يَطِنُّ، أو آلة ميكانيكية تتحرك، دون أنْ تفكر أو تشعر، أو أنَّك مع رجل ولكنّ عقله لا يزال في الطفولة؛ فتضحك في سرِّك لا من حماقته بل من توَهمك شيئا لا وجود له، وانخداعك منْ حيث ظننت أنك غير منخدع... وأحرى الناس بأن يصمتوا ليستمعوا هم الذين لا يحسنون أن يتكلموا ليسمع غيرُهم». [1]

وكم من صديق او قريب، حاول أن يسدِي اليك نصيحة أو يصنع معك جميلا، وأنت ليس بإمكانك ان تصده، او تجافيه لأنَّه ليس من اللياقة أو التهذيب مخاصمة الذين يحاولون السهر على مصالحنا والاهتمام بشؤوننا الخاصة بنا.

وكلما حاولت ان تثني احدهم عن عزمه لكي تكفيه مؤونة الاهتمام بشؤونك كلما ازداد عتبه عليك فتسلِّم اليه قيادة سفينتك في «الحياة» لايمانك الشديد

---

(١) السمير ١٥ أيلول ١٩٤٥ م. من مقال له بعنوان الصَّمتُ زينٌ.

بسلامة طويته، وحسن نيّته؛ ولكنك قد لا تدرك الا بعد فوات الاوان بأن ذلك المحسن المتفضل عليك ليس الا واحدا من هؤلاء «الفُضوليين»[1] الذين يسبّب لنا تفضلهم علينا الكثير من المتاعب والمضايقات التي قد يكون بإمكاننا ان نتجنبها حينما نصم آذاننا عن سماع اصواتهم وهم يقدمون لنا النصيحة، والمَشُورة بعد المشُورة: «مَنْ هو «الفُضُولي»؟ إنّه شخص تعرفه جيدا (قال أبو ماضي) وإذا لم يكن من انسبائك فهو بلا شَكَّ منْ أصدقائك؛ وهو رجل لا يقصد ان يؤذيك، ولكنه يؤذيك وهو لا ينوى إلاّ الخير. ولكن لا خير يجيء عن يده. وهو أبدا يصنع افضل ما يقدر غير ان هذا الافضل الذي يصنعه لا يكون الا مزعجا. يحاول أن يشعل سيجارتك فيقلب زجاجة الخمر المعتقة التي امامك على الطاولة وقد تكون الزجاجة الوحيدة التي لك وأن يقدم كأسا من الماء فتتدفق من يده على ثيابك. وهو من اولئك الذين يسوقون اليك الأذى؛ وهم يقصدون ان يسوقوا اليك النفع. ولا يمكنك ان تنتقم منهم لأنَّ قصدهم حَسن..».

وهناك الكثيرون منَ الناس الذين يميلون كلّ الميل الى فعل الخير. فنجدهم كلما سنحت لهم الفرصة يمدّون أيديهم لمساعدة المحتاجين، ولمناصرة المظلومين؛ وهم لا يتوانَوْن عن تأييد كل مشروع خيْري، يعود بالنفع العميم على الجميع. ولكنَّهم كثيرا ما يفاجئون بأناس لا يكتفون بأنهم لا يبنُون ولا يضحُون في سبيل الغير، بل يحاولون أنْ يثبِّطوا عزائمهم، بشتى الطرق والوسائل لاقتناعهم بأنه لا جدوى من تأييدهم او مناصرتهم لهذا المشروع أو ذاك؛ لأنَّ القائمين به لا يقصدون من ورائه سوى منفعتهم الشخصية، أو يطمحون الى سلبهم اموالهم بطرق غير شرعية. فلا تلبث آراء هؤلاء «الأنانيين»، أن تؤتى ثمارها في نفوس اهل الخير، فيقبضون اكفهم بعد بسطها معتذرين بأعذار واهية ليتمكنوا بواسطتها من الهرب من المسئُوليّة او التنصّل من التّبعية وكل ذلك لانهم اداروا للموسوسين لهم، آذانا صاغية، ومنحوهم قلوبا واعية، فاضحَوْا مِثْلهم، انانيين، وهم لا يعلمون[2]:

«إنّما هناك انانية هدّامة (قال ابو ماضي) هي انانيّة الانزواء والانكماش التي

---

(١) السمير ٣٠ حزيران ١٩٤٤ م.
(٢) السمير ١١ أيلول ١٩٤٤م. من مقال له بعنوان «الانانية الهَدّامة».

لا يقنع صاحبها بأنه لا يبني ولا يغرس ولا ينسج بل يُسَوِّغُ لذاته أنْ يمنع غيره من ان يبني، ويغرس، وينسج.

فهو دائما يلوّح للناس براية التزهيد والتثبيط كلما رأى احدا ينشر راية التشجيع والتنشيط.

اعرض على هذا «الاناني» الهَدَّام اية فكرة عمرانية أو أدبية او انشائية أو إنسانية فيرد تبرها عليك ترابا، وزلالها الشافي سَرَابا. ويذهب بك في طرق الزهد. فيصوِّر لك كل ما تصنع لَغْوا وعبثا لا فائدة منه اذا كنت انت صاحب الفكرة. اما اذا كان غيرك صاحبها فهو إذاً في نظر هذا «الاناني» «الهَدَّام» إمَّا مشعوذ، وإمّا معتوه، وإمَّا شيطان رجيم، يوسوس في صدور الناس ليسلبهم أموالهم، أو ليزيغ بهم عن جادة الحَقّ والصَّواب؛ ويساعد هذا النوع من الانانيين على الاسترسال في التشنيع، والتقبيح، ظهور فِكْرَات باطلة، ومشاريع زائفة مِنْ قَبْلُ؛ فيتخذونها شاهدا يعزّزون به موقفهم، ويؤيدون خطتهم. وكثيرا ما التبست الامور على الناس فخلطوا بين صحيحها وفاسدها، وضارها، ونافعها. وكان هذا سبباً في فَشَل كثير من المشاريع المفيدة. فذَبَلَتْ ويَبِسَت وهي طفلة، كما تذبُل غرسة تعاورتها النمال، والحشرات، وامعنت في وَرَقِها الرطب وجسمها الغضّ عَضّاً ونهشاً».

فالذي ينفق، المال، والوقت في سبيل «النَّفْع العام»، [1] يشعر بالنشوة والانشراح حتى ولو لم يجد من المحيطين به التقدير لِمَا يقوم به، والاحترام لِمَا يفعله. فلربما كان المحيط الذي يوجد فيه مُحيطا غير متنوّر ولا راقٍ. فليعمل بنفسه على تنويره، ورقيِّه ليتمكَّن من ان يحصل فيه على مكانته التي يستحقها في نفوس المحيطين به. فما عليه الا أنْ يُضَحِّي: فالتضحية الحقة المفيدة هي تلك التضحية التي يضطر المرء ان يضحِّي بوقته، وبماله في سبيلها. والمجهود الحق هو ذلك المجهود الذي ترافقه المصاعب والعراقيل. ولنفعل الخير حتى مع هؤلاء الذين لا يستحقونه. وكلَّما وقعت أبصارنا على رجل يضع في طريقنا الاشواك فلنضع نحن في طريقه الورود. وكلما شاهدنا هادما يهدم جدارا لا يملكه؛ فلنقف بقربه منتظرين انتهاءَهُ

---

(١) السمير ٢٠ تموز ١٩٤٥ م.

منْ عمله الشاق هذا لنعود فنشيّدُ ذلك الجدار من جديد علّه يبصر ما نفعله من بعده فيعترف بخطإه، ويقر بذنبه:[1] «فيا ايها الانسان (قال أبو ماضي) إذا اعياك ان تكون صورة جميلة تقع على لوح بلّوْر، او نغمة طروبه، تهبط على اذن سَميْعه، فكن إذاً لوحا، صافيا، لمّاعا، تنعكس عليه الصور الجميلة. وبعبارة أوجز، وأقرب الى الفهم؛ كن جميلا في اقوالك، وجميلا في اعمالك، وجميلا في افكارك، وجميلا في صحبتك، وعداوتك، وحبك، وبغضك، وقربك، وبعدك، وغنائك، وبكائك، فتصير ترى شيء جميلا بل يصير كلّ ما حولك جميلا. ولا تدع الكآبة تتسرب إلى نفسك عندما ترى كثيرين لا يقيمون وزنا لتضحياتك في سبيل محيطك او عشيرتك، ولا يفهمون معنًى لجهودكَ بل تذكّر أنّهم لو كانوا اكثر ادراكا وفهما للامور، لَما احتاجوا إليكَ ولا لغيركَ ولَمَا كان لمساعيك أيُّ مَعْنًى في نظر العارفين. حَسْبك وانتَ تسعى الى هدف نبيل الشُعور الذي يخامر نفسك، والاعتقاد المنتشر في قلبك، بأنك تعمل خيرا وتَنشُدُ جمالا، وكمالا. فليَجْرح غيرك، أمّا أنْتَ فعليك أن تأسُوْ الجراح، وليهدم غيرك، أمّا انت فانصرف الى البناء؛ وليضع غيرك العثرات والعراقيل في طريق المصلحين، أمّا انت؛ فاجعل هَمَّك ان تزيل العراقيل وتذلل العقبات».

ومن يجعل هَمّه سعادة الناس قبل سعادته، ومصلحتهم قبل مصلحته، فهو انسان سعيد، فاضل قادر على ان يجعل من ارضه التي يعيش عليها شبه فرْدوس. كَذَلكَ الفِردوس الذي حَلُمَ به وبوجوده الفلاسفة والمفكرون منذ أقْدم العُصور. ولَكنَّهُ ظَلَّ فقط حُلماً، وتفكيرهم به ظل تفكيراً خيالياً بَحْتاً. وذلك لسبب بسيط جدّا وهو ان الانسان لم يصل بعد الى درجة من الكمال تمكنه من ان يتخلص منْ مشاعر «البغض والطمع والقناعة والغيرة والحب والحَسَد». وهو حينما يصبح باستطاعته ان يتخلص من مشاعره هذه كلها لَنْ يبقى انسانا بل شبه إله: «لا تصلح الارض لسكناه وحتى لدفن موتاه».

فما دامت هذه الحالة حالة الانسان، وهذه هي طبيعته المتأصّلة في نفسه فالخير له كل الخير ان يعتنق في نظر ابي ماضي مذهبا جديدا يضمن له بعض السعادة ألاّ

(١) السمير ٢٠ تموز ١٩٤٥ م.

وهو مذهب الشعور «بالإخاء البشري العام»:(١) «انما عجز الانسان حتى الساعة (قال ابو ماضي) عن الوصول الى الإخاء العام، وصيرورة الارض «فردوسا» سعيدا لا يدعو الى القنوط ولا يحمل على الانقطاع عن السعى في هذا السبيل؛ لأنّنا إذا زهدنا، ووقفنا، لم نصل إلِى شيءٍ. أمّا اذا استبقينا هذا الرجاء في انفسنا فإنَّنا إذا لم نصل الى فِردوس، فلا شكَّ في أننا نصل الى شبْه فِرْدوس فالحياةُ بلاَ أمل شقاء وبؤس ولَكنَّها مع الأَمل، والرجاء، تصير لامعة، ويصير فيها نور وهناء..».

فلنعمل في حياتنا إذاً أعمالا، مصحوبة بالآمال. فبالأمل وحدَه يستطيع الانسان ان يحقق رغباتِه، ويصل الى مبتغاه. وأمَّا اسمى ما يَبْتَغيه كُلُّ إنسان فهو «المال»فلنَسْعَ للحصول عليه بشتَّى الطُّرق، والوسائل، ولْنُجِدّ في طلابه، سالكين الطرق المستقيمة المؤدية اليه لا الطرق المخزية العَوْجاء. التي تجعل«أموالنا» تزري بنا كما تزري الخمرة بشاربها. فصاحب الخُلُق الكريم كلَّما عَبَّ من كؤوس الشراب «كلما تجلَّى ادبه في أحسن صورة ولمعت اخلاقه كنجمة الصباح..» أمَّا صاحب الخُلُق الرديء فلا شيءَ كالخمرة «تفضحه وتكشف النقاب عن صفاته». وَمَا أشبَهَ المال بالخمر. فهو كثيرا ما يفضح صاحبه؛ إنْ لم يكن صاحبه ذا أخلاق رفيعة. فهو بدلا منْ أنْ يرفعه، يخفضه وبدلا منْ أن يسعده يشقيه، ويسبب له المذمَّة والملامة حتى منْ اقرب المقربين إلى صدره وجيبه. وهناك من يعتقد بأن للمال لغة لا يستطيع التحدّث بها إلاَّ من كانت جيوبه منتفخة بالاوراق النقدية، وخزائنه ممتلئة بالقطع الذهبية. وقد يكون هؤلاء المتكلمون اميين لا يحسنون لا الكتابة، ولا القراءة ومع ذلك نراهم يتصدرون المجالس. وكلَّما فتحوا افواههم ليتكلموا، أصغى الحاضرون إلِى اقوالهم كُلَ الاصغاء وراحوا يرددونها وكأنها اقوال مأثورة، يجب ان تنْقش على حجارة من رُخام، لكي لا يُكْتب عَلَيْها الضياع او يمشي عليها النسيان. فَتَلْعَبُ حينذاك بأعطاف هؤلاءالناس الخُيَلاء فلا يهتمون باصلاح اخطائهم التي ارتكبوها من جرَّاء استعمالهم لأموالهم استعمالاً قد يعود بالضرر الكبير على الكثيرين من الناس. وقد غاب عن اذهانهم بأن «المال» لا هو فضيله ولا رذيلة:

---

(١) السمير ٧ كانون الثاني ١٩٤٥ م.
(٢) السمير ١٢ آذار ١٩٤٥م. من مقال له بعنوان «المال والخمر».

«ولكنّه قد يصيرُ فَضيلَة أو رذيلة على قدْر ما يحسن المرءُ او يُسيءُ استخدامه. فإن أحسن استخدامه في سبيل النفع العام، صار المال فضيلة. أمّا اذا اقتصر صاحبه على الاستكثار من المال لذاته، ولم يُفِدْ احدا، فهو ليس غَنيّاً ولا انسانا بل رَصَد على المال، يصونه، ويحميه، ويحول دون انتفاع الغَيْرِ به مثلما تحول الافاعي دون الوصول الى ينبوع ماء او الى روضة غنّاء. وانسان هذا شأنه لا يحق له ان يَفْتخر بأنّه صار صاحب ثروة بل يجب أنْ يستحي أنْ تكون له ثروة؛ وهو على هذا الخُلق الكريه والانانية الذميمة ... ولا مَشَاحة في أنَّ الثروة قوة، ولكنها عندما تنتقل الى حوزة أحمق تفقد معناها وتصير خطرا على مالكها، وعلى الذين حوله مِمَّن له بهم اتصال أو معاملة. ولا تظن ان الغِنَى يمسح الأخلاق والشِّيم ولكنها تكون مستترة فيظهرها ومطوية فينشرها».

ولربما حاول بعض الناس الوصول إلى «الشُّهْرَة» عَن غير أهليَّة ولا استحقاق، فكان مصيرهم الفشل والاخفاق. وقد غاب عن اذهان هؤلاء بأن «للشهرة» ابوابا لا تفتحها الا في وجه فئة مختارة من الناس. فئة آلت على نفسها أن تكدح، وتكد، وتتعب، وتسهر لتبلغ المراد الذي يمكنها بعد بلوغها إياه من الجلوس على عروش المجد والخلود. وهي عروش لم يكونوا بها حالمين، وهم يكدون ويتعبون، لانهم كانوا بها زاهدين. فكلما ترامَى الى مسامعنا اصوات بعض الفاشلين العاتبين، وهي تتعالى في الفضاء، فلا يجدر بنا ان نصم أذاننا عن سماعها، أو نتأفَّف، ونتضجّر من اصحابها، بل علينا ان نستمع اليها استماعنا الى نَقيق ضِفدعة منَ الضّفادع التي لا يوجد عندها وسيلة افضل من وسيلة الازعاج والنَّقيق، لتعلن بها عن نفسها ولتدلنا على مكان وجودها وكأننا عن مكان وجودها لغافلون: (١) «ما اشبه طالب الشهرة (قال أبو ماضي) على غير أهليَّة بالضِّفدع يتعالى نقيقها في الماء فيحسب السامع إنْ كان لم يبصر الضِّفدع من قَبْلُ أنَّ صاحِبَ ذلك الصوت، كائن ذو قوة، واقتدار. فإذا وصل الى مصدره عجب لذاته كيف انخدع، وكيف غَلِطَ في التَّقدير. على أنه اذا كان عاقلا حكيما لا ينقم على الضفدع لنقيقها، فهي ليس لها مِنْ وسيلة تدل بها على وجودها الا هذا النَّقيق. فكل امْرِىءٍ ينفق مِمَّا عِنده، وليس للضِّفدع أن تغرّد

(١) السمير ١٢ حزيران ١٩٣٩ م.

كالكنار ولا ينبغي للرجل الحكيم أنْ يغضب على الضّفدع، تنق في الليل، وإن ازعجته، وأطارَتْ الكرى من جفنيه. بل عليه أن يتمثّل بالنجوم السابحة في الفضاء، وينصرفَ الى التفكير بما ينسيه الضّفدع ونقيقها».

ومن اراد الشهرة فليتركها تسعى في طلابه وتجِدُ في إثره بما يقدّمه لها من المغريات التي قد تجعلها أسيرة هواه، لا تطيق له فراقاً او بعادا. وقد لا تتوانى عن ان تمدّ يدها رافعة تاجها عن رأسها لتضعه عن جدارة واستحقاق على رأسه. فيحق له آنذاك ان يَدَّعي بأن ذلك التاج هو تاجه وليس تاجا مستعارا أو لأحد سواه: «ان بعض طلاب الشهرة (يقول ابو ماضي) او عشاق الظهور يَلجأون أحيانا إلى امور مضحكة، ويستعينون بأشياء لسواهم؛ لكي يحق لهم ان يتباهَوا بأنهم كانت لهم حصة في الديك لأنهم شربوا مَرَقته. فلهؤلاء نقول: أطلبوا الشهرة من أبوابها، فتأتِكُم منقادة تَجر أذيالها، وتبقى تيجانها على رؤوسكم..».

فأبو ماضي في نظرنا قد كان في بعض يومياته «فيلسوفا» بقدر ما كان «حكيما مصلحا» لا هدف له الا ان يعظ الناس ويوزع عليهم «النصائح» بلا حساب علّهم بنصائحه يعملون وعلى هديها يسيرون.

فنحن حينما اطلقنا على ابي ماضي لقب «الحكيم المتفلسف» كنّا قد هيّأنا انفسنا مسبقا لتَقَبُّل لوم اللائمين الذين ينظرون الى «الفلسفة» فيرونها تعقيداً والى «الحكمة» فيجدونها مقتصرة على بعض الحكماء الأقدمين. وسيظل الحق حليفنا فيما نقوله وندّعيه حتى يثبت لنا احد الباحثين الادباء؛ وذلك بالدليل القاطع، والبرهان الساطع أنَّ تلك «الاقوال» و«الافكار» التي اوردها أبو ماضي في «يومياته» هذه، ليست له بل هو مسبوق إليها. وإنّنا لنعتقد جازمين بان هذه الاقوال اقواله، والآراء هي اراؤه، لأسباب عديدة نَذْكر منها:

١ - أنّه لم يَسْبِق لشاعر او حكيم عربي معاصر أو قديم أنْ تَفَوّه بمثل هذه المعاني وطرق مثل هذه الموضوعات الانسانية.

٢ - ان ابا ماضي لم يكن ملما سوى إلمام بسيط، باللغة الانكليزية. كما كان جاهلا جهلا كُلّياً للغة الفرنسية. إذ أنه كتب كُلّ مقالاته باللغة العربية.

٣ ـ وتبعا لذلك فأقواله الانسانية تلك واراؤه الاجتماعية الجريئة ليست إذاً مستمدة إلاّ من اعماق نفسه ومن تجاربه الشخصية في الحياة ومن كثرة احتكاكاته بالناس وذلك بسبب مهنته الصحفية الشاقة التي ظلّ يتعاطاها طوال حياته.

فكيف لا يكون حكيما ذلك الذي يتحدّث عن «النَّصيحة» فيعرِّفها تعريفا منطقيا، بَحتاً. وذلك بمثل قوله عنها: [١] «النصيحة شيء كثرُ باذلوه فكثر رافضوه فهان».

اما فئة «النُّصَّاح» من الناس، فقد قسَّمهم ابو ماضي الى اربعة اقسام، وذلك حيث قال: [٢]

«الناس اربعة: رجل يبذل النصيحة لكل سائل، ورجل يطلب النصيحة من كل جليس، ورجل يتبرع بالنصيحة بسؤال وغير سؤال، ورَجُلٌ يتجاهل النصيحة».

وشرّ هؤلاء النُّصَّاح انسان لم يكن بعد قد اطَّلع على شؤونك الخاصة أو عرف جانبا من جوانب مشكلتك العويصة المستعصي عليك حَلُّها، ولكن ما ان يقع نظره عليك حتى يفاجئك قائلا لك: [٣] «خذ نصيحتي ولو عملت بها ستخرج من ورطتك، وتجد حَلاً لمشكلتك. أو كنتُ مكانك لفعلتُ كذا او جعلتكَ تفعل كذا. ولكنه مع تقديره لنصائحه الثمينة فهو لا يعمل بها لو كان مكانك».

اما أشقى هؤلاء النُّصَّاح، واحَقهم بالرَّحمة والشَّفقة، فهم [٤] «اولئك الذين يحملون الهموم عن سواهم، ويشيبون قبل الاوان مِنْ فرط اشفاقهم عليكَ وعليَّ. فتراهم دائما يهتمون ببذل النصائح السديدة لكل انسان بصورة لا تدع رَيْبا في اخلاصهم، وغيرتهم ولكنهم كثيراً ما القوا حنطتهم حيث لا ينمو إلاّ الشُّوك او حيث لا ينمو شيءٌ..».

وأمَّا أسعد السعداء، فهم اولئك الناس الذين يطلبون «النَّصيحة» ويضربون بها عُرْضَ الحائط، إذا لم يجدوها موافقة لمصالحهم أو لِمَا توحي بِهِ عقولهم. إذ لا شيء «كالعقل» يَهْدي صاحبه الى طريق الخير والصَّواب، إن كان صاحبه عاقلا، مستنيرا، غير متهور، او متصلب في رأيه. وليست عاطفته مسيطرة كلّ السيطرة على حواسه أمَّا مَنْ يستمع إلى «قلبه» أكثر من استماعه الى نداء «عقله» فهو انسان سائر لا محالة في طريق الهلاك والضلال وذلك من غير ان يدري.

(١) السمير ٩ تشرين الثاني ١٩٤٩م.
(٢) المرجع نفسه
(٣) المرجع نفسه
(٤) المرجع نفسه

وقد وجد ابو ماضي أنَّ الناس ليسوا جميعا سواء، في العادات والاخلاق والافعال. فهم «كالكتب» منها الجيد ومنها الرَّديء وكما أنَّك لا تستطيع ان تحكم على أي كتاب إمَّا بالجُودة او بالإسفاف إلاَّ بعد ان تَتَصفَّح بيديك اوراق صفحاته، وتلتهم عيناك التهاما كلمات سطوره. فكذلك بعض «الناس» الذين لا تَعْرِفُهم حقَّ المعرفة إلاَّ بعد أنْ تقرضهم المال او ترافقهم في حِلّ أو تَرْحال.(١)

. «وكم من رجل راقك منظره (قال ابو ماضي) واعجبتك هيئته، فتوهمت أنَّه الرجل الذي يصلح ان يكون عشيرا، ورفيقا، وصديقا وان وراء ثوبه الجميل خُلُقا جميلا، وخلف احاديثه العذبة شمائل كريمة. فَلَمَّا بلوته، أبدى الكِيرُ عَنْ خَبَثِ الحَديد، ورجعتَ تنفض منه كفيك، وتلوم عينيك، وتعتب على عقلك الذي خانك فلم يحسن التقدير. فَرُبَّ كتاب رَثِّ الحواشي أغبرُ الجلد من تقادم العهد عليه ترَدَّدتَ في أنْ تَلْمِسَهُ يداك او أن تمشي في اوراقه عيناك، ولَكِنَّكَ عندما اقدمت على مطالعته، شعرت كأنَك تسير في دنيا انيقة ساحرة، لا يشبَعُ منها النَّظر ولا تشبع الروح، لِما فيها من المشاهد الجميلة والالوان المختلفة..».

فمن شاء ان يحيا حياة سعيدة خالية من المتاعب والمشاغل والآلام؛ فليحتفظ في مكتبته ببعض الكتب القَيِّمة التي خطَّت صفحاتها اقلام العباقرة، في مختلف العصور والاجيال وليصادق من الناس من حسنت سيرته، ورقت شمائله، وصفت نفسه ولَطُفَ معشره. وما أتعس الانسان حينما يدرك انه اصبح من الصعوبة عليه بمكان ان يجد له في «الحياة» صديقا صدوقا يصدقه او كتابا نافعا يفيده:(٢)

«فاختر رفاقك في الحياة (يقول ابو ماضي) سواء كانوا اناسا او كتبا من الذين لا تندم على صحبتهم، ولا تَسُوءُك عشرتهم ولا تُفْسد أخلاقهم اخلاقك. فإنَّ حسن الاختيار دليل على حسن الذوق وبُعْد النَّظر، ودقة الاحساس. فأَحْسِنْ اختيار الاصدقاء، تعش سعيدا».

اما «الغُرور» فقد وجد أبو ماضي انه مرض عضال يقتل صاحبه ان لم يكن صاحبه داريا بغروره. ومن بين هؤلاء المغرورين أُدباء ظنُّوا انهم قد بلغوا اعلى

(١) السمير ١٢ آذار ١٩٤٥م. من مقال له بعنوان «الكتب والنّاس».
(٢) المرجع نفسه

مَراتِبِ العلياء، لمجرد أنْ يجدوا جريدة أو مجلة متواضعة تنشر لهم صورة او مقالة. فناموا على الامجاد، وانصرفوا عَن المطالعة والدرس والاستقصاء. ولم يعودوا يهتُّمون بتنويع آفاق مداركهم، وتفكيرهم، فانتهى بهم المَطَاف الى الخُمُوْل، خُمُوْل الذّكر، وخمول النفس، وهم لا يشعرون. فكثيرون من الناس لا هَمَّ لهم في الحياة الا ان يحملوا شهادات جامعية عالية ليقينهم الشديد بأنها ستوفر لهم المال، والجاه، والغذاء فينصرفون عن طلب العلم والمعرفة بعد نيلهم لتلك الشهادات العالية مكتفين بها وحدها، متناسين أنَّ الغذاء انواع مختلفة، وافضل تلك الانواع نوع لا يحصل عليه الانسان بماله أو بجاهه، وشهاداته بل بطلبه الدائم المستمر للعلم. وذلك من المهد الى اللحد. فغذاء العقول أفضل وأبقى من غذاء الاجساد، وخاصة لدى هؤلاء الذين يأكلون ليعيشوا ولا يعيشون ليأكلوا: «فَوَيْلٌ للطالِبِ المُكتفي بشهادته (قال أبو ماضي) وويلٌ للكاتب المكتفي بنشر صورته في جريدة او مجلة وويلٌ للطبيب الذي يطلب من الناس ان يخروا امامه ساجدين؛ وهو لا يشفي مريضا الا ويكون قد أودى بحياة الكثيرين من مرضاه. وويلٌ للعامل الذي يتقن مهنة منَ المهن ويذهب يتيه بها على الناس فخراً واعزازا وكأنَّه هو خالقها وموجدها. وويلٌ للغني الذي ادرك ثروته بالحظ أو آلت اليه بالوراثة فراح يعتقد في نفسه الذكاء، وينسب الى غيره الجهل والغباء. ويل لهؤلاء وويل للناس من هؤلاء وامثالهم. ممَّن استحوذ عليهم «الغرور» فتوهموا أنهم طبقة أرقى من الناس أو أنهم صاروا في غنًى عنهم..

ويل لهم؛ لأنَّهم باستسلامهم الى «الغرور» قطعوا الطريق على انفسهم فصار من العسير عليهم ان ينفعوا أنفسهم او ينفعوا سواهم. وصاروا لوقوفهم عند هذا الحد واكتفائهم بما نالوه اشبه بالماء الجاري الذي وقف عن الجري فصار آسنا بعد ان كان عذبا. وعكرا بعد أن كان صافيا»[1].

فما علينا إذاً إلَّا ان ندل هؤلاء الناس على اخطائهم علهم يتجنبونها، لكي نُشْعِرَهُمْ بأنهم ما يزالون بحاجة الى كثير من المعرفة، ليحق لهم ان يتيهوا بمعرفتهم هذه على سواهم، لكي لا يكونوا عالة علينا وطفيليات مؤذية في مجتمعنا. يجب التخلص منها والقضاء عليها قبل ان يستفحل امرها ويستشري داؤها في اجسادنا فيصعب علينا الشفاء منها ومن ادرانها. إذ انه قد يكون باستطاعتنا ان: «نعذر

---

(١) السمير ٦ تشرين الثاني ١٩٤٦م. من مقال له بعنوان «ويلٌ لهؤلاء».

من يكرع خابية من الخمر فيسكر ويعربد ولكننا لا نقدر أن نعذر رجلا يعربد على الناس لانه شرب عصير زبيبة. ومن منّا لا يعترف بما للنسر من قوة الجناح الذي يمكنه بواسطته ان يختار لنفسه الاقامة الدائمة في اعالي قنن الجبال، والتحليق الدائم في اجواز الفضاء، ولكن من الحماقة والغفلة ان تطن حولنا بعوضة فنعترف لها بأنها نَسْر جَبَّار».

وقد صور أبو ماضي لنا في مقاله «المَرَّاءُون» (١) صنفا خبيثا من الناس رأهم يلبسون لكل حالة لُبُوسَها ويرتدون شتى الالوان كالزُّجاج. دأبهم نقل الاراجيف والاشاعات وحينما يجدون انفسهم عاجزين عن تقصّي الاخبار واشاعة الفرقة بين الاحباء يلجأون الى الكذب والرياء والتعيير والاغتياب. يذهبون الى عدوك فيوغرون صدره عليك ويأتون اليك فيوغرون صدرك على عدوك يحرِّفون لك في اقواله يزيدون عليها وينقصون ما شاء لهم الزيادة والنقصان من الكلمات والحكايات التي من شأنها ان تضاعف الخصام وتكرس الفرقة والانقسام. وكلّما لامهم اللائمون على ذلك تظاهروا أمامهم بالبلاهة وحسن النية والطَّويَّة وراحوا يخفون عن اعينهم بشتى السبل عاداتهم القبيحة تلك؛ وهي عادات لا يجدر بالانسان الراقي المتنوِّر ان يتحلّى بها لكي لا ينحدر مستواه الى مستوى «البعوضة» التي لا تحمل في أرجلها سوى الجراثيم المضرّة وتأبى ان تتخلى عنها إلاّ بعد ان تضعها إمَّا على موائد الناس وإمَّا على ثيابهم الطاهرة النقية:

«يصعب علينا تعريف المِرائيِّ (قال ابو ماضي) تعريفا تاما فنقول: انه انسان يتظاهر بما ليس فيه لخُبْث فيه، ولُؤم. فهو يكذب، وهو غير مضطر الى الكذب وهو يغتاب في حين لا باعِثَ الى الاغتياب. يلقاك بالوجه الذي تُحِبّ ثم يذهب الى عدوك فيلقاه بالوجه الذي يُحِبّ».

فهذا الصِّنف من الناس ليس محصوراً فقط في مكان معين بل هو موجود في كل عصر، وأوان وقد احتار في أمره الرسل والانبياء حيث وجدوا انفسهم عاجزين كل العجز عن ايجاد الدواء الشافي لذلك الداء الأخلاقي العضال وخاصة بعدما قاسَوْا من أصحابه شتَّى انواع العذاب والمهانات وسر عجزهم عائد الى تلك الفئة

---

(١) السمير ٢٠ حزيران ١٩٤٧ م.

من الناس «الخبثاء» الذين نجد واحدهم: «لا يقدر أن يكون مُخلصا لفرد ولا لجماعة، ولا لأُمَّة. والسبب واضح: وهو أنَّه غير صادق مع نفسه ولا يقدر ان يكسب ثقة الناس، لأنَّه هو ذاته لا يثق بهم وشر من هذا أنه لا يثق بنفسه فهو أبداً مترجرج الاخلاق، متذبذب الآراء».

وهناك صنف من الناس يلهو كثيرا ويجد قليلا يريد ان يقتل وقته متعمدا ان يقتل مع قتله له أوقات الآخرين. فليس للوقت عنده قيمة؛ لأنَّ الحياة في نظره تافهة ليس لها مَعْنى سوى معنى الثرثرة والمجادلة، واضاعة الوقت بشتى السُبُل والوسَائل. فالدقائق تمرّ به وكأنَّها ساعات والساعات تمرّ به وكأنها شهور وسنوات. فما اشد وطأة «الزَّمَن» على امثال هؤلاء الذين لا يعملون ولا يَدَعون غيرهم يعمل وليس لهم من أُمنية في «الحياة» سوى أن يجدوا لانفسهم كُرسيّاً «خاليا» في «صالون» او «حانوت» او «مقهى» من المقاهي العامة. ليحتلوها احتلالا ابديا، أشاء صاحبها ام أبَى! اعبس في وجوههم أم ضحك! ولا يكاد يستقر بهم المُقَام في أى مكان من الامكنة حتى يأخذوا بالتلفت ذات اليمين وذات الشمال باحثين مفتّشين عن جليس أنيس يجاذبهم اطراف الحديث ولو لساعات قليلة معدودة. أمَّا احاديثهم فهي احاديث كلها تدور حول أمور تافهة، لا تخطر لاحد في بال، وكلّما حاول مجالسهم افهامهم بانه ليس لديه مُتَّسع كافٍ من الوقت لينفقه في صحبتهم كلّما اندفعت الاسئلة من أشداقهم كاندفاع الصخور من اعالي الجبال. واسئلتهم التافهة المحرجة تلك لا يُلْقُونَها فقط في الصالونات والمجالس والمنتديات بل ايضا في الشوارع والطرقات: «وانك لترى احدهم (قال أبو ماضي) يلقاك في الطريق وانت ذاهب في مهمة ضرورية فيستوقفك ليسألك رأيك في مستقبل العالم بعد مائة سنة، أو ليبثَّكَ شكواه من ضريبة الدخل، او ليسألك عَمَّا اذا كانت الحرب ستقع في هذه السنة أو ليشرح لك خلافا بينه وبين صديق، أو شريك، أو جار، او نسيب، أو ليسألك رأيك في هذا الكتاب، وذاك الشاعر، وتلك الجريدة، أو ليسديك النصائح ويبذل لك الارشادات وتكون على موعد مَع «إنسان» فيضيع، وفي طريقك الى القطار، فتتأخر عنه أو عائدا الى مكتبك فلا تصل في الوقت المُعَيَّن». (١)

فمن شاء ان يحافظ على وقته وأنْ يتخلَّص من ملاحقة هؤلاء القَتَلة للوقت

---

(١) السمير ٨ أيار ١٩٥٠ م. من مقال له بعنوان «قتلة الوقت».

فما عليه الا ان يصم اذنيه عن سماع اقوالهم، ويتحاشى جهد المستطاع لُقياهم او التعرف عليهم وكُلّما ابتلى بلقاء واحد منهم فليمتنع عن القاء اسئلته عليه علّه يتمكن بهذه الوسيلة من التخلّص منه بسرعة. وكم كان أبو ماضي يتمنّى لو انه توجد شريعة تعاقب بالسجن: « هؤلاء الذين يسألونك فلا تستفيد وتجاوبهم فلا يستفيدون، ويفرضون انفسهم عليك شئتَ أمْ أبيت. فتحس بقشعريرة ولا زمهرير وبمثل الحُمَّى ولا حُمَّى ».[1]

والانسان الذي يعرف مقدار نفسه لهو انسان كامل فاضل في نظر أبي ماضي قد: « زودته الحياة بكل قوتها وجمالها واختزنت له كنوزها ولم تبح لغيره الدخول الى هيكل اسرارها ».

ومهما عصفت بنا رياح المصائب وحاولت ان تقتلعنا من اماكننا لتلقي بنا في مَهَاوِيْ في التهلكة والدمار فلا يجدر بنا ان نقف امامها مكتوفي الايدي مسلمين اليها قياد أمرنا بل علينا ان نكافح كفاح الابطال ونسعى في سبيل الانتصار عليها والتخلص من شرِّها وأذاها. فضعفاء النفوس هم وحدهم يعتقدون بأنهم ليسوا شيئا يذكر في الحياة: « ومَثَلهم كَمَثَل عُصَافة في مَهَبِّ ريح هوجاء ». إنَّهُمْ لا يكتفون باعتقادهم الخاطيء هذا بل يحاولون ايهام غيرهم بأنهم هم واياهم: « في ميزان الدهر والنملة الحقيرة سواء .. » ولربما تناسَوْا بأن الانسان أضعيفا كان أم قويا غنياً أم فقيرا باستطاعته ان يظل محافظا على قوّته ان كان قويا وان يُحَوِّل ضعفه الى قوة ان كان ضعيفا. وقد لا يتأتى له كل ذلك الا حينما يصنع « جميلا »[2] مع الذين يستحقون والذين لا يستحقون؛ كأنْ يسارع من تلقاء نفسه: « الى اغاثة ملهوف واعانة مسكين وانقاذ مستعبد مظلوم » فإن فاته القيام بكل هذه الاعمال مجتمعة أو امكنه القيام ببعض منها فيمكنه ايضا معها: « ان يقطع الطريق على وشاية او سعاية او خبر مُخْتَلق او يُنَشِّطُ متردِّدا او يمدح على الخير أهله. فيكون قد صنع بذلك « جميلا » لا يعض اصابع الندم والحسرة بعد صنعه له، لأنه استطاع ان يغرس بذوره في ارض طَيِّبة صالحة، تحفظ له جميله ولا تلبث ان ترده اليه اضعافا مضاعفة.

---

(١) السمير ٨ أيار ١٩٥٠م.
(٢) السمير ١٥ تموز ١٩٤٧م.

أمَّا الحروب والويلات فلا تقع في نظر ابي ماضي الا بعد ان « ينام العقل » ويستيقظ الحيوان الراقد في الإنسان فيصبح مَيَّالا الى الفتك والبطش والسيطرة وحب الانتقام وتحمله انانيته على الاعتقاد « بان الدنيا خلقت له وحْدَه، وأنَّ غيره ليس له حَقٌ فيها فاذا إدَّعى أنَّه ذو حق، كان معتديا وأثيما » .

فالارض رحبة واسعة، فهي تتسع لنا ولسوانا، ولكل من يريد ان يجعل منها أرضا لا اثر فيها للضغينة ولا للدَّمار.

وقد لا تصبح ارض العالم ارض محبة ووئام الا بعد ان يشعر كل انسان فيها « شعورا حقيقيا » [1] مع أخيه الانسان فيسارع الى نجدته بكل ما ملكت يداه، ولا يبخل عليه بالنصائح والارشادات. وهي نصائح لا اثر فيها للمراوغة أو الخداع. ولا يجب على الانسان ان يهدأ له بال ويطمئن على مستقبله كل الاطمئنان الا حينما يرى الابتسامات عادت لترتسم من جديد على وجه كل بائس مسكين حتى ولو لم يكن يمت اليه بصلة النسب والقرابة او الدين وليس هناك من عاطفة اسمى من عاطفة الحنان والرأفة ومشاطرة الانسان لأخيه الانسان في حمل اثقال الحياة ومتاعبها والا فلسوف « تظل البشرية كما كانت من قَبْلُ تتآخى عصرا وتقتتل سنة فتهدم في سنة القتال كل ما بنت في عصر السلم وستبقى الارض مسرحا للآمال الضاحكة والأماني الباسمة فترة من الوقت تعقبها فترة أخرى تنطوي فيها الآمال والاماني، ويرجع الظلام يُغَطِّي السُّهول والقِمَم » .

فاعادة الرجاء الى القلوب المنكسرة الحزينة لا يتأتى إلاَّ لاصحاب النفوس الكبيرة، والمشاعر الانسانية النبيلة، أمَّا هؤلاء الذين لا يوجد في صدورهم سوى مشاعر الحقد والضغينة فلن يكون باستطاعتهم اسعاد انسان، بائس، متألم؛ لأنَّهم هم أنفسهم بائسون متألمون: « فهم لا يرون نعمة على احد الا تمنوا زوالها او زواله ولا مدح الناس امامهم من خَصْلة جميلة او خُطَّة نبيلة إلاَّ مشى الذعر والحَنَق في دمائهم؛ لأَنَّ تلك المَزيَّة ليست فيهم » . وهم لا يكتفون فقط بإظهارهم لمشاعرهم الفياضة تلك بل يطلبون من معارفهم ان يفعلوا افعالهم، ويقولوا اقوالهم، ليصبح بإمكانهم ان يعادوا الذين يعادونهم، ويحقدوا على الذين يَحْقِدون عليهم. لا لشيء

---

(١) السمير ٢٦ ايلول ١٩٥٢ م. من مقال له بعنوان « الشُّعُور الحقيقي » .

إلا لأنهم لا يستطيعون الخروج بأنفسهم من دنيا الظلام الى دنيا النُور. لذلك نجدهم دائما يحسدون السائرين على طريق النور الذين يبنون ولا يهدمون ويقومون بالمشاريع النافعة والاعمال الصالحة واذا ما وجدناهم يتحرَّقون حَنَقاً وغيظاً، كلّما سمعوا بعمل صالح قام به سواهم فلا يجدر بنا ان نعتب عليهم «لأنَّ العمل الصالح يجيء احيانا بمَثَابة توبيخ للذين لا يعملون شيئاً».

فلنعمل إذاً أعمالا صالحة، ولنترك «الناس» يحكمون علينا بعد انجازنا لاعمالنا تلك ولننظر في عيوبنا لنصلحها ونشتغل بها بدلا من الاشتغال والنظر في عيوب الناس ويجب علينا الا نهتم او نصاحب الا الذين لا يحاولون «تحطيم سمعة وتشويه صيت وهدم كرامة».

وقد اوصانا ابو ماضي بالتَّعَقُّل والمسامحة والصفح والملاينة وبنسيان اساءه المسيئين الينا الى ان ندرك بفطنتنا ان تسامحنا وصفحنا واشفاقنا قد جعل أعداءنا يطمعون بنا، ويستضعفوننا. فلا مانع يمنعنا حينذاك منْ أن نُحَوّل شعور الشفقة والرحمة في قلوبنا «الى حب انتقام إذ لا بُدَّ للمرء ان يحمي نفسه من بَذَوَاتَ الاشرار، كما يحمى نفسه من جراثيم الذباب وويل للعابثين اذا غضب الحليم».

وكان أبو ماضي يرى بأنه لكي يكتب لأمَّة من الامم الناهضة التقدّم، والنجاح، والرّقي، والازدهار فلا بُدَّ لها من أن توفر لافرادها الحرّيّة في «القول والعمل» وكل ذلك لا يتأتى لها الا بعد ان تطلق الافكار من عقالها، وَيُسْمَح بنشرها واعلانها دون ان يتعرض صاحبها للسجن او الاضطهاد من السلطة او الافراد الذين تصله بهم روابط متينة من الصداقة أو اللغة أو الدين.

فلنترك المفكرين والعلماء والمصلحين الاجتماعيين يخوضون في كل ميدان من ميادين العلم والمعرفة والادب من غير ان نناصبهم العداء او نسخرمنهم ومن اقوالهم وافعالهم تاركين «للتاريخ» وحده ان يقول «كلمته» فيهم. فإمَّا ان يسجل آثارهم وأقوالهم على صفحاته بأحرف من نور. وإما ان يهملهم ويهمل اقوالهم كما اهمل اقوال الكثيرين من قبلهم؛ فلننطلق من قيود الخمول والجهل علّنا نستطيع ان نتخلص تخلصا كليا من تقاليد الآباء والاجداد البالية الموروثة. فالجهلاء وحدهم هم الذين يحافظون عليها ويتمسَّكون بها، فيصبح من الغسير عليهم التخلّى عنها. فَهُم

كلّما جاءهم «انسان» ليقود خطاهم الى الامام، ساروا معه خطوات الى الوراء. فلا يلبث ان يجد نفسه غريبا عنهم مثلما يجدون هم ايضا انفسهم عنه غرباء. فيصدّون عنه صدودا ويلومونه لوما عظيما لا لشيء إلاّ لانهم لا يريدون الخروج من «كهف الانكماش الى فضاء الانطلاق، الى دنيا العقل المُتحَرّر».

ومن علامات الجاهل المميزة له عن سائر العقلاء المتحررين انه دائما وأبدا، «ضيِّق الصدر يتوهم كل فكرة جديدة بدعة والحادا، ويتصور كل مخالف له في رأى او نظرية عدوا وان كان اعظم فيلسوف وما كثُر امثال هؤلاء الجهلاء في امة الا ذلّت وضعفت، وصارت فريسة باردة لكل طامع، ومسرحا لثعابين الشّقاق، والنفاق، والنزاع المُذهِب للقوى».

واننا لنجد أنفسنا مكتفين بهذا القدر من الدراسة لآثار ابي ماضي النثرية وان كان قد بقى منها الشيء الكثير. وفي اعتقادي ان ابا ماضي كان كاتبا وشاعراً في آن معا، ولكنه لم يشتهر ككاتب بل اشتهر كشاعر. وسر عدم اشتهاره كأديب يعود في نظرنا الى مهنته «الصحفية» التي ظل يتعاطاها مدة اربعين عاما تقريبا وهي مهنة شاقة. ومهنته هذه جعلته ينجرف انجرافا كلّيا في تيار السياسة، وابعدته بعض الإبعاد عن حومة الادب اذ اننا كنا نشعر ونحن نفتِّش عن مقالاته الادبية الجيدة التي كان ينشرها على صفحات مجلته ثم جريدته «السمير» كمن يفتِّش عن حبة من القمح بين اكوام من التِّبْن.

رمزيته

لقد وجدنا أبا ماضي يسلك في بعض قصائده مثل قصيدة «العَنْقاء» و«الحَجَر الصغير» و«المَساء» و«الاشباح الثلاثة» و«ابن الليل» طريق الرمز والايحاء. وهو قد كان يقصد من وراء سلوكه لهذا الطريق الذي قَلَّ نظيره في ادبنا العربي، قديمه، وحديثه، ان يدلي ببعض آرائه الشخصية المتعلقة به، وبمكانة الفرد في مجتمعه وَفيما وراء الطبيعة، ولكن بواسطة استعماله لالفاظ ذات دلالات واضحة غير مبهمة، وهي مختلفة كل الاختلاف من حيث الفحوى والمضمون عن تلك الالفاظ الموحية الغامضة نوعاً ما التي يلجأ الى استعمالها اكثر الشعراء الرَمزيِّن.

فها نحن نجد أبا ماضي يجعل لقصيدته «المَساء» بطلة سَمَّاهَا سَلْمى حَيْث نراه يخاطبها في مطلع قصيدته هذه، بمثل قوله: [١]

السُحْبُ تركضُ في الفَضَاء الرَّحْب ركضَ الخائفينْ
والشّمسُ تبدو خلفها، صفراءَ عاصبةَ الجبين
والبحرُ ساج صامتٌ فيه خشوع الزّاهدين
لَكنّما عيناكِ باهتتان في الأفق البعيدْ
سَلْمى.. بماذا تفكّرينْ؟
سَلْمى.. بماذا تحلُمينْ؟

---

(١) الجداول ص ٥٦.

فأبو ماضي لم يكن في قصيدته هذه، يخاطب فتاة أحبها اسمها سَلمى كما زعم بعض الادباء الباحثين وانما كان يخاطبُ والدته نفسها التي كان اسمها سلمى ودليلنا على ما نقول أمران: أوّلُهمَا: أنّه لا يوجد في الفاظ مطلع هذه القصيدة الطويلة، ولا حتّى في جميع الفاظ مقاطعها التي نظمها ابو ماضي كلّها على البَحْر الكامِل، أيّ أثَرٍ من آثار اللوعة والاشتياق، أو أيّ دَليل من دلائل العشق والغرام.

ثانيهما: انّ هذه القصيدة منشورة في ديوان ابي ماضي «الجَداول» الذي نظم كل قصائده في الفترة الواقعة ما بين عامَي ١٩٢٠ - ١٩٢٧م. وهي الفترة التي كان فيها والده قد غادر ارض الولايات المتحدة عائداً الى لبنان، تاركا زوجته «سَلمى بنت اسكندر أبي عزيز» في رعاية ولديها: مُرَاد وايليا الذي كان في تلك الفترة من حياته يبحث جاداً عن مستقبله الافضل المضمون له ولجميع افراد عائلته. وقلقه واضطرابه هذان قد رآهما مَرْسُومين على وجه والدته «سَلمى» والدليل على ذلك قوله مستطرداً في المقطع الثاني من مقاطع قصيدته هذه: (١)

أرأيتِ أحـلامَ الطُّفُـولةِ تَخْـتـفي خلفَ النُّجُـومْ
أمْ ابصَـرتْ عيناكِ اشبـاحَ الكُهولة في الغُـيـومْ؟
أمْ خِفتِ أن يأتيْ الدُّجى الجَاني ولا تأتي النُّجومْ؟
انا لا ارى مـا تـلمـحينَ مِنَ المَشـاهدِ؛ إنَّمـا
أظلالُـهــا في ناظِرَيْكِ
تَـنِـمُّ يـا سَـلْمَـى علـيـكِ

ومن هنا، يمكننا القـول تَبَعـاً لِمـا أسلفنا، وأكـدنا بأنَّ لفظتي «الدُّجى» و«النُّجومَ» اللتين استعملهما ابو ماضي في البيت الثالث من ابيات هذا المقطع من قصيدته العصماء هذه ليستا سوى لفظتين مستعملتين استعمالاً «رمزياً» ليس إلاَّ.. ولفظة «الدجى» عَنَىْ بها ابو ماضي الحياة العابسة، والمصير المجهول. ولفظة «النجوم» عَنَى بها الحياة الضاحكة، والمستقبل الباسم المضمون، وهو مستقبل كان ابو ماضي يشاهد من بعيد اعلامه، ترفرف امام ناظريه، بينما كانت والدته

---

(١) الجداول ص ٥٧.

« سنمى » لا تُشَاهد لأَعلام ذلك المستقبل الباسم الذي كان يراه أيّ أثرٍ او دليل بل كـانت تشاهد بعينيها بدلاً من مشاهدتها له اعلام مستقبل غامض ومجهول، بالنسبة إليها وإليه. ومشاهدتها لتلك الاعلام التي كانت تلوح امام عينيها هي التي جعلتها تجلس عند المساء واضعةً رأسها بين يديها ؛ وهي حزينة ومكتئبة، اكتئاباً شبيها باكتئاب العاشقين : [1].

إنّي اراكِ كسائح في القفرِ ضَلَّ عَنِ الطَّريْقْ
يرجُو صديقاً في الفَلاة، وأينَ في القفرِ الصَّديْقْ!
يَهْوَى البُروق وضوءَها ويَخافُ تَخْدعه البُرُوْقْ
بل أنتِ أعظمُ حيْرَةً منْ فارس تَحْتَ القَتَامْ [2]
لا يَستطيعُ الانتصارْ
ولا يُطيقُ الانكِسارْ
هَذِي الهواجسُ لم تكنْ مرسومةً في مُقْلتيْكِ
فلقد رأيتُكِ في الدُّجَى ورأيْتُها في وَجْنتيكِ
لَكِنْ وجدتُكِ في المساءِ وضعتِ رأسكِ في يَدَيكِ
وجلستِ في عينيكِ ألغازٌ وفي النفس اكتئابْ
مثلُ اكتئابِ العاشقينْ
سَلْمَى.. بماذا تفكّرينْ؟

فأبو ماضي حينما شاهد والدته سلمى جالسةً أمامه، واضعةً رأسها بين يديها، مستغرقة في تفكيرها العميق هذا، ورافضة أنْ تُفْصح له عَمَّا كان يجول في خاطرها من مشاعر وافكار واحاسيسَ، راح يُلحّ عليها، طالباً منها، أنْ تخبره ما اذا كانت جالسة في تلك الاثناء مُفَكّرةً : [3]

بالأرض كيف هَوتْ عروشُ النُور عَنْ هضباتها؟
أم بالمروج الخُضْرِ ساد الصَّمْتُ في جَنَباتها؟

---

(١) الجداول ص ٥٧ – ٥٨.
(٢) القتام : الغبار الاسود.
(٣) الجداول ص ٥٨ – ٥٩.

أمْ بالعصافيرِ التي تَغدُو الى وُكُناتِها؟
أمْ بالمَسا؟. إنَّ المَسا يُخفي المدائنَ والقُرىٰ
والكُوخَ والقَصرَ المَكين؟
والشَّوكَ مِثلَ الياسَمين؟

وبعدما تبيّن له أنَّ هذه الافكار وأشباهَها، هي التي كانت تدور في خَلَد والدته «سَلمَى» لدى رؤيته لها، وهي جالسة أمامه على تلك الحالة من اليأس والقنوط، أخذ يحاول اقناعها بواسطة الادلة والبراهين التي استقاها من الكائنات في الطبيعة أنْ لا شيء في الوجود إلاّ وهو قابل للتّبدّل والتغيير. ولا يجدر بنا تَبَعاً لذلك ان نكتئب لاجل اتفه الاسباب وخاصّة لأنَّ الاكتئاب، لا يُرجِع إلينا عِزّاً قد مضى، او يبدد غيوم الفقر من سماء حياتنا. فلماذا إذاً نلجأ إليه، ونظلّ في ركابه سائرينْ:[1]

لا فَرقَ عِنْدَ اللَّيْل بينَ النَّهر والمستنقَعِ
يُخفِي ابتساماتِ الطروبِ كأدمعِ المُتَوَجِّعِ
إنَّ الجمالَ يغيبُ مِثْل القُبْح تَحْتَ البُرْقُعِ
لَكِنْ لماذا تَجْزعينَ على النَّهارِ وللدُّجىٰ
احلامُه ورغائبُهْ
وسماؤُه وكواكِبُهْ

لقد رَمَز ابو ماضي بلفظة النهار الواردة في البيت الرابع من ابيات هذا المقطع الى الحياة المشرقة، الهانئة السعيدة. كما رَمَز بواسطة لفظة «الدُّجى» التي وردت بعدها في نفس هذا البيت، الى الحياة العابسة، الصعبة، المُتَجَهِّمَة. وحياة الانسان أيِّ إنسان مهما كانت عابسةً،وشديدة، صعبة، فلا بُدَّ لها في نظر ابي ماضي منْ أن تتحول الى حياة، هانئة، سعيدة، مشرقة. ولَكِنْ شرطَ أنْ يكدّ هذا الانسان الشقي المتعب، ويعملَ، لكي يجعل منْ حياته التعيسة تلك، حياةً مَمْلُوءَةً بالرَّغد والهناء وحتّى هذا الدجى نفسه قال ابو ماضي مستطرداً:[2]

(١) الجداول ص ٥٩.
(٢) الجداول ص ٦٠.

إنْ كان قد سَتَر البلاد ، سُهولها ووُعُورها
لم يسلب الزهْرَ الأريجَ ولا المياهَ خريرَها
كلاَّ ، ولا مَنَعَ النسائمَ في الفضاء مَسيرَها
ما زال في الوَرَق الحفيفُ وفي الصَّبا أنفاسُها
والعَنْدَليبُ صُداحُهُ
لا ظِفْرُهُ وجَناحُهُ

ثم نرى أبا ماضي بعد ذلك يطلب منْ « سَلمى » والدته هذه ألاَّ تفكر بذلك المستقبل الغامض، المجهول الذي راحت أعلامه، تلوح أمام ناظريها . وقد سببت رُؤيتها لأعلامه تلك لها كثيراً من الحزن والاكتئاب. فما عليها إذاً لكي تسترجع انشراحها ، وتردّ الابتسامة إلى شفتيها ، والبشاشة الى وجهها إلاّ أن تقتنص كلّ فرصة تتيح لها في حياتها الإصغاء الى صوت الجداول، واستنشاق عبير الازهار، والتمتع بمناظر الشُّهُب في الافلاك وكل ذلك قبلَ فوات الأوان؛[1]

فاصغيْ إلى صوت الجَداوِل جارياتٍ في السُّفُوحْ
واستنشقي الازهار في الجنَّات ما دامت تفوحْ
وتَمتَّعي بالشُّهْب في الأفلاك ما دامت تلوحْ
منْ قَبْلِ أنْ يأتي زمانٌ كالضَّبابِ أوالدُّخانْ
لا تُبصرين بهِ الغَديرْ
ولا يلذّ لَكِ الخَريرْ

إنّ هذا الزّمن الذي كان ابو ماضي يخشى على والدته « سلمى » تلك من الوصول اليه والعيش فيه هو زمن الشيخوخة ليس إلاّ حيث نراه يطلب من والدته « سَلمى » ان تعيش في هذا الزمن بعد وصولها إلَيهِ بالأمل الطيِّب والرُّؤى الجميلة العذبةإذ لا شيء سواهما يُؤمّن لها السعادة، والهناء في ذلك « الزّمن » بالذّات زَمَنِ العِظَام المُوْهَنَة والظهر المنحني، والشُّعور الدائم، المتَّصل، باليأسِ والقُنوط؛[2]

---

(١) الجداول ص ٦٠ ـ ٦١.
(٢) الجداول ص ٦١.

لِتكن حياتُك كُلها أملاً، جميلاً، طيِّبا
ولْتملاء الاحلامُ نفسَكِ في الكُهولة والصِّبا
مِثل الكواكب في السَّماء وكالأزاهِرِ في الرُّبى
ليَكُنْ بأمـــر الحُبِّ قلبُكِ عـــالماً في ذاتهِ
ازهارُه لا تَذْبُلُ
ونجومُه لا تأفُلُ

وبعد ما راح أبو ماضي يوزع في جميع مقاطع قصيدته هذه نصائحه، وارشاداته على والدته «سَلمى» تلك، علَّه بذلك يقنعها بالعمل بتلك النصائح والارشادات التي كان ينصحها بها ويرشدها اليها كي تتمكن من ان تظل سعيدة، مرتاحة البال؛ إنْ في شبابها أو في شيخوختها، شاء أن يختم المقطع الاخير من مقاطع قصيدته هذه ناصحا إِيَّاها بعدم التأمل في الحياة وما يوجد فيها منْ اوجاع إذِ إنَّ التأمل في الحياة واوجاعها لا يجعل تلك الاوجاع تبتعد عنها بل هي تتضاعف وتستشرى في صدرها كل الاستشراء بحيث لا يعود منَ السَّهْل عليها بعد ذلك أنْ تَقْتَلِعَها منه بسهولة: (١)

ماتَ الصَّباحُ ابن النَّهار فلا تقولي كيف ماتْ
إنَّ التـأمُّلَ في الحـيـاة، يزيد اوجـاعَ الحـيـاةْ
فـدعي الكآبة والأسَى، واسترجعي مَرَحَ الفَتَاةْ
قد كان وَجْهُكِ في الضُّحى مِثْلَ الضُّحَى مُتَهَلِّلاً
فـيـه البـشـاشةُ والبـهاءْ
لِيَكُن كـذلك في المَسَـاءْ.

وقد كان أبو ماضي مؤمنا اشد الايمان بأن الماء هو اصل «الحياة» وقد حمله هذا الاعتقاد على نفي وجود الروح إلاَّ في الجسد إذ إنَّها حسب زعمه «معه تأتي ومعه تذهب». ولكنَّه ظلَّ يعتقد بوجودها في قطرات الماء، وفي سنابل القمح، والورود، والأزهار. وهذه الارواح الموجـودة في هذه الكائنات هي ارواح لاناس خَيِّريْن تحوّلوا في نظره بعد موتهم الى سنابلَ وورود، وطيور، تغرد في السماء لكي

(١) الجداول ص ٦١ – ٦٢.

يكافأوا على اعمالهم الخيّرة التي قاموا بها خلال حياتهم السابقة لذلك رأيناه في قصيدته «قطرة الطّلّ»، يوصينا كلما وقع نظرنا على قطرة من «النّدى» المستقرة على ورقة زهرة، بيضاء او حمراء، أنْ نتأمّلها كتأملنا للُغز نجهل سرّه. فلربما كانت تلك القطرة «روحا» شبيهة بروحه التي ارادت أنْ تحيا حياة حُرّة سعيدة، بعدما عافت الدنيا «المُضرّة» فارتقتْ الى الجو باحثة، ومفتشة عن مُستَقَرّ أمين لها وما ان وجدت ضالتها حتى أرجعتها مُقلة الظلماء، عند حلول الفجر، الى الارض وذلك بعدما حوّلتها الى قطرة من قطرات «النّدى»:[1]

إنْ تَرَ زهرةَ وردٍ، فـوقـهـا للطّلّ قَطْرَة
فـتـأمَّلْهـا كلُغـز غـامض تَجْـهَلُ سـرَّهْ..
ولْتَكُنْ عَـيْنُكَ كـفًّـا وليكُنْ لَمْـسُكَ نَظْرَة
ليست الحمراءُ جَمْرَه، لا، ولا البيضاءُ دُرَّة
رُبَّ رُوحٍ مِثْلِ رُوحي عافتِ الدُّنْيا المُضِرَّة
فـارْتَقتْ في الجَوّ تَبْغِيْ منزلاً فوقَ المَجَرَّة
عَلَّها تَحْيَـا قليـلاً في الفـضـاء الحُرّ حُـرَّة
ذَرَفَتْهَـا مُقْلَةُ الظّلماءِ عِنْدَ الفَجْرِ قَطْرَة..

وحينما أرادَ ابو ماضي أنْ يخبرنا عن أصل شقائه الذي سبَّبه له تطلّعه الدائم الى الحياة «الفُضْلى»، لم يجد أمامه سوى تلك النّار المُنبعثةِ السنتُها منْ المَجامر والمواقد، بعد أنْ وُضِعتْ فوقها القدور، بحيث أوحى إليه مَنْظرها هذا بكتابة قصيدته التي جعل عُنوانها «نَار القِرَى» وقد استهلّها استهلالا، رَمْزيًا، إيحائيًا، قائلا:[2]

رُوحي التي بالأمْسِ كـانتْ تَرْتَعُ — في الغَاب مِثْلَ الظّبْيةِ القَمْراءِ[3]
تَقتَاتُ بالثّمَرِ الجَنيّ فَتَشْبَعُ — وَيَبُلُّ غُلّتَهـا رَشَاشُ المَاءِ[4]
نظرتْ إليكِ فـاصـبـحتْ لا تَقْنَعُ — بالماءِ والأَفـيـاءِ في الغَـبْـراءِ

---

(١) الجداول ص ٩٠.
(٢) الجداول ص ٩٢.
(٣) القمراء: مؤنث الأقمر. ضوء القمر.
(٤) الرّشاشُ: ما تَرَشّش من الماء والدّم ونحوهما.

تُصغي وتَنصتُ والحمامةُ تَسْجَعُ إصْغاؤُها لكَ ليسَ للوَرْقاءِ
نادَيْتَها فَلَها إليكَ تطلُّعُ هذا التَّطلُّعُ كانَ أصْلَ شَقائي

فكيف يمكنه الوصول الى تلك «القُدُور» وهي اكبر من ان تكون قدروا من «طين».. وخاصة بعدما أصبح دونها ألف غطاء وغطاء. فلو كانت تلك الاغطية التي تغطيها لتحول ما بينه وبين حصوله عليها من تراب لمزقها بيده «الترابية» شر ممزق؛ وهو كلما كان يحاول تمزيقها بيده الترابية هذه يراها قد تحولت امام عينيه الى «سُجُف» من الاضواء: (١)

كيفَ الوصولُ إليكَ يا نارَ القِرىٰ أنا في الحَضيضِ وأنتِ في الجوزاءِ
لي ألفُ باصِرةٍ تَحِنُّ كما أرىٰ لكِنَّ دُونَكِ ألفَ ألفِ غِطاءِ
لَوْ مِنْ ثَرىً مَزَّقْتُها بيدِ الثَّرىٰ لكنَّها سُجُفٌ مِنَ الأضْواءِ (٢)

وقد شاءَ ابو ماضي أنْ يلهو، قليلا، بعدما أجهد نفسه بلا طائل خلال بحثه عن سر تلك النار، نار القرى، ولمّا لم يجد امامه سوى الكؤوس الفارغة فزع اليها وراح يَمْلأُها بالخمور المعتقة ويعبّ منها عَبّا وكلّما آنس، وطرب، كُلّما ازداد لنفسه تسائلا، عمّا اذا كان يشرب خمراً من تلك الكؤوس أمْ دماً. فلم تكن نَفْسُهُ تتوانى عن اقناعه بأنَّ ما يشربه ليس إلاّ قطرات من دمه وهو لا يدري فلو أنّه ظلَّ قانعا بما قَنع به سواه من الناس، لَمَا اصابه من جهد وعناء ولَمَا كانت خمرة هذا الكأس تحولت الى دماء هي في الحقيقة دماؤه، بل ظلّت خمرة حقيقيّة شبيهة كلّ الشبه بتلك الخمرة التي يتناولها هؤلاء الذين ليس لهم هدف اسمى في الحياة؛ ليكدُّوا مِنْ اجله، ويجهدوا أنفُسَهم في سبيل تحقيقه: (٣)

سَاءَلْتُ قلبي إذ رأى فَتحيَّرَا ماذا شَرِبْتَ فَمُدْتَ؟ قال: دمائي
يا ليتهُ قد ظلّ أعمى كالورى فلقد نعمتْ وكانَ في ظلْماءِ
قد شَوَّشتْ كفُّ النَّهارِ سَكينتي يا هذه: رُدِّيْ إليَّ مَسائي

(١) الجداول ص ٩٤.
(٢) السجف: السِّترُ ج سُجُوف. واسجف الليل: أسدف، والسَّدَف: اختلاط الضوء والظلمة معاً.
(٣) الجداول ص ٩٤.

ولقد طَفِقَ أبو ماضي يحدّثنا في قصيدته «الاشباح الثلاثة» (١) عمّا شاهده حينما أطبق اجفانه، ذات ليلة، مستسلما للكرى حيث وجد نفسه فجأة في مكان مملوء بأشباح الارواح الهائمة على وجهها. وحينما بدأ يتفحّصها بعينيه علّه يعرف أصحابَها، فاجأه:

وفـتًى في بُرْدِ العِـشْـرِيْنَا ... وَلَدٌ يتـهـادَىٰ في الـعَـشْـرِ

ذُوْ جِسْمٍ يَحْكي العُـرْجُـوْنَا ... والثـالِثُ شَـيخٌ في طِمْـرِ (٢)

فشعر حينذاك ببعض الجَزَع والرَهبة، ولكنه اخذ يؤنب نفسه لِجَزَعِها وخوفها من ذلك الشبح «الجذلان» المُتَّجه نحوه، والذي لم يكن يحمل بيده لا رمحا ولا سهما. ولقد وجد نفسه مستأنسا كل الاستئناس به وذلك بعدما سمعه يعاتبه أرق العتاب، ويمازحه كل الممازحة، قائلا له: (٣)

مـا بالُكَ مُنْكَمِـشـاً كَـمِـدَا ... قُمْ نَلْعَبْ في فيْءِ الشَّـجَـرِ

ونَهُـزُّ الأَغْـصُنَ والعُـمُـدَا ... ونزودُ الطَّيْـرَ عن الثَّـمَـرِ

او نَصْنَعُ خَـيْـلاً مِنْ قَـصَبِ ... أو طـيَّـــارات مِـنْ وَرَقِ

ومُـدًى وسـيـوفـاً منْ خَـشَبِ ... ونجـــولُ ونركضُ فـي الطُّرُقِ

او نـأتي بـالفَـحْمِ القَـاتِمْ ... ونُصَــوِّرُ فَــوْقَ الأبـوابِ

تِنِّيناً في بَحْـرٍ عـائِمْ ... أو لَيْـثـاً يخطِرُ في غـابِ

ولم تكد تطرق كلمات شبح ذلك الولد مَسمعه، حتى ازداد حنينه الى طفولته، وراح يتذكر ايّامها المنقضية فأضحى تَبَعا لذلك مشتاقا لرؤيتها مِنْ جديد؛ عَلّه يتمكّن بعد حصوله عليها من ان يعود فيشارك ذلك «الولد الشبح في ألعابه وافراحه ولكن ما ان ومضت بوارق تلك الفكرة «الصبيانية» في مخيَّلته، حتى اخذ يضحك من نفسه على نفسه، ضحكا متواصلا، كاد ان يسقط بسببه عَلَىٰ الأرض

(١) الجداول ١٠٥ - ١٠٦.
(٢) الطمر بالكسر: الثوب الخَلَق أو الكساء البالي.
العُرجون: عود الشماريخ اذا عتق فإنه يرق ويتقوس ويصفر.
(٣) الجداول ص ١٠٦.

مُستلقياً على ظهره. ولمّا سمع ذلك الشبحُ قهقهته، وضحكه، اعتقد بأنّه قد كان يسخرمنه، ويهزأ باقواله له. فتوارى عنه حينذاك قائلا له: (١)

ما تَضْحَكُ مِنّي بل مِنْكَا
إيّـــاكَ أنا لـو تَتَـذَكَّرْ!

ثم اقترب منه «الشَّبح» الثاني وهو يمشي على مَهَل فرآه تارة يقف محدقا في الافق البعيد، وكأنه يبحث خلفه عن شيء ثمين اضاعه وقد وجده يمشي مترنحا بنشوة أصوات البلابل والحساسين، وذلك لاعتقاده الاكيد بأنّها لم تكن تنشد أشعارها الملائكية الساحرة الا خصّيصا له وحده من دون سائر الناس ولقد كان كُلّما رأى زهرة؛ والنسيم يداعب اوراقها، وقف يتأمَّلُها ظنّا منه انها لم تكن تتمايل الا لترحّب بقدومه اليها. الدنيا ملك يمينه؛ وهو لم يكن يملك في الحقيقة منها شيئا فهو قد كان يكفيه من دنياه هذه أنّه لا يُحِسُّ فيها لا ضجرا ولا تعبا، وبأنَّ طريقه فيها مفروش، بالورود، والرياحين؛ وهو حيثما حَلَّ فيها واينما سار وجد السعادة تعترض سبيله بوجهها المُشْرق الوَضّاح: (٢)

الطَّيــــرُ تُغَنّي لـلـزَّهْرِ	ويَظُنُّ الطَّيْـــرَ تُسـاجِلُهُ
والـزَّهْرُ تُـرَحِّبُ بـالفَــجْــرِ	ويَظُنُّ الـزَّهْرَ يغَـــازِلُهُ
يتـــأَفَّفُ من بُطْءِ الـدَّهْرِ	والدَّهْرُ يســيــرُ به وَثْبَــا
وينامُ لِيَــحْلُمَ بالفَــجْــرِ	والفَــجْــرُ يُضِيءُ له الدَّرْبا

ومـا ان وافى ظِلّ ذلك الشبح، ظِلَّه، حتى سأله بإلحاح، أن يكشف له عن هويته وأنْ يخبره مَنْ هو؟ ومَنْ يكون؟ ولكنَّهُ سمعه يقول له متعجبا مستفهما: «انا ذلك الطفل لو تَدْرِيْ» ثم لم يلبث ان اختفى عن عينيه، فأخذ بعد اختفائه يسترجع اقواله في ذاكرته قولا، قولا، ولكنّه لم يلبث طويلا، بعد ذلك، حتى ادرك بأن صورة ذلك «الشبح الثاني» لم تكن الا صورة مصغَّرة، لشبابه، نَفْسِه، الذي رأه قد اضحى موشكا على الافلات من يده بين لحظة وأخرى.

ولَمَّا اقترب منه «الشبح الثالث» احتشدت الغيوم السوداء في السماء ثم رأهُ يبتعد عنه؛ وهو يخطو خطوات بطيئة، متثاقلة، اشبه بخطوات التائه في البيداء

---

(١) الجداول ص ١٠٨.
(٢) الجداول ص ١٠٩.

في ليلة مظلمة لَيْلاء، فراح يناديه ويستعطفه طالبا منه ان يتوقف ولو قليلا، ليريح قدميه الداميتين من المسير، والركض. ولكنه ظل متابعا سيره خشية ان تدعوه الارض التي هو بَعْضٌ منها إنْ هو توقَّف، وارتاح إلى حضنها. فيعود تَبعا لذلك ابن التراب الى التراب الذي جاء مِنْهُ ومِنْهُ وحده، إلى هذا الوجود : (١)

يَمْـــشي في الأَرض على مَـــهَـلِ	وعلى حَـــذَرٍ لَكِنْ يَمْـــشي
كـــالشَّـــاةِ تُسَـــاقُ إلى القَـــتْلِ	بعـــصـــا جـــبَّـــارٍ ذي بَطْشِ
يـــا شـــيـــخُ لماذا لا تَـــقِـفُ	دَمِـــيَـتْ رِجـــلاكَ مِنَ الرَّكْضِ
فـــأجـــابَ بصـــوتٍ يَرْتَجِفُ	الأَرضُ تســـيـــرُ على الأَرْضِ
مـــا لَذَّةُ مَـــيْـتٍ في الرَّمْسِ	بـــالـزَّهْـرِ الفـــــوَّاحِ الـعَـطِرِ
نُـوْرٌ لا يـشـــــرقُ في النَّـفْسِ	كـــغـنـاءٍ في أُذُنِ الحَـــجَـــرِ

وقد أَثَّرَت كلمات ذلك « الشبح » بأبي ماضي كُلَّ التأثير بحيث وجد نفسه يقف حائرا، مشدوها، وخاصة حينما سمعه يقول له بصوت مملوءٍ بالدَهْشَةِ والعِتاب : فإنْ كنتَ تريد أن تعرف مَن انا : (٢)

فـ « أنا ذاتك تمشي قُدَّامَكْ.. »

ولرُبَّ معترض يعترض علينا قائلا : لقد سَلَّمنا معكم بأن ابا ماضي قد صوّر طفولته وشبابه، في مطلع قصيدته هذه؛ وهو فيما صوَّر كان يصورّ ويعبِّر اشد التعبير عن تجربة حيَّة صادقة، عاش ايامها ولياليها، وذاق طعم عذوبتها، ولكنّه حينما كان يتحدث في المقطع الاخير منها مع « الشبح الثالث » لم يكن ذلك « الشبح » نفسه رمزاً لشيخوخته كما كان « الشبح الاول » رمزا لطفولته و« الشَّبح الثاني » رمزا لشبابه لانه هو ذاته حينما كتب هذه القصيدة لم يكن قد بلغ بَعْدُ سِنَّ الشيخوخة..

فانني بدوري اؤكد هذه الحقيقة، ألاَ وهي : انَّ أبا ماضي حينَما سأل ذلك الشبح قائلا له : (٣)

---

(١) الجداول ص ١١١.
(٢) الجداول ص ١١٢.
(٣) الجداول ص ١١٢ – ١١٣.

يـا شـيـخْ شـجـانـي مـا قُلْـتَ — وزرغـتَ بـنـفْـسـي الامَـكْ

مَـنْ أنْـتَ؟ أجـاب: أنـا أنْـتَ — أنـا ذَاتُـك تَمْـشي قُـدَّامَـك

لم يكن يقصد تصوير شيخوخته وما سيحدث له فيها بعد وصوله اليها بل كان يقصد التعبير عن جزعه وخوفه الشديد، مِنَ الذي سيحدث له، بعد أن يصل اليها. ليعيش اياماها ولياليها. والدَّليْلُ على ما اقول هذه الابيات التي شاء ابو ماضي ان يختم بها قصيدته هذه حيث نراه يعترف لنا فيها بصراحة بأن الذي كان يراه «بالامس» لم يكن حلما بل كان حقيقة واقعة ابصر من خلالها «نفسه» وابصاره لها لم يكن من خلال لوح زجاج او في صفحة ماء عذب زلال، بل كانت «نَفْسه» هي ذاتها، الناظرة والمنظورة في آن معا:(١)

كَمْ أبحثُ بين الأجْـرامِ — عَـنِّـي وأُنَـقِّـبُ فـي الأرْضِ

احـلامي تَطْـمـرُ أحْـلامِيْ — بَعْضي مـدفـونٌ في بَعْضِيْ

لم أبْصِـرْ ذاتِـي بـالأمسِ — في لَوْحِ زُجـاجٍ أو مَـاءِ

بل لاحَتْ نَفْـسِيْ في نَفْـسِيْ — فـهِـي المَرئِيَّـةُ والرَّائِيْ

ولَمَّا أرادَ ابو ماضي أن يحدِّثنا عن الموت، واشباحه، لم يجد امامه سوى «العُلَّيْقَةُ» فجعلها رمزا للموت وكان قد شاهدها رابضة في الغابة كاللص؛ وهي تنتظر مروره بها فحاول أن يبتعد بقدميه عنها؛ ولَكِنَّه وجدها تتعلق بثيابه، لتجذبه جَذبا الى صدرها فراح يستعطفها علَّها ترق لحاله، فتطلق سراحه.. وخاصة لأنَّ عوده لم يزل فيه ماء ورواء. ولا يصلح ليكون طعاما للنار؛ فهو بأمَسِّ الحاجة الى الحياة، وخاصة لأنَّها لم تضجر منه بَعْدُ، ولا ضجر فيها مِنْ الاصحاب. أمَّا آماله التي كانت لا تزال بعيدة المنال فقد رآها قد بدأت تقترب منه كُلَّ الاقتراب. فراح يُحَضِّرُ نفسه لاستقبالها والحصول عليها، مهما كلَّفه ذلك مِنْ تضحيات جِسام وسَبَّبَ له مِنْ المضايقات والآلام:(٢)

قلتُ: يا ساكنة الغَابِ ويا بنتَ التّرابِ

إنَّ عُوداً فيه ماءٌ، ليسَ عُودا لاحتِطَابِ

---

(١) الجداول ص ١١٢ - ١١٣.

(٢) الجداول ص ١١٥.

انا لم أَضْجَرْ من العَيشِ ولم أَمْلَلْ صِحَابِي

لم أَزَلْ أَلْمَحُ طَيفَ المَجد حتّى في السَّرابِ

لم أَزَلْ أَستَشعِرُ اللّذة حتى في العَذَابِ

فَ «وطَابه» لَمْ يكن قد فرغ بعد من المعاني والآمال وفي اعماقه صور وأقوال لم يكن قد كتب لها بعد ان تشاهد النُور؛ وهو لم يكن يخشى الموت؛ ولكنه قد كان يخشى ان يفارق هذه «الدنيا» قبل ان ينطق تلك الكلمة التي جاء خصِّيصا الى هذا العالم ليوصلها الى أصحابها الذين هم بأشَدِّ الحاجة إلى سماعها: (١)

ما بِنَفْسي خِشْيَةُ المَوْت ولا مِنْهُ ارْتِهابِيْ

أَنا لِلأَرض وإِنْ طال عَنِ الأرض اغْتِرابِيْ

غير أَنّي لم يَزَل ضَرْعي لِمَرْيٍ واحْتلابِيْ (٢)

لم أَهِبْ كُلّ الذي عِنْدِي ولم يَفْرَغ وِطابِيْ

فهو نهر لم يتمّم بعدُ انسيابه، وروض لم يَجُدْ بعدُ بكل ما فيه من عبير وفجر لم يتوج بانواره الفضية كُلَ الرّوابي والتّلال. إنّه لم يزل عنده رغائبُ، وآمال وحينما تستنفد الايام كل ما في دنّه من شراب، ويضجر من الحياة، ويضجر منه الاهل والاصحاب ولم يعد في عينيه ماء لانسكاب ولم يعد يرجو خيره مسكين ولا محتاج فلتجذبه حينذاك تلك «العُلَّيقة» الى صدرها ولْتطوقه بذراعيها، لكي يصبح واياها بعد ذلك اشبه بتمثالين من تلك التماثيل التي لا يُوحِيْ منظرها للمشاهدين الا بالحزن والاكتئاب: (٣)

أنا نَهْرٌ لم أُتَمِّمْ بعدُ في الأَرض انسيابِيْ

أنا فجرٌ لم تُتَوِّجْ فِضَّتِيْ كُلَّ الرَّوابِيْ

لي رغابٌ لم تلد بَعْدُ فتبلى بالتَّبابِ

فاذا استنفذتُ ما في دَنِّ نَفْسي مِنْ شَرَابِ

---

(١) الجداول ص ١١٦.

(٢) مرىٰ مريا الناقة، مَسَحَ ضَرْعها لتِدرَّ.

(٣) الجداول ص ١١٦.

وإذا لم يبق في غَـيـمِـيَ مـاءٌ لانسِكابِ

فأَجْذِبِيْني.. ان يكـن مِنّـيَ نَفـعٌ للتُّـرابِ..

وقد وجدنا ابا ماضي يختفي في قصيدته «الناسكة» وراء ستار شفَّاف منَ «الرمزية» المُوحية، علّه يتمكّن من خلالها أنْ يجد حلاً مقنعا، لمشكلة «الحياة والموت» وقد اوشك ان يعثر على «ضالته» المنشودة تلك حينما وجد نفسه يلتقط من الحقل سنابلا من القمح ويشويها على النار متَّخذاً منها غذاءه؛ وقد استرعى انتباهه سنبلة من تلك السنابل رآها مطرقة الرأس تبدو على ملامحها سمات التقوى والعبادة فراح يرسم في اذهاننا صورة واضحة لها وذلك قبل ان ينتقل ليخبرنا عمَّا حدث بينه وبينها من مجادلات وذلك حيث قال: (١)

أَبصَرتُ في الحَقْل قُبَيْل المَغيبْ

سنبلةً فـي سَفْـح ذاك الكثيب

حانيَةً، مطرقةَ الرَّأس كأنَّما تسجدُ للشَّمْسِ

أَو أَنَّها تَتْلو صلاةَ المَسَاءْ

وبينما كان منهمكا في اشعال النار، لينضج عليها اطيب «الشِّواء» وافضله، سمع صوتا يطرق مسمعه قائلا له: (٢)

ما الحَبُّ يا هَذا ولا السُّنْبُلَ ما تأْكُلُ النَّارُ وما تأكلُ

وإِنَّما أَسلافُك الاصْفيَاءْ

فأخذ يبحث بناظريه حينذاك؛ وهو مندهش حائر، عن مصدر ذلك الصوت الخفي، ولكنه لم يجد امامه أَحداً من الجن أو الإِنس. وانما وجد «ناسكة» الحَقْل وهي ترفع رأسها الى العلاء متمتمة ببعض الكلمات. علها تستطيع بها اقناعه بأَنَّ ما يأكله ليس سوى بقايا جسد من أجساد اجداده الاصفياء الذين قد شاءت الحياة أن تجعلهم بعد موتهم يتحولون الى «سَنَابلَ» من القمح مكافأة إِيَّاهم على اعمالهم

---

(١) الجداول ص ١٢٤.

(٢) الجداول ١٢٥ – ١٢٦.

الخيرة. أمّا هؤلاء الاجداد «الطاحون» فقد تولى امرهم الشيطان، الذي هو أدرى من الفلاسفة والشعراء بما سيلحق بهم بعد موتهم من عذاب.

وكم من رجل في هذه الدنيا، لم يقتنع بما لديه من اموال وعقارات، وبما نال من مراتب ومناصب ووصل اليه من جاه. فأراد ان يتشبه بمن هم أعلى منه رتبة ومكانة، وأكثر منه رفعة وجاها ومالا، فاصابه ما أصاب ذلك «الغدير» الطموح الذي شاء ان يغادر المرج النضير ليلتحق بالفرات والنيل، لعله يصبح له صوت كصوتهما ومكانة تشبه مكانتهما ولكن ما ان اختلطت مياهه بمياه هذين النهرين الكبيرين حتى تلاشى صوته فيهما واضمحل اضمحلالا كليًا: (١)

قــالَ الغــديرُ لِنَفْســه	يا ليــتني نهــرٌ كـبـيـرُ
مِـثْلُ الفُـرات العَـذب او	كـالنّيل ذي الفـيض الغـزيرُ
تجْري السّـفائنُ مُوقَراتٍ	فـيــه بالـرزق الوفــيـرُ
هيْـهـاتَ يرْضى بالحـقـير	مِنَ المنى إلاّ الحَـقـيـرُ
وانسـابَ نَحْـوَ النَّهـرِ لا	يلْويْ على المَرْجِ النّضـيْرْ
حـتّى إذا مـا جـاءَه	غلَبَ الهديرُ على الخـريرِ

أمّا في قصيدة «الشّاعر والملك الجائر» فقد صَوَّرَ أبو ماضي بأسلوب ساخر مُشَوّق حياة الادباء، والشعراء، والمفكرين، وما يقاسُوْن من شظف العيش، وما يلاقُوْن منْ تصلّف الحكّام والامراء وتعاليهم عليهم. وقد استهل قصيدته هذه بالحديث عن ذلك الملك العظيم صاحب التّاج والصولجان والقوة والجبروت الذي شاء في أحد الايام، أن يلهو قليلا فأمَر حرّاسه ان يحضروا له، وعلى جَنَاح السُرْعة، شاعرا أيَّ شاعرٍ يرونه سائرا على قارعة الطريق. فلما عثروا عليه، جاءوا به اليه، فوقف بين يديه، وحذاؤه المثقوب تكاد أن تفلت منه قدماه وكساؤه الحائل الصّبغة قد زركشته الايام بعدد لا يستهان به من الرّقاعِ والثُّقوب: (٢)

(١) الجداول ص ١٣٨.
(٢) الخمائل ص ٩.

أمَرَ السُّلطان بالشَّاعرِ يَوْما فأتاهْ
في كِساءٍ حائلِ الصِّبْغَةِ واهٍ جانبَاهْ
وحذاءٍ أوشَكَتْ تَفْلِتُ مِنْهُ قَدمَاهْ

ولم يكد يستقر بالشاعر المُقَام، حتّى قال له ذلك السّلطان: «صِفْ جاهي ففي وصفك لي للشعر جاه»؛ لأنَّني قوي جبّار، أَمْلُك الخدم، والحشم، والجيوش الجرّارة، والغابات، والجبال وحتى الناس؛ فإنَّني اتصرف بهم وبمصائرهم كيفما اشاء:(١)

إنَّ هذا الكونَ مُلْكي أنا في الكون إلَهْ!

فضحك الشاعر من هذا الملك المغرور، ضِحْكَةَ سُخْرية، واستهزاء؛ لأنَّه لم يكن يعتقد، كما كان الملك معتقداً، بأنَّ ذلك «القَصْر» مُلْكٌ له بينما هو مِلْكٌ للشعراء الذين يدركون كُنْه الجمال في كل شيء. وإن هُمُ لم يتمكنوا من الاقامة فيه بأجسادهم، فهم فيه مقيمون بعقولهم وارواحهم. امّا المروج والرياض فهي ايضا ليست له بل هي للفراشات التي تحوم فوقها وللنحلة التي تمتص رحيق ازهارها، وللدِّيَم اَلتي تَهْطِل عليها فتسقي ثمارها، واعشابها، طاردةً عنها اشباح المَحْل والاندثار. وأمّا الجَيْشُ الجرّار فهو سيظلّ مَديْناً بالطّاعة والولاء، لمليكه ما دام ينفق عليه، ويطعمه حتى إذا ما امسك عنه يده، انقلب عليه ودكّ عرشه. وأما البحر فَهُوَ للذي يرى فيه «رمز كيانه ووجوده» ولا أحد يملكه؛ لأنه قديم، قدم الزمن. ولمّا أتَمّ الشاعر المسكين كلامه استشاط الملك غضباً منه؛ لأنه اراد أن يجرده في لحظات قليلة، وكلمات معدودة، من جيوشه واملاكه، وقصوره، وحشمه. فأمَرَ من أجل ذلك جلادَه بأنْ يقطع رأس ذلك الشاعر المِسكين، جاعلا من قطعه لرأسه عِبْرة لِمَن يعتبر بعده فانصاعَ الجلاّد لأمر سيّده فأطار بضربةٍ واحدة رأس الشاعر عن منكبيه:(٢)

وكُوفِئَ عن قَتْلِهِ القاتِلُ	بمالٍ جزيل وخَدٍّ أسِيْلْ
فقال له خُلْقُهُ السَّافِلُ	الا لَيتَ لي كُلَّ يَوْمٍ قَتِيْلْ

---

(١) الخمائل ص ١٠.
(٢) الخمائل ص ١٧.

فلم يَجْزع على موت ذلك الشاعر المِسكين المقتول ظُلماً، جازع، ولم تُطفئ النجوم في السمـاء انوارَها حِداداً عليه ولا الاعلام نُكِّست، ولا الدموع ذُرِفَتْ، ولكن لم يكد يمضي على قتله وقت طويل حتى تسلَّل الجنود إلى غرفة ذلك الملك نفسه فقتلوه، بينما كان مستلقيا على سريره.

فالتقى حينئذ السلطانُ والشاعرُ «في حَوْمَةِ الموت وظلِّ البلَىٰ».

ثم أخنى الدهر على القصر المُنيف، وشَتَّت شمل ذلك الجيش العظيم، وطوى ملوكا ما لهم حصر، ولا عدد، وذهب بمن أذاب الحب مهجته وبمن تآكل قلبَه الحسدُ. فأضحوا كلهم والعدم سواء، بسواء لا يرجى منهم نفع ولا ضرر أمَّا الشاعر المقتول ظلما وعدوانا فقد بقيت اقواله بعد موته ولم تندثر باندثار جسده ولا انطوت بعد انطوائه بل ظلَّتْ باقية خالدة خلود الدهر وبقائه:(١)

والشَّـاعـرُ المَقْـتُـولُ باقِـيَـةٌ اقـــوالُـهُ، فـكـأنَّـهـــا الأبَدُ
الشـيخُ يَلْمُسُ في جَـوانِبِـهَـا صُـوَرَ الـهَـوَى، والحِكْمَـةَ الوَلَدُ.

وكان إِلَهٌ قد احب في شبابه آلهة مِثْلَه فتمنَّت عليه آية تكون آية معجزة لم يَجيء بها احد سواه، ليُمْسي هو سيِّد الارْباب، ولتمسي هي به تباهي كُلَّ ذات ذوائب، متدلية على الاكتاف وكان الهوى الجامحُ قد استولى على لب ذلك الاله الشاب، وخشى ان يفقد معشوقته إِن هو لم يتمكن من ان يجلُبَ لها ما طلبته منه. فأخذ يفكِّر ويفكِّر وقد هداه تفكيره الى البريَّة فكسى ارضها بالزَّهرِ وعلَّم طيرها التَّغريد والانشاد، وَمسَّ الضّحى بأنامله، فأخذ تِبْره يتساقط على الربى وَعَقيقُه يسيل في حواشي السُّهول والمُروج ورصَّع صفحة السماء بالغيوم الشَّفَّافة السابحة البيضاء، واخذت الامواج تتكسر على الشَّواطيءِ الضاحكة الطروبة، وحينما انتهى من اتمام تلك المعجزة الخارقة دعاها اليه لتبارك صُنْعه؛ وهو يعتقد في قرارة نفسه بأنه قد استطاع في لحظات أنْ يحقق لها أُمْنيتها التي تمنّتها، وتاقت للوصول إليها:(٢)

---

(١) الخمائل ص ١٩.
(٢) الخمائل ص ٣١.

كَسَا الأَرْضَ بالزَّهرِ البَديعِ لأجْلِهَا ورصّعَ آفاقَ السَّما بالكواكِبِ

وما زال حتّى علّم الطَّيرَ ما الهوى فَحنَّتْ وَغنّتْ في الذُّرى والمَناكِبِ(1)

وَمسَّ الضّحى فارْفَضّ تبراً على الرُّبى وسال عقيقاً في حواشي السَّباسِبِ

فكانتْ لآلٍ في الشُّطوط وفي الفضا غيومٌ وموجٌ، ضاحِكٌ في الغوارِبِ(2)

وحينما طلب منها أن تبارك صُنعه الجبّار هذا قالت له: فيا لك من مبدع خلّاق!

فهذه الدُّنيا الساحرة التي صنعتها ليست لي وحدي بل تشاركني فيها كل نساء الارض. ثم اردفت قائلة له: (3)

اريدُ دُنيا فيها شُعاعٌ يَبْقى إذا غابتِ النُّجومْ

اريدُ دُنيا تُحِسُّ نَفْسي فيها نُفوساً بلا جُسُومْ

اريد خَمْراً بلا كُؤوسٍ مِنْ غَيْرِ ما تُنبِتُ الكُرومْ

أُريد عِطراً بلا زُهورٍ يسري وإن لَمْ يكنْ نَسيمْ

وزادتْ، فقالتْ: اريدُ أنيْناً يُشَوِّشُ روحِيْ ولا مُحْتَضِرْ

وماءً، يَموجُ ولا جَدْوَلٌ وناراً بِلا حَطَبٍ تَسْتَعِرْ

فأطْرَق ذلك الإلَه الوَلهان هنيهةً، بعدما سمع كلامها، وعَرَف مُرادها، ثمّ وجد نفسه يَطلب منها أنْ تمهله ثلاثة أيّام، ليتمكن في خلالها من تذليل كلّ هذه الصِّعاب التي طلبتها منه. فأخذ يجوب من أجل ذلك الفضاء، باحثا، مفتشا. فسالَ مَعَ الشمس فوق الرّوابي وتغلغل في وسط «الحِنْدِسِ» المظلم، وراح يصغي إلى نسيمات المروج، ونفحات الطيور علّها تدله على المكان الذي يُوجَد فيه «سِرُّه» المطلوب ثمَ رأته بعد ثلاثة ايام عائداً إليها وهو يجرّ وراءه اذيال الفخر والانتصار فَظنّتْ أنّه قد عاد ليعتذر اليها كل الاعتذار لعدم استطاعته تحقيق المراد ولكنها، فُوجئت به وهو يُخْرج لها من جيبه خيطا قصيرا ليّنا، له لون شبيه بلون التّراب فلما رأتْه في يدهِ صاحت به مُحنَقَةً: إني أراكَ تسخر منّي؛ فاحمل عارك وارحل

(1) المناكب جمع منكب، ناحية كل شيء وجانبه.
(2) الغارب، جمع غوارب : أعلى كل شيء.
(3) الخمائل ص ٣٣.

عَنّي! ولكنّها لم تلبث حتى استجابت لتوسلاته التي كان يتوسل بها اليها، طالبا منها فيها ألاّ تتعجّل في حُكمها عليه إلاّ بعد أنْ يشدّ ذلك الخيط الى قيثارته، ليتمكن من دغدغته بأنامله. وفجأةً وجدتْ نفسها تَسْبَحُ بخيالها وهو يَعْزِفُ لها اعذب الالحان على قيثارته هذه، في عالم من الرُؤى والاحلام المطربة المنعشة. فلاحت الصُوَرُ لعينيها وشعَّتْ البروق امام ناظريها، وسالت الدموع على خدَّيْها: (١)

فـصـاحَتْ بـه؛ وَهْيَ مَـدْهُوشَـةٌ ألاَ إنّ ذَا عــالَمٌ مُــخْـتَـصَـرْ
فـيـا ليتَ شِـعْـرِيَ مَـاذَا يُـسَـمَّى؟ فــقــال لهـــا: إنَّ هَذا الوَتَرْ

وقد شاء أبو ماضي في قصيدته «زَهرةُ أقْحوان» أن يحدّثنا عن طريق الرمز والايحاء عَمّا انتابه منْ مشاعر وأوهام حينما انتزع منْ صدره «سِرّ طموحه» وسار اثناء الليل متجها به نحو الغابة.. حيث دَفَنه فيها ثم عاد منها وهو يعتقد كل الاعتقاد بأنّه قد استطاع التخلص منْ «أصْل» بلواه بلا مشقة أو عناء. فبات لا يبكي لمظلوم ولا ينتصر لحُرٍ مُهَان، ولا يحفل بالباكين حتى ولو كانوا اصحاب تَاج وَصوْلجان، وأصبح طَعْم الخَمرة في فمه أشبه بطَعْم المَاء. فندم حينذاك على ذلك السّرِّ الذي اضاعه، ولمّا عاد الى الغابة ليستردَّه، وجده قد تحوّل الى زهرة من «أقْحوان» فراح يستعطفها اذ ذاك ويتوسل اليها لكي تعود إلى حالتها الاولى، فأبت كل الاباء أنْ تستجيب لتوسلاته، وذلك لأنّها قد وجدت أنَّ صدره ليس صدرا صالحا لها ولأمثالها منَ الزهور والنّبات: (٢)

في صباح مستطير كصَبَاح المِهْرَجَانِ
لَبِسَتْ فيهِ الرَّوابيْ حُلَّةً مِنْ أُرْجُـوانِ
ساقَني رَوْحٌ خَفيَ نَحْوَ ذَيَّاكَ المَكَانِ (٣)
فاذا بالسِّرِّ أضْحى زَهْرَةً مِنْ أُقْحُوانِ

أمّا الحَجَرُ الصَّغير فهو له ايضا نصيب في إحدى قصائد ابي ماضي الرَّمزية

---

(١) الخمائل ص ٣٥.
(٢) الجداول ص ٦٩.
(٣) الروْح: نسيم الريّح.

حيث وجدناه مشاهداً إيّاه في احد الايام مُغادرا مكانه في السَدّ الكبير الذي كان موجودا فيه؛ وهو يقُولُ بصوت منخفض يشبه الهَمْس: (١)

لا رُخَـامٌ أنا فـأُنحَتُ تِمْـثَـا لاً ولاً صَـخْـرَةٌ تـكونُ بـنَاءْ

لَستُ أرْضـاً فـأرشِفُ المَاءَ أو مـاءٌ فـأزوِيَ الحَـدائقَ الغَنّاءْ

لستُ دُرّا تُنافس الغَـادَةُ الحـسناءُ فـيـه المَليحَةَ الحَسناءْ

حَـجَـرٌ أغْـبَـرٌ أنا وحَـقِـيْـرٌ لا جَـمَـالاً لا حِكْمَـةً لا مَـضَـاءْ

فلأغـادرْ هذا الوجـودَ وأمْـضِي بـسـلام إنّي كـرهتُ البَـقـاءْ

وهَوَى مِنْ مكانِـه؛ وهو يـشكُو الأرضَ والشُهبَ والدُجى والسَّماءْ

فَـتحَ الفَـجْـرُ جَـفْنَهُ فـاذا الطُّوفَـانُ يَغْـشَى المَدينةَ البَـيْـضَـاءَ.

فذلك «الحَجَرُ» بالرّغم من صِغره، تمكّن بطيشه وبجهله، وباحتقاره لموضعه، وشأنه مِنْ أن يهدم سدّا منيعا ويسبّب لأهل قرية هادئة آمنة الغرق والدّمار بماء الطّوفان. وكثيراً ما نجد بين الناس أشباها لذلك «الحَجَر» فنراهم يحتقرون شأنهم في المجتمع ويعتقدون بأنَّ صرحه سيظل مُشَيَّدا باقيا أعَملوا هم على بقائه أم لم يعملوا؟ وهم مخطئون كل الخطأ في ظنهم، وقد لا ينتبهون الى خطأهم هذا إلاّ بعد ان ينهار صرح مجتمعهم، وتسقط احجاره وتنهار في احدى لحظات الطيش على رؤوسهم، كانهيار ذلك «السَّد العظيم» بسبب «حَجَرٍ صَغير» كان قد احتقر شأنه فيه.

وكانَتْ «تِينَة حمقاء» قد اخذت تلعن في سِرها القَدَر الذي أوجدها لكي يجعلها تجود بخيراتها على غيرها. إذ إنها وجدتْ أنَ اثمارها التي تثمرها ليست لها. وكذلك ليس لها ظِلٌ أوراقها. فإذا ما ترك لها القاطفون نزراً يسيرا مِنْ اثمارها جاءت الاطيار وناشتها، فقرَّرت بينها وبين نفسها أن تحبس خيراتها عن الطيور والناس، وراحت تتمتم في نفسها قائلة: (٢)

إنّيْ مُـفـصِّلَةٌ ظِلِّيْ على جَـسَـدِيْ فـلا يكونُ بـه طُولٌ ولا قِـصَـرُ

ولستُ مُـثْـمِـرَةً إلاّ على ثِقَـةٍ أنْ لَيْسَ يَطرُقُنيْ طَيْـرٌ ولابَشَـرُ.

(١) الجداول ص ٣٨.
(٢) الجداول ص ٤٧.

فلما دارت الارضُ دَورَتها، وعاد الربيع إليها، أمرتْ أغصانها بألاّ ترتدي أوراقها الخضراء بعدما اصبحت مقتنعة بآرائها هذه كُلَّ الاقتناع. فجاءها صاحب البُستَان بالفأس بعد ذلك بأيام قليلة فأهوى به على ساقها، جاعلا منها طعاما للنار وذلك لاعتقاده بأنها قد اصبحت مصابةً باليَبَاس: (١)

عـادَ الرّبِيْعُ الى الدُنيـا بمَـوكِـبِـهِ	فأزيَنَتْ وأُكتَسَتْ بالسُنْدُسِ الشَّجَرُ(٢)
وَظَلَّتِ التِّـينةُ الحَـمْـقَـاءُ عـاريةً	كـأنَّهَـا وَتدٌ في الأرض أوْ حَـجَـرُ
ولم يَطِقِ صاحبُ البُستَان رؤيتَـهَا	فاجتـثَّهـا فَهوتْ في النّار تَستَعِرُ

فهذه «التينة الحَمقاء» قد جَنَتْ على نفسها بيديها، في نظر أبي ماضي. فلو لم تَحْبِسْ خيراتها عن المحتاجين لعطائها لَمَا حُكِمَ عليها بالفَنَاءِ والاندثار في النار فمَنْ كان قادرا على العطاء إذاً فَلْيُعْطِ قَدر طاقته وليتمتعْ من الدنيا بنصيبه ومَنْ لا يُعْطِ متعمدا وهو القادر على العطاء ساعة يشاء كان كمن ينتحر انتحارا بطيئا، وهو لا يدري مثلما انتحرت تلك التينة الحمقاء انتحارا بطيئا. وكل ذلكَ من غير أن تدري: (٣)

مَنْ لَيسَ يَسخُو بما تَسخُوْ الحَيَاةُ بِهِ	فـإنَّهُ أحْـمَقٌ بـالحِـرْصِ يَنْتَـحِـرُ

وقد أوْلَعَ أبو ماضي أشَدَّ الوَلَع بـ «العَنقاء» ولم يكن اول مُولَع بها بل الدنيا كلها كانت مَوْلَعَةً بها معه، وطامعةً بالحصول عليها. فأخذ يفتش «جَيْبَ الفجر» عن عنقائه تلْك، ولَمَّا لم يجدها فيه مدَّ اصبعه للكواكب باحثاً، مستفسراً عنها. فإذا بها هي ايضا حائرة مثله، ذاهلة لا تنطق ببِنت شَفَةٍ. فظن أن ضالته تلك موجودة على شاطىء البحر ولكنّه ما لَبِثَ أن عاد منه وهو مرتعش الخواطر والمُنى؛ وقهقهات اشباح الدهور التي كانت تحتشد عند قدميه ما زالت أصواتها تطن في أذنيه. وكأنَّها كانت تسخر منه ومنْ تساؤلاته التي لا مَعْنًى لها ولا فائدةَ ترجى من وراءها ثم ذهب بعد ذلك مفتّشا عنها في قصور الاغنياء بعد أنْ هداه إلى وجودها فيها بعضُ السذَّجِ الاغبياء ولكنّه لم يجد أيضا أيَّ أَثَر لها حتى في أيِّ قصر مِنْ تلك القُصُور: (٤)

---

(١) الجداول ص ٤٧.
(٢) السندس: ضرب من نسيج الديباج أو الحرير.
(٣) الجداول ص ٤٧.
(٤) الجداول ص ١٢.

وَلَكِمْ دخلتُ إلى القُصُور مُفَتِّشاً عَنها
وَعُجْتُ بدراسَاتِ الأَرْبُعِ

إنْ لاح طَيْفُ قُلتُ: يا عينُ انْظُرِيْ
او رَنَّ صَوتٌ قلتُ: يا أُذْنُ اسْمَعِيْ

فَإِذا الذي في القصرِ مِثْلِيْ حائرٌ
وإذا الذي في القَفْرِ مِثْلِي لا يَعِيْ

وحينما سمع بأنها لا تُوجد إلا في صوامع المتزهّدين الورعين، ولا تبدو الا لأعيُن الذين يُحطِّمون اقداحهم، ويهجرون ملذات دُنياهم، فلم يتوان، عن تحطيم اقداحه، وعن التعفف عن زاده ونسخ آيات الهوى من بين أضلعه؛ وهو لم يفعل هذه الافعال كُلّها الا ليقترب كلّ الاقتراب في ظَنِّه منْ ضالّته المنشودة تلك، ولكنّه كان في حقيقة أمره يقترب منْ مصرعه؛ وهو لم يكن داريا بذلك:(١)

قالُوا توَرَّع إنَّها مَحْجُوبة
إلاّ عَنِ المُتَزَهِّدِ المُتَوَرِّعِ

فَوَأدْتُ أفراحي وطلَّقْتُ المُنى
وَنَسَخْتُ آياتِ الهَوى مِنْ أضلُعِيْ

وحطمتُ أقداحي ولَمَّا أرتو
وعَفَفْتُ عَنْ زادي ولَمَّا أشْبَعِ

وَحَسِبْتُني أدنُو إليها مُسْرِعاً
فَوَجَدْتُ أنّي قد دَنَوْتُ لِمَصْرَعِيْ

وحينما بدأ يستولي عليه تعب شديد، من جرّاء بحثه الدائم المتواصل عن مكان وجود تلك «العنقاء»، أسْلم اجفانه للكرَى، عَلَّه يَعْثُرُ عليها في منامه، ولَكِنَّهُ لم يلبث طويلا حتى استيقظ بعد ذلك منْ نومه وكُلُّ ذلك منْ غير أن يعثَر فيه على أيِّ أثر لها: (٢)

وَهَجَعْتُ أحْسَبُ أنَّها بِنْتَ الرُّؤَىٰ
فَصَحَوتُ أسْخَرُ بالنِّيامِ الهُجَّعِ

لَمَّا حَلِمْتُ بِهَا حَلِمْتُ بِزَهْرَةٍ
لا تُجْتَنَى وبِنَجْمَةٍ لَمْ تطْلُعِ

وحينما جاء الربيع إليه فلم تَطُلَّ هي عليه من خلال الأزهار والورود. ومضى الشتاء فلم تكن في نَجْمِهِ الباكي، ولا في رعده المتفجّع فلقد أعياه البحث عنها وهو فتًى ولم تسعفه حدة ذكائه في العثور عليها وفجأة وجدها تسيل دموعا من عينيه، بعد أن عصر الاسى روحه عصراً فعلم كلّ العلم أنَّ ضالته تلك التي ظلّ يَنْشُدُها زمنا طويلا كانت موجودة حقّا معه في تلك الاثناء:(٣)

---

(١) الجداول ص ١٢ - ١٣.
(٢) الجداول ص ١٤.
(٣) الجداول ص ١٥.

صَفِرَتْ يديَ منها وبي طَيْشُ الفَتَى
وأضلَّها عَنّي ذكاءُ الألمعي

حتى إذا نَشَرَ القُنُوطُ ضَبابَهُ
فوقي فغيَّبني وغيَّبَ موضِعي

عَصَرَ الأسى رُوحي فسالَتْ أدْمُعاً
فَلَمحتُها ولَمَسْتُها في أدْمُعي

وعَلِمتُ حين العِلم لا يُجْدِي الفَتَى
أنَّ التي ضَيَّعْتُها كانَتْ مَعي!

فهذه «العنقاء» ليستْ في نَظَر ابي ماضي إلا رمزا للسَعادة فبعض الناس لا يجدون سعادتهم إلا بالزُهد، والورع. وبعضهم لا يجدها الا بالمال. وكثيرون يعتقدون كلَّ الاعتقاد أن السعادة كُلَّ السَّعادة أنْ يظلّ الانسان متمتّعا بشباب دائم، وصحة، وهدوء بال. أما أبو ماضي فلم يكن يعرف طَعْم السّعادة إلاّ حينما كان يتألَّم كُلّ التألّم في حياته، وهي حياة مديدة سبَّبت له كثيرا منَ الآلام التي لم يكن بها مُتَبَرِّما، ولا منها متضجِّرا، وذلك لاعتقاده بأن لا شيء كالألم يطهِّر النّفوس منْ ادرانها، ويبْرِز إلى الوجود ما كان مختفيا في اعماق اعماقها من معالم الخَلْق والإبْداع.

حياة ابي ماضي
واراؤه الشّخصية من خلال شعره

لأبي ماضي اراء شخصية جريئة كثيرة بعضها يتعلّق به شخصيا من حيث كونه قد خُلِقَ شاعرا صاحب رسالة في الحياة، وبعضها الآخر مُتَعلق إما بالحُبِّ وأسراره، او بما وراء الطبيعة..

فها هو يقول واصفا آماله العريضة الواسعة التي كان يسعى إلى تحقيقها، والوصول اليها في حياته: (١)

لا ذَاقَ جَفْني الكَرَىٰ حتَّى تنالَ يَديْ ... ما لا يَفوزُ بِهِ الإنسانُ في الحُلمِ

فهو إذاً لولا آماله العريضة التي اخذت تلوح بوارقها في مخيلته منذ نعومة اظفاره، لَمَا استطاع أن يجتاز بأمان، واطمئنان، أقسى سنوات حياته. وأعني بها سنوات المراهقة التي امضاها بعيدا عن والديه. إذ إنّه لم ينحرف في خلالها عن جادة العقل والصّواب. فكان كلّما شعر فيها ببعض الضّعْف أو الخَوَر يخاطب نفسه قائلاً لها: (٢)

أَحَبَّ سِـوايَ العَـيْشَ لَهـواً وراحـةً ... فـأنكَرْتُهُ لَهْـواً وأَحْـبَبْـتُـهُ كَـدَّا

فـما دام في الدُّنيا سُـمُـوٌ وَرِفْـعَـةٌ ... فـمـا أنا مَنْ يَرْضَى وَيَقْنعُ بالأَرْدَا

فليس باستطاعتنا القول انَّ أَبا ماضي أمضى كل سنوات شبابه باحثا عن المجد، ليسيرَ في ركابه وحده. وكل ذلك من غير ان يلهو أو يَعْبثَ عَبَثا بريئا مع بعض الفتيات اللواتي أحبهن خلال اقامته في الاسكندرية، وبُعَيْد وصوله إلى نيويورك إذ كان حُبُّه «المَاذِقُ» لأكثرهن سُرعان ما يتلاشَىٰ من نفسه بعد فترة قصيرة مِن تعرفه عليهُن كما تتلاشى سحابة صيف في ليلة منعشة قمراء..

أمَّا الكثيرات من بينهن فقد كُنَّ يبادرنه بالقطيعة والهجران قبل ان يبادرهن

---

(١) ديوان ابي ماضي الجزء الثاني ص ١٦٦.

بها، بدوره، فكانت تثور عليهن ثائرته، ويشعر بأنه قد طُعِنَ في كرامته بسببهن طعنة نَجْلاء.. فكانت الدعوات تتدحرج عليهن كالصخور من بين شفتيه إذ كان يدعو عليهن كي يُصَبْن بالسّهر، والأرق، والعذاب. وبالمَرض العُضَال وقد جعله اخفاقه المتواصل في اكثر تجاربه العاطفية التي عرفها في شبابه، ضعيف الايمان بالحب عامّة وبالغواني خاصّة. وهو القائل في ذلك:(١)

إنّي بَلوتُ الغـانيـات فلم أجِـدْ فِـيـهـنَّ قطُّ مليـحـةً لا تَكْذِبُ

وَصَحِبتهنَّ فما استفدتُ سوى الاسَى مـا يُسْتَـفـادُ من الغـواني يُتْـعِبُ

وشاعرنا لم يشأ ان يغادر أرض الاسكندرية، والسفر الى الولايات المتحدة الاميركية الا بعد ما ايقن أن ارضها بالرّغم من رُحْبها، واتساعها، قد اضحت اضيق من ان تتسع لآماله الواسعة العريضة في الحياة، وهو حينما وجد نفسه تعاتبه محاولة اقناعه بعدم السفر، والذهاب للعيش في ارض بعيدة «غريبة الوجه عنه واللسان» اجابها بقوله:(٢)

ذَرِيْنِيْ اضطَرِبُ في الأرض إنّي رَأَيْتُ السَّـيْفَ يَصْـدأُ في القِرَابِ

وما إن وَطِئَتْ قدماه أرض نيويورك حتى وجد آماله العريضة تلك تتحطم على صخرة الحقيقة والواقع فندم حينذاك أشدّ النَّدم على مفارقته لارض وطنه ولَكِنْ بعد أنْ كان أوان النَّدم قد فات:(٣)

ما زلْتُ والدَّهرُ تَنْبو منْ يَدِي يَدُهُ حتّى نَبَتْ ضِلَّةً عَنْ أَرْضِها قَدَمِيْ

وسبب ندمه هذا، عائد إلى كونه قد كان يعتقد قبل سفره الى نيويورك بأن أرضها مفروشة بالذهب الوفير؛ وهي تنتظر قدوم أيّ عابر سبيل إليها لكي تضع له منه في جيبه ما يشاء، وبلا أي مُقابل. وهو حينما تبين له خطأ اعتقاده هذا اضطر بعد وصوله اليها الى ان يعمل كي يكسب قوته بعرق جبينه حيث كان شيطانه الشعري يجود عليه خلال ايام عمله ببعض القصائد التي كان يسارع الى القائها على مسامع بعض اصدقائه من المهاجرين من ابناء الضَّاد الذين لم يكونوا يعيرون

---

(١) تذكار الماضي ص ٥١ – ٥٢.
(٢) ديوان ابي ماضي الجزء الثاني ص ١٧٣.
(٣) المرجع نفسه ص ١٦٩.

لقصائده تلك آذاناً صاغية. فكان ابو ماضي يصبّ على رؤوسهم من اجل ذلك جام غضبه، ناعتا إيَّاهم بأقبح النعوت واشنعها؛ وهو القائل فيهم:(١)

أصبحتُ في مَعْشَرٍ تَقْذَى العيونُ بِهِمْ ... شَرٌّ مِنَ الدَّاءِ في الأَحشاءِ والتُّخَمِ
مـا عَـزَّ قَـدْرُ الأديبِ الحُرِّ بَيْنَهُمْ ... إلاَّ كَمـا عَـزَّ قَـدْرُ الحَيِّ في الرِّمَمِ
مِنْ كُلِّ فَظٍّ يُريكَ القِرْدَ مُحْتَشِماً ... وَيُضْحِكُ القِرْدُ منه غَيْرَ مُحْتَشِمِ
من الأعـارِبِ لكنْ حِيْنَ أَنْشِـدُهُ ... جـواهِرَ الشِّعْـرِ ألقـاهُ مِنَ العَجَمِ
مـا إِنْ يُحَـرِّكُـهُ هَمّـاً ولا طَرَباً ... كـأنَّمـا أنا أَتْلوهَا على صَنَمِ

فأبو ماضي عاتب أشد العتب على أبناء قومه من المهاجرين؛ بسبب عدم اهتمامهم به وبأشعاره بعد قدومه اليهم، ولكنْ أنى لهؤلاء المُهاجرين ان يهتمُّوا بالشّعر واصحابه، والكثيرون من بينهم لم يهجروا مدنهم، وقراهم، ومدارسهم، إلاَّ سَعْيا وراء الثروة والجاه، وتأمين المستقبل الباسم السعيد لهم ولاولادهم منْ بعدهم. وحينما وجد أبو ماضي أنَّ قيمة الانسان أيَّ انسان أجاهلا كان ام ذكيّا أَلْمَعيّاً، متوقفة عند الناس على ما يَمْلُك منْ مال وعقّار. قرَّر منْ اجل ذلك أنْ يعتنق المذهب القائل «أنا ومنْ بعدي الطُّوفان». وممّا يؤكد زعمنا هذا قوله المُتّسم بالانانية المحضة في احدى قصائده:(٢)

رَضِيَتْ نَفْسِي بِقِسْمَتِهَا ... فلْيُراوِدْ غَيْرِيَ الشُّهُبَا
كُلُّ نَجْمٍ لا اهتِداءَ بِهِ ... لا أُبالي لاحَ أو غَرَبَا
كُلُّ نَهْرٍ لا ارتواءَ بِهِ ... لا أُبالي سالَ أم نَضَبَا

فنحن حينما نعلم أَنَّ أَبا ماضي، نظم قصيدته البائية هذه التي جعل عنوانها «بَرِّدي يا سُحُبُ» في الفترة الواقعة ما بين عامي ١٩٢١م و ١٩٢٦م؛ وهي فترة كان الخلاف قد بلغ اوجه فيها بينه وبين حَمِيْه السّيد نَجِيْب دِيَاب؛ صاحب جريدة «مِرْآة الغَرْب» التي كان ابو ماضي يعمل على تحريرْها. بحيث اضحى بسبب هذا الخلاف مُهَدّدا بترك عمله في تلك الجريدة بين لحظة وأخرى. نغفر له بعض الغفران

(١) ديوان ابي ماضي الجزء الثاني ص ١٧٣.
(٢)ديوان الجداول ص ٢٧.

هذه الانانية المسيطرة على اقواله، في هذه الابيات السابقة؛ وهي أنانية لم تكن لتسيطر عليه كُلَّ هذه السيطرة لولا اقتناعه بأنَ ايّامه القادمة لن تكون أفضل من ايامه التي سلفت. أمَّا مستقبله الباسم السعيد الذي ظلت اضواؤه تتراقص لعينيه زمنا ليس باليسير فقد تلاشت ذكرياته من خاطره، حتى كادت ان تصبح أثرا بعد عَيْن: (١)

مـــا غـــد يا من يُصَــوِّرُهُ لِيَ شـيـئـاً رائعـاً عَـجَـبًـا
مـا لـــه عَـيْـنٌ ولا أثَـرٌ هــو كــالأمْسِ الذي ذَهَبَــا

فقد وجد أمسه يذهب بما فيه، ليحل محله غده المجهول بآلامه وافراحه ومآسيه. فاغتبط بآلامه اغتباطه بأفراحِهِ، لاعتقاده بأنَّ لا شيءَ كالحزن يجلي الصّدأ عن النفوس المعذبة، فيعيد إليها قُوّتها ولمعانَها فتبرز من خلالها مواهب خلأّقة كانت تقيم وسط جحافل من ظلام ليل بهيم: (٢)

أنـا مِنْ قَـــومٍ إذا حَـــزِنُوا وَجَــدُوا في حُــزْنِـهم طَرَبَا

وحينما رأى أبو ماضي الناس يقعون في بحر «الغَرَام» جماعات جماعات، اراد أن يقود سفينته في ذلك الخِضَم «الطَّامي» فتوهّم في قصيدتهِ «تَعَالي» أنه وقع في غرام احدى الحسناوات التي راح يدعوها الى سَرِقة «الملذَّات» البريئة ما دام لهما في العيش آمال وأمانٍ عذاب؛ وعيون الدهر غافلة عنهما خشية أن يمرّ بهما الفجر - فجر الحياة - فيستيقظان بعد مروره بهما فلا يجدان امامهما سوى الكؤوس المحطّمة الفارغة منَ الاشواق، فيصبح كل ما حَصَلا عليه من ثروات «مادية» و «فِكرية» هباء مَنْثُوراً، وقصورا مبنيّةً على رمال صحراوية تتقاذفها الريّاح الهَوْجاء: (٣)

تَعَالي نَسْرِقِ اللّذاتِ ما ساعَفَنَا الدَّهْرُ
وما دُمْنا وما دامَتْ لنا في العَيْشِ آمالُ
فإن مَـرَّ بنا الفَـجْرُ وما أَيْقَظَنَا الفَـجْرُ

(١) ديوان الجداول ص ٢٧.
(٢) الجداول ص ٢٨.
(٣) الجداول ص ٣٠ - ٣١.

فـمـا يُوقِظُنا عِلمٌ ولا يُوقِظُنا مـالُ

ولَمَّا وجد ابو ماضي محبوبته الجميلة هذه تأبى ان تستجيب لدعوته خشية ان تقع عليها عين رقيب منَ الرقباء أو يراها حاسد من الحسَّاد، طلب منها ان توافيه الى «الغاب» ليأخذا معا من الكائنات الموجودة فيه دروسا وعِبَرا في الحبّ، والحريّة واللامبالاة بأقوال الناس. إذ إنَّها لا تلبث حينما تشاهد بأم عينها كيف توزّع الازهار شذاها على مَنْ حولها بلا حساب، وكيف تنطلق العصافير مغرِّدةً في الفضاء الرَّحْب الذي هو ملك لها لا ينازعها فيه مُنَازع، فإنَّها ستصبحُ لا محالة مقتنعة أشد الاقتناع بوجوب التخلي كُلِّيَّةً عن تلك التقاليد والعادات الموروثة عن الاباء والاجداد والتي تحول في كثير من الاحيان بين اتحاد قلوب العشاق اتحادا قُدسيا من غير ابتعادٍ ولا هجران: (١)

تَعالي نُطلِق الرُّوحَيْنِ مِنْ سِجْنِ التَّـقـالِيْد

فَـهـذي زهرةُ الوادي تذيعُ العِطرَ في الوادِيْ

وهذا الطَّيْـرُ تَيَّـاهٌ فَـخـورٌ بالأغـاريد

فَـمَنْ ذا عَنَّف الزَّهْرَةَ أو مَنْ وَبَّخَ الشَّـادي؟

فلو كـان «الحب الطَّاهر» خطيئةً في نَظَرهِ سنعاقب بسببها اشدّ العِقاب في الآخرة لما اوجده لنا الله فاللّهُ جميل وقد خلق لنا الجمال لتتمتّع به العيون وتهواه القلوب وهو لم يخلق لِعِباده إلاّ كُلَّ ما يؤدِّي إلى سعادتهم وَيُيَسِّر سبل العيش امامهم فما علينا إذاً إلاّ الخضوع لمشيئته فينا وعدم التمرد على سلطان الحب الطاهر الذي يقود دائما خطانا الى هياكل الالهام والابداع ليصقل نفوسَنا فيها صَقْلا وينقِّيها مِن الشَّوائب والأدْران العالقة بها؛ كما تُنقي النارُ الذَّهب مِنْ شوائبه: (٢)

أرادَ اللّهُ أن نَعْشَقَ لَمَّا أوْجدَ الحُسْنَا

وألقى الحُبَّ في قَلْبِكِ إذْ ألقاهُ فيْ قَلْبِيْ

مشيئَتُهُ.. وما كانتْ مَشيئَتُهُ بلا مَعْنَى

---

(١) الجداول ص ٣١.

(٢) الجداول ٣١ – ٣٢.

فإنْ أَحْبَبْتِ ما ذَنْبُكِ أو أَحْبَبْتُ ما ذَنْبي؟

وحينما أوجد الله الحُبَّ في النفوس، اختار الطبيعة مكانا له، فبنى فيها هيكله الذي شاء ان يأوي إليه المحبين، كلما عَزَّ عليهم اللقاء، لتمتزج أرواحهم فيه كامتزاج الخمرة بالماء الزُّلال فيخلعون عنهم ثياب المدينة الفاسدة ليرتدُوا بَدلاً منها ثيابا سُنْدسية خضراء قد نسجتها لهم الشمس خصِّيصاً من خيوطها الغسْجدية المتلألئة فتطهرت بها قلوبهم من الحقد والبَغْضاء وسمت بها ارواحهم الى عالم منَ الرُّوحانية المُنزَّهة عن الشَّهوات. فالإنسان العاشق كُلَّما ابتعد عن المدينة، واقترب منَ الطبيعة كُلَّما ازداد اقترابا منَ اللّهِ؛ بحيث يراه مُتَجسِّدا في ترانيم الجداول والغُدْران وفي حفيف الاوراق؛ والنسيمُ يداعبها مداعبة الأُمِّ لطفلها الوحيد فما علينا إذاً إلاَّ أنْ نترك الناس وشأنهم وألاَّ نعيرَ أُذنا صاغية لأقوالهم، ولا نهتم بتَخَرُّصاتهم لكي نَعْثُرَ منْ جديد على سعادتنا المُتَجَسِّدة في تلبيتنا لنداء قلوبنا؛ لأنَّ مَهمة القلوب في الاجسْادِ لا تَقلُّ عن مَهَمَّة الازهار، والاطيار، والجداول في الحدائق والغابات. وما دام يَحقُّ للجدول أن يجري على هواه، وللزهرة ان تعبق وتذيع شذاها على الناس، وللاطيار ان تشتاق الربيع وهو يُطِلُّ منَ الثَّرى ألواناً وازهاراً، أفلا يَحق إذاً للقلوب، أنْ تهوى كما تشاء وان تعشق مَنْ يحلو لها: (١)

دَعيْ اللأَحيْ ومـا صَنَّفَ والقـالي وبُهْـتـانَه

أَلِلْجـدولِ أن يجْـري وللزَّهْرة أن تَعْـبَقْ

وللأطيـار أنْ تشـتـاقَ أياراً وأَلوانَه

ومـا للقلب وهو القلب ان يهوى وأَنْ يَعْشَقْ

تَعـاليْ إنَّ رَبَّ الحُبِّ يَدْعـونا إلى الغَـابِ

لِكي يَمْـزُجَنا كـالماءِ والخَـمـرةِ في كَـاسِ

ويغـدُوْ النُّور جِلْبَـابَكِ في الغَـابِ وجِلْبَـابيْ

فَكَمْ نُصْـغي إلى النَّاسِ ونَعْـصي خَـالقَ النَّاسِ

ولا شيءَ كالحب يوفِّر لنا الراحة والمتْعَة «النَّفْسيَّة».. فالنفوس التي لم يشرق

(١) الجداول ص ٣٢.

الحبّ فيها، هي نفوس لا تدرى معنى وجودها. فَلنترنم إذاً بين احضان «الحبّ الطّاهر» كلما فتح لنا ذراعيه محاولاً احْتضاننا. وَلْنبتسمْ فَرِحين بقدومه كُلّما رأيناه يبتسم كابتسامات الفجر لنا، ولنركض في أثره كما لو كنا نركض على ضفاف جدول مترنم، ولنهتف في وجهه هتاف البلابل والاطيار للسهول المثقلة بسنابلها الصفراء، وَلْنهلّلْ لقدومه تهليل النّحل والفراشات للسُفوح والذُّرى والهضاب التي تنبعث منها روائح الورود والازهار، وَلْنَتَمتعْ ما شاء لنا ان نتمتَّعَ في الحياة ما دمنا مهما أُوتينا من علم ومقدرة وبيان لا نستطيع ان نكتشف ما تُخَبِّئُهُ لنا الايّام في طيّاتها منْ مَسَرّات أو احزان: (١)

يريد الحُبُّ أن نضحكَ فَلْنَضْحَكْ مَعَ الفجْرِ

وأن نَرْكُضَ فلنَرْكُضْ مع الجَدْوَلِ والنَّهْرِ

وأنْ نهتفَ فلنهتِفْ مع البُلْبل والقَمْريْ (٢)

فَمَنْ يَعْلَمُ بَعْدَ اليَومِ ما يحدث أو يَجْريْ؟

فأَبو ماضي لم يكن في نظرنا يناجيْ في قصيدته هذه احدى محبوباته بل كان فيها يناجي «نفسَه» الثائرة عليه والتي حبسها زمنا ليس باليسير في قفص «الصلصال» وحال بينها وبين التمتّع بمباهج الحياة ومسرّاتها. فهو لم يستفق على هذا الصوت صوت «نفسه» الا بعد أن ذهب الى بستانه الذي تعوّد أن يأوي اليه لاراحة جسده المنهوك فوجد اشجاره قد عَرَّتها رياح الاعاصير منْ اوراقها. وحينما استعاد رشده واراد ان يعوض ما فاته لم تتعثر قدماه إلاّ بأوراق يابسة صفراء رأها تسقط عن شجرة آماله التي كان ظلها كلّما استظل به يوفّر له الراحة والطّمأنينة وهُدُوْء البال: (٣)

تعاليْ قَبْلَما تسكتُ في الرَّوْضِ الشَّحَاريْرُ

ويَذْوي الحَوْرُ والصَّفْصَافُ والنَّرجِسِ والآسُ

---

(١) الجداول ص ٣٣.
(٢) الجداول ص ٣٣.
(٣) القَمْري: ضَرَبٌ من الحمام حسن الصوت.

تعـالي قـبْلَمـا تَطمِـرُ أحـلامي الأعـاصيـرُ

فنسيـتـقظَ لا فَـجْـرٌ، ولا خَـمْـرٌ، ولا كـاسُ

وإنّنا ليجدرُ بنا ونحن نتابع تحليلنا لنفسية ابي ماضي من خلال بعض اشعاره ألاَّ نتعامى عن رؤية ذلك «السِّر» من النَّبوَّة الذي طالما رآهُ يشع في أعماق اعماقه، كلّما حاول بعض خصومه ايذاءه، او الكيد له. فأبو ماضي لم يكن يَرُدُّ بالرد على خصومه بنفسه بل كان يطلب من بعض العقلاء، إفهام هؤلاء المُتَجَنِّيْنَ عليه بأنهم يراودون مَعَه المستحيلات خلال محاولتهم النيل من سمعته الشخصية، أو من شهرته الادبية والشعرية لا لشيء، إلاّ لأنَّ اللّه قد اختاره كي يَهْدِي الضَّالين الجُهلاء، الى طريق الاستقامة والحَقِّ والصَّواب وكلُّ مَنْ كان مع اللّه كان اللّه معه: (١)

كم خَـفَـضْنَا الجَناح للجاهِلينَا

وعــذرناهُمْ فـمــا عَـذَرونَا

خَـبِّـرُوْهُم يا أيُّهـا العـاقِلونَا

أنَّمَا، نحنُ معشرَ الشُّعراءِ يَتَجَلَّى سرُّ النُّبوَّة فيْنَا

وقد اشتَطَّ بأبي ماضي الخيال في عَجْزِ البيت الاخير من هذه الابيات حيث نجده فيه يضع نفسه في مصاف الرسل الانبياء البررة الكرام وكل ذلك من غير ان يدري بأن اقوال الانبياء هي اقوال الله نَفسها، أمَّا أقوال الشعراء فهي اقوال اوحت اليهم بها تجاربهم الشخصية الخاصّة بالحياة. وليس الشاعر في نظرنا الا انسانا موهوبا مختلفاً كل الاختلاف من حيث الشعور والغاية والهدف عن الانسان العادي. إذ إنَّهُ لم يعبُدْ مثْله هيكله «التُّرابيّ» بل اعتبره عرضاً زائلا، لا يلبث حتى يعود بعد موته الى التُّراب الذي خرج منه وذلك قبل ان يصبح انسانا سويا.. اما ذِكْرُهُ فسوف يظل ذكراً خالدا بعد موته بفضل اشعاره الخالدة التي جادت عليه بها عبقريته الخلاَّقة المُبْدعة: (٢)

ذكّـروهُم فـربَّ خـير كـبيـرِ

---

(١) الجداول ص ٧٣.
(٢) الجداول ص ٧٣ ـ ٧٤.

فـعلتــه الهُــداةُ بـالتّــذكـيـرِ

أنّمَـــا النَّاسُ مِنْ ترابٍ ونُورِ

فبنـو النُّورِ يعبُـدُون النُّـورا وبَنُوْ الطّين يَعْبُدونَ الطّيْنَ

لقد كان ابو ماضي يبني لنفسه قصوراً وهمية، ويدعو الناس لمشاركته في الاقامة فيها ولو لدقائق معدودة، لعلّهم يَنْسَوْنَ خلال اقامتهم معه، قصورهم التي شيّدوها ومنازلهم التي أثّثوها بافخر الأثاث وأفضل الرّياش ولقد كـان هؤلاء المدعوون يتقاعسُوْن عن تلبية دعوته تلك، لا لشيءٍ إلاّ لاعتقادهم الأكيدْ بأنَّ هذه الدعوة الموجهة اليهم من جانبه هي دعوة وهمية لا وجودَ لها الا في مخيلة امثاله من الشعراء الذين يرَوْن، كُلَما اشتط بهم الخيال، ما لا يراه سائر النَّاس: (١)

قِـيْلَ عَنّا قُـصُـوْرنا مِنْ هَبَـاءِ (٢)

تتـلاشَىٰ في ضَحْـوَةٍ وَمَـسـاءِ

أو سطورٌ بـالمَـاءِ فــــوق المَاءِ

لو سكنتُمْ قُصُورنَا بَعْضَ ساعَةْ لَنَسِيْتُمْ شُهورَكُمْ والسِّنينَا

وهل هناك في نظرنا ساعة افضل من تلك الساعة التي يجد فيها الشاعر نفسه محمولة على اجنحة «الخَيـال السّامي» لتُلْقي به بعد ذلك في داخل احد هياكل الالهام التي بناها اللّه خِصّيصا لقلة قليلة من عباده المختارين الاصفياء. إذْ يجدون انفسهم فيها يسرحون ويمرحون في عالَم منَ الرؤى والاحلام العذبة. فلو أتيحت الفرصة لهؤلاء الشامتين المعيَّرين السَّاخِرِين من الشعر واصحابه بالدخول الى هياكل الالهام هذه لوجدوا انفسهم يسجدون امام الشعراء الموجودين فيها سجود المتعبدين والمصلين، طالبين منهم الصَّفح والغفران؛ لأنّهم لم يكونوا يُوْلُوْنهم ويُوْلُون اقوالهم أيَّ تقدير او اكبار إذ انّهم طالما كانوا يظنون بهم الظنون ويرمُوْنهم بالكفر والالحاد، والمُجُوْن وكُلّ ذلك من غير أنْ يدروا بانهم قد كانوا اكثر منهم تقْوىٰ، واشدَّ تعلقا باللّه بالرغم منْ أنّهم يتصورونه تصورا مخالفا لتصورهم له عَزَّ وجَلَّ: (٣)

---

(١) الجداول ص ٧٤.
(٢) الهباء: الغُبَار.
(٣) الجداول: ٧٤ - ٧٥.

لو دَخَلْتُمْ هيـاكلَ الإلْهَـامِ

وَسَـرَحْـتُمْ في عـالَم الأَحْـلامِ

واجْتليتُمْ سِرَّ الخيـال السَّاميْ

وَعَـرفـتمْ كـمـا عَـرَفنا اللّه   لخَـرَرتُمْ أمـامَنا سـاجـدِيْنا

ولقد شاءت الحياة أن تختار فئة قليلة منْ سُكّان هذه الهياكل المقدسة ألا وهي « هياكل الالهام » ليبلغوا رسالتها الدّاعيَة الى المحبة والتضحية بالذات في سبيل اسعاد المحتاجين اليها، فقاموا بتبليغ رسَالتها على اكمل وجه، من غير ان تلعب الخُيلاء بأعطافهم، ومن غير ان يستولي عليهم غرور قتّال؛ لأنّ الحياة قد اختارتهم دون سائر الناس. وهم بالإضافة إلى كُلّ ذلك فقد ظلُّوا يعيشون عيشة الكَفاف، مكتفين بما يسد الرَّمَق، وليس لهم منْ هدف سوى هدف ارواء النفوس العَطشى الى المعرفة والتَّوَّاقة إلى ادراك كُنْهِ الوجود. فاخذوا يملأون الكؤوس؛ كؤوس السعادة والمعرفة، ويقدّمونها للنّاس طالبين منهم ان يشربوها حيث تركوهم بعد ان شربوها حَيَارى سُكَارى يَتَمَنَّوْنَ عَدَمَ استعادةِ وعيهم ليظلوا مُتَمَكّنين من الاتصال الدائم بهم: (١)

قد سَقَتْنا الحياةُ كأساً دِهَاقا

حَسنَتْ نَكْهَـةً، وطابتْ مَـذاقَـا

وسَقَيْنَا مِـمَّـا شَربنَا الرِّفـاقَـا

فتركناهـم حَـيَارى سُكَـارىْ   يَتَمَنَّوْنَ أَنَّهم لا يَعُونَا

فالحياةُ لم تختر هؤلاء الصَّفوَةَ « منَ الشعراء ليبلِّغوا رسالتها السامية هذه إلاّ بعد ان امتحنتهم، امتحانا قاسيا، دقيقاً. فوَجدتهم بعده جديرين بتحمَّل الاعباء الثقيلة؛ وهي اعباء لا يستطيع تحملّها إلاّ من اختار بملء إرادته السَّير على طرقها؛ وهي طرق قد يصعب على الذين يسلكونها أن يبلُغُوا نهايتها إلاّ بعد أنْ يطرحوا عَنْ انفسهم قيودها « التُّرابيَّة » ويجرِّدونها منْ شهواتها وأَنانيَّتها لكي تصبح بعد

(١) الجداول ص ٧٥.

ذلك نُفوساً لا هَمَّ عندها سوى هَمّ اسعاد كافّة الناس، مهما اختلفت طبقاتهم، وتَعَدَّدَتْ أجناسهم، ومذاهبهم: (١)

هَمُّكُمْ في الكُؤوسِ والأكواب
آه لو كـان هَمُّكُمْ في الشَّرابِ
لطَرحْتُمْ عَنكُمْ قُيودَ التُّرابِ
وشعرتمْ بلذَّةٍ وعَذابِ

هذه الخَمْرَ لَيتكُمْ تَشْرَبُونَا

ولقد كان ابو ماضي كُلَّما أمْعَن النَّظر في هذه الدُّنيا وجد أنَّها دنيا زائلة فانية وكل ما فيها باطل ومُزيَّف. والرجل السعيد فيها هو الرجل الذي ينظر الى تقلباتها بطرف مُتْعام وبلسان صامت إذْ لا شيء كالصَّمْت المُتعَمَّد، يجعل الإنسان ينسى متاعبه وآلامه واحزانه وكذلك متاعب واحزان سواه من النَّاس. وقد لا يتأتَّى له ذلك الا بعدما يتمكن من الانتقال من عالم «الإحساس» الى عالم الرُّؤى والاحلام الذي يَكفُلُ له الهُدُوءَ والسعادة والاطمئنان. يقول ابو ماضي في احدى قصائده التي رَكِبَ فيها متعمدا متن احدى القوافي الصعبة الا وهي قافية السِّيْن: (٢)

لم يبقَ ما يُسْليْكَ غيرُ الكاسِ	فاشربْ ودَعْ للنَّاسِ ما للنَّاسِ
الحسُّ مُجْلِبَةُ الكآبةِ والآسَىْ	قُمْ ننطَلِقْ من عالَمِ الإحْسَاسِ
وأرَى السَّعادةَ لا وصولَ لِعَرْشِهَا	إلاَّ بأجنحةٍ مِنَ الوسْواسِ

لقد كان ابو ماضي إذاً مصابا بمرض «الوسْواس» وهو مرض كان به راضياً، وذلك لأنَّه قد كان يسبِّب له السَّعادة في الحياة. وكما كان ابو ماضي مصابا بهذا المرض الخطير المُعْدِي كذلك قد كان مصابا معه بأمراض اخرى ثلاث، ألا وهي: الجوع، والعطش، والتِّيْه. أمَّا جوعه فقد كان في نظرنا جوعا عاطفياً مَحْضاً وَظَمأه كان ظمأ ماديا صِرْفاً. وأمَّا تيهه فقد كان تِيْها شاعريا معنويا ليس إلاَّ.

وقد ذكر أبُو ماضي امراضه الثلاث تلك، وتحدَّث عن أسبابها ودوافعها، وذلك

(١) الجداول ص ٧٥ ـ ٧٦.
(٢) الخمائل ص ٦٩.

في قصيدته الميميّة التي جعل عُنوانها «بين مَدّ وجَزر» وكان قد ألقاها في الحفلة التكريمية التي اقيمت على شرف صديقه الشاعر جورج صَيْدح، بمناسبة زيارته لمدينة نيويورك عام ١٩٣٤م.

لقد فتح ابو ماضي قلبه للحاضرين، فراح يحدِّثهم في مستهل قصيدته هذه عن تلك السُّويعات، والايام الجميلة التي عرفها في شبابه، حينما كان مستجيبا لنداء قلبه، بعدما ترك له امر قيادة سفينته في بحر «الحياة الطَّامي». فحمله إلى شاطىءٍ من الملذّات الوَهْميَّة والآثام العَفَويَّة، فأخذ بدوره يَعُبّ منها عَبّاً، ويغوص فيها غَوْصا، بلا خوف ولا حذر. فاضحى كُلَّما عَبَّ منْ كأس ملذاته ورَشف من رَحيق ازهار آثامه، كلما ازداد جوعا على جوع، وعطشاً على عَطَش طالباً المزيدَ منها، وذلك خوفا منه عليها من ان تنضب في يوم من الايام فينضب بعد نضوبها مَعيْن الحياة في عُروقه: (١)

سَيَّرْتُ في فَجْرِ الحَياةِ سَفينَتي ... واختـرتُ قلبي أن يكونَ إمَـاميْ
فجرتْ على الامـواج قَصْراً منْ رؤى ... ملء الفَضَـا ملء المَدى المُتَـرامي
فــاذا الرِّمــالُ أزاهِرُ فَــوّاحَــةٌ ... والشَّطُّ هَيْكَل شـاعـرٍ رَسَّـامِ
أتَلَقَّفُ اللَّذاتِ غَـيْـرَ مُـحَـاذِرٍ ... وأعُـبُّ فـي الـزَّلَّات والآثَـامِ
لا أكْـتَـفي وأخَـافُ أنّي أكْـتَـفي ... فكأنَّمـا في الإكْـتـفـاء حِمَـاميْ
مَـرَّتْ بيَ الأعـوامُ تَتْلوْ بَعْـضَـهَـا ... وأنا كـأنِّي لَسْتُ في الأعْـوامِ

ولقد وجد نفسه بعد ذلك يستفيقُ على صوتٍ طَرَقَ مَسْمعه فإذا به صوت «الحِجَى» (٢)، إذْ سمعهُ يقول له، ساخطا، متوعدا إيَّاه، مُتهكِّماً عليه: (٣)

أسْلَمْـتَني للقَلْب وَهُو مُـضَلّلٌ ... فـأضَـرَّني وأضَـرَّك اسْـتِـسْلاميْ
ياصاحِبيْ أطْلقْنيْ من سِجْنِ الرُّؤى ... أنـا تائهٌ! أنا جـائعٌ! أنا ظَامِ!

---

(١) الخمائل ص ٢٠٦.
(٢) الحجى: العقل والفطنة ج أحجاء.
(٣) الخمائل ص ٢٠٨.

فخضع أبو ماضي، ساعتئذ، لمشيئة عقله، عَلَّه يستطيع بدوره بعد خضوعه لمشيئته واستسلامه له، أنْ يخفِّف عنه بعض جوعه وعطشه، ولكنه وجده بدلا من ذلك يَدُلُّهُ على الطُرق المُؤدِّية إلى الحياة والثروة. فسار عليها هادئا مطمئنا. فلم تلبث جيوبه طويلاً حتّى انتفختْ بعد مدة قصيرة بالاوراق المالية، فظنَّ بعد انتفاخها، أنَّه قد ودَّع آلامه، وداعاً أبدياً. فإذا بآلامه تلك التي اعتقد بأنَّه قد ودَّعها، تعود لتُعشّش في صدره منْ جديد، وهي آلامٌ سَبَّبَتْ له قسماً منها ثروته تلك التي جعلته، بعد حصوله عليها، عبدا لها، ولرغباتها. وأمَّا القسْمُ الآخر، فقد كان سَبَبَهُ بعض الناس الذين كانوا سببا مباشرا في حصوله على ثَرائه العاجل هذا:[1]

وأرادَ عَـقْلي أنْ يقـود سَـفـينَتي ... للشَّطِّ في بَحْـر الحـيـاة الطَّامِيْ
فطويتُ أعـلامَ الهَـوَى وهجـرتُـها ... وَنَسِيْتُ حَـتَّى أنَّـهـا أعْـلامِيْ
وحَسِبْتُ آلامي انتـهتْ لَمَّا انتَـهَى ... فــإذا النِّـهــايةُ أعظَمُ الآلامِ
وإذا الطَّريقُ مــخـاوِفٌ ووَسَـاسٌ ... وإذا أنا مِنْ هَبْـوَةٍ لِقَـتَّـام[2]
أبْغِي الثَّـراءَ، ولم يكن مِنْ مَطْلبي ... وأرى الجـمـالَ بناظرٍ مُـتَـعـامِ
وأشِيـد مِـثْلَ النَّاس مَـجـداً زائفـاً ... وأشُـدُّ حَـول الرُّوح ثَوْبَ رَغَـامِ
فــاذا أنا والأرض مِلْكي والسَّـمَـا ... قد صِرتُ عَبد النَّاس عَبْدَ حُطَامي

ان «الثروة» التي حصل عليها ابو ماضي والتي نراه يشير اليها في ابياته «الميمية» هذه لم يحصل عليها الا بعد ان كان قد بلغ الرابعة والاربعين من عمره، لذلك وجدناه نظرا لعمره هذا، لا يحسب لثروته تلك التي حصل عليها بعد جهاد مرير، وعراك طويل، بينه وبين القدر بطعم لذيذ لها في فمه. فهو حينما اراد بعد ان حصل على ثروته تلك ان يعود لينشر من جديد اعلام «الهوى» التي كان قد طواها مدة من الزمن في حياته الماضية استجابة لنداء «عقله» - وجد انها قد اصبحت اعلاما رثَّة بالية، ممزقة. فادركَ ساعتئذ بفطنته أنَّ قطار تمتُّعه في حياته

(١) الخمائل ص ٢٠٨ – ٢٠٩.
(٢) الهَبْوَةُ: الغَبَرةُ، القَتّام: الغُبار الأسود، غبار الحرب، الظَّلام.

بالملذات بفضل ثروته هذه قد مَرَّ ولم يعد باستطاعته اللحاق به. فما كان من «قلبه» بعد ذلك الا ان راح يعاتبه قائلا له:(١)

أَسْلَمْـتَني للعَـقْل وهو مُـضَلِّلٌ ... فـأضَرَّني وأضَـرَّكَ اسْـتِسْـلامِيْ

أنظر ألَستَ تراكَ في أوْهَامِـهِ ... أشْـقَى وأتْعَسَ مِنْكَ فيْ أوْهَامِيْ

أيْنَ العيـونُ تُذيبُني حَرَكَـاتُهـا ... وتموتُ في سَكَنَاتِهـا آلامِيْ

الخَمْـرُ ملءُ الجَام لَكِنْ قـد مَضَى ... شَـوْقِي إلى الخَمْـرِ التي في الجَام

المَال مَنْ ذا يشْـتَـريه كُلّهُ ... مِنّيْ بِليل صَـبَـابَة وغَـرَام

ياصاحِبي أطْلِقْنيْ مِن سِجْنِ النُّهَى ... أنا تائِهٌ! أنا جـائِعٌ! أنا ظَامِيْ

اننا حينما ندرك أنَّ أبا ماضي كان قد نظم قصيدته هذه في عام ١٩٣٤م، وهو نَفْس العام الذي راح يُفكّرُ فيه بتحويل مجلّته «السَّمير» التي كان قد اصدر أوّل عدد منها في عام ١٩٢٩م إلى جريدة سياسية تُؤَمِّن له الثَّروة، والمستقبل السعيد، ندرك المَغْزَى الرئيسي الكامن وراء شعوره بالحَيْرَة والقَلَق النفسي الذي وجدنا بوادره تُطِلّ علينا من خلال اقواله في قصيدته هذه حيث نجده تارة يشعر بالارتياح وطوراً بالقلق على مستقبله. وكل ذلك بسبب خشيته على مصير مجلّته التي كان في تلك الفترة من حياته يفكر بتحويلها من مجلة ادبية الى جريدة سياسية، ودليلنا على ذلك قوله في هذا البيت من ابيات قصيدته هذه:(٢)

لا تَسْأَلوني اليَوْمَ عَنْ قيثَارَتِيْ ... قِيْثَارَتِيْ خَشَبٌ بلا أنْغَامِ

وقيثارة ابي ماضي التي كان يعزف على اوتارها للناس، اجمل الالحان، داعيا إيَّاهم بواسطتها إلى الفرح والابتسام في الحياة، وطرد الاحزان والآلام من الصدور، لم تتحول بين يديه الى خشبة من الاخشاب الصامتِه إلاّ بعدما وجد المَهْجر الشّمالي قد بدأ يَضِّج في تلك الاثناء، ببعض الشعراء من اصحاب المواهب الضَّحْلة الذين كانوا يجدون من يستمع اليهم ويعيرهم آذاناً صاغية بالرغم مِمَّا كانوا يأتُون به مِن سخافات ليستْ مِنَ الشِّعرْ في شيء. فما كان منه إلاّ أنْ آثَر الصَّمْت فترة مِنَ

---

(١) الخمائل ص ٢١٠ـ ٢١١.
(٢) الخمائل ص ٢١١.

الزَّمن لكي لا يجعل صوته يختنق في أصوات هؤلاء الشعراء المُتشاعرين وحينما وَجَدَ نَفْسه تعاتبه أشدَّ العِتاب على سكوته المتعمَّد هذا، أجابها قائلا: (١)

ألائِمَـــتي اتْركـــيْني في سُكُوتيْ	ولُومي مَن يَضجُ بِغَـيْـــرِ طَحْنِ
إذَا صـار السَّـمَـاعُ بلا قِـيَـاسٍ	فـلا عَـجَبٌ إذا سَكَتَ المُغَنِّيْ
فـمـــا حَطَمَتْ يَدُ الأيَّام رُوحيْ	وإنْ حـطـمـت أبَـاريْـقِـي وَدَنِّـي
ولَكِنِّي امْـرؤٌ للنَّاس ضِـحْكِيْ	وَلِيْ وَحْـدِيْ تَبَـاريْحِيْ وَحُـزْنِيْ

ليس لابي ماضي أيُّ حَق في أنْ يَعْتِبَ على النَّاس؛ لأَنَّهم لم يشاطِرُوْهُ احزانه فأنّى لهؤلاء أنْ يعلموا بأحزانه، وهو لم يكن يَظْهَرُ أمامهم، وخاصَّة في أشْعاره، إلاَّ بمَظْهر الرَّجل الضّاحك الطَّروب. إنَّه كان يبكي وَحْدَه بكاءً صامتا، خشية أن يُزعج بدموعه المترقرقة على خديه اصدقاءه والمعجبين بشعره. وهو لم يكن مكتفيا فقط بمَتاعبه الخَاصة به، بل أضاف اليها ايضاً متاعب بعض اصدقائه الذين كان يحاول ان يساعدهم قَدْرَ طاقته، كي يبعد عنهم الهموم، ماسحا بيديه دموعهم المترقرقة على خدودهم، حتى ولو كانت دموعا محرقة كالجمر إذْ كان كُلَّما مَسَحَ بأنامله دمعة يتيم او مكتئب، حزين، يشعر بسعادة روحية خَفيّة تغمر نفسه، لأنَّه قد استطاع أنْ يُسْعد أخاً له في الانسانية بعض الاسعاد: (٢)

إذَا أَشْكُوْ إلى خِـدْنٍ هُمُـومِيْ	وفي وُسْـعي السُكُوتُ ظلمتُ خِدْني
ويأبَى كِـبْـريائي أنْ يَرانِي	فـتًى مُـغْروروقـاً بالدَّمْع جَـفْني
فـأسـتُـرُ عَـبْرتي عنه لئَـلاَّ	يَضِـيق بهـا، وإن هي أحْـرَقَـتْني
وَيَبْكي صـاحـبي فـأخَـال أنّي	أنا الجـاني وإن لم يَتَّـهِـمْنيْ
فـأمـسح أدْمُـعـاً في مُـقْلَتَيْـهِ	وإنْ حَكَتِ اللَّهـيبَ وإن كَـوَتْني
لأنّي كُلَّمَـــا رَقَّـــهْتُ عَنْهُ	طَربْتُ كـأنّني رَفَّـهْتُ عَنِّيْ

ان هذه الدَّعْوَة، دعوةَالإنسان إلى محبة أخيه الانسان، والاسراع الى نجدته،

(١) الخمائل ص ٣٩ – ٤٠.
(٢) الخمائل ص ٣٩.

ومسامحته والصَّفح عنه حتى وإن كان عدوا لدودا، هي دعوة جديدة في أدبنا العربي الحديث. أطلّت علينا تباشيرُها لأوّل مرَّة من افواه أدباء، وشعراء المهجر الشّمالي، وخاصَّة من بينهم جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمه، ورشيد أيّوب الذين كانوا مثلما كان ابو ماضي يحاولون أن يُوَجهوا الانظار في أكثر الاحيان الى «ذلك الحيوان المستحدث»، ألاَ وَهو الانسان. حيث نراهم يدلون برأبهم الخاص فيه، وذلك فيما يتعلق بمعتقده والطُرق التي يجب عليه أنْ يسلكها لكي يحظى بالسَّعادة التي يَنْشدها في حياته وإننَّا لنجد ابا ماضي يحاول ان يدلي بدلوه في هذا المضمار حيث نراه ينظم بعض القصائد التي شاء فيها ان يتحدّث عن الله عَزَّ وجلّ وعن كيفية تصور بعض المؤمنين له وتصوره هذا خاص به وحده؛ وقد استفاده ابو ماضي من مطالعته الخاصة لبعض ما قاله الشعراء الرومانسيين بهذا الصَّدد.

وقبل ان نتطرق الى مناقشة ابي ماضي الحساب فيما يتعلق بآرائه الجريئة. يجدر بنا ان نورد له هذه الابيات الثلاث التي نراه فيها يقول:[1]

وسـائلةٍ أيُّ المذاهب مَـذْهَبيْ	وهل كان فَرْعاً في الدِّياناتِ أم أصْلا
وايُّ نَبيٍّ مُـرسَل اقـتـديْ بِهِ	وايُّ كِـتـاب مُنْزَل عنديَ الأغلى
فـقلتُ لهـا: لا يَقْـتني المَرءُ مَـذْهَبـاً	وإن جَلَّ إلاَّ كـان في عُنْقِـه غُـلاَّ

ولقد اتهم ابو ماضي من اجل هذه الابيات بالمروق والالحاد من قبل الادباء والنقاد. ونحن بدورنا نقول بأن ابا ماضي لم يكن مُلحداً ولا ضالاً بل كان مؤمنا كُلَّ الإيمان بوجود الله عَزَّ وجَّلَ وبجميع الكتب السَّماوية. ودليلنا على ما نقول أمران:

أولهما: انه ولد من أبوين ارثوذكسين كريمين. ولم يكن ابو ماضي مكتفياً فقط بانتمائه الى هذه الطائفة الكريمة بل نراه يحمل لواء الدفاع عنها وعن ابنائها في المهجر الشمالي. وكلّ ذلك بواسطة مجلته وجريدته السَّمير. فإيمان ابي ماضي بالله عز وجل لم يضعف في يوم من الايام بالرغم مما كان يقاسي من آلام ويعاني من متاعب خلال اشتغاله طوال حياته بالعمل الصحفي.

فلو كان ابو ماضي *مُجَدِّفاً *حقاً على الله وعباده في ابياته هذه وفي ابيات كثيرة له او في غيرها من الابيات لما منحه سيادة المطران ايليا كرم مطران الطائفة

(١) الخمائل ص ٧٩.

الارثوذكسية في المهجر الشمالي وسام التقدير والاكبار خلال احتفال ابي ماضي في نيويورك في عام ١٩٥٤م. باليوبيل الفضي لجريدته السَّمير وهو وسام وجد فيه ابو ماضي « رمزاً خطيراً وشرفاً كبيراً ساعداه كل المساعدة فيما بعد على مجالدة التجارب والتغلب على الخير بالشر ». عَله يمضي ما تبقى له من حياته وهو لهذا الوسام « مستحق » وبه « جدير ».

وثانيهما : ان ابا ماضي قد كان كثيراً ما يستشهد ببعض الآيات القرآنية الكريمة وخاصة فيما يتعلق بآرائه المتعلقة بالحياة ونشأتها الأولى. إذ انه حينما اراد أن يقنعنا بأن الماء هو اصل الحياة أكَّدَ لنا رأيه هذا بقول الله عزَّ وجَلَّ: « وجعلنا من الماء كُلَّ شيءٍ حَيّ » صدَقَ اللّهُ العظيم.

فابو ماضي إذاً تبعاً لما أسلَفْنَا لم يكن يقصد من وراء قوله في الابيات السابقة ... لا يقتني المرء مذهبا وان جَلَّ الا كان في عنقه غُلاًّ. الى القول بأن الانسان حينما يعتقد بمعتقد سماوي كريم يصبح معتقده هذا كالغل في العنق. بل كان يقصد إلى القَولِ بأن الانسان حينما يغرق نفسه في بُحُور التَّعصب الدِّيني يخسر سعادته في الحياة ليكسب بدلا منها العداوة والبغضاء. وتبعاً لذلك فقد وجدنا ابا ماضي لكي يخلص نفسه ونفوس الآخرين من شوائب التعصب الهَدَّام البغيض يعتنق بالاضافة الى اعتناقه للدين المسيحي الفاضل الكريم ديناً آخر قد اعتنقه من قبله الغيث والروض والغَدِيرُ وكذلك الشهب.. والدليل على ما نقول قوله مستطردا في لاميته هذه:[1]

فَدِيني كَدِيْن الرَّوْض يَعْبَقُ بالشَّذَىٰ ... ولو لم يكن فيه سِوى اللّص مُنسَلاً
وَديني الذي اختارَ الغديرُ لِنَفسهِ ... ويا حُسْنَ ما اختارَ الغديرُ وما أحلَىٰ
وديني كدين الشُّهْب تبدُو لعاشقٍ ... وقالٍ، وفِيها ما يُحَبُّ وما يُقْلَىٰ
وديني كدين الغَيْث إن سَحَّ لم يُبَلْ ... أرَوَّى الأقاحى أم سقى الشَّوك والدِّفْلى

أَمَّا السَّبَب الرئيسُ الذي جعله يعتنق مع اعتناقه للدين المسيحي الكريم أدياناً

---

(١) الخمائل ص ٨٣ ـ ٨٤ ـ ٨٥.

رآها مجتمعة كُلّها في الطبيعة فهو يكمن في عتبه كُلَّ العَتْب على الإنسان المتعالي الظالم لأخيه الانسان : (١)

تَتَلْمَذْتُ للانسان في الدَّهر حقبةً فلقَّنني غَـيّـاً وعلَّمني جَـهْـلا
نهـانيَ عَنْ قتلِ النفوسِ وعندمـا رأى غِـرَّةً مِنِّي تَـعَلَّم بي القـتـلا (٢)
وذمَّ إلى الرِّقِّ ثم اسـتـرقَّني وصـوَّر ظلمـاً فـيـه تمجيـده عَـدْلا
وكـاد يريني الإثْمَ في كُلِّ مـا أرى وكُلّ نِظَامٍ غَـيْـر مـا سَنَّ مُـخْـتَـلاً

وقد ظل ابو ماضي حَسْبما ذكر بنفسه، في هذه الابيات متتلْمِذاً نهذا الانسان الذي وجده يحب قتل النفوس ويميل الى الغدر كل الميل باصحابه، واخوانه ويذم الرق ثم يسترق الناس مدة طويلة من الزمن. وهولم يشأ ان يتخلَّى عن صحبة مثل هذا الانسان الا بعدان تأكّد له أنه قد كان مخطئا في هذا التتلمذ على يدي الإنسان الاناني الظالم المتكبر.

فلنستمع اليه وهو يقول موضّحاً السَّبب الذي جعله يقلع عن تتلمذه لذلك الإنسان الظالم الجاني : (٣).

إلى أن رأيت النَّجم يطْلُعُ في الدُّجَى لذي مـقلةٍ حَـسْرى وذي مُـقْلَةٍ جَذْلَى
وشـاهدتُ كـيف النَّهـرُ يَبْذِلُ مـاءه فـلا يبـتـغي شُكْراً ولا يدَّعي فَـضْـلا
وكـيف يزيِنُ الطَّلُّ ورداً وَعَـوْسَجـاً وكيف يُرَوِّي العَارِضُ الوَعْرَ والسَّهْلاَ(٤)
وكـيف تُغَـذِّي الأَرضُ ألأمُّ نَبْـتَـهَـا وأَقْـبَـحَـهُ شَكْلاً كـأحْـسَنِهِ شَكْلاَ
فـأَصْبَح رَأْيِيَ في الحيـاة كـرأيهـا واصبحَ ليْ ديْنٌ سِوى مَذْهَبِيْ قَبلاَ
وصـار نَبيِّ كُلُّ مـا يُطْلِقُ العَـقْـلا وصـار كِـتَـابِيْ الكَوْنُ لا صُحُفٌ تُتْلَىٰ

فأبو ماضي إذاً قد كان مؤمناً بالله عَزَّ وجل ومقراً بوجوده كُلَّ الإقرار ولكنه كان يتصوره تصورا خاصا به وحده دون سائر الناس وتصوره هذا قد بدا جليا من

(١) الخمائل ص ٨١.
(٢) الغِرَّة : الغفلة.
(٣) الخمائل ٨٢ - ٨٣.
(٤) العارض : السَّحاب.

خلال قصيدته الرائية التي بعنوان «انا وابني» وقد استهلها بقوله:[1]

قَالَ لِيْ ابْنِيْ وَهُوَ حَيْرَانٌ بِمَا يُحْكَى وَيُقْرا

كيفَ كانَ اللّهُ؟ إِنّي قد وجدتُ اللّهَ سِرّا

أَسْمَعُ النَّاسَ يقولون به خيراً وشرّا

فأفدْني قلتُ ياابني أنا مثل النَّاس طرّا [2]

لِيَ في الصِّحَّة آراءٌ وفي العِلَّة أخرَى

كُلَّما زَحْزَحْتُ سِتْراً خِلْتَني أُسْدِلُ سِتْرا

لستُ أدرَىٰ منك بالأمْرِ ولا غَيْرِيَ أدرَىٰ.

فمهما يَكُن من أمر فباستطاعتنا القول ان ابا ماضي قد كان شديد الايمان بالله، عَزَ وَجَلَّ مؤمناً بوجوده، مُوكِلا إليه أمْرَه في جميع أُموره وحوائجه، ولكنه قد كان يتصور وجوده تصورا خَيَاليا خاصا به وحده. وهو تصور استوحاه ابو ماضي من تصورات بعض الشعراء الفلاسفة القدامى للسماء والجنة والنار ونخص بالذكر من بين هؤلاء الشعراء أبا العلاء المَعَرّي، صاحب كتاب «رسالة الغفران» وهو كتاب كان ابو ماضي قد قرأه بلا شك وتأثر بما جاء فيه من اقوال وذلك قبل نظمه لقصيدته «الرائية» هذه. فأيُّ إنسان يمعن النظر جَيِّداً في الكائنات من حيث نشأتُها وفناؤها ومصدرُ وجودها، فإنه يقتنع لا مَحَالَةَ بأنَّ لهذه الكائنات مُدَبِّرٌ وموجد لها ألا وهُوَ «الله» عَزَّ وجَلَّ الذي جمَعَ قطرات الماء، قطرةً، قطرة، مكونا منها البحار والمحيطات، ثم أوجد لنا فيها الدُّرَّ والغذاء، الذي جعله مصدرا مهمّا من مصادر حياتنا فإن اللّه حينما خَلَق لنا هذا الكون خَلَقه تاما بلا نقصان. إذْ جعل فيه الليل راحة لأَجسامنا والنَّهار خَلَقَهُ لنا، لكي نَجُدَّ فيه، ونعمل من اجل كسب قوتنا بعَرَقِ جبيننا حتَّى تلك الاجرام السماوية فان اللّه حينما خَلَقها لم يشأ ان يبقيها اجراما تدور في فلكها بلا فائدة بل جعلها منيرة متلألئة إذْ لولا نورها لَمَا قُدِّر للأَرض التي نعيش عليها ان تظل آهلة بسكانها من غير ان يُكْتَب عليهم فيها الفَنَاء والاندثار. فاللّه عَزَّ وجَلَّ حينما قام بتلك الاعمال العظيمة الجَبَّارة والمعجزات الخارقة

---

(١) الخمائل ص ١٩١.
(٢) الطُرُّ ج أطرار، الطَّرف يقال جاءوا طرّا أي جميعاً.

فانه قد كان في نظر ابي ماضي «فكراً» مستقلاً بذاته، (١)

أحَسِبُ اللّه الذي صاغ من الذرّاتِ صخرا
والذي شاء فصارتْ قطراتُ الماء بحرا
والذي شاء، فضمّ البحرُ أصدافاً ودُرّا
وأرادَ الضوءَ أجراماً فصارَ الضوءُ زهرا
ان هذا اللّه لمّا شاء هذا كان «فكرًا»

فاللّهُ عزَّ وجَلَّ حينما خلق لنا ارضنا هذه موجدا فيها النور لم يشأ ان يبقيها عارية من المحاسن والمفاتن، بل اوجد فيها الازهار، والاشجار، والاثمار التي جعلها مختلفة الطعم والروائح والالوان، وخلق معها الطيور وجعلها تأوي الى الحقول والبساتين لتغرد على اغصان اشجارها اغاريد النشوة والارتياح. حتّى أضحى نظرنا لا يقع حَيْثُما وقع الا على اطياف وانوار وجداول، وغدران، وسفوح، وجبال، ووهاد تفوح منها روائح العطور والازهار وحتى الصحاري القاحلة خلقها اللّه جميلة كل الجمال في اعين سُكّانها واعين جميع الناس الذين يتذوقون مواطن الجمال. فاللّه عز وجَلَّ حينما اتم خلق لوحاته الساحرة الفتّانة تلك قد كان في نظر ابي ماضي «حِسّا» مرهفا و«شعورا» فَيّاضاً، (٢)

ثُمَّ لـمّـا نَظَمَ الألوانَ في الأرض زُهُورَا
ورأى أن يُعْلِنَ الحُب غِناءً وحُبُورَا
فتمشّى في حواشي الأرض سِحرا وعُطورَا
وتهادَى في حواشي الافق أطيافا ونُورَا
عندما اوجد هذا كان «حِسّاً» و «شُعُورَا»

وإنّنا لنجد أبا ماضي يحاول اقناعنا في المقطع الأخيرْ من قصيدته الرائية هذه، بأنّه يؤمن بالله عزَّ وجَلَّ، ويحبُّه كُلَّ الحُبِّ لا لكونه جبّارا وفتّاكا وقاهراً بل لكونه

---

(١) الخمائل ص ١٩٢.
(٢) الخمائل ص ١٩٣.

رسّاماً وساحراً يسحر العقول والالباب، بما خلق من مناظر جميلة فتّانة في الارض والسماء وهي مناظر اذا غابت عن انظارنا، نراها، كما نرى موجدها، متجسّدة في بعض سطور دواوين فئة من الشعراء المتَّصِفين بقدرة الخَلْق والإِبداع: (١)

مَنْ أَحَبَّ اللّه جـبّـاراً وفـتَّـاكـاً وقـاهِرْ

فـأنَا أَهْواهُ رسَّـامـاً وفنَّاناً وسـاحِـرْ

وأراهُ في النَّدَىٰ والزَّهْرِ والشُّـهْبِ السَّـوافِرْ

فـإذا الأنْجمُ غـارَتْ وانطوتْ كُلُّ الأزاهِرْ

وتلاشَى كُلُّ مـا سَوَّىٰ وأنشَـا مِنْ مناظِرْ

لاحَ لي في حُسنِهِ الأكملِ في ديْوان «شاعِرْ»

ومثلما كان ابو ماضي معتقداً كل الاعتقاد بوجود اللّه عَزَّ وجَلَّ بالرغم من انه قد كان يتصوَّر وجوده تصورّا ذاتيا نابعاً من اعماق نفسه ومن مشاهداته الخاصة في الحياة، فإِنَّه كان ايضا معتقدا بوجود «السَّمَاء» ولكنه قد كان ايضا متصوّرا لها تصوّرا ُخاصّاً به وحده إِذْ إِنَّه كان يَدَّعِيْ بأَنَّ بعض الناس يتصوَّرون السماء، وما يوجد فيها، تصورا موافقا لمشتهاهم ورغباتهم في الحياة وهي رغبات لو أَنَّها وُجِدَت حقيقة لأَمَّنت لهم السعادة التي ينشدونها، ويعملون على الحصول عليها، جاهدين. فالراعي حينما يَتَصَوَّر «السَّما» يتصوّرها حَسَب زعم ابي ماضي ربيعا دائما، ومروجا فسيحة خضراء، وسهولا مترامية الاطراف، لا يَجفّ فيها العشب، ولا يغيض الماء فلا أَرضُها أَرضٌ مجدية ولا جبالها موعرة جرداء، ولا غيوم تتلبد في صفحتها، ولا ثلوج تكسو ارضها ولا قحط يُذبل أَزهارها، واعشابها، ولا رياح تَهُبُّ على اشجارها، فتعرِّيها منْ أوراقها. وتَصَوُّر الرَّاعي «للسماء» على هذه الصورة الخيالية، يجعله يَحِسُّ بشيء مِنَ الراحة «النَّفسية» التي تساعده مساعدة فَعَّالة على تحمُّل أَعباء الحياة، بصدر واسع، رَحْب، منْ غير ضَجر ولا تأَفُّف، على أَمَل أَن يرتاح بعد موته كُلَّ الرَّاحة؛ وذلك حينما ينتقل من هذه الدار الفانية الى تلك الدَّار الباقية الابديّة التي لا تزول ولا تَفْنَى. ورأْي ابي ماضي هذا الذي ابداه في

---

(١) الخمائل ص ١٩٣.

كيفية تصور كل راع للسماء قد ورد عنده في قصيدته الهمزيّة التي عُنوانها «السماء» حيث نراه يستهلها بقوله: (١)

لا تسلني عن السماء فما عنـ — ديَ إلاّ النُعوتُ والأسماءُ
هيَ شَيءٌ وبعض شيءٍ وحيناً — كُلُّ شيءٍ، وعِنْدَ قومٍ هَباءُ
فسماءُ الرّاعي كما يَتمنّاها — مروجٌ فسيحةٌ خضراءُ
تَلبَسُ التّبر مئزرا ووشاحاً — كُلّما أشرقَتْ وغابَتْ ذُكاءُ (٢)
أبدا في نَضارة لا يَجِفّ الـ — عُشبُ فيها ولا يَغيضُ المَاءُ

أمّا الأُم المفجوعة باولادها، فهي حينما يقع نظرها على السماء، تراها قد تحوّلت في عينيها إلى مكانٍ قد أقام فيه اولادها هانئين مطمئنّين بعد موتهم. إذْ لا يكدّر عليهم في ذلك المكان الامين صفو عيشهم مُكدّرٌ، ولا يَعَضّهم الجوع بأنيابه، ولا تفتك الامراض بأجسادهم؛ وهم منعّمون دائما وابدا بشباب دائم خالد. فالذي جعل تلك «الأمّ» تتصور وجود «السماء» على هذه الصّورة، هو شعورها باليأس منْ عَوْدة اولادها إليها بعد موتهم فأرادت منْ أجَلْ ذلك أنْ تواسي نفسها المعذّبة، وأنْ تخفّف عنها بعض ما هي فيه منْ لوعة وحزن ولم يكن لها منْ سبيل إلى ذلك الا الاستعانة بهذه التّصوُّرات الخياليّة التي شاءت أنْ تحوّلها في مخيّلتها الى حقيقة واقعة. فشعرتْ بالارتياح والمَسَرّة وبالاطمئنان على مصير اولادها هؤلاء بعد موتهم، متوهمة في خاطرها أنّهم قد أضحَوا في ذلك المكان في عُهْدَة أم جديدة لهم، تحنو عليهم، ويَعْطِفُ قلبُها تماماً كما كانت هي أيْضاً تحنو عليهم، وتعطِفُ؛ وذلك حينما كانوا لا يزالون موجودين بقربها، وهم أحياء: (٣)

وَهيَ عند الأُمِّ التي اخترم الموت بَنيها، وضَلَّ عنها العَزَاءُ
مَوْضعٌ لا ينالُهم فيه ضَيْمٌ، لا، ولا يُدرك الشَّبابَ الفَنَاءُ
وكذا يولد الرجاءُ منَ اليأس إِذا مات في القلوب الرَّجاءُ

و«الفَقير» المُعْدِمُ، كلّما عضّه الجوع بأنيابه، يتّجه بأنظاره، حَسَب زَعْم أبي

---

(١) الجداول ص ٢٣.
(٢) ذكاء: اسم علم للشمس غير منصرف.
(٣) الجداول ص ٢٤.

ماضي، نحو الافق البعيد، لعَلَه يشاهد خلفه ذلك المكان الامين الذي سينتقل اليه بعد موته. وهو حينما يتوهَّم في مخيَّلته بأنَّ نظره قد وقع حقًّا على ذلك المكان يصبحُ اكثر تحملا لآلام الجوع، واكثر استخفافا بهؤلاء الاغنياء الذين يسلِّطون عليه كلابهم كُلَّما وجدوه يَطْرُقُ أبوابهم، طالباً منهم شيئا منَ الطَّعام أوِ المأوى وسرُّ استخفافه بهم، وعدم مبالاته بما يفعلونه معه، يعود الى ايمانه العميق بأنَه سيفوز بعد موته بهذه «السماء» التي تصوَّرها حَسَبَ هواه، بينما هم سيكون مصيرهم بعد موتهم جَهَنَّم يَلْقَوْنَ فيها عذاب السَّعِيْر وذلك بسبب تصرفاتهم الخاطئة هذه معه ومع غيره من المحتاجين المُعْوزِيْنَ منْ أمْثَالِه: (١)

وَهيَ عِند الفَقِيْر أرْضٌ وراءَ الأُفُقِ	فِيْهَا مَايَشْتَهي الفُقَرَاءُ
لا يَخَاف المُثْرِي ولا كَلْبَه الضَّارِيْ	ولا لامْرِىءٍ بِه اسْتِهْزَاءُ

أمَّا سماءُ «المظلوم»، فهي في نظر ابي ماضي، ارض تشبه أرْضَنَا، وَلكنّها تختلف عنها ببعض مبادئها وشرائعها. فلا أنانيَّة مسيطرة على قلوب سكَّانها، ولا حقد، ولا بغضاء، ولا اقوياء يتحكمون برقاب الضُّعفاء، ولا سيّد، ولا مَسُوْد ولا ظالِمِ ولا مظلوم، بل الكُل متساوون في الحقوق والواجبات وما يملكه أيُّ انسان. يملكه الجميع معه. حتى ولو كان من المُحَرَّمَات. فلوانه قُيِّضَ لهذه المبادئ التي بشَّرَ بها ابو ماضي، أن تسود على ارضنا هذه، لاختلط فيها الحابل بالنَّابلِ ولم يعد الابن يَعْرِفُ أباه ولا الأمّ تعرف طِفلها، ولا الشقيق يعرف شقيقه. فنعود تَبَعاً لذلك القهقرى إلى عصور ما قبل التاريخ حيث كان للمَرأة الحق كل الحَق بالزواج بعدد لا يستهان به من الرجال والارض وما فيها مِنْ أعشاب وكهوف، وجبال، وانهار للكل مُلْكٌ حلال. ففي اعتقادي ان هذه المبادىء الجريئة التي راح يُبَشِّر بها أبو ماضي من خلال قصيدته الهمزية هذه ليست كلها من بنات افكاره بل هي وليدة «نَفْسه» التي شاء ان يظل حابسا لها زمنا ليس باليسير في قفص الصلصال الذي صُنِعَ منه جسده وجسد كل انسان. فهذه المبادئ وامثالُها لا يمكن لها في نظرنا ان تَسُود أو تُزْهر، مثمرةً ثماراً يانعة الا في أخْيلَة الشعراء وحدَهم، ولَدَى أصحاب التهتك والمُجُون: (٢)

(١) الجداول ص ٢٤.
(٢) الجداول ص ٢٥.

وهي عِنْد «المظلوم» أرضٌ كَـهْـ ذي الأرض لَكن قد شاع فيها الرَّخاءُ
لا ضَـعـيفٌ مُـسْـتَـضْـعَـفٌ لا قَـويٌّ مُـسْـتَـبِـدٌّ، بـل كُلُّهُمْ أكْـفَـاءُ
كُلُّ شَيءٍ لِـلْـكُـلِّ مِلْكٌ حَـلالٌ كُلُّ شَيءٍ فـيـهـا كـمـا الكُلُّ شاءُوا

و«الخليع» الماجن لم يؤمن في نظر ابي ماضي بوجود «السماء» إلاّ لإيمانه بوجود الحواري اللواتي يراهن يرقصن فيها رقصاتهن الايقاعية على انغام الجداول التي تتدفق منها الخمور المعتّقة ذات الالوان الشُعاعيَّة البرَّاقة فهي لا يوجد فيها كَبْتٌ ولا حرمان بل كُلّما تبتغيه «النفس» الأمَّارة بالسُوءِ، متوفر فيها، ومُبَاح. أمَّا اكبر إثم يرتكبه المقيم في جنة «ملذّاته» هذه هو قوله: هذا الامر الذي افعله حرام، وهذه الافعال التي افعلها هي الفحشاء بعينها. وَهذا القول قول خاطئ في نظر أبي ماضي، وذلك لأنَّه ليس بإمكان احد أعاقلا كان أم خليعا أنْ يحدِّد مفهومَ الفَضيّلة، والرذيلة مُبَيِّناً الفَرْق الواضح بينهما. إذا إنَّه لولا الفضيلة لما كانت الرَّذيلة، ولولا الرَّذيلة لمَا عرفنا للفضيلة أيَّة قيمة. فنحن قد نجد انفسنا في كثير من الأحيان نقُومُ ببعض الاعمال، ونأْتي ببعض الأفعال التي نعتقد بأنَّها افعال صالحة، واعمال فاضلة، وهي قد لا تكون صالحة، وفاضلة إلاّ في نظرنا وَحْدَنا أمَّا غيرُنا من الناس، فهو يراها أعمالا، وافعالا خاطئة، لا يجدر بنا الاتيان بها، لأنَّها منافية في نظره لبعض العادات أو التقاليد المتعارف عليها عِنْدَ شعب أو جيل دون الآخر. ونحن أيضا بدورنا نجد انفسنا في بعض الاحيان نُخَطِّئ سِوانا ونلومهم فيما يتعلق بالاعمال والافعال التي يقومون بها فما دام هذا الامر امرنا وامر الآخرين، وما دمنا عاجزين عن ايجاد مفهوم شامل ودقيق لكلمتي «الفضيلة» و «الرذيلة» فما علينا إذاً إلاَّ ان نقول ما يحلو لنا منْ كلمات وأنْ نفعل ما شئنا منْ افعال شَرْطَ ان تظلَّ ضمائرُنا مرتاحة كل الراحة بالنسبة لِمَا نقوله، ونعمله: (١)

وَهيَ عِند الخَليع أرضٌ تَميس الحُورُ فيها، وتَدْفق الصَّهْبَاءُ
كُلُّ ما النَّفسَ تَشْتَهية مُباحٌ لا حدودٌ لا جَفْوَةٌ لا إباءُ
اكبرُ الإثم قَولةُ المرء هذا الامرُ إثمٌ، وهذه فَحْشَاءُ
واذا لم يكن عَفافٌ وفِسْقٌ لم تكن حِشْمَةٌ ولا استِحْيَاءُ

(١) الجداول ص ٢٥.

لقد كان ابو ماضي في نظرنا يرتدي، وهو يُصَوِّر لنا سماء الراعي، والخليع الماجن، والرجل المظلوم، والأم المفجوعة بأولادها ثياب الشعراء، لا ثياب الفلاسفة الحكماء. وذلك لان الحكمة اذا ما طغت على الشعر افسدت ما له مِنْ رونق، وجمال، وتأثير في النفوس.

واننا لنجد ابا ماضي يَخْطُو في أشعاره الخيالية خطوةً أخرى، وذلك حينما نراه يصوِّر لنا تصويرا دقيقا طائفةً مِنَ الشعراء الذين يَرَوْنَ انفسهم يَمْشُونَ باجسادهم على الارض بينما أرواحُهُم تُحَلِّق بهم في عَنَان السَّماء فهم كُلَّما شعروا بالظَّمأ، وعزَّ عليهم ورود الماء، تصوروا وجود الجداول، والغدران، حولهم فيرتوُونَ منها بفضل تصورهم هذا لها كل الارتواء. يمرّ الناس بهم مشيحين بأوجههم عنهم، بسبب خلو خزائنهم مِن الذهب الرَّنَّانَ. وكل ذلك من غير ان يدركوا في قرارة انفسهم أنَّ هؤلاء المتصعلكين أمامهم، المشيحين عنهم بأوجههم هم صفوة اهل الارض بلا منازع وبأن «الحياةَ» قد اختارتهم وهم ابناؤها الاصفياء لكي يُبَلِّغوا للناس كافَّةً رسالتَها الانسانية الخالدة فقاموا بتبليغ هذه الرسالة الخَيِّرَة الى اصحابها، فكافأتهم الحياة من اجل ذلك بالخلود والبقاء خلود ذكرهم وبقاء أشعارهم، وذلك بعدما افنت أجسادهم في التُّراب: (١)

نَحْنُ، أَهْلَ الخَيَالِ، أَسعدُ خَلْقِ	اللّه حَتَّى في حالة الحِرْمَانِ
كم زَهِدنا بثروةٍ من نُضَارٍ	وقَنِعْنَا بثروةٍ مِنْ أَمَاني (٢)
نتراءى على الصعيد صعاليكَ	ولكِنْ أرواحُنَا في العَنَانِ (٣)
إنْ ظَمِئنا وعَزَّ أن نَرد	الماء رَوَانا تَصَوُّرُ الغُدْرَانِ
لا يَعُدُّ الوَرَى عَلَينا اللَّيالي	نحنُ قَومٌ نَعِيْشُ في الأَزْمانِ

---

(١) تير وتراب ص ٤٩ - ٥٠.
(٢) النُّضار: الذهب الفِضَّة.
(٣) العنان: السَّحاب.

لقد صَدَقَ ابو ماضي إذاً في قوله في عَجْز البيت الأخير، وذلك؛ لأنّه هو نفسه قد اضحى بعد موته، خالداً في ذاكرة الناس وذلك بِفَضل ما نظم لهم منْ اشعار، جَيِّدة تتعلق بهم، وبكيفيَّة حصولهم على سعادتهم المفقودة. وهي اشعار كم كنا نتمنى لو انها قيلت كلها في الانسان وما يلاقي، وما يفعل منْ خير أو شر خلال حياته في هذه الدنيا الفانية الزائلة، ولم يقل قسما كبيرا منها جاعلا موضوعها ذلك العالم المسمى بـ «عالم ما وراء الطبيعة» اذا ان الخوض في الحديث عن اسرار هذا العالم المجهول الواسع لا يخلو من مخاطر وخاصة اذا ما كان هذا الخائض شاعرا مرهف الاحساس، وليس فيلسوفا، متعمّقا في الفلسفة، عارفا كُلَّ المعرفة بالسُّبل المؤدية اليها من غير ان تزل به القدم، او يسمع لومة لائم، إنْ في حياته او بعد مماته.

وبعدما انهينا حديثنا عن آراء ابي ماضي فيما يتعلق بما وراء الطبيعة، سوف ننتقل للحديث عن بعض الموضوعات في شعره، وهي موضوعات يساعدنا تحليلها ودراستها على اكمال هذه الصورة النَّفسية التي حاولنا ان نرسمها لابي ماضي منْ خلال بعض اشعاره في هذا الفصل من فصول دراستنا عنه وهذه الموضوعات موضوعات ثلاثة في نظرنا ألا وهي:

١ - جَزَعه على شَبَابه.

٢ - حنينه إلى وَطَنه.

٣ - فَشَله في حُبِّه.

١ - جَزَعه على شَبَابه.

الشبابُ زَمن اللَّهو والمسرَّات، والرُّؤَى والاحلام العذبة. فمن أَضاعه اضاع اعذب ايام حياته، واجملها على الاطلاق. وقد لا يعرف أيُّ إنسان قيمة عهد الشباب الا بعدما يطأُ بقدميه عتبة باب الشيخوخة. فلنستمعْ إلى أبي ماضي وهو يقول متحسِّرا على انقضاء شبابه وذلك بعدما وجد نفسه قد بلغ الاربعين منْ عُمْره:[1]

(١) الخمائل ص ٩٩.

زَمَنَ الشَّبَابِ رَحَلْتَ غَيْرَ مُزَمَّمٍ وَتَرَكْتَ لِلْحَسَرَاتِ قَلْبِي الْوَالِهَا

وكان ابو ماضي قد نظم في عام ١٩٥٠م، قصيدته المشهورة التي مطلعُها :(١)

جُعْتُ وَالْخُبْزُ وَفِيْرٌ فِي وِطَابِيْ وَالسَّنَا حَوْلِي وَرُوحِي فِي ضَبَابِ

حيث نراه فيها يقول باكيا عهد شبابه، متحسرا اشد الحسرة على انقضائه :(٢)

أَقْلَتَتْ مِنِّي حَـلاوَاتُ الرُّؤَى عِنْدَمَا أَفْلَتَ مِنْ كَفِّي شَبَابِي

بِتُّ لا الإِلْهَامُ بَابٌ مُشْرَعٌ لِيْ، وَلا الأَحْلامُ تَمْشِي فِي رِكَابِي

اشْتَهِي الخَمْرَ وَكَأْسِي فِي يَدِيْ وَأُحِسُّ الرُّوحَ تَعْرَى فِي ثِيَابِي

جَفَّ ضَرْعُ الشِّعْرِ عِنْدِيْ وَذَوَى وَلَكَمْ عَاشَ لِمَرْيٍ وَاحْتِلابِ (٣)

ان ابا ماضي لم يقل قوله هذا، إلاَّ حينما وجد نفسه فجأة قد بلغ الستين من عمره. حيث راح يدرك في قرارة نفسه آنذاك بأن قريحته الفيَّاضة التي كانت تجود عليه بين الحين والآخر باعذب الاشعار وأرصنها، قد اضحت قريحة عاجزة عن ان تجعل الشعر طوع بنانها، والوحي والالهام يمشيان جنبا الى جنب معها، وكل ذلك بسبب تقدّم صاحبها في السِّنّ؛ وهو تقدم كان يقود خطاه، يوما بعد يوم، وسنة بعد سنة الى حيث توجد مهاوي الابدية التي كتب على كل انسان أشاعراً كان أم غير شاعر أن يسقط فيها إِن آجلا أو عاجلا. حتى الاحلام والرُّؤى حُرِمَ مِنَ التمتُّع بها؛ وهو يضع قدمه على عتبة الشيخوخة. وهو الذي كان يعيش في فترة شبابه بها ولَهَا. اذ كان يرى انه لا وسيلة للانسان لكي يحظى بسعادته الضائعة المفقودة في الحياة إلا وسيلة الطَّيران إليها على أجنحة منَ الوَساوسِ والرُّؤى والاحلام العذبة، وأيّة رُؤًى واحلام عذبة تبقى في مُخَيَّلَة كل من تجاوز الستين من عمره. ومما يجدر ذكره أنَّ أبا ماضي قد قال هذه الابيات بعد ما تقدَّم به العمر، وبعدما وجد أيضا الثروة التي ظل يعمل جاهدا طوال حياته في سبيل الوصول إليها قد اطلَّت عليه اعلامها التي اصبحت مطوية بين يديه. ولَكِنْ أَنَّى له أن يَتَمَتَّعَ بها بعد الآن وهو

---

(١) تبر وتراب ص ٧٤.
(٢) تبر وتراب ص ٧٥.
(٣) مَرَى يَمْرِي مَرْياً الناقة : مَسَحَ ضَرْعها لتدُرَّ.

لقد صدَقَ ابو ماضي إذاً في قوله في عجز البيت الأخير، وذلك، لأنه هو نفسه قد اضحى بعد موته، خالداً في ذاكرة الناس وذلك بفضل ما نظم لهم من اشعار، جيّدة تتعلق بهم، وبكيفيّة حصولهم على سعادتهم المفقودة. وهي اشعار كم كنا نتمنى لو انها قيلت كلها في الانسان وما يلاقي، وما يفعل منْ خير أو شر خلال حياته في هذه الدنيا الفانية الزائلة، ولم يقل قسما كبيرا منها جاعلا موضوعها ذلك العالم المسمى بـ «عالم ما وراء الطبيعة» اذا ان الخوض في الحديث عن اسرار هذا العالم المجهول الواسع لا يخلو من مخاطر وخاصة اذا ما كان هذا الخائض شاعرا مرهف الاحساس، وليس فيلسوفا، متعمّقا في الفلسفة، عارفا كلَّ المعرفة بالسُبل المؤدية اليها من غير ان تزل به القدم، او يسمع لومة لائم، إنْ في حياته او بعد مماته.

وبعدما انهينا حديثنا عن آراء ابي ماضي فيما يتعلق بما وراء الطبيعة، سوف ننتقل للحديث عن بعض الموضوعات في شعره، وهي موضوعات يساعدنا تحليلها ودراستها على اكمال هذه الصورة النّفسية التي حاولنا ان نرسمها لابي ماضي منْ خلال بعض اشعاره في هذا الفصل من فصول دراستنا عنه وهذه الموضوعات موضوعات ثلاثة في نظرنا ألا وهي:

١ - جَزَعه على شبَابه.

٢ - حنينه إلى وَطَنه.

٣ - فَشَله في حُبّه.

١ - جَزَعه على شبَابه.

الشبابُ زَمن اللّهو والمسرّات، والرُّؤى والاحلام العذبة. فمن أَضاعه اضاع اعذب ايام حياته، واجملها على الاطلاق. وقد لا يعرف أيُّ إنسان قيمة عهد الشباب الا بعدما يطأ بقدميه عتبة باب الشيخوخة. فلنستمعْ إلى أبي ماضي وهو يقول متحسّرا على انقضاء شبابه وذلك بعدما وجد نفسه قد بلغ الاربعين منْ عُمْره:(١)

---

(١) الخمائل ص ٩٩.

زمن الشباب رحلت غير مُذمَّمِ وتركت للحسرات قلبي الوالها

وكان ابو ماضي قد نظم في عام ١٩٥٠م، قصيدته المشهورة التي مطلعها:(١)

جُعْتَ والخبزُ وفيرٌ في وطابي والسَّنا حَوْلي وروحي في ضباب

حيث نراه فيها يقول باكيا عهد شبابه، متحسرا اشد الحسرة على انقضائه:(٢)

أفلَتتْ مني حلاواتُ الرُّؤى عندما أفلَتَ من كفّي شبابي

بتُّ لا الإلهامُ بابٌ مُشرَعٌ ليَ، ولا الأحلامُ تمشي في ركابي

أشتهي الخمرَ وكأسي في يدي وأحسُّ الرُّوحَ تَعْرى في ثيابي

جَفَّ ضَرْعُ الشِّعرِ عندي وذوى ولكم عاشَ لِمَرْيٍ واحتلابِ (٣)

ان ابا ماضي لم يقل قوله هذا، إلاَّ حينما وجد نفسه فجأة قد بلغ الستين من عمره. حيث راح يدرك في قرارة نفسه آنذاك بأن قريحته الفيّاضة التي كانت تجود عليه بين الحين والآخر باعذب الاشعار وأرصنها، قد اضحت قريحة عاجزة عن ان تجعل الشعر طوع بنانها، والوحي والالهام يمشيان جنبا الى جنب معها، وكل ذلك بسبب تقدّم صاحبها في السّنّ؛ وهو تقدم كان يقود خطاه، يوما بعد يوم، وسنة بعد سنة الى حيث توجد مهاوي الابدية التي كتب على كل انسان أشاعراً كان أم غير شاعر أن يسقط فيها إن آجلا أو عاجلا. حتى الاحلام والرُّؤى حُرِمَ منَ التمتُّع بها؛ وهو يضع قدمه على عتبة الشيخوخة. وهو الذي كان يعيش في فترة شبابه بها ولَهَا. اذ كان يرى انه لا وسيلة للانسان لكي يحظى بسعادته الضائعة المفقودة في الحياة إلا وسيلة الطَّيران إليها على أجنحة منَ الوَساوس والرُّؤى والاحلام العذبة، وأيَّة رُؤى واحلام عذبة تبقى في مُخَيِّلَة كل من تجاوز الستين من عمره. ومما يجدر ذكره أنَّ أبا ماضي قد قال هذه الابيات بعد ما تقدَّم به العمر، وبعدما وجد أيضا الثروة التي ظل يعمل جاهدا طوال حياته في سبيل الوصول إليها قد اطلَّت عليه اعلامها التي اصبحت مطوية بين يديه. ولكنْ أنَّى له أن يَتَمتَّع بها بعد الآن وهو

---

(١) تبر وتراب ص ٧٤.

(٢) تبر وتراب ص ٧٥.

(٣) مَرَى يمري مَرْياً الناقة : مَسَحَ ضَرْعها لتدُرّ.

يحس بأن اطراف انامله قد بدأت ترتعش، ارتعاشا خفيفا مذكرة إياه بقرب دنو أجلِه.

واننا لنجد بعض الشعراء، او الكتاب يكتبون، وينظمون افضل اعمالهم الادبية والشعرية بعد ان يكونوا قد تجاوزوا الخمسين منْ العُمْر. أمّا ابو ماضي فهو قد كان على العكس من ذلك اذ نراه ينظم افضل قصائده حينما كان في مستهل شبابه، وقبيل شيخوخته التي وجد، بعدما بلغها، ضرع الشعر يجف، فعْلا عنده إلى حَدٍّ أنَّ قريحته لم تعد تجود عليه كعهدها الا ببعض القصائد والمقطوعات المتوسطة وذلك في بعض الحفلات التكريمية والاعياد الوطنية. ودليلنا على ذلك ديوانه الاخير الذي كان قد قرَّر قبل وفاته بسنوات قليلة، أن يجمع مواده، أملاً أنْ يخرجه الى حَيِّز الوجود قبل ان تعاجله المنيّة. ولكنه لم يتمكن من تحقيق رغبته هذه، وذلك، ليس بسبب ضيق ذات يده بل بسبب شعوره بأن مستوى القصائد والمقطوعات الموجودة في ديوانه هذا ليست بمستوى القصائد الموجودة في ديوانيه «الجداول» «والخمائل»؛ من حيث صياغتها اللفظية والمعنوية وهذا الديوان الذي احجم ابو ماضي في أواخرِ حياته عن طبعه قد طبعه بعد موته شقيقه الاكبر مُراد ابي ماضي، وقد جعل عنوانه «تبْر وتراب» وذلك بناء على رغبة شاعرنا ابي ماضي نفسه الذي كان قد اختار بنفسه هذا العنوان بالذات لديوانه الأخير هذا.

٢ ـ فشله في حبه

اجتاز ابو ماضي قبل زواجه عددا غير قليل من التجارب العاطفية القاسية. حيث كان يخرج منها في كل مَرَّة صحيحاً سليما معافًى، إلا تجربة واحدة فقط من بينها وهي تجربة كادت ان تصيب منه مقتلا، حقّاً، جاعلة منه احد الشعراء العشاق الكبار الباكين فراق المحبوبة الظالمة، المتألمين من جراء صدها المتعمد لَهم؛ وكل ذلك من غير أي ذنب اقترفوه بحقها سوى ذنب محبتهم العميقة البريئة لها. وقد تمكنت من أن ألقي الاضواء الكاشفة على احدى تجارب ابي ماضي القاسية في الحب. وذلك بعدما وجدت نفسي امعن النظر في كلمات قصيدته المنشورة في ديوانه الخمائل تحت عنوان «أنتِ والكأس» (١). وهي قصيدة قد شاء ابو ماضي ان يتحدَّث فيها

---

(١) الخمائل ص ١٤٦.

بطريقة عفوية عن محبوبة له حسناء، جعل منها سماءه في الهوى، وكان قد ملّكها قلبه، واوكل اليها أمر قيادة سفينته في بحر «الحُبِّ» الزاخر الطّامي، فما كان منها بدورها الا ان راحت تبادله، ولفترة طويلة من الزمن حبّاً بحب وكلاما معسولا مُزوّقاً بكلام افضل واحلى واعذب إذْ كان يراها تشيح عنه بوجهها مُدَّعِية بأنّه مُحبٌّ «رَديء» حقا وذلك كلما وجدت الشكوك تطوف برأسه، فيما يتعلق بصدق مودّتها له. كما كان الخصام ينتهي بينهما كلما كان ثغره [٢] «يلتقي بثغرها الصَدِيْ» وحينما خطر له لدى التقائه بها ذات مرة ان يسألها ما اذا كانت ستظل محبة، ووفية له، إذا ما حنى الدهر قامته، او خسر ثروته، او امتدت يد الرَّدى اليه لتغتاله، ووَجَدت نفسها تمر به؛ وهو في قبره، كما لو كانت تمر بـ «جَلْمَدٍ» [٣] فَوجدها تستشيط غضبا من جَرَّاء اقواله هذه لها وتصيح به بعد ذلك وهي مذعورة: وَيْكَ، «أيُها الزائغ اهتد»؛ [٤] فأنْتَ أنْتَ وحدك لا مجدك ولا ثروتك مقصدى ومطلبي وانني أشْهدُ على صحة ما اقول لك: «الله» و «الارض» و «السماء» و «الغيث» و «المطر». وبعد ان صمتت برهة وجدها تستطرد قائلة له: فاذا ما رأيتك بعدتَ عنّي وانتَ مجبر على الابتعاد فلسوف ارغم اجفاني على الرقاد لكي يظل طيفك «يطرق مرقدى» كعهده وأمّا ما اطلبه منك الان فهو الا تظن بي الظنون السيّئة فيما يتعلق بصدق محبتي لك بعد الآن. وقد ظل ابو ماضي فترة غير قصيرة مصدقا كل التصديق ما قالته له محبوبته تلك؛ وهو يعيش اسعد ايامه؛ لانه كان يقضيها بقرب محبوبته هذه، وفجأة وجد محبوبته تلك تتخلى عنه تاركة إياه يندب لوحده بعد مفارقتها له حظه العاثر معها، ففزع ابو ماضي حينذاك الى كؤوسه وراح يملأها بالخمور، ويقرِّبها من شفتيه ليَعُبَّ ما فيها من خمر معتّقة قاصدا بواسطتها نسيان احزانه وآلامه التي خَلّفها في صدره فراق محبوبته الغادرة تلك. وقد راحت الاحزان تتضاعف في اعماقه وذلك حينما تَبيَّنَ له فيما بعد «بأنها» قد اصبحت في يد غير يده [٥] فراح تَبَعاً لذلك يطلب من العازفين أن يعزُفوا على مسمعه لحن حبه الضائع هذا كما راح يتوسل أيضا للمنشدين المغنِّين من حوله لِكَيْ يُنْشِدُوا ويغَنُّوا له اغاني، واناشيد اللوعة، والفراق، عَلّهم يتمكّنون بذلك من ان يطردوا من مخيلته

---

(٢) الخمائل ص ١٤٦.
(٣) الخمائل ص ١٤٨.
(٤) الخمائل ص ١٤٩.
(٥) الخمائل ص ١٥٠.

اشباح آلام اللوعة، والفراق؛ فِراق المحبوبة لمحبوبها على هذه الصورة الغريبة المُستَهْجَنَة المنكرة؛ وهو فراق نجد أبا ماضي يذكر بانه قد وقع له قبل «ليلتين» فقط من تاريخ كتابته لقصيدته الدالية الطويلة هذه التي بلغ عدد ابياتها اكثر من ستين بيتا. وذلك بدليل قوله في نهايتها:(١)

إنَّمـــــا تـلـك أَخْلَـفَـتْ ... قـــبـلَ لَيـلَـيْـنِ مَـــوْعِـدي
لـم تَـمُـتْ لا وإنَّـمـــــا ... أَصْـبَـحَـتْ في سِـــوى يَدِي

إنَّ محبوبة أبي ماضي التي جعلها عروسة قصيدته الدَّالية هذه والتي لم يشأ ان يذكر اسمها بصراحة، هي نفسها في نظرنا محبوبته «هِنْد» التي جعلها عروسة قصيدته التي بعنوان «الغابة المفقودة»؛ وهي قصيدة كان قد نشرها لأوَّل مرَّة في مجلَّته «السَّمير» بتاريخ ٥ تشرين الأوَّل ١٩٣١م، حيث نجده فيها يحدِّثنا عن تلك الايام العَذْبَة الجميلة، والرحلات الخلوية المُمْتِعة التي كان يقوم بها ومحبوبته تلك الى احدى الغابات، وذلك قبل إن تصبح «في سوى يده» إذْ نَجده يستهل قصيدته هذه قائلا:(٢)

يا لَهْـفَـةَ النَّفس على غَـابةٍ ... كُنْتُ وهِنْدا نَلتَـقي فـيْـهـا
أنا كـمـا شـاء الهـوى والصِّبـا ... وَهْيَ كـمـا شـاءَت أمـانيْـهـا
نبـاغِتُ الأزهارَ عند الضُّحى ... مـتكآتٍ في نَوَاحِـيْـهَـا
لـلَّهِ في الغـابةِ أيَّا مُنا ... مـا عـابَهـا إلاَّ تلاشِـيْـهَا
طوراً علينا ظلُّ أدْواحِـهـا ... وتـارَةً عطفُ دَوَالِيْـهـا
وتـارةً نَلْهُـو بأعنابهـا ... وتـارَةً نُحْـصِيْ أَقَـاحِـيْـهَا
وإنْ تضَاحكنا سَـمِـعْنَا الصَّدَىٰ ... يَضْحَكُ مَـعْنَا في أقـاصِـيْـهـا

وبعد ان وصف أبو ماضي تلك الغابة، وما يوجد فيها من مناظر خلاَّبة، فَتَّانة، وازهار واقاح مُنَوَّره، استطرد ذاكرا ما كان يجري بينه وبين محبوبته تلك التي سَمَّاها «هندا» منْ مداعبات، وافعال بريئة، قد لا يفعلها الا من كان يمر بسنوات

---

(١) الخمائل ص ١٥١.
(٢) الخمائل ص ١٥٦.

المراهقة من عمره إذ كان يراها تارة تهرب منه، وتخفي نفسها خلف احدى الاشجار، مغرية إيّاه بالركض خلفها والبحث عنها، وطورا كان يهرب بدوره منها فتتعالى اصوات الاستغاثة به من فمها وما ان يقترب منها ويمدّ نحوها يده حتى يجدها تَنسَلُّ مبتعِدَةً عنه، وهي تقهقهُ قَهْقهات الفَرَح والسُّرور: (١)

نسيرُ مِنْ كَهْفٍ إلى جَدْوَلٍ	نكتشفُ الأرضَ وَنطويْهَا
وتَخْتبي هِنْد فاشتاقُها	واختبي عنها فأُغْريهَا
كَمْ اوهمتني الخوفَ مِنْ طارئٍ	تَشْجي بذا نَفسي فَتَشجيْها
فرحتُ أعدُو نحْوِهَا مُشْفِقًا	فكانَ ما حاذرتُ تَمْويْهَا
فاعْجَبُ لأطْواري وأطوارِها	تعبثُ منِّي وأُجاريهَا

اما سَبَبُ نظم أبي ماضي لهذه القصيدة، فهو يعود الى كونه قد زارَ في أحَد الأَيَّام تلك الغابة التي كان يلهو فيها في بعض الاحيان مع محبوبته هنْد تلك، وذلك بعد أنْ كان قد انحرم مِنْ زيارتها سنوات عديدة لاسباب قاهرة. فوجد الانسان الظالم قد شيَّد فيها مدينة له بعد ان فتت بالبارود صُخُورها، وقطع اشجارها، وأذبل أزهارها؛ وهي مدينة احتوت منازلها الكثيرة على منزل لهِنْدٍ وأهلها. ودليلنا على ذلك قول ابي ماضي نفسه في تضاعيف قصيدته هذه: (٢)

اهبطني أمْسِ إلى حضْنِهَا	شَوْقِيْ إلى سَجْعِ قَمَاريْها
فَلَمْ تُخَمِّشْني بأوْراقِها	ولم تُهَلِّلْ ليْ سَوَاقِيْهَا
قد بَدَّلَ الإنسانُ أطوارَها	واغتصبَ الطَّيْرَ مآويْهَا
وَفَتَّ بالبارُوْد جُلْمُودَها	واجْتَثَّ بالفأسِ دَوَاليْهَا (٣)
وشادَ مِنْ أَحْجارِها تُرْبَةً	سُكَّانُها النَّاسُ وأَهْلُوهَا

(١) الخمائل ص ١٥٨.
(٢) الخمائل ص ١٥٩.
(٣) الجلمود: الصخر.

فباستطاعتنا أنْ نقول بأنَّ هذه الغابة التي كان ابو ماضي، يَسْرَحُ وَيَمْرَحُ فيها مع محبوبته هذه قد كانت واقعة على نهر الدّلوار قرب قرية اسمها «مِلْفَرِدْ» وهذه القرية هي احدى قرى ولاية «الدّلوار» في اميركا الشّمالية. وكان ابو ماضي معجباً اشدَّ الاعجاب بما يوجد في تلك القرية الجميلة منْ مناظر خلاَّبة ومفاتن ساحرة للعين إذْ نجده يُلَقّبها منْ أجل ذلك بِلَقَبُ أُمَّ القُرَى.

ودليلنا على ما نقول قوله في قصيدته التي نظمها بعنوان «أمُ القُرَى» والتي نشرَها لأوَّلِ مَرَّة في جريدته «السّمير» بتاريخ ١٣ تموز سنة ١٩٤٤م: (١)

هذهِ مِلْفَــرِدُ قــد لاحَتْ رُباهَا	فــانسَ يا قَلْبُ اللّيــالي وأذاهَا
ذَهَبَتْ عِـشْـرون في فُـرقَـتِـهـا	لِيْتَـهـا فـيـهـا انْقَضتْ لا في سِوَاها

فمن خلال قول أبي ماضي في البيت الثاني نستشف إذاً بأنّه قد قام بزيارته هذه لـ«ملفرد» التي كانت أُمَّ القُرَى في نظره بعد ان كان قد مضى على فِراقه لها آخرِ مَرَّة أكْثَر من عشرين عاماً.

وهو لم يندم على مفارقته لها طوال هذه المدة لكونها قد كانت فقط جميلة المناظر، خَلاَّبةً بل ندم على مُفَارقتها بعدما استعاد في ذاكرته أيَّامه الحُلْوة التي كان قد امضاها فيها برفقة محبوبته «هِنْد» تلك، التي ظَلَّ حُبَّه العميق الصادق لها، مُقيْما في اعماق اعماقه، طوال هذه المدَّة الطويلة: (٢)

كَمْ جَلَسْنَا تَحْتَ صَـفْـصَـافـاتِهَـا	أشْـتكي وَجْـدِي وتـشكُوْ ليْ هَوَاهَا
والسَّـواقي اسـتـتـرتْ إلاّ غِنَاهَا	والرَّوابي هَجَــعـتْ إلاَّ شَــذَاهَا
نـتـنـاجَـى ويَـدي فـي يَـدِهَـا	فــإذا لاح خــيــالٌ نَتَــلاهَى
أنا دُنْيــا مِن شَـبَــابٍ وَهَوى	وَهْيَ كـالرَّوْضَـة قـد تَمَّتْ حُـلاهَا
أُحسَنُ الأَيَّام في العمـر انقـضتْ	آهِ لو يَنْشُــرُهـا مَنْ قــد طوَاها

أنَّى لأبي ماضي ان ينشر هذه الايام التي قضاها في قرب مِلْفَرْد، وذلك في عام ١٩٣٤م وهو قد كان مكرها إكراها على الإقامة في مدينة نيويورك، بسبب وجود

(١) تبر وتراب ص ٥٥.
(٢) تبر وتراب ص ٥٦.

جريدته «السمير» فيها. فهو قد كان يشعر خلال اقامته في نيويورك بأنّه مجرد طيف شارد فيها، مع ملايين «الطُيوف» من سكّانها الحائرين، الباحثين عن الثروة والسّعادة فيها. إذ أشبهت حالهم حالة النعاج الجادة في طلب العشب التي كلّما اوشكت ادراكه، وهو امامها، تجده قد اصبح فجأةً خلفها؛ بعيدا عن متناول يدها![1]

صِرْتُ في نيويوركَ طَيْفاً شارداً — مَعْ طُيوفٍ حائراتٍ في سُراها
طَرحتْ عنها رُؤاها ومَضتْ — تنشُد المَجدَ الذي فيه شقاها
كنِعاجٍ غَمِيَتْ أبصارُها — ووهت في طَلَبِ العُشْبِ قُواها
كُلّما جَدّتْ لكي تُدرِكَهُ — وجَدَتْهُ صارَ في الأرضِ وراها
أينَ في نَفْسي رُؤًى تُسْعِدُها — سَرَقتْ نيويوركُ مِنْ نَفْسي رُؤاها
في يَدِيْ أمْري ولا أمْلِكُهُ — ومَعِي ذاتي وأخْشَى أنْ أراها

وكما استطعنا بواسطة الأدلّة والبَراهين أن نَعْثُرَ على تاريخ السّنة التي مرّ فيها أبو ماضي بتجربته العاطفية القاسية هذه ألاَ وهي سنة ١٩٢٤م؛ وهي تَجْربة قد ظلّ لها مُتَذكّراً سنوات عديدة بعد انقضائها؛ باستطاعتنا أيضا ان نشير الى خطأ غير متعمد وقع فيه ناشر ديوان ابي ماضي الذي توجد فيه هذه القصيدة ألا وهو الديوان المسمى «بتبر وتراب». اذ نَجِد ناشرَه يحدّد المكان الذي توجد فيه قرية ملفرد هذه بقوله: «هي مِلْفرد في ولاية بنسلفانيا حيث اقام الشاعر في صِبّاه وخطب فتاة احلامه، وعاد إليها في فصل الشتاء». ونحن بدورنا لم نجد في ولاية بنسلفانيا اية قرية او مدينة تحمل اسم مِلْفَرد ولكننا وجدنا ان ملفرد هذه تقع في ست ولايات اميركية، ألاَ وهي: نيُو همشير (New Hammshire) وكنتاكي (Kentacky) ومِسْشِيستْ (Massachusetts) ودلِوار (Delaware) ونَبْراسكا (Nebraska) و يُوتا (Utah) ففي أيّةِ ولاية من هذه الولايات الست كانت توجد مِلْفرد التي كان ابو ماضي نادما على مفارقته لها؟ انها في اعتقادى كانت موجودة ولا تزال في ولاية دلِوار (Delaware) وليس في ولاية كنتاكي(Kentacky) التي اقام أبو ماضي فيها عدة سنوات وذلك قبل انتقاله الى مدينة نيويورك ودليلنا على ما نزعم هذه

---

(١) تبر وتراب ص ٥٧.

الابيات الرائية التي نشرها أبو ماضي في جريدته السَّمير عام ١٩٤٤م. وقد انتقاها من ديوانه الثاني الذي كان قد اصدره عام ١٩١٩م. وقد قدَّمها لقراء جَريدته بقوله: قال صاحب ديوان «الجداول» مرَّة في قصيدة «ملِفرد» أمّ القُرَى مشيراً إلى نَهْر الدِّلوار:

ولقد وقفتُ حِيَالَ نَهْرِكَ بُكْرَةً ... والطَّيْرُ في الوَكُناتِ والأَوْكَار

مُتَهَيِّباً فكأنَّني في هَيْكَلٍ ... وكأنَّهُ سِفْرٌ مِنَ الاسفار

مَرَّ النَّسيمُ بِهِ فَمَرَّت مُقْلَتي ... مِنْهُ بأسطارٍ على أسْطَار

فالقَلْبُ مُشْتَغِلٌ بِتَذْكاراتِهِ ... والطَّرْفُ مُنْدَفِعٌ مع التَّيَّار

يا أُخْتَ دار الخُلْد يا أمَّ القُرَى ... يا رَبَّةَ الغاباتِ والأَنْهَار

لِلَّهِ يَوْمٌ فِيكَ قد قَضَّيْتُهُ ... مَعْ عُصْبَةٍ مِنْ خِيْرَةِ الانصَار

نَمْشِي على تلك الهِضَابِ ودُونَنَا ... بَحْرٌ مِنَ الأَغْراس والأَشْجَار

تَهْوِي الحِجَارَة تَحْتَنَا من حالقٍ ... ونكادُ أن نَهْوِيَ مع الأَحْجَار

ذاتَ الجِبال الشاهقاتِ إلى العُلا ... يا لَيْتَ في أعلى جِبالِكِ دَاري

لأرَى رُعَاتَكِ في المُروج وفي الرُّبَى ... والشاةُ سارحةٌ مع الأَبْقَار

لاراقِبَ الدِّلوار في جَرَيانِهِ ... وأرَى خَيَالَ البَدْرِ في الدِّلوار

فمن هُنَا يَتَبَيَّنُ لنا حَسْبما أوردنا مِنْ ادلة وبراهين أنَّ أبا ماضي قد مَرَّ بأوَّلِ تجربة عاطفية قوية في حياته، وذلك اثناء وجوده حوالي عام ١٩٢٤م. في قرية مِلفرد هذه الواقعة في ولاية الدِّلوار؛ وهي تجربة قد انتهت بالنسبة اليه نهاية غير سعيدة وذلك لأنَّه لم يتمكن مِنَ الزَّواج مِنْ تلك المحبوبة التي لم يشأ أن يذكر في قصائده التي تَغَزَّل بها، فيها، أسمها الحقيقي، بل سَمَّاها باسم هِنْد قصد التمويه والتَّعْمِيَةِ فقط. وأوْلَى تجارب الانسان العاطفية في حياته تعتبر أقْسَى وأخلد تجربة عنده إذ ليس بوسعه أنْ ينساها، أسَعيدة كانت أم غير سعيدة؟ طوال حياته مهما مَرَّ بعدها بتجارب أُخرى كثيرة.

أمَّا أجمل ما قاله ابو ماضي من أبيات غزلية فهو قوله الذي رُزِقَ شهرة واسعة، وقد قاله فيما يبدو لنا بعدما تجاوز الاربعين من عمره: (١)

(١) الخمائل ص ١١٩ - ١٢٠.

لَمَّـا رأيتُ الوَرْدَ في خَـدَّيْكِ ... وشقائقَ النُّعْمانِ في شَفَتَيْكِ
وتنشَّقتُ من فَوْدَيْك نَدًى عاطِراً ... لَمَّا مشتْ كَفَّاكِ في فَوْدَيْكِ
ورأيتُ رأسَكِ بالأقاحِ مُتَوَّجاً ... والفُلَّ طاقاتٍ على نَهْدَيْكِ
وسمعتُ حولك هَمْسَ أرْواحِ الصَّبا ... عند الصَّباحِ تَهُزُّ من عِطْفَيْكِ
ايقنتُ أنَّكِ جَنَّةٌ خَلاَّبَةٌ ... فَحَنَنْتُ مِنْ بَعْدِ المَشِيبِ إلَيْكِ
رُوحي فِداؤكِ أنَّها لَوْ لم تكنْ ... في راحتَيْكِ هَوَتْ على قَدَمَيْكِ

وبعد أنْ تناولنا في هذه العُجَالة بالدِّراسة بعض قصائد ابي ماضي الغزلية، سوف ننتقل إلى دراسة موضوع لم يلتفت اليهِ الا قِلَّة قليلة مِنَ الدَّراسين الذين دَرَسُوا شعره ألا وهو موضوع الحنين الى الوطن الذي نجد أنَّه لا بد مِنَ الاشارة اليه اشارة ولو خاطفة سريعة وذلك قبل أن نضع الفُرْشاة التي حاولنا ان نرسم بواسطتها في هذا الفصل من دراستنا، صورة واضحة المعالم لشخصية ابي ماضي الشاعر المُبْدِع الخَلاَّق، وذلك مِنْ خلال بعض أشعارهِ..

٣ ـ حنينه الى الوطن

كان ابو ماضي يعيش بجسده في نيويورك أمَّا روحه فقد كانت محلِّقة دائما وابداً في سماء وطنه الأوَّل لبنان الذي كان قد فارقه لأوَّلِ مرَّة؛ وهو لم يبلغ بعدُ الحادية عشرةَ من عمره. حيث كان كلما وجد سائلا يسأله عَن موطنه الاصلي يرد عليه قائلا بفخر واعتزاز: [١]

أيُّهـا السَّـائلُ عنِّي مَنْ أنَا ... أنا كالشَّمس إلى الشَّرق انتسابي
لغـةُ ألفـولاذِ هاضَت لُغَـتي ... لا يعيشُ الشَّدْوُ في دنيا اصطِخابِ
رَبِّ هَبْنِي لبـلادي عـودةً ... وليَكُنْ للغيـرِ في الأُخْرَى ثَوابي

وهو القائل أيضا في هذا المعنى بالذات: [٢]

(١) تبر وتراب ص ٧٥ ـ ٧٦.
(٢) الخمائل ص ٩٩ ـ ١٠٠.

وَمليحةٍ في وَجْهِها أَلَقُ الضُّحَى والسِّحْرُ والصَّهباءُ في أقوالها
قالتْ أينسى النازحُونَ بلادَهُمْ ما هَاجَ حُزْنَ القَلْبِ غَيرُ سُؤالِها
الأرْضُ سُورِيًا أحَبُّ رُبُوعِهَا عِنْدِيْ، ولبنانُ أعَزُّ جِبالِهَا
تشتاقُ عَيْني قَبْل يُغْمِضُها الرَّدَى لو أنَّها اكتحلتْ ولو برِمالِهَا

إنّنا نستشف منْ خلال قول ابي ماضي في البيت الأخير منْ أنه قد ظلّ يعمل جاهدا طوال حياته، لكي يتمكن منْ أنْ يعود إِلى وطنه، ليقضي في ربوعه السنوات المتبقيّة له من حياته. حتى انه قد راح في أواخر حياته يفكر بنقل مطابع جريدته «السَّمير» إلى لبنان لكي يُصْدرَها فيه بَدَلاً منْ أن يُصْدرها في نيويورك. وَلَكنَّ المنيَّة عاجلته قبل أن يتمكن من تحقيق رغبته الغالية تلك على قلبه. حيث نراه، وذلك بالرغم من الثروة التي حصل عليها في أواخرِ حياته، والشهرة التي نالها بفضل أدبه واغترابه، معتبرا نفسه «نازحاً» عن وطنه لبنان نزوحاً قسْريّاً.

ولله درّ ابي تمام، وذلك حيث قال: (١)

نَقِّل فُؤَادَكَ حيث شِئْتَ منَ الهَوى مَا الحُبُّ إلاَّ للحَبِيْبِ الأوَّلِ
كَم مَنْزِلٍ في الأرضِ يأْلَفُهُ الفَتَى وحنينُهُ أبداً لأوَّلِ مَنْزِلِ

ولقد كان أبو ماضي كُلَّما وجد فرصة سانحة في إِحدى المناسبات التكريمية، يذكّر ابناء قومه بوطنهم الأوَّل، حاثا إِيَّاهم على العمل من اجل رُقِيِّه وتقدّمه. وهو حينما وجد رَهطاً من الاصدقاء يقيمون في مساء الثامن والعشرين من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٣١م حفلة وَداعية تكريميّة لأحد المهاجرين الذين سمحتْ لهم الاقدار بالعودة الى لبنان، وقف في تلك الحفلة والقى فيها قصيدته المشهورة التي مَطْلَعُها: (٢)

إثنانِ أَعيا الدَّهرَ أنْ يُبْلِيَهُمَا لبنانُ والأَملُ الذي لِذَوِيهِ
نشتاقُه والصَّيفُ فوقَ هِضَابِهِ ونُحِبُّهُ والثَّلْجُ في وادِيهِ
وإذا تَمُدّ له ذُكاءُ حِبالَهَا بقلائدِ العِقْيانِ تَسْتَغْوِيهِ (٣)

---

(١) ديوان ابي تمام ص ٤٠٧.
(٢) الخمائل ص ١٤٢.
(٣) العقيان: الذهب الخالص.

وإذا تُنَقِّطه السَّمـاء عَـشِـيَّةً بالأنجُم الزّهراء تَسْتَرضِيهِ

وإذا الصَّبايا في الحُقول كَزهرِها يضحَكْن ضِحكاً لا تَكَلُّفَ فيهِ

هُنَّ اللّواتي قـد خَلَقْن ليَ الهوى وسَقَيْنَني السِّحرَ الذي أسقيهِ

ولربَّما جبلٌ أُشبِّهُهُ بهِ مسترسلاً مَعَ رَوْعةِ التّشبيهِ

فـأقـول يَحْكيه وأعلمُ أنّه مَهما سَمَا هَيْهات أن يَحْكِيهِ

وطَني سَتَبْقى الأرضُ عِندي كُلُّها حتّى أعودَ إليه أرضَ التِّيهِ

سألوا الجمالَ، فقال: هذا هَيْكلي والشِّعرَ، قال: بنيتُ عَرْشي فيهِ

إنَّ هذه الأبياتِ أبياتٌ خالدةٌ، وسرُّ خلودها يكمن في كون قائلها قد أراد أن يُعَبِّرَ منْ خِلالها عن صدق مَشاعِره تجاه وطنه، ومَحبته الصادقة العميقة له؛ لكي يبقى ويظل دائما وابدا وطنا سَيِّدا مستقلاً، شامخاً بأنفه إلى الاعالي مُتطَاولاً بقامته نحو صفحة السماء، لا تستطيع الرِّياح العاصفة، الهوجاء، مهما كانت قويَّة وسريعة أن تزحزحه من مكانه الذي هو موجود فيه قَيْد أنْمُلة، وسر خلوده عائد أوّلا الى ما يتمتع به ابناؤه من عزيمة قوية صُلْبة كالفولاذ. وثانيا الى ارضه التي اختارها الجمال خصيصا من بين سائر الاراضي في العالم لكي يبني عَرْشه فيها.

وابو ماضي، لم يكن فقط في بعض أشعاره، يحاول ان يتغنَّى بجمال وطنه، مظهرا فيها مشاعره الصادقة نحوه ونحو جميع ابنائه، بل كان ايضا يشارك جميع ابنائِه في افراحهم واتراحهم وذلك في اكثر مقالاته النثرية التي كان ينشرها تَبَاعا على صفحات مجلته ثم جريدته «السَّمير».(١)

ومهما يكن من امر، فإنَّنا قد لا نجد ابياتا تُعَبِّر عن نفسيَّة أبي ماضي خيرَ تعبير، لنتمم بها معالم هذه الصورة التي شئْنا أنْ نرسمَها له من خلال بعض اشعاره، سوى هذه الابيات التي نراه يصور فيها نفسيته الحَيِّرة الواعية الشاعرة وذلك من خلال تصويره لنفسية كل شاعر فذّ كبير مثله، وكأني به قد سمع هاتفاً يهتف قائلاً له: من هو الشاعر. فما كان منه إلا أن اجابه، بقوله:

(١) لقد ذكر لي الدكتور روبرت ابي ماضي ابن شاعرنا حين قابلته اثناء زيارتي لنيويورك عام ١٩٦٣ م. ان أكبر أمنية ظلت تراود مخيلة والده طوال حياته هي أمنية عودته الى وطنه لبنان لتمضية بقية حياته فيه برفقة أسرته. حيث كان كلما تَذَكّرَهُ أو ذكره أحد على مسمعه تغرورق عيناه بالدموع من شِدّة التأثُّر.

هو مَنْ تراهُ سائراً فوق الثَّرَى ... وكأنَّ فوقَ فؤادِهِ خُطواتِهِ

يَبْكِيْ مَعَ النَّائي على أوْطَانِهِ ... ويشارك المحزونَ في عَبَرَاتِهِ

وَتُغَيِّرُ الأيَّامُ قَلبَ فَتَاتِهِ ... وَيَظَلُّ ذَا كَلَفٍ بِقَلْبِ فَتَاتِهِ

هُوَ مَنْ يعيشُ لِغَيْرِهِ وَيَظُنُّهُ ... مَنْ لَيْسَ يَفْهَمُهُ يعيشُ لِذاتِهِ

الطلاسم

لجأ بعض الادباء الذين تناولوا قصيدة ابي ماضي المشهورة «الطّلاسم» بالشرح والتحليل، إلى الظّن والتّخمين؛ لافتقارهم الشّديد إلى الادلّة والبراهين. فها هو الدكتور بِشْر فارس يقول في معرض حديثه عنها: «ثم إنَّ أبا ماضي ما يدري أحديث العهد هو في الدنيا أم قديم؟ أمِنَ العَدَم مُكوَّن أم منَ المادّة؟ وإنك لتراه يناجي البحر، والمَقْبرة والقَصْر، والكوخ، والدَّير ملتمساً منها حَلَّ المسائل التي تَدقُّ على ذهنه فما يقتربُ منها جميعاً إلاَّ ليزداد بُعداً عن تلك الدقائق..» (١).

فأبو ماضي في نظرنا حينما كان يختم، متعمداً كل مقطع منْ مقاطع قصيدته الطويلة هذه بكلمة «لستُ أدري» كان قوله هذا من باب تجاهل العارف الموشك على الاقتراب من الحقيقة الخالدة، ألا وهي حقيقة الانسان - الذي لا يعرف سرّه إلاَّ اللّه - منْ أين جاء؟ والى أين سيذهب؟ وهل روحه خالدة أم فانية بفَنَاء جسده في التّراب. وهو لم يجهد عقله فقط في قصيدته «الطّلاسم» هذه بالبحث عن الجواب المقنع لتلك الاسئلة الغامضة التي حَيَّرَت وما تزال تحير عقول الفلاسفة والعلماء منذ اقدم العصور حتى عصرنا الحاضر بل تحدَّث فيها ايضاً عن رأيه الخاص في «سُكّان الصَّوامع». وكذلك حَدَّثَنَا فيها عَمَّا ينشأ في نفس كل انسان من «صِراع وعِراك» بين الشرِّ والخَير. حتى تلك الافكار السائحة المتنقِّلة من مُخَيَّلة الى مُخَيَّلَه ومن مكان الى مكان قد حاول ان يجد لها تعليلاً. وقد استعمل ابو ماضي في اكثر ابيات قصيدته الطويلة هذه اسلوب الرّمز والتَّوريَة والايحاء، وذلك خشية ان يُتَّهم

---

(١) السمير ١٥ حزيران ١٩٣٤م.

بالزَّندقة والالحاد. فهو قد كان كما نعلم صاحب جريدة اسمها «السَّمير» وقد كان ابناء الطائفة الارثوذكسية من المهاجرين اللبنانيين والسوريين في اميركا الشمالية يعتبرونها جريدتهم الناطقة بلسانهم، والمدافعة عن معتقدهم وآرائهم السياسية فكيف يسمح لنفسه إذاً صاحبها تَبَعاً لذلك ان يناقش مناقشة صريحة اموراً تتعلق بالانسان، وبمصير روحه بعد فَنَاء جسده في التراب !.

فها هو ابو ماضي يدلي برأيه الخاص في الرُّوح قائلاً:(١)

ليست الرُّوحُ سِوى هذا الجَسَدْ	مَعَهُ جاءَت ومَعَهُ تَرْجِعُ
لم تكن موجودةً قَبْلَ وُجِدْ	فلهذا حين يَمْضي تَتْبَعُ

ومثلما انكر وجود الروح قبل ان توجد في الجسد، انكر ايضاً عودة الانسان الى الحياة من جديد بعد موته:(٢)

غَلِطَ القائلُ أَنَّا خالدونْ	كُلُّنا بَعْدَ الرَّدَى هَيُّ بْنُ بَيْ (٣)
نحنُ لو كُنَّا كما قالوا نعودْ	لم تَخَفْ أَنْفُسُنَا رَيْبَ القَضَاءْ

ولقد شبّه أبو ماضي الرُّوح اثناءَ وجودها داخل جَسد الإِنسان، وهو حيٌّ يُرْزق بنور الشمعة المُتَّقِدَة، حيث نراه يقول في ذلك:(٤)

زَعَمُوا الأَرْوَاحَ تَبقى سَرْمَدَا	خَدَعُونا نَحْنُ والشَّمْعُ سَوَاءْ
يَلْبَثُ النُّورُ بها مُتَّقِدَا	فإذا ما احْتَرَقَتْ بادَ الضِّيَاءْ

فما دام الانسان، حَسَبَ زعمه، قد خُلِق مِنَ العدم فهو الى هذا العَدَم صائر أيضاً بعد موته: (٥)

أنا بَعْدَ الموت شيئاً لَن أكون	حَيْثُ أَنّي لَمْ أَكُنْ مِنْ قَبْلُ شَيَّا

وحينما بدأ ابو ماضي يفكر تفكيراً جِدِّيّاً لا عَفْوِيّاً بكيفية مجيء الإِنسان الى

---

(١) ديوان ابي ماضي الجزء الثاني ص ٩٤.
(٢) ديوان ابي ماضي الجزء الثاني ص ٩٣.
(٣) هي بن بي : اي مجهول لا يعرف هو ولا ابوه. ولست أدري أيّ هي بن بي هو. أي الناس هو.
(٤) ديوان ايليا ابي ماضي الجزء الثاني ص ٩٤.
(٥) ديوان ايليا ابي ماضي الجزء الثاني ص ٩٦.

هذا العالَم وكيف انه سيرحل عنه إنْ آجلاً او عاجلاً أيْقَنَ بفطنته، بالاضافة الى استناده على أقوال بعض الفلاسفة والعلماء، المُتَعَلِّقة بهذا الموضوع الغامض المُحَيِّر، بأنَّ الإنسان لم يأتِ الى هذا العالم من العَدَمْ، وبأنَّ مصيره بعد موته لن يكون الى التلاشي والاضمحلال اضمحلالاً كُلّيّاً في التُّراب:(١)

أُفكِّر كَيفَ جِئتُ وَكيفَ أمْضي — على رَغْمي: فَأعْيا بالجَوابِ
اتيتُ ولم أكُنْ أدْري مَجيئي — وأذْهَبُ غَيْرَ دارٍ بالإيابِ
اذا كانَ المَصيرُ إلى التَّلاشي — فلِمْ جِئْنا وكُنَّا في حِجابِ

وقد اخذت هذه الفكرة، ألا وهي فكرة عدم تلاشي الانسان بعد موته تلاشياً كُلّيّاً في التراب تزداد سنة بعد سنة رسوخاً في رأس شاعرنا، بحيث نجده ينشر في مجلته «السَّمِيْر» بتاريخ ١٥ تِشْرين الثاني سنة ١٩٣٠م، مقالاً، جعل موضوعه الإنسان، وما يوجد فيه من غرائب وعجائب وقد جاء في مقاله هذا قوله: «إنّه (أيْ الانسان) مَجْمَع الغرائب، وملتقى الأحاجي والاسرار، فيه منَ الحيوان شيء، ومن النبات شيء، ومن الجماد شيء... واعظم من هذا كُلّه فيه شيء من الإله، وهو بعد ذلك صائر إلى حيوان، ونبات، وجماد، أمَّا السِّر الذي فيه فلا رَيْب أنّه عائد الى رَبّ السِّرّ والجَهْر».

وإيمان ابي ماضي بأنَّ الانسان بعد موته سوف يعود فَيُولد من جديد إمَّا حيواناً او نباتاً تدب الحياة فيهما، اوجَماداً لا حِسّ عنده، ولا ادراك، فهو ايمان قد استقاه من بعض اقوال الفلاسفة القدماء الذين كانوا يقولون بأنَّ الانسان الفاضل بعد موته سيتحوَّل الى زهرة فَوّاحة العبير، واما الانسان الشِّرّير فسيتحوَّل بعد موته الى حيوان؛ كُلٌّ حَسَبَ اعماله وافعاله التي كان يعملها ويفعلها خلال حياته التي كان يحياها في عالمنا هذا. ودليلنا على ذلك أنّه قد كان كُلّما وقع نظره على شجرة عن كثب يحدِّث نفسه قائلاً: «فمن يدري ربما كان للشَّجر عقل وادراك،وَلَكِن لا ابيع معلوماً بمجهول!..»(٢) واذا ما توفيت امرأة فاضلة راح يرثيها بمثل قوله: ..«خلا القصر الفخم من المرأة التي كانت تملأ القصر انساً وابتساماً ولعل الله كان يريد ان يخلقها ريحانة فرأى من الخير ان يخلقها انسانة»(٣). وقد ورد في معرض

(١) ديوان ايليا ابي ماضي الجزء الثاني ص ١٧٣.
(٢) السمير ١٥ تشرين الثاني ١٩٣٠م.
(٣) السّمير ٩ كانون أول ١٩٥٣م.

حديثه عن ديوان صديقه الشاعر نُدْره حَدَّاد ما يلي: «وفي صاحبه (أيْ صاحب هذا الديوان) تواضع البنفسجة، ومن يدري ربما كان بنفسجة او غديراً قبل ان صار انساناً».(١)

حتّى طيور السماء فهي قد كانت تأنف في نظر ابي ماضي من أنْ تتحوَّل بعد موتها إلى إنسان «أوَّله نُطفة وآخره جيْفة (٢)» وحتى تلك الأعشاب النامية على القبور فقد سمعها ابو ماضي اثناء وجوده ذات يوم بقربها، تحدّث نفسها قائلة: «أيُّ فَرْق بيننا وبين الناس الذين كانوا هنا؟ إننا نَحْيَا، ونموت، وهم يحيون، ويموتون. هم منَ الأرْض وإليها ونحن منها وإليها..».(٣)

فهذه الاعشاب إذاً في نظر أبي ماضي هي والانسان على حَدّ سَوَاء من حيث الموتُ، والحياةُ. وما دام هذا الشأن شأنها فهي منه إذاً، وهو منها. ونظرية ابي ماضي هذه التي راح يُبَشِّرُ بها ليست نظرية خالصة له وحدَهُ بل استقاها، واستوحاها من نظرية العالم الانكليزي الطبيعي «دارون» الذي كان مؤمناً كل الايمان بنظرية التَّحوُّل هذه، تَحوُّل الانسان منْ شكل الي شكل آخر بعد موته. وهي نظرية اسهب دارون في حديثه عنها في كتابيه المشهورين «أصل الانواع» و«النشوء والارتقاء» والطريف في هذا الامر أن أبا ماضي لم يُرْجِع اكتشاف هذه النظرية الى دارون، وانما ارجعها الى العَلاّمة العربي المُفكِّر ابن خلدون الذي وُلد قبل دارون بحوالى ٤٠٠ سنة تقريباً. ودليلنا على ذلك مقاله الذي نشره في جريدة «السَّمير» بتاريخ ١١ أيار ١٩٣٦ حيث نراه فيه يقول: (٤).. «ولد تشارلس دارون سنة ١٨٠٩م من عائلة انكليزية ذات يُسْر اغنته عن السفر لكسْب العيش وامكنته أنْ يكرّس حياته للبحث والتبحُّر في العلوم ولا حاجة بنا الى سرد سيرته الشهيرة الآن ولَكنَّنا نعيد القول انه بين ١٨٣٦، ١٨٤١م اتته فكرة النشوء التدريجي الطبيعي من عالم النبات والحيوان. هذا ما كان من دارون وفكرته ولكن هل خطر لَكَ أنَّه مسبوق الى نظريته هذه وان الذي سبقه رجل عربي هو العلاّمة العربي الحضرمي القبيلة والتونسي المولد (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦م) العلاّمة والمؤرِّخ الفيلسوف عبدالرَّحمن بن خَلْدُون حيث دَوَّن في مقدّمته الشَّهيرة ما يأتي: «إعلم

---

(١) السمير ٢١ نيسان ١٩٤٢م.
(٢) السمير ١٥ تشرين الثاني ١٩٣٠م.
(٣) السمير ١٤ ايلول ١٩٤٠م.
(٤) انظر مقدمة إبن خلدون ص ٩٦.

أرشدنا الله وإيّاك ان تشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كُلّها على هيئة من الترتيب والإحكام وربط الاسباب بالمُسَبّبات واتصال الاكوان بالاكوان، واستحالة بعض الموجودات الى بعض، لا تنقضي عجائبه في ذلك ولا تنتهي غايته، ثم انظر الى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة من التَّدَرُّج، فآخر أُفق المعادن متصل باول أُفق النبات مثل الحشائش ومن لا بَذْر لهم، وآخر أُفق النَّبات، مثل النَّخل، والكرم، مُتّصل بأوّل أُفق الحيوان مثل الحَلزون والصَّدَف، ولم يوجد لهما الا قوة اللَّمْس فقط ومعنى الاتصال في هذه المُكَوَّنات ان آخر أُفق منها مستعد بالاستعداد القريب ان يصير أول أُفق الذي بعده ثم اتَّسَعَ عالم الحيوان وتعدَّدت انواعه وانتهى في تدريج الكون الى الانسان صاحب الفكر والرَّوِيَّة..»

ومن هنا يتبيَّن لنا أنَّ أبا ماضي قد كان مقتنعاً الى حَدٍّ ما بنظرية دَارْوِن القائلة بالنُّشوء التدريجي، الطبيعي للإنسان، من عالم النبات والحيوان وهو قد جعل من هذه النظرية اساساً بَنَى عليه صرح اكثر معاني قصيدته الطويلة المشهورة «الطّلاسم» التي عالج فيها عدةَ موضوعات، والتي نظمها كُلّها على بحر الرَّمَلْ وجعلها مشتملة على واحد وسبعين مقطعاً. كُلُّ مقطع منْ مقاطعها مُكوَّن من اربعة ابيات ومختوم بكلمة لست ادري وقد استهلها بقوله:(1)

جِئْتُ لا أَعْلَمُ منْ أينَ ولكنِّي أَتَيْتُ
ولقد أَبْصَرْتُ قُدَّامي طريقاً فَمَشَيْتُ
وسأبقى سائراً إِن شِئْتُ هذا أم أَبَيْتُ
كيف جِئْتُ كَيفَ ابصرتُ طَرِيْقي

لَسْتُ أدْرِيْ

إنَّ الانسانَ قبلَ أنْ يصبح إِنساناً سوياً، قد كان حيواناً، حَسَب نظرية داروِن. وانتقال الانسان من آخر أُفُق الحيوان الى أَوَّل أُفُق الانسان قد استلزم حِقَباً واجيالاً عديدة، بلغ مداها ملايين السنين. ودليلنا على ما نقول قولُ أبي ماضي نفسه في إِحدى مقالاته: (2) «فكّر قليلاً أيها القارئ، ولا تَنْسَ أنكَ تسير في هذه

(1) الجداول ص ١٣٩.
(2) السّمير أوّل أيّار ١٩٣٢م.

الدنيا الى عالم المجهول وانك تسير، لأنك عاجز عن الوقوف، وقُلْ لنا أيّ شيء هذا الذي نحن فيه أحُلم أم يَقْظة؟ وحقيقة أم خيال؟ وصدق أم محال؟».

فأبو ماضي قد كان إذاً مؤمناً بأن حياة الانسان على الارض تعتبر حياة قصيرة جداً، مهما طال امدها. وذلك اذا ما قيست بحياته الطويلة اللامحدودة التي سيحياها بعد موته وهي حياة سيخسر فيها حتماً مرتبة الانسانية ليتحول بعدها الى جماد، ثم إلى نبات، ثم الى حيوان اي الى اصله الذي كان عليه قبل ان يتدرج في نُشوءِه من مرتبة الى مرتبة حتى وصل في نهاية المطاف الى مرتبة الانسانية المتميزة عن سائر الكائنات بميزة النطق والادراك. ولم يكن الموت في نظره نهاية كل شيء حيث نراه يقول مؤكّداً فكرته هذه في احد ابيات قصيدته التي رثى فيها المعلم عبدالله البُسْتاني:[1]

أَإِنْ مَضَى الشّيءُ نقولُ انْقَضَى إِذَنْ فَمِنْ أين تَجيءُ الحَيَاةْ

وهذه الحياة نفسها قد تَبين تارة وتختفي طورا واختفاؤها عن اعيننا لا يعني اندثارها واضمحلالها بل هي باقية خالدة بالرغم من استتارها واختفائها. ولقد أثبت أبو ماضي أَزليَّة الحياة وخلودها في الارض بمقارنتها في احدى مقالاته برسالة الاديب وذلك حيث قال:[2] «.. وفي الواقع ان رسالة الاديب هي رسالة الحياة نفسها قد تبطىء هنا وتسرع هناك ولكنها لا تقف أبداً عن المسير، وقد تختفي حيناً وتظهر حيناً ولكنها دائماً موجودة». وها هو يقول ايضاً في مقال آخر له بعنوان «الحياة والموت»: الواقع هو أنَّ الموت ابن الحياة والحياة بنت الموت فهما متلازمان كالليل والنهار وهما باقيان مثلهما. لا يذهب الليل إلاَّ وقد أَوْدَع ذاته كلَّهَا في ذلك النهار.[3] ولقد قال ايضاً مؤكّداً ايمانه بفكرة ازلية الحياة في الارض وعدم اندثارها او اضمحلالها فيها: «ان التفاحة التي تأكلها اليوم ليست بنت فَصْل ولا سَنَة كما تتوهّم بل هي بنت كل السنين التي مرَّت. هي وَليدة الزمان كُلِّه. كانت مخبوءَة في اوَّل شجرة انبتتها الارض، كما كنت انت أيها القارىء في اول

---

(١) الخمائل ص ١٩٥. وانظر مَجَلّة السَّمير ١٥ نيسان ١٩٣٠م.
(٢) السمير ١٥ نيسان ١٩٣٠ م.
(٣) السمير ١ تموز ١٩٣٠ م.

انسان جاء الى هذا الوجود..»[١] وهذا الانسان الذي جاء الى هذا الوجود، لأوّل مَرَّة، قد جاء اليه ليحيا فيه عبداً مُقيَّداً بقيود العادات والتقاليد، واسيراً في مجتمعه، تسيِّره رغباته وشهواته: «ولا يضحكني شيء (قال ابو ماضي في مقاله عن الحرية) مثل الاعتقاد بأن المرء يولد حُراً كأنَّماهو يأتي الى هذا العالم بملء إرادته..»[٢]. وهذه الشواهد التي اوردناها توضّح الى حدّ ما معنى المَقْطَعَيْنِ الثاني والثالث من مقاطع قصيدته هذه، وهما اللذان نراه يقول فيهما:[٣]

أجديد أم قديم أنا في هذا الوجودْ

هل أنا حُرٌّ طليقٌ أمْ أسيرٌ في قيودْ

هل أنا قائِد نَفْسيْ في حياتي ام مَقُودْ

أتَمَنّى أنّني أدْري وَلَكِنْ

لَسْتُ أدْرِيْ

وطريقي ما طَريقي؟ أطويلٌ أم قصيرْ

هل أنا أصعَدُ ام أهبُطُ فيه وأغُورْ

أأنا السائر في الدَّرب أم الدَّرب يَسيرْ

أمْ كِلانا واقفٌ والدَّهر يَجْرِيْ

لَسْتُ أدْرِيْ

إن هذا الطَّريق الذي يسألنا عنه أبو ماضي، ليس سوى الطريق نفسه الذي يسلكه الانسان في حياته على الارض. وهو مُكْتَسِبٌ فيها لَمرْتبة الانسانية.. وهذا الطريق، طريق الحياة، لا ينتهي عند حدود القَبْر في نظر ابي ماضي ودليلنا على ما نقول قوله في احد ابيات قصيدته التي رثى فيها رفيقه وصديقه في الرابطة القلمية الشاعرَ نَسيْبَ عَرِيْضَه:[٤]

---

(١) السمير ١ كانون الثاني ١٩٣٦ م.
(٢) السمير ١ ايلول ١٩٣٥ م.
(٣) الجداول ص ١٤٠.
(٤) تبر وتراب ١٩٢.

يا رفيقي، ما بلغت المنتهى   ليست الحدُّ الأخير الحفر

هذا فيما يتعلق برأي ابي ماضي بالحياة وخلودها في الارض بعد الموت أمّا فيما يتعلّق برأيه الخاص فيما يتعلق بالمكان الذي كان يوجد فيه الانسان قبل مجيئه الى هذا العالم وصيرورته فيه انساناً سوياً ذا عقل، ونطق، وادراك فقد اورده في المقطع الرابع والخامس من مقاطع قصيدته هذه حيث نراه يقول، فيهما[(١)]

ليتَ شِعْرِيْ وأنا في عالم الغَيْب الأميْن

أتُراني كنتُ أدري أنَّني فــيــه دَفِين

وبأنّي ســوف أبدُوْ وبأنّي ســاكــون

ام تُراني كنتُ لا أدرك شيْئاً

لستُ أدري

أتُراني قَبْلَما اصبحتُ إنساناً سَوِيًّا

كنتُ مَحْواً أو مُحَالا ام تُراني كنتُ شيًّا

الهــذا اللُّغْــزِ حَلٌّ أم سَيَــبْــقى أبَديًّا

لستُ ادري، ولماذا لستُ أدْرِيْ

لستُ أدْرِي

إن هذا اللُّغز الا وهو لُغز مجيء الانسان الى هذا العالم، ورحيله عنه، فيما بعد؛ وهو مُكره على ذلك الرحيل كل الاكراه، قد حاول ابو ماضي أنْ يَحُلّه بنفسه، وذلك في مقالته التي أنشأها إثر تلقيه نبأ وفاة شقيقته جَنى في سهل البِقَاع حيث كانت مقيمة مع زوجها وبرفقة والديها. وهو مقال قد اقتطفنا منه قوله فيه: انا لا اعرف ما بعد الموت وربما كان ليس لي ان اعرف. ذلك سرٌ خفيّ ذلك هو اللغز الاكبر ولكن اعرف أنّ في العالم فكرتين ساريتين، يُعَوّلُ عليهما الناس، وفي كلتيهما تعزية للروح الكئيبة، مثل روحي.

---

(١) الجداول ١٤١.

الاولى: فكرة المؤمنين بالبَعْث والميعاد القائلين: إنّ بَعْدَ هذه الحياة حياة أُخرى أبهى، وأجمل، واسمى، وأكمل. وإنّ الموت هو الجسر الذي يعبر عليه الناس الى تلك الحياة.

والفكرة الثانية: هي فكرة الفلاسفة الذين يُثْبِتُون لاخوانهم البشر أنّ الانسان مادة وان المادة لا تَفْنَى، وان ما يكون اليوم ولا يكون غدا، هو كائن موجود ولكن في شكل غير شكله الأوّل.

فانا على الاعتقاد الأول أغْبُطِكِ لأنّك عَبَرْتِ ذلك الجسر الى الحياة التي لا حزن فيها ولا غم وسأظل اسقي شجرة الامل في نفسي الى أنّ تنطلق من قَفَصها الترابي، فتلتقي روحي وروحك حيث لا تَحْذَرانِ الفِراق.

وانا على اعتقاد القائلين بتحوّل المادّة وخلودها وسأظل مؤمناً بوجودكِ ايماني بوجُودي، ولا ارى في التَّحَوّل بأسا عليك، فانت لا تصيرين إلاّ الى حَسَن جميل، لانَّكِ كنتِ وما تحبين الا الحسن الجميل وما فيك الا الجميل الحسَن»[1].

ومنْ هنا يتبين لنا مغزى قول ابي ماضي في هَذين البيتين:

لَيتَ شِعْرِيْ وأنا في عالَم الغَيْبِ الأَمِيْنْ

أَتُراني كنتُ أَدْرِي أَنَّني فيـــه دَفِـيْنْ

إذْ إنّه لم يكن داريا حَتْـما وهو في عالم الغيب الامين اي العالم الذي كان موجودا فيه قبل ان يتحول الى انسان بأنه سيصبح إنساناً وذلك لأنّه قد كان وهو موجود في ذلك العالم نفسه مادة جامدة ولكنها قابلة للتحوّل من شكل الى شكل آخر ودليلنا على ذلك قوله: «وأنا على اعتقاد القائلين بتحول المَادَّة وخلودها». وهو قول قد اورده كما سبق لنا واسلفنا في مقاله الذي رثى فيه شقيقته جَنَى ونحن بدورنا لا نؤمن بقول الفلاسفة القائلين بأن الانسان قد كان مَادَّة ما وذلك قبل ان يصبح انسانا سويا وبأنّه سيتحوّل بعد موته الى هذه المادة نفسها، بل اننا نؤمن بما ورد في الكتب السماوية المُنْزَلة التي شاء الله عَزَّ وجَلَّ من خلالها ان يؤكّد بأن الانسان بعد موته سيدفن في التراب وسيبعث منه حيا يوم القيَامة لكي يحاسب في هذا اليوم العظيم على اعماله التي كان يقوم بها في حياته سواء منها الخَيِّرَة او

---

(١) ايليا ابو ماضي دراسات عنه واشعاره المجهولة تأليف جورج ديمتري سليم ص ٢٧، ٢٨.

الشرّيرة. فمن كان يعمل في حياتِه الشر فمصيره جَهَنّم يكتوي فيها بنارها ومن كان في حياته يفعل الخير فمأواه الجنّة التي سيحيا فيها حياة هانئة سعيدة سرمدية لا حزن فيها ولا شقاء..

وهذه النظرية القائلة بأن الانسان قد كان مادّة قابلة للتحول قبل ان يصبح انسانا سويا وبأنه بعد موته سيعود الى اصله المادّي الذي ابصر الحياة بواسطته لاول مرة قد لاقت اعتراضا من قبل بعض الفلاسفة المُحدَثين ورجال الدين وبعض كبار المصلحين الاجتماعيين حيث نرى الشيخ جمال الدين الافغاني يسخر من فكرة دارون المتعلقة بالنشوء والارتقاء وذلك حيث قال: «ان رأس البرغوث يشبه رأس الفيل فهل من المعقول حسب نظرية دارون ان يتحوّل هذا البرغوث ليصبح بعد ملايين السنين فيْلا..»

وبعد ان وجدنا ابا ماضي يستهلُّ قصيدته «الطّلاسم» هذه بتساؤلاته المتكرّرة عن الانسان وكيفية مجيئه الى هذا العالم ومصيره الذي سيصير اليه بعد موته نراه يستطرد فيها بعد ذلك ليثبت بواسطة الدلائل والبراهين ان جرثومة الحياة الاولى قد خرجت من البحر وذلك بدليل قوله في المقطع الاول من مقاطع قصيدته هذه وهو المقطع الذي جعله تحت عنوان «البَحْر»[1]:

قد سألتُ البَحْرَ يوما هل أنا يا بَحْرُ مِنْكَ؟

اصحيحٌ ما رواهُ بَعْضُهم عَنّي وَعَنْكَ؟

أم تُرَى ما زَعَموا زوراً وبُهتانا وإفْكَا

ضحكتْ أمواجُه منّي، وقالت:

لستُ أدْرِيْ.

فأبو ماضي حينما وَجَّهَ سؤاله الى البحر طالبا منه أن يخبره ما اذا كان الانسان قد خرج منه الى الحياة ام لا. كان سؤاله هذا من باب تجاهل العارف ليس إلاّ.

والدليل على ما نقول، هذا القول الذي قاله في احدى مقالاته: «يقول العلماء

---

(١) الجداول ١٤٢.

الذين تقطعت اعمارهم في البحث عن الجرثومة الاولى للحياة انها ابتدأت في البحر وجاء في القرآن الكريم: «وجعلنا من الماء كُلَّ شيء حَيّ»[1] وقال البعض ان جرثومة الحياة الاولى هبطت من الكواكب. غير ان النظرية المُتَّفق عليها هي ان الماء مصدر الحياة. وفي الواقع أن هناك شيئين لا غِنًى عنهما لاي حَيّ سواء كان نباتا ام حيوانا، وهما: الماء، والهواء. واذا لم يكن هواء ولا ماء فلا حياة..»[2]

فأبو ماضي كان معتقدا إذاً اعتقاد بعض العلماء القدماء والمحدثين بأن جرثومة الحياة الأولى جاءت من البحر ولكن بعدما تحول ماؤه الأُجاج بفضل الغيوم والامطار الى ماء عذب زُلال: «اذا صح (قال ابو ماضي) ان بداية الحياة كانت في الماء، فلا نظن انها كانت في البحر بل في الانهر حيث ارتقى الماء من ماء مالح أُجَاج الى عذب زُلال يسقى الشجرة، فتنمو، وتَخْضَرُّ، وتثمر، ويروى الانسان فيحيا.»[3] وهو القائل ايضا في هذا المعنى بالذات: «لا ادري لماذا يستهويني الماء. فما وقفت مَرَّة على شاطىء بحيرة من البحيرات التي مررت بها في رحلتي إلاَّ وأحْسَسْتُ بأن نفسي ترتعش كما يرتعش الماء الذي أراه.»[4] وسبب ارتعاش نفس ابي ماضي كلما كان نظره يقع على بحيرة من البحيرات التي كان يَمُرُّ بها اثناء رحلته تلك عائد في نظرنا الى اعتقاده بأن ماء تلك البحيرات ومعها كل بحيرة في الأرض هي مصدر جرثومة الحياة في الانسان... والى هذا المعنى بالذات قد اشار ايضا وذلك حيث نراه يستطرد في قصيدته الطويلة هذه قائلاً:[5]

أيُها البَحْر أتَدْرِيْ كم مَضَى ألفٌ عَليكا

وهل الشاطىء يَدْري أنَّه جاثٍ لَدَيكا

وهل الأنهارُ تَدري أنَّها مِنْكَ إليكا

ما الذي الامواج، قالتْ حين ثارَتْ؟

لستُ أدْري

(١) ٣٠ ك الانبياء ٢١.
(٢) السمير ٩ حزيران ١٩٥٣ م.
(٣) السمير ٢٩ تشرين اول ١٩٤٠ م.
(٤) السمير ٢٩ حزيران ١٩٣٨م.
(٥) الجداول ص ١٤٢.

وسرُّ ثورة هذه الامواج يعود في نظرنا الى كونها قد بَرِمَتْ بهذه التساؤلات مِنْ قِبَل ابي ماضي، وهي تساؤلات شبيهة بتساؤلات العارف المتجاهل الذي يعلمُ علم اليقين بأنَّ اصل مياه الانهار من مياه البحار والمحيطات ذات الماء الأُجَاج. وذلك قَبْلَ تَبَخُّرِها بواسطة اشعة الشمس، وانعقادها غيوما في الفضاء. وهذه الغيوم تهطل أمطارا غَزيرة على الارض فَتَسقي الأراضي الميتة، مُنْبِتَةً فيها البقول، والاثمار، والاشجار ومُكَوِّنة الجداول، والانهار التي تسير متجهة نحو البحر..

وهذا البحر نفسه بالرغم من كونه مصدر الحياة فإنَّه بنظر ابي ماضي أسير لا يملك امره إذ مهما ثارت امواجه واشتد غضبُها فهي لا تستطيع ان تتعدى بثورتها حدود شواطئه. فوجوده تَبَعا لذلك وجودٌ مقيد بحدودٍ مرسومة معينة؛ كما الانسان مقيد بحدود العالم الذي يعيش فيه. وقد يستطيع الانسان ان يتخلّص بعد موته منْ سجنه الكبير هذا وذلك بعدما يفقد صفة الانسانية ليتحوّل إمَّا الى حيوان، او نبات، او جماد. ولكنَّ البحر سيبقى مقيدا مأسورا وذلك لانه سَرْمدي ولا يموت كما الإنسان: (١)

أنتَ يا بحـر أسـيـرٌ آهِ مـا أعظمَ أسْـرَكْ

أنتَ مِـثْلي أيّهـا الجَـبَّـارُ لا تَـمْلِكُ أمْـرَكْ

أشْـبَـهَتْ حـالُكَ حـالِيْ، وحكَى عُـذْرِيَ عُـذْرَكْ

فمتى أَنْجُوْ مِنَ الأَسْرِ وتَنْجو؟

لستُ أَدْرِيْ.

والإنسان، حينما يشرب الماء العذب، يعتقد بأنَّه قد شرب مياه تلك الامطار المتساقطة من السماء؛ وهو لا يدري بأن ما يشربه مِنْ ماء ليس سوى ماء ذلك الاسير الجبار المسمى بالبحر. وكلما قطف انسان مَا، ثمرةً منْ أثمار إحدى الاشجار اليانعة واستساغ طعمها بعدما يَشرع في مَضْغها، يقول في نفسه، بأنَّه قد أكل تلك الثمرة، بعدما جادت بها عليه شجرتها. فيحرص عليها منْ اجل ذلك ويحيطها بعنايته، شاكراً فضلها عليه، ناسياً أنْ «يشكر البحر»؛ ذلك المحسن

(١) الجداول ص ١٤٣.

المجهول الذي لولا انعقاد مياهه غيوما في السماء، لتمطر بعد ذلك امطارا غزيرة على الارض، فتروي جذوع الاشجار ومنْ بينها جذوع تلك الشجرة نفسها التي رآها صاحبها تجود عليه بأثمارها، لمَا وُجدَت في الارض الأثمار، ولا الانهار ولا حَتَّى البُحيرات: (١)

تُرسِلُ السُّحبَ فَتَسقي أرْضَنا والشَّجَرَا

قد أكلناكَ وقُلنا قد أكلنَا الثَّمَرَا

وشربناكَ وقُلنَا قد شربِنَا المَطَرَا

أصوابٌ ما زعمنا أم ضلال؟

لستُ أدري.

قد سألت السُّحبَ في الآفاقِ هل تذكرُ رَمْلَكْ؟

وسألتُ الشَّجرَ المُورِقَ هل يَعرف فَضْلَكْ؟

وسألتُ الدُّرَ في الأعناقِ. هل يذكر أصلَكْ؟

وكأني خِلتُها قالت جميعاً:

لستُ أدري.

إنَّ السُّحبَ في السماء لن يكون بمقدورها أن تتذكر رَمْل شاطىء ذلك البحر الذي خرجت منه، وذلك لانها عجماء لا تنطق ولا تحس. وكذلك الشجر المُورق ليس بوسعهِ ان يعرف فضل مياه ذلك البحر عليه إذ لولا تلك المياه لما كتب له ان يورق ويزهر ويثمر. وحتى الدر المزين للاعناق ليس بوسعه ان يتذكر أصله الذي تكوَّن فيه، وذلك لأنه من جماد.

وهذا البحر الذي هو مَهْدٌ، هو أيضا ضريح. وذلك لان معظم الاشياء التي خرجت منه ستعود اليه في المستقبل البعيد أو القريب إما بأكملها أو ببعض أجزاء منها: (٢)

يَرقُصُ المَوْجُ وفي قاعِكَ حَرْبٌ لن تزُولا

---

(١) الجداول ١٤٣ - ١٤٤.
(٢) الجداول ص ١٤٤.

تخلقُ الأســماك لكن تَخْلقُ الحوتَ الأكولا
قد جمعتَ الموتَ في صدركَ والعيشَ الجميلا
ليت شِعْري، أنت مَهْدٌ أم ضَريحٌ؟

لستُ أدري

أمّا الدليل القاطع على كون ذلك البحر لحدا مثلما هو مهد أيضا فهو يكمن في قول ابي ماضي نفسه في احدى مقالاته: «اختفى جبران من دنيا النعيمه (اي الكاتب الشهير الاستاذ مخائيل نعيمه) بعد ان غادر تلك الجزيرة التي وجد فيها الأمن وعاد الى البحر» (١)

وكم من فتًى وفتاة جلسا عند شاطىء ذلك البحر الجبار، الساعاتِ الطوال، وهما يتناجيان ويتحدثان احاديث العشق والهيام، وبعد موتهما عادا الى هذا البحر الذي كانا جالسين على شاطئه، ليدفنا في اعماق اعماقه، وليحفظ بدوره سرهما، جاعلا من حفيف أمواجه صوتا شبيها بصوتهما الذي كانا فيه يتحدثان وبواسطته يتناجيان في خلال حياتهما الماضية.

وكم من ملك عظيم جبّار ضرب في الليل خيام جنوده على شاطىء ذلك البحر، ولكنْ ما إنْ حان أجله، وأجل جنوده حتى عاد وإيّاهم الى هذا البحر نفسه. ليقيما من جديد في اعماق اعماقه التي تتكون فيها الرمال. وذلك قبل ان تتقاذفها امواج ذلك البحر لتلقي بها على شواطئه الرملية الممتدة، المترامية الأطراف:(٢)

كم فتــاةٍ مِـثْلِ لَيْلَى وفَــتًى كــابنِ المُلَوَّحْ
أنفقا الساعاتِ في الشاطىءِ تَشْكو وهو يَشْرَحْ
كُلّمــا حَـدَّثَ أصــغت، واذا قــالت تَرَنَّحْ
أحفيفُ الموجِ سِرّ ضيّعاهُ؟
لستُ أدري.
كم ملوكٍ ضَرَبُوا حَوْلَكَ في اللَّيلِ القِبَـابَا

(١) السمير ١٥ كانون الثاني ١٩٢٥ م.
(٢) الجداول ١٤٥ – ١٤٦.

طلع الصبح، ولكِن لم يَجِدْ إلّا ضَبَابَا

ألهُم يا بحرُ يوماً رجعَةٌ أم لا مآبَا

أهُمُ في الرَّمْلِ؟ قال الرَّمْل: إنّي

لستُ أدْرِيْ.

فالرمل ليس بوسعه ان يجيب عن هذا السؤال الذي وَجَّهه اليه ابو ماضي؛ وذلك لأنَّه قد اضحى جمادا لا يَحِسّ ولا يشعر، ولا يدري بأنَّه كُوّن في أعماق البحر قبل ان اصبح رملا. وهو مكوّن من مواد كثيرة مدفونة في اعماق هذا البحر نفسه، وقد تَطلَّب تكونه هذا ملايين السنين. وهذا الاعتقاد الذي كان ابو ماضي يعتقده فيما يتعلق بالبحر من حيث كونه مصدرا للحياة، ومهدا ولحدا في آن معا، قد كان يعتقد به ايضا الاستاذ مخائيل نعيمه الذي نراه يقول مخاطبا البحر في كتابه الذي عنوانه «مذكرات أرقَشَ»: «يابحرُ يا مَهْدِيْ، ومَهْد الحياة! أُحِبُك ايها البحر. أُحِب زبدك وامواجك. فيَّ زَبَد كزَبَدك، وامواج كأمواجك؛ أحِبُّ انكماشك وانبساطك. فيَّ مثل انبساطك وانكماشك. نحن بحران ايها البحر ولكن الأرقش هو البحر الأوسع، والأعمق، والابقى. فأنت يأتيك يوم تتقلص فيه، وتنضب. أمّا الأرْقَش فلا يتقلّص إلا لينتشر، ولا ينضُب الا ليمتلىء بما لا ينضُب. أجَل نحن بحران أيها البحر، ولَكِنَّ الأرقش هو الأبقى..» (١).

فالانسان في نظر الاستاذ نعيمه اخلدُ من البحر وابقى؛ لأنَّه لا يتقلَّص مثله ولا ينضُب أما ظلُّه فلا يكاد يختفي من المكان الذي يحيا فيه إلاّ ليظهر بعد موته في مكان آخر ولكن بشكل يختلف عن شكل الإنسان..

وها هو ابو ماضي يقول في احدى مقالاته مُشَبِّهاً الانسان بالبحر من عِدَّة أوْجُه: «.. كلّ انسان كالبحر ان لم نقل اغربُ من البحر. فيه اصداف ودرر. وله هدير، وزئير، وسكون، وهياج» (٢). أمَّا الفرق الوحيد بين البحر والانسان فهو يكمن في كون الانسان له ظل وعقل بينما البحر ليس له ظل ولا عقل ومع ذلك

---

(١) السمير ١٥ آذار ١٩٥٠ م.
(٢) السمير ١٥ شباط ١٩٣١ م.

فهو خالد ابدي وما دام الانسان يمتاز عن البحر الذي هو خالد ابدي بصفتين اساسيتين ألاَ وهما : صفة العقل، والظّل. فلماذا إذاً لا يكون هو ايضا خالدا أبديّا مثله : (١)

فِـيْكَ مِـثْلي أيّهـا الجَـبَّـار أصـداف وَرَمْلُ
إنّمـــا أنتَ بـلا ظِلٍّ، ولي في الارض ظِلُ
انما أنت بلا عــقل ولي يا بحــر عَــقْلُ
فلماذا يا تُرى أمضي وتَبْقى؟

لَسْتُ أدْري.

ومثلما نجهل تاريخ وجود البحر كذلك نجهل تاريخ وجود أوّل انسان على الارض؛ إذِ ان وجوده قد كان مقترنا اقترانا كُلّياً بوجود البحر الذي لا يعدو عن كونه في حقيقة امره قطرة صغيرة من قطرات ذلك المحيط الواسع الشاسع الذي نطلق عليه اسم « الزّمن » الذي نرى ابا ماضي يحاول ان يحدِّده تحديدا دقيقا وذلك حيث قال : « ووضعنا حدودا او تُخُوما لكي نقسِّم الزّمن، فقسَّمناه، ولكن على الورق أو في تصورنا ونسينا ان الزمن لا ينقسم. فكل ما كان من قَبْلُ هو كائن غداً، وان بدا في شكل آخر او عجزنا ان نراه باديا في أيِّ شَكْل.. ».(٢) وها هو ابو ماضي يُحَدِّد معنى لفظة « الغَدِ » كتحديده لمعنى لفظة « الزمن » فيقول : « ... الغد إنه اليوم الذي نحن فيه، أَفَما كان بالأمس هذا الحاضر مستقبلا.. ». (٣) فمن هنا يتبين لنا مغزى هذا القول لابي ماضي. وهو قول جعله خاتمة المقاطع التي تحدَّث فيها عن البحر في قصيدته الطويلة هذه : (٤)

إنّني يا بَحْـرُ بَحْـرٌ شـاطئـاهُ شـاطِئـاكـا
الغَـدُ المجـهـولُ والأَمْسُ اللذانِ اكـتـنفـاكـا
وكـــلانا قطرة يا بَحْــرُ في هذا وذاكـــا

---

(١) الجداول ص ١٤٦.
(٢) السمير ١ كانون الثاني ١٩٣٦ م.
(٣) السمير ١ آب ١٩٥٠ م.
(٤) الجداول ص ١٤٧.

لا تَسْألني ما غَد ما أَمْسِ! إنّي

لستُ أدْرِيْ.

فَبَعدَ ان تحدَّث ابو ماضي في قصيدته هذه عن البحر واسراره وخفاياه، مؤكدا انه اصل الحياة وبأنه ابدي ازلي كما الانسان.. انتقل للحديث عن سكان الاديرة الذين توخى أنْ يزورهم متعمدا في اديرتهم التي اقاموها فوق الجبال الوعرة المسالك، ووسط القفار الموحشة لكي يسألهم عن الحياة واسرارها والغازها.. ولكنه ما ان وجد نفسه يتحدّث اليهم حتى ادرك بأنه قد كان يتحدث مع اناس أسِنَتْ عقولهم وبليت الاماني بلاءً كُلّيًا في قلوبهم: (١)

قِيْلَ لِيْ في الدَّيْر قَومٌ أدركوا سِرّ الحياةْ

غيرَ أنّي لم أجد غيرَ عُقولٍ آسناتْ

وَقُلوبٍ بليَت فيها المُنى فهي رُفَاتْ

ما أنَا أعمى، فَهَل غَيْرِيَ أعْمَىْ؟

لستُ أدْرِيْ.

فإنّنا نسأل انفسنا ما الذي كان ابو ماضي يعنيه بكلمة «سر الحياة» أكان يعني بها ويَقْصُدُ جُرثُومة الحياة أم مَعْنًى آخر سوى هذا المعنى.. إنّه كان في نظرنا يقصد بكلمة «سر الحياة» الحياة وما فيها من المباهج والمسرّات التي يجب على كل انسان ان يتمتّع بها تمتّعا كُلّياً خلال حياته.. فما دام سُكّان الاديرة قد اختاروا لانفسهم في نظره الاقامة في الاماكن البعيدة المنعزلة داخل اديرتهم اعتقادا منهم بأن ما فعلوه هو عين الصواب، فقد كان ابو ماضي يخالفهم الرأي في هذا المجال إذ كان مؤمنا كل الايمان بأن كل انسان له على المجتمع حقوق ومجتمعه له عليه واجبات يجب ان يؤديها له. وابتعاد الانسان عن مجتمعه يسبب لهذا المجتمع الضَّعفَ والخَوَرَ، لا القُوَّة والازدهار: (٢)

قيْل أدرى النَّاس بالأَسرار سُكّانُ الصَّوامِعْ

---

(١) الجداول ص ١٤٨.

(٢) الجداول ص ١٤٩.

قلتُ إنْ صَحَّ الذي قالوا فإنَّ السِّرَّ شائعْ

عَجَباً كيف ترى الشمسَ عيونٌ في بَراقِعْ

والتي لم تَتَبَرْقَعْ لا تَراها؟

لستُ أدري.

إنْ تَكُ العُزلَةُ نُسْكاً وتُقى فالذِّئبُ راهِبْ

وعرينُ الليث ديرٌ حُبُّه فَرْضٌ وواجِبْ

ليتَ شعري أيُميتُ النسْكُ أم يُحيي المَواهِبْ؟

كيف يَمحو النُسْكُ إثماً، وهو إثمْ؟

لستُ أدري.

ان الاثم الذي يرتكبه سكان الصوامع هو في نظر ابي ماضي اثم مختلف في مضمونه وفحواه عن الآثام المعروفة المعهودة التي حَرَّمها الله علينا. واثم هؤلاء الرهبان في نظر ابي ماضي ارتكبوه حينما قَرَّروا اعتزال الناس في الاديرة وتفضيل حياة التبتُّل على الحياة الزوجية الهانئة السعيدة. فلو ان الناس جميعا اضربوا عن الزواج لانقرض الانسان انقراضا كليا في هذا الوجود. ومما يؤكد هذا الزعم الذي زعمناه فيما يتعلق برأي ابي ماضي في جميع سكان الصوامع قوله مستطردا:[1]

إنّني أبصرت في الدَّير ورودا في سِياجِ

قَنِعتْ بعد النَّدى الطاهر بالماء الأُجاجِ

حولها النور الذي يُحْيي، وترضى بالدَّياجي

أمِن الحِكمة قتلُ القَلْبِ صبْرا؟

لستُ أدري

فهو بعد ما وَجَّه العِتاب الى الرُّهْبان البررة الكرام لانهم اختاروا العُزلَة والابتعاد عن الناس بملء ارادتهم راح يتحسَّر على هؤلاء الراهبات المقيمات داخل

(١) الجداول ص ١٥٠.

اديرتهن حيث شَبَّهَهُنَّ بالورود ذات الروائح العطرة الفوّاحة المحبوسة داخل الاسيجة والاسوار. اذ انه ليس من الحكمة في شيء ان تقتل الفتاة اية فتاة نفسها صبراً واحتسابا. وهو حينما وجد ان الليل قد اضحى موشكا على مداهمته ليلفه بعباءته السوداء، وهو ما يزال موجودا في ذلك المكان الطاهر المقدس فَرَّ منه ناجيا بنفسه. ولم يكد يبتعد عنه عِدَّة امتار حتى لاحت منه التفاتة الى الوراء حيث وجد مكتوبا على باب ذلك الدير الذي كان موجودا فيه عبارة «لستُ أدري». وهي عبارة قد خَطّها هؤلاء الرُّهْبان الاجلاء البررة حسب زعمه بخط ايديهم وذلك بعد ما عجزوا كل العجز عن ادراك سِرّ الحياة وهو سِرٌّ لم يستطع ادراكه وفهمه أحدٌ سِواه.

وابو ماضي لم يحمل على هؤلاء الرُّهبان الأجِلاّء حملته الشعواء هذه إلاّ بعد ما وجد انهم يخالفون ارادة الله عَزَّ وجَلَّ الذي خلق للانسان قلبا واعيا مرهفا حساسا لكي يحب ويعشق بواسطته كل جميل في الحياة. فالهروب إذاً من الحياة خوفا من ان تثقل كاهلنا بأعبائها وما تسبّبه لنا من مصائب وويلات خطيئة ولكن في نظره وحده لا في نظرنا: (١)

كم تُمادي أيها الناسك في الحَقِّ الصَّريحْ
لو أراد الله أن لا تعشقَ الشيءَ المَليحْ
كان إذ سَوّاكَ سَوّاكَ بلا قلبٍ ورُوحْ
فالذي تفعل إثمٌ. قال: إنّي

لستُ أدْرِيْ.

أيُّها الهارب إنَّ العارَ في هذا الفِرَارْ
لا صلاحٌ في الذي تصنع حتى لِلقِفَارْ
انتَ جان أيُّ جانٍ قاتلٌ في غَير ثارْ
أفيرضى الله عن هذا ويَعْفُو؟

لستُ أدْرِيْ.

---

(١) الجداول ص ١٥٢.

ففي رأينا ان الله عَزَّ وجلّ سيعفو في الآخرة ويوم الحساب عن هؤلاء البررة الاتقياء كل العفو؛ وذلك لان ما فعلوه في حياتهم هو الحق والصواب إذ إن المجتمع مهما كان راقيا متقدما سعيدا فهو سيظل مجتمعا ناقصا من غير وجود هؤلاء الاتقياء الذين كرّسوا حياتَهم لخدمة الله وخدمة ابنائه المؤمنين به واسعادهم كُلَّ الاسعاد.

وبعد ما قال ابو ماضي ما قال في الصوامع ورُهبانها عَرَّج بعد هروبه منهم على مقبرة من المقابر آملا ان يتمكّن خلال وجوده فيها من ان يدلى بآرائه الخاصة بسكانها وبالحياة والموت. وهو قد كان شديد الايمان فيما يبدو لنا ببعث الاجساد بعثا جديدا بعد الموت. وقد تجلّى ايمانه هذا باجلى مظاهره وذلك من خلال قوله في احدى مقالاته التي شاء ان يتحدث فيها عن الحياة والموت؛ «ليس مع الحياة موت (يقول ابو ماضي) والحياة في الارض ازلية سرمدية، وما دامت كذلك وما دمنا نؤمن بوجودها فعلينا اذن ان نؤمن بأن انطواء انسان لا يعني انطواء كل انسان، وذبول شجرة لا يفيد اندثار الشجر من الارض وليس ما ندعوه موتا سوى خاتمة لدور من ادوار الحياة. ولكنه ليس خاتمة كل ادوارها؛ لأنّه لو كان كذلك لاندثرت البشرية مع اول انسان مات، وانقرضت الشجر مع اول شجرة مشى فيها الفنَاء..»[1]؛

فالاجساد إذا في نظره لا بد من ان تتحول بعد فَنَائها في التراب الى جماد فنبات ثم حيوان ثم انسان. وذلك في ادوار طويلة متعددة كل دور فيهَا قد بلغ مداه ملايين السنين. ونفس المصير الذي ستلاقيه تلك الاجساد بعد موتها ستلاقيه ايضا تلك الديدان التي تعيث في الاجساد فسادا وهي مدفونة تحت التّراب.

فها هو يقول في المقطع الأوّل من المقاطع التي جعلها في قصيدته «الطلاسم» هذه بعنوان «بين المقابر»[2]:

وَلَقَــد قلتُ لنفــسي وأنا بين المَقَـابرْ
هل رأيتِ الأمن والرَّاحــة إلاَّ في الحَـفَـائِرْ
فـأشـارتْ فـإذا للدُّود عَـيثٌ في المَحَـاجِرْ

---

(١) السمير ٢٠ نيسان ١٩٤٩ م.
(٢) الجداول ص ١٥٣.

ثم قالت: أيها السائل إنّي

لستُ أدرِيْ

اننا حينما نجدُ ابا ماضي يقول في البيت الأوّل من ابيات هذا المقطع «ولقد قلت لنفسي...البيت» فقوله هذا كان موجها الى «نفسه» اي الى «روحه» التي وجدت بوجود جسده، وتفنى بفنائه. وهو القائل في هذا المعنى وذلك قبل ان اصبح مؤمنا بنظرية دارون في النشوء والارتقاء: (١)

ليست الرُّوحُ سوى هذا الجَسَد ... مَعَهُ جاءَتْ وَمَعَهُ تَرْجِعُ

لم تكن موجودةً قبل وُجِدْ ... فلهذا حين يَمْضي تَتْبَعُ

وهذا القول له الذي سبق لنا وذكرناه في مستهل دراستنا لقصيدة الطلاسم هذه قد عاد وتخلّى عنه فيما بعدُ. والدليل على ذلك قوله في احدى مقالاته: «لقيني صديق فكانت فاتحة الحديث بيننا بعد السلام موضوع السكر وتقنينه في هذه الايام.

فقال: ليتني كنت سُكّرا!

قلنا: الكي يأكلك الناس ويشربوك؟

قال: واي انسان لا يصير في آخر الامر طَعَاما للدود؟

فعبسنا لهذه الفلسفة التي لا شيء فيها من الدّعابة وقلنا له: يظهر انك قد صرت من مذهب المتشائمين القانطين الذين لا يرَوْن في الحياة شيئا يستحق الاهتمام». (٢)

وحينما لاحت من ابي ماضي التفاتة سريعة عجلى نحو احد القبور خلال وجوده في ذلك المكان البَلْقع وجد العظام فيه قد اختلط بعضها ببعض بحيث اضحى من الصعوبة عليه بمكان تبعا لذلك أن يُمَيز بين عظام السيّد والمَسُود والعاشق والمعشوق فبدأ حينذاك بمخاطبة نفسه، قائلا لها: (٣)

أُنظُرِي كيف تساوى الكُلُّ في هذا المكانِ

---

(١) ديوان ايليا ابي ماضي الجزء الثاني ص ٩٤.
(٢) السمير ٥ أيار ١٩٤٢ م.
(٢) الجداول ١٥٣ - ١٥٤.

وتلاشى في بقايا العَبْد رَبُّ الصَّولجان
والتقى العاشق والقَّالي فما يَفترقان
أفهذا مُنْتَهى العَدْلِ؟ فقالتْ؟

لستُ أدْرِيْ

إنْ يَكُ المَوتُ قِصَاصاً أيّ ذَنب للطَّهَارَهْ
واذا كَان ثَواباً أيّ فَضْلٍ للدَّعَارهْ
واذا كان وما فيه جزاءٌ أو خَسارَهْ
فلِمَ الاسماءُ إثْمٌ وصَلاحٌ؟

لستُ أدْرِيْ

إنَّ الموت لم يكن في نظر ابي ماضي لا قصاصا ولا ثوابا؛ فلو كان الموت قصاصا حقّا فأي ذنب جناه اصحاب النفوس الخَيِّرة حتى يُجازَوا بالموت؟. وان كان الموت ثوابا فأي ثواب هذا الذي يستحقه اصحاب النفوس الشرّيِّرة حينما يُجَازَوْن أيضا بالموت. وما دام الموت ليس ثوابا ولا عِقابا فهو ليس إلاّ خاتمة لدور من ادوار الحياة المتعددة الالوان والاشكال. وقد اكد ابو ماضي بنفسه هذه الحقيقة؛ حقيقةَ عدالة الموت الذي لا فَرق عنده بين انسان وآخر. وذلك في احدى مقالاته التي أوحَى اليه بكتابتها سَمَاعه ذات مرَّة في أَحَد الماتم احدى العجائز وهي تقول في احتجاج عنيف ولهجة مُخْنِقة: «أيّ ذنب جَنَى هذا الفتى يا رَبُّ! لماذا اخذته هُوَ وَهُو في أول عُمُره، وتركتني، وأنا في آخر عُمري». [1] فما كان من ابي ماضي الا ان قال مستطرداً في مقاله هذا مظهرا عدم رضاه عن هذه الاقوال التي قالتها تلك العجوز المفجوعة: «إنَّنا نَشُكّ ونرتابُ ونَتَمَرّد لمحدوديّة في إدراكنا ومقاييسنا. فننظر الى الموت فنعدُّه قِصاصاً وانتقاما. واذا ألفينا شابا يموت قبل الشيخ، حسبنا ذلك ظلما كبيرا. نريد ان نُكَيِّف كُلَّ الحادثات بما يَلَذُّ لنا فإذا لم تتكيف كما نشتهي غَضِبنا وثُرْنا..» واننا لَنجد ايضا جبران خليل جبران يؤمن بعدالة الموت كإيمان ابي ماضي به ودليلنا على ذلك قوله مواسياً شقيقته مريانا التي كتب علَيه وعلَيها ان يعيشا

---

(١) السمير ١٥ ايلول ١٩٣٢ م.

وحيدين بعدما فقدا امهما واخويهما: «لو كان الموت قصاصاً، لكان من الحقّ أن امضي ويبقى بطرس وتبقى أمي وسُلطانه. وقد تكون الحياة عِقابا، ويكون الموت ثوابا يا مريانا، وعِقابنا أننا نذوق مرارة اليُتمَ - يُتمَ الأم والأخ والأُختْ». (١)

فما دام الموت سيحوّلنا في نظر ابي ماضي بعد فَنائنا في التراب من حالٍ الى حال، ومن شكل الى شكل، فلماذا إذاً نجزع منه، ونخاف طالما إنَّه سيخلّصنا من حياتنا هذه المثقلة بالهموم والاعباء، والمصائب، والاحزان، لينقلنا إلى حياة اخرى خالية تماما من المصائب والاحزان والاوجاع: (٢)

ان يك الموت هُجُوعاً يَملأُ النَّفسَ سَلامَا

وانعتاقاً لا اعتقالاً وابتداءً لا ختاما

فلماذا أعشقُ النَّومَ ولا أهْوىَ الحِمَامَا

ولماذا تَجْزَعُ الارواحُ مِنْهُ؟

لستُ أدْرِيْ

وبعدما حاول ابو ماضي إقْنَاعنا بأن الموت ليس سوى خاتمة لدور من ادوار حياتنا الطويلة، الممتدة في هذا الوجود. تطرّق إلى مناقشة بعض الآراء المتعلقة بفكرة «البعث والنشور» بعد الموت فقال: (٣)

أوراءَ القَبْرِ بَعْدَ المَوتِ بَعْثٌ ونُشُورْ

فحياةٌ فخلودٌ أم فَنَاءٌ فدُثُورْ

أكَلامُ النَاس صِدْقٌ أم كَلامُ النَّاس زُورْ

أصحيحٌ أنَّ بعضَ النَاس يَدْرِي؟

لستُ أدْرِيْ

إنْ أكُنْ أُبْعَثُ بَعْد المَوت جُثماناً وعَقْلاً

---

(١) جبران خليل جبران لمخائيل نعيمه ص ٦٣.
(٢) الجداول ص ١٥٥ - ١٥٦.
(٣) الجتداول ص ١٥٦ - ١٥٧.

أَتُرَى أبْعَثُ بَعْضاً أم تُرَى أبعثُ كُلاً
أتُرَى أُبْعَثُ طِفْلاً أم تُرَى أبعثُ كَهْلا
ثم هل أعرفُ بعد البَعْثِ ذاتي؟
لستُ أدرِيْ.

فأبو ماضي قد كان، حَسْبما سَبَق لنا واسلفنا، مؤمنا بفكرتين، ألا وهما: فكرة البعث والنُشور وفكرة أنّ الانسان مكوَّن من مادّة، والمادة لا تفنى، لأنّها قابلة للتحول من حال الى حال، ومن شكل الى آخر. وهذه الفكرة الثانية هي الفكرة التي كان ابو ماضي معتقدا بها، وميالا اليها مَعَ اعتقاده أيضاً بالفِكْرة الأولى. ودليلنا على ذلك قوله في المقطع الاخير من هذه المقاطع التي جعلها تَحْتَ عُنْوان «بَيْنَ المَقَابِرُ» (١)

يا صديْقي لا تُعَلِّلني بتمزيق السُّتُورْ
بعدما أقضي، فَعَقْلي لا يبالي بالقُشُورْ
إنْ أكُن في حالة الإدراك لا أدري مَصيري
كَيفَ أدرى بعدما أفقدُ رُشْدي؟
لستُ أدْرِيْ.

واننا لنجد فكرة تحوّل الانسان بعد موته الى جماد فحيوان فانسان. وهي الفكرة نفسها التي كان يؤمن بها العالم الانكليزي داروِن ترجُحُ عنده في نهاية المطاف على فكرة البعث والنُشُور وَدَليلنا على ما نقول قول ابي ماضي نفسه في هذا المقطع السابق من مقاطع قصيدته هذه:

إن أكُن في حالة الإدراك لا أدري مَصيري
كيف أدرى بعدما أفقدُ رُشْدي؟
لستُ أدْرِيْ

فلفظة المصير هنا عنى بها ابو ماضي مصير كُل انسان بعد موته. ونحن بدورنا نقول لابي ماضي بأن الانسان بعد موته سائر إمّا الى الجنة او الى النار.

(١) الجداول ص ١٥٧.

وذلك بحسب عَمَله الذي كان يعمله في دنياه. فإن كان قد عمل عملا صالحاً فمصيره حتما سيكون الى الجنة. وان كان عمله عملا طالحاً فمصيره جهنم يُصْلى بنيرانها.

وبعدما ابدى ابو ماضي رأيَهُ بمصير الانسان بعد موته استطرد في قصيدة الطلاسم هذه مبديا رأيه بساكني القصور الفخمة وذلك حيث يقول:(١)

ولقد أبصرتُ قَصْراً شاهقاً عالي القِبَابْ

قلتُ ما شادَكَ مَنْ شادَكَ إلا للخَرابْ

أنتَ جُزْءٌ منه لكنْ لستَ تدري كيف غَابْ

وهو لا يَعْلمُ ما تَحْويْ. أيَدْرِيْ؟

لستُ أدْرِيْ.

فأبو ماضي كان يعتقد إذا بأن هذا القصر الفخم المُنيف سوف يكون مُعَرَّضا في نهاية المَطَاف، إلى الخراب، والسقوط على الارض بحيث يصبح بعد سقوطه عليها مدفونا تحت ترابها. واننا لنجده يحاول اقناعنا بان هذا القَصْر مُشَيَّدٌ من مواد مختلفة مُخْتلط بعضُها ببعض وصاحبه ايضا جسمه مُكَوَّن من مواد مختلفة مختلط بعضها ببعض ايضا فهو اذاً جُزْء من صاحبه ولكنّه غَيْرَ دار بذلك لانه جماد؛ والجماد لا يَحِسُّ ولا يَعْقِلُ. وصاحبُ هذا القصر لم يَكُن دارياً بدوره بهذه الحقيقة لانه ليس مثقفا ثقافة عالية تُمَكّنه مِنْ معرفة المواد الحقيقية التي تَكَوَّن منها جَسَدُه.

لقد كان هذا القصر المُنِيف، الخالب للابصارِ، والمُذْهب للألباب، بسبب جماله وروعته وَهْماً في العقول، فيما مضى من الزمان. ولَمَّا جاء البُناةُ حَوَّلوا هذا الوهم إلى حقيقة. وذلك بفضل اعتمادهم على موهبتهم في فَنَّي البناء والتشييد. وكذلك بفضل اطلاعهم على ما خَلَّفه لهم اجدادهم الغابرون من آثار ومؤلفات، تتعلق بفَنَّي العَمَارة والتشييد. وهؤلاء الاجداد الغابرون قد ماتوا ودفنوا ايضا في التراب حيث تحوَّلوا الى مواد مختلفة؛ قد تكون هي نفسها المواد ذاتها التي شُيِّدَ مِنْها هذا القصر الشاهق العظيم؛(٢)

---

(١) الجداول ص ١٥٨.
(٢) المرجع نفسه.

يا مِثالاً كان وَهماً قَبْلَمَا شاءَ البُناةُ

أنت فكرٌ منْ دماغٍ غَيَّبته الظُّلُماتُ

انت أُمنيةُ قلبٍ أَكلتهُ الحَشَراتُ

أنت بانيك الذي شادك. لاَ لاَ.

لستُ أدرِيْ

فأبو ماضي كان فيمَا يَبدو مُؤمنا بأنَ مصيرَ ذلك القصر إلى التلاَشي؛ إن آجلاً او عاجلاً، وأنه سوف يلاقي نفس المصير المحتُوم الذي لاقته كل القصور التي شُيِّدَت من قبله بمئات السنين. وأنَّ صاحبه سيكون مخطئا اذا ما اعتقد بأنَ قصره هذا سيظل خالدا خلود النُّجوم، وثابتا في مكانه ثبوت الجبال الشامخة في أماكنِها. أمَّا نحن فإنَّنا نقول لو تبادر الى ذهن أيِّ انسان أنَّ ما يبنيه سيكون مصيره إلى الزوال، لمَا فكّر بالبناء والتَّشييد، لحظة واحدة. ولمَا دأب طيلة حياته على جمع المال اللازم لتحقيق رغباته هذه؛ إنَّه بالأمل يحيا، وبه وحده يثابر ويجد، ويعمل، ويكد آملا أن يحيا فيما بَعْدُ حياةً سعيدة، مديدة، متمتِّعا، خلالها كل التمتع، بما يملك من عقَار وأموال:[1]

كَمْ قُصورٍ خالها الباني ستبقى وتدومْ

ثابتاتٍ كالرَّواسيْ خالداتٍ كالنُّجُومْ

سحبَ الدَّهرُ عليها ذَيْلَه فَهْيَ رُسُومْ

ما لنا نبني، وما نَبني لِهَدمٍ؟

لستُ أَدرِيْ

فالغني الذي يقيم في قصره المَملوء بالخدم والحشم، ليس في نظر ابي ماضي بأفضل ولا بأسعد من ذلك الفقير الذي يعيش في كوخه الحقير الذي لا سرير فيه ولا حصير. وصاحب القصر سيبقى دائما وابدا كصاحب الكوخ عبدا تُسَيِّره العواطف والاهواء. إذ إنه يشكُ، ويتمنَّى ويضحك، ويغضب، ويرضى، ويَسخَط كما يشك الفقير ويغضب ويرضى ويَسخَط. وهو بالاضافة الى كل هذا سيبقى سجين

(١) الجداول ص ١٥٩.

«الخالِدَين» الليل والنهار. تاركاً الدهر وحدَه يتلاعب بمصيره وبأمواله حسبما يحلو له ويشاء: (١)

لم أجِدْ في القَصْرِ شيئاً ليس في الكُوخِ المَهينِ

أنا في هذا وهذا عبـــدُ شَكّي وَيقِـينيْ

وسجينُ الخالدَيْنِ: اللَّيلِ، والصُّبْحِ المُبِينِ

هل أنا في القَصر أم في الكوخ أرْقَى؟

لستُ أدْرِيْ

ليس لي في الكُوخِ أو في القَصْرِ منْ نَفسيَ مَهْرَبْ

إنَّني أرجـو، وأخـشى، إنني أرضى وأغـضَبْ

كـان ثَوبي من حـريرٍ مُذْهَبٍ أو كـان قُنَّبْ (٢)

فلماذا يتمنَّى الثوبَ عارٍ؟

لستُ أدْرِيْ

فها هو ابو ماضي يسأل نفسه «لماذا يتمنَّى الثوب عار» وذلك في نهاية المقطع الثاني من هذين المقطعين. فإننا بدورنا لن نجيبه عن سؤاله هذا بل نترك الفقراء يتولّون بأنفسهم الاجابة عن هذا السؤال. وذلك كُلَّما عضَّهم الجوع بأنيابه الحادة، ولذع البَرد القارس اطرافهم وآذانهم وأقضَّ المَرَض مَضاجعهم، بآلامه الشديدة التي لا تطاق؛ وهم لا يملكون له دفعا لانهم لا يملكون نفقات العلاج، ولا حتى ثمن الدواء.

واننا لنجده أيضا يطالب في المقطع الاخير من هذه المقاطع التي جعلها تحت عنوان «القَصْر والكُوخ» بالمساواة في الحقوق والواجبات بين ابناء البشر جميعا، فلا قويّ يستبد بضعيف، ولا غني يَضِنُّ بماله على فقير، ولو ان الاغنياء عاملوا في نظره الفقراء كما تتعامل الكائنات في الطبيعة فيما بينها، لَمَا كان هناك فقراء على الارض ولا تعساء، ولا تفاوت في المجتمعات بين طبقة وطبقة. فها هو الفجر حينما

---

(١) الجداول ص ١٥٩ - ١٦٠.

(٢) ذَهَبَ وأذْهَبَ الشيءَ مَوَّهه بالذّهب فالشيءُ ذهيبٌ ومُذْهَبٌ.

يشرق يأبى الا ان يُوزِّعَ انواره بالتساوي على السهول والجبال، والقصور والاكواخ. وحينما يأتي بعده الظلام يأبى إلاَّ أن يلف بعباءته السوداء جميع الكائنات. فلا تُؤثر جيوشُه مكانا على مكان آخر. أمَّا الرياح فهي حينما تهب تهب على الجبال والوديان، كما تهب على المدن والقُرَى والجبال. أمَّا اكرم هؤلاء الكائنات جميعا فهو الغَمَام الذي يأبى حينما يَهْطِل إلاَّ أنْ يَهْطِلَ مُرْوِيا الأَرض العطشى والارض القاحلِة الجرداء على حد سَواء. فلو أنَّنا اتخذنا من عمل هذه الكائنات جميعا مَثَلا لَنا يحتذى في العدالة والمساواة لَمَا اصبح مجتمعنا مُقسّما إلى عِدَة طبقات، ذات دَرجات متفاوتة، مختلفة، يحسد أفراد كُلِّ طَبَقة منها أفرادَ الطبقة الأخرى التي هي اغنى واعلى منها وهو حسد قد يؤدي بالتالي الى التطاحن، ويورث الحقد، والضغينة، والبغضاء: (١)

سائل الفَجْرَ أعندَ الفَجْرِ طِيْنٌ ورُخامْ

واسألِ القَصْرَ ألا يُخْفيهِ كالكوخِ الظَّلامْ؟

واسألِ الأنجمَ والرِّيحَ وسَلْ صَوْبَ الغَمَامْ

أتَرَى الشيءَ كما نَحْنُ نَراهْ؟

لستُ أدْرِيْ

وبعد ان ادلى ابو ماضي في قصيدته هذه برأيه الخاص بسكان «القصر والكوخ» انتقل ليحدثنا فيها عن الفِكْر وقد استهل حديثه عنه بقوله: (٢)

رُبَّ فِكْرٍ بانَ في لَوْحةِ نَفْسي وتَجَلَّى

خِلتُهُ مِنِّي ولَكِنْ لَمْ يُقِمْ حتى تَوَلَّى

مِثْلَ طَيفٍ لاح في بئرٍ قليلاً وأضْمَحَلاَّ

كيف وافى ولماذا فَرَّ مِنِّي؟

لستُ أدْرِيْ.

نَرى أبا ماضي في هذا المقطع، يحاول ان يجد تعليلا، شافيا، كافيا مقنعا، لتلك الافكار التي تراود بعض الناس وخاصَّة من بينهم الشعراء؛ والتي لا تلبث

---

(١) الجداول ص ١٦٠.
(٢) الجداوب ص ١٦١ - ١٦٢.

طويلا بعد مراودتها لمخيلاتهم حتى تَفُرَّ هاربةً منها، وسبب فرارها من المُخَيّلة التي كانت قد حَلَّت فيها فترة من الزّمن قبل ان تفارقها، قد ذكره ابو ماضي بنفسه. وذلك حيث قال بعد ذلك مُستطردا: (١)

أَتُراه سائحاً في الأرض مِنْ نَفْسٍ لأُخْرَىٰ
رابَه مِنّيَ أمرٌ فأبَى أنْ يَستَقِرّا
أمْ تُراه مَرّ في نَفْسيَ كما أعبرُ جِسْرًا
هل رأتْهُ قَبْلَ نَفْسي غيرُ نَفْسي؟
لستُ أدْري.

ان ابا ماضي يعتقد بأنَ سبب فِرار ذلك «الفكر» وعدم استطابته الاقامة طويلا في مخيلته عائد الى كونه قد كان سائحا في الارض متنقّلا فيها مِنْ نفس لأُخرى. وليس له مِنْ أمل إلا أمَل العثور في يوم من الايام على احدى المخيلات الخِصْبَة كمخَيّلة عالِمٍ أو مُخترع أو شاعر أو أديب أو فنان، لكي يتخذ فيها مكانا له يوفر عليه مشقَّة التّنقّل والارتحال. وهذا «الفكر» الذي رأه ابو ماضي يمرّ بنفسه مَرًّا سريعا ويرحل بعد ذلك عنها قد سبق له ومَرَّ بنفوس اخرى سوى نفس شاعرنا. ففي اعتقادى أن ابا ماضيَ قد اراد أنْ يؤكد من خلال قوله هذا أنْ كُلّ تراث فِكْرِيّ جديد قد برز الى الوجود في أيّ عَصْر من العُصور، لم يكن في حقيقة امره جديدا بل هو قديم قد عملت عقول منتجة كثيرة عاشت في اجيال مختلفة متعاقبة على تطويره وتحسينه حتى كُتِبَ له أن يبرز الى الوجود في العصر الذي برز فيه وذلك بفضل بعض اصحابِ المواهب الذين كانوا يَحْيَوْنَ في ذلك العصر بالذات. وكأني بابي ماضي يريد من خلال قوله في هذا المقطع ان يؤكد صِحّة قول القائلين: «لا جديدَ تحتَ الشَّمْس».

وهناك ايضا افكار اخرى نَيِّرة قد تومض في مخَيِّلات مشعة نَيِّرة مثلها، ثم يعتقد اصحابها بأنها قد افلتت منهم وطارت كما يطير العصفور بعدما يفلت مِنْ قفصه وهذه الافكار في نظر ابي ماضي ونظرنا ايضا لم تفلت وتطير في حقيقة الامر من مخيِّلات هؤلاء النَّيِّرين العظماء وان خالوا بأنها قد أفلتت منهم، بل هي ما

(١) الجداول ص ١٦٢.

زالت في مُخيّلاتهم التي انحلت فيها هذه الافكار نفسها وغارت وذلك كما تنحل الموجة وتغور في أغماق البَحْر: (١)

أتُراهُ بارِقـــاً أوْمض حـــيناً وتوارىٰ

ام تُراهُ كـان مِثْل الطَّيْـر في سجن فطارا

أم تُرَاه أنْحَلَّ كالمَوْجة في نفسي وغارا

فأنا أبحثُ عنه، وَهُوَ فيها؟

لسْتُ أدْرِيْ

وبعد أن حَلَّل أبو ماضي تحليلا فلسفيا، نوعا ما، هذه الافكار التي رأها تنتقل من فكر الى فكر، مثلما ينتقل السائح مِنْ بلد الى بلد، انتقل ليحدّثنا عن ذلك الصّراع والعِرَاك اللّذين كان يراهما في نفسه؛ وهي نفس كان يراها تارة مرتدية ثوب ملاك وطورا ثوب شَيْطان.

لقد كان ابو ماضي في نظرنا «غريب الأطوار» حَقّا، إذا كان احيانا يتصرّف تصرّف ملاك واحيانا يستَضْعف، فيحقق بعض رغائب «الشّيطان» فيه؛ فهو قد صادق امين الريحاني ثم عاداه دون مُبَرِّر أو سَبَب. وهاجم جبران خليل جبران وعَرَّض به أشَدَّ التَّعْريض في احدى «مقالاته»، (٢) ثم عاد فصالحه طالبا منه ان يكتب له مقدمة لديوانه «الجَداول» الذي صدر في سنة ١٩٢٧م.

ولقد قال لي الاستاذ فؤاد الخوري الذي ظل يعمل مع ابي ماضي في جريدةِ «السَّمير» كمُحَرر لها لمدة خمسةَ عشرَ سنة، وذلك اثناء زيارتي لنيويورك عام ١٩٦٣م، بأنَّ أبا ماضي كان في كثير من الاحيان يثور ويغضب، وينادي بالويل والثُبور، حينما يطالبه عامل بثمن قدّوم للمطبعة، او بثمن دواة. وبعد ذلك بفترة قصيرة من الزَّمن كان يدعو نَفَراً مِنْ اصدقائه الى وليمة غداء في مطعم فاخر فينفق عليهم بسخاء. ثم يترك للخادم بعد ان ينقده الحساب مبلغا محترما من المال قد يوازي تقريبا نصف ثمن تلك الوليمة. فسبب تصرفاته الشَّاذَّة المتناقضة هذه يعود

---

(١) الجداول ص ١٦٢ – ١٦٣.

(٢) مقابلتي للاستاذ مخائيل نعيمه في منزله ببيسكنتا سنة ١٩٦٤ م.

في نظرنا الى نفسيّته القلقة المضطربة التي كانت تبدُو تارةً شبيهة بنفس مَلاك، وطورا شبيهة بنفس شيطان، ولكنْ صفة الخير في نظرنا كانت هي الصّفة الغالبة عليها في كثير من الاحيان: (١)

إنَّني أشْهَدُ في نَفْسي صِراعاً وعِراكا
وأرى ذاتي شَيطاناً وأحياناً مَلاكا
هل أنا شَخْصان يأبى ذاكَ مَعْ هذا أشْتراكا
أم تُرَاني واهماً فيما أراهُ؟

لستُ أدْرِيْ

وبعد ان حاول تعجيزَنا، بأسئلته المتكرِّرة المُتعاقبة عن سرِّ ذلك «الصّراع» الذي شاهده في نفسه. شاء ان يلهو ويَعْبَثَ بنا بعض الوقت قبل أن يعود من جديد، ليسألنا عن اسرار «الوجود»، وعن «البعث والنُّشُور». فأخذ لذلك يحدّثنا عن طفولته الحالمة العذبة حيث كان في اثنائها يضحك ضحكاً لا تكلف فيه، ويبكي بكاء بريئا كلما شاء ان يتلاعب بعواطف اشقائه ووالديه. ولكنَّه فَقَد دُنياه هذه. وها هو يكاد ان يفقد بعد فقدانه لها شبابه ايضا. فجزع على شبابه الموشك على الافلات من يده اشد الجزع وراح يرثيه بأرق العبارات واعذبها وهو حينما فقد شبابه هذا فقد مع فِقْدانه إيّاه احلامه العَذْبة التي كانت تسير معه كيفما سار واينما حَل وأقام. ومِمّا يُؤكد لنا صِحّة ما نزعم: نَظْمُ أبي ماضي لقصيدته «الطلاسم» هذه في عام ١٩٢٧م أي بعد تجاوزه السابعة والثلاثين من عمره. حيث بدأ يشعر بعد بلوغه هَذَا السِّنّ بأنه قد راح يقترب شيئا فشيئا وبخُطى سَريعة منْ عتبة سنِّ الشيخوخة التي تبدأ اعلامها تلوح لعيني كُلِّ إنسان وذلك بعد ان يتخطى عتبةَ الأربعين منْ عُمُرِه: (٢)

اين ضحكي وبُكائي وأنا طِفْلٌ صَغيْرْ
اين جَهلي ومِرَاحيْ وأنا غَضّ غَريرْ (٣)

---

(١) السمير ١ كانون الأول ١٩٢٩ م.
(٢) الجداول ص ١٦٤.
(٣) المراح: الاسم من مَرح الرَّجُل اذا اشتد فرحه ونشاطه وبطر واختال.. والغرير: الشاب لا تجربة له/المُغْرورُ/الحسن.

اين احلامي وكانت كيفما سِرتُ تَسير؛
كُلُّها ضاعتْ ولكنْ كيف ضاعَت؟

لستُ أدْرِيْ

انه قد ظل بعد بلوغه هذا السن يبكي كما كان يبكي اثناء طفولته، ولكن شَتّان ما بين بكاء وبكاء، وضحك وضحك. فبكاؤه في طفولته مبعثُهُ قطعة من الحلوى، اولُعْبَةٌ طلبها فلم يجدها. أمَّا بكاؤه في شبابه فَمَبْعُثه الالم، والعذاب، والخوف منْ مستقبله الغامض آنذاك؛ وهو لم يزل يضحك ايضا ولكنّ ضِحْكَه لم يعد ضِحِكا بريئا شبيها بذلك الضِّحك الذي كان يَضْحكه في طفولته بل اصبح ضِحْكا متصنعا، وخاصة بعدما وجد ان لا شيء على الارض يستحقُّ ان يضحك من اجله أيُّ انسان.

فمصاعب الحياة التي صادفته، وافلات شبابه من يده، هما اللذان جعلا اطواره تتبدل واحواله تتغير عَمَّا كانت عليه منذ سنوات مضت. وَحَتى ايمانه بنفسه وبالكائنات من حوله لم يعد كما كان. وخاصة بعدما اتَّسعت مداركه، وامتد أُفق خياله، واصبح لِزَاما عليه ان يتخلّى حينذاك عن مَذْهَب النساك المتزهدين في الحياة، ليعتنق عوضا عنه مذهبا رأى اكثر الناس يعتنقونه الا هو مَذْهب الباحثين عن الثروة والساعين للحصول عليها سعيا متواصلا؛ وذلك بشتى السُّبل والوسائل: (١)

لِيَ إيْمـــانٌ ولكن لا كــإيماني ونُسكيْ
إنَّني أبكي ولكن لا كمـا قد كُنتُ أبكيْ
وأنا اضـحك أحيـانا ولكن أيُّ ضِـحْكِ!
ليت شعري ما الذي بَدّل أمري؟

لستُ أدْرِيْ

كُلَّ يَوْمٍ لِيَ شـأْنٌ كُلَّ حِيْنٍ لِيْ شُـعُوْرْ
هل أنَا اليــومَ أنا مُنْذ ليالٍ وشـهُـوْرْ

(١) الجداول ١٦٥ - ١٦٦ - ١٦٧

أم أنا عند غروب الشّمس غَيْرِي في البُكُوْرْ
كُلّما ساءَلتُ نَفسي جاوَبَتْني:
لستُ أدرِيْ

رُبَّ شَخْصٍ عِشْتُ مَعْهُ زَمَناً أَلهُو وأَمْرَحْ
أو مكانٍ مَر دهرٌ، وهْوَ ليْ مَسْرَى ومَسْرَحْ
لاح لي في البُعْد أجلى منه في القرب وأوضَحْ
كيف يَبْقى رسمُ شيءٍ قد تَوارَى؟
لستُ أدرِيْ

إنَّ الانسان أشاعراً كان ام غير شاعر يزهد دائما بالشيء الموجود بين يديه والواقع تحت بصره ولكن حينما يفقد هذا الشيء، يزداد اشتياقه اليه، وتكبر حينذاك قيمته في نفسه.

واننا بوسعنا القول رَدّاً على هذه الاسئلة بأنَّ الإنسان يحتفظ في ذاكرته بصور الاماكن التي عاش فيها زمنا، وعرف اثناء اقامته فيها الامن والسعادة وهو كذلك يحاول دائما الاحتفاظ بصور الاصدقاء الذين لم يسببوا له الكدر او الانزعاج اذ ان صورهم حينذاك تظل ماثلة امام عينيه، فيحن الى مشاهدتهم من جديد لانه لم يجد بعد ان فارقهم صديقا يعتمد عليه، ليحتل في نفسه تلك المكانة التي كان يحتلها اصدقاؤه الذين تعمَّدوا مفارقته الى غير رجعة.

وها هو ابو ماضي يعالج موضوعا من الموضوعات التي تشغل بال الانسان الباحث عن السعادة في الحياة فلا يجد امامه سوى بستانه الذي تَخَيَّلَ بأنه يملكه لوحده من غير ان يشاركه في هذه الملكية أحد من الناس وتَخَيُّله هذا قد بدا جليا واضحا من خلال قوله في هذا المقطع:[1]

رُبَّ بستان قضيتُ العُمْرَ أَحْمي شَجَرهْ
ومنعتُ النّاس أن تقطفَ منه زَهَرَهْ

---

(١) الجداول ١٦٧.

جاءت الأطيارُ في الفجْر فناشتْ ثَمرَة

ألأطيارِ السَّما البستانُ أم لي؟

لستُ أدْرِيْ

فأبو ماضي قد قصد من وراء قوله هذا أقناعنا وذلك بواسطة الادلة والبراهين بوجوب اعطاء الفقراء المحتاجين بعض ما نملكُ من اموال أو عقارات طالما أن هناك من يشاركنا في ملكيتها غصباً عنّا... فلْنَجُد إذاً بما نَمْلِكُ على بعض المحتاجين من النَّاس فيخلعونَ علينا أثوابَ الحمْد والثناء وهي أثوابٌ خالدةٌ لا تبلى.. ولا شيء في الحياة أفضل من العمل الصالح المجدي لنا ولجميع الناس على حَدّ سواء.

اما الجمال في نظر ابي ماضي، فهو ليس له قياس يُقَاس به. إذ إنَّنا حَسَب زعمه لا نُقدّر الجمال او نَتذَوّقه الا تبعا لحالتنا النفسية التي تجعلنا نرى الشيء الجميل جميلا او نرى نفس هذا الشيء الجميل قبيحا؛ لأَنَّ نفوسنا عند رؤيته كانت مشغولة عنه، او منفعلة متأثرة بشيء آخر: «[1] وإنك لتَجد الجمال (قال ابو ماضي)، وتجد لكل أمة وَلَعا بالجمال، ولكن الجمال ليس واحدا عند الكل، ولا حبَّ الجمال، وتقديره لاختلاف في المدارك والافهام وتباين الظروف والحالات:» وبَعْضٌ من قوله هذا صاغه شعراً وذلك إذ قال:[2]

رُبَّ قُبْح عِنْدَ زَيْدٍ هو حُسْنٌ عند بَكْرِ

فهما ضِدَّان فيه وهو وَهْمٌ عند عَمْرو

فَمَنِ الصَّادِقُ فيما يدَّعيه؟ ليت شِعْري؟

ولماذا ليس للحُسْنِ قياسٌ؟

لستُ أدْرِيْ

فكما أنه لا يوجد قياس للجمال، أو حَدٌّ، فكذلك لا نستطيع ان نوجد حدّا أو قياسا للخَيْر والشَّرِّ. فالشر موجودٌ في النفوس، كما يوجد فيها الخير. فمن يغلبُ نفعه ضرره يُسَمَّى خَيِّرا ومن يغلب ضرره نفعه يسمى شريرا. فالشر قد يمضي من

(١) السمير ١ شباط ١٩٣٠ م.
(٢) الجداول ١٦٧ - ١٦٨.

نفوسنا ولا يعود اليها، إلا بعدما تستيقظ فيها ملكة الشر. وكذلك الخير لا يكاد يبتعد عن اصحاب النُفُوس الخيّرة الا ليعود اليها؛ لأنها لا تستطيع العيش بدونه ولا تطيق فراقه: (١).. ليس في الدنيا شَرٌّ مَحْض (يقول ابو ماضي)، وإنَّما يقال هذا الامر شَرّ إذا كان الضرر فيه اكثر من النَّفع، وهذا الأمر خير اذا غلب النفع فيه الضرر »(٢):

قد رأيتُ الحُسنَ يُنسَى مِثلما تُنسَى العُيُوبُ

وطُلُوعُ الشَمْس يُرْجَى مثلما يُرْجَى الغُروبُ

ورأيتُ الشَّرَ مِثْلَ الخَيرِ يَمْضيْ ويَؤُوبُ

فلماذا أحْسِبُ الشَّرَ دَخيلاً؟

لستُ أدْرِيْ

إن النفوس الخيِّرة تشبه في نظر ابي ماضي الغَيْث الذي لا يَهْمي حين يَهْمي مكرها، إلاَّ مطرا يحي الارض المَوَات، ويسقي السهول والوديان، فتنبت فيها الازهار والبقول والاعشاب. وكذلك النفوس المعطاءة الفاضلة التي لا تحب الأذيَّة لأحد؛ فهي حينما تمطر لا تمطر إلا بَرْداً وسلاماً على رؤوس الناس جميعا. ولكن هناك في الروض بعض الزهور التي لا تقبل إلاَّ أن تفشي علينا عطرها، حَتَّى ولو كان كريها وشبيها بذلك «العطر» الذي يَفُوحُ عادة من اعمال بعض الشريرين الذين يميلون الى فعل الشر اكثر منْ مَيلهم الى فعل الخير. فكما ان الارض لا تستطيع ان تخفي عنَّا اشواكها او ورودها فكذلك اصحاب النفوس الخيرة او الشريرة الذين ليس باستطاعة أيٍّ منهم ان يخفي في صدره ما يعتمل فيه من المشاعر والاحاسيس والافكار المُؤذيَة الضَّارة(٣):

ان هذا الغيثَ يَهمي حيْنَ يَهمي مُكْرهَا

وزهورُ الرَّوَض تَفْشي مجبراتٍ عِطْرَهَا

---

(١) السمير ١ نيسان ١٩٣١ م.
(٢) الجداول ص ١٦٨.
(٣) الجداول ١٦٨ - ١٦٩.

لا تطيقُ الأرضُ تُخفي شوكَها أو زَهْرَها

لا تَسَلْ أيُهما أشهى وأبهَى؟

لستُ أدْرِيْ.

فأبو ماضي يسألنا في البيت الرابع من هذه الابيات ما اذا كان منظر الشوكة في الحقل ابهى واشهى الى النفوس من منظر الوردة فنحن حينما ندرك أنّ لفظة «الشوكة» هي عنده رمز للنفس الشريرة، والوردة رمز للنفس الخيرة، فلن نتردَّد كثيرا في تفضيل الوردة على الشوكة.

وقد كان شاعرنا ينظر الى بعض الناس فيجدهم اشواكا مرتدية ثياب الانسان فكما ان الشَّوكة لا تفارق مكانها في الحقل الا لتعتلي هامة نبي مُهَان او ملك مخلوع زيادة في ايلامه وتعذيبه، فكذلك يفعل هؤلاء النَّاسُ الأشواك. وهم اناس لا دأب لهم ولا هم الا ايذاء مَنْ يريد أنْ يتقرَّب إليهم اقريبا كان ام بعيدا عنهم. أمَّا الوردة فهي وان كانت في عُرْوَة لِص او امرأة بَغيّة فلا تطيق أن تحبس عِطرها عنهما، لانها تنظر اليهما بنفس العين التي تنظر بها الى كل انسان فاضل. فخير لنا إذاً أن نكون ورودا ضعيفة لا حول لها ولا قُوة الا افشاء عطرها من ان نكون اشواكا تُؤذِي كُلَّ من يُمد يده اليها او يمر بقربها ولنأخذ ايضا من الجدول الذي يترنم بين الاشواك والصخور كترنمه وهو يخترق السهول المخضرة والاعشاب الندية الطرية، والاشجار الوارفة الظلال، عِظة لنا وعبرة نعتبر بها ونجعلها هاديا لنا فيما نقوم به من افعال: إنَّنا لنجد الجدول يجري مترنما شاديا (قال ابو ماضي في احدى مقالاته) بين الاشواك وفوق الصخور ونرى الوردة تعبق وتفوح في يد الملك ويد اللص على السَّواء [١]: «وهذا القول له يوضح لنا الى حَدٍّ ما المعنى الذي عناه وقصده وذلك من خلال هذه الابيات التي نراه فيها يقول: [٢]

قد يصيرُ الشَّوك اكليلاً لِمَلْكٍ أو نَبيّ

ويصير الوَرْدُ في عُرْوة لِصّ أو بَغيّ

---

(١) السمير ١٥ تشرين أول ١٩٤٠م.
(٢) الجداول ١٦٩.

أيغارُ الشّوك في الحقل من الزَّهر الجَنيّ

أم تُرَى يَحْسبُه أحقرَ منْه؟

لستُ أدْرِي

وقد يلجأ بعض الناس الى القوة ليحصلوا على حقوقهم كاملة، كُلّما حاول احد ايذاءهم، او التسلط عليهم بغير حق. أمَّا البعض الآخر فنراهم يلجأون الى الصّفح والمسالمة في المواضع التي يجب عليهم ان يكونوا فيها اشداء على اعدائهم، فيخسرون بمسالمتهم لهم حقوقهم ويخسرون بعد خسارتها سمعتهم، وتداس كرامتهم. بينما هم في حقيقة امرهم اقوياء قادرون ساعة يشاءون على ظُلم مَنْ ظَلَمَهم.

وكان ابو ماضي يعتقد كل الاعتقاد بأن «شريعة الغاب» هي افضل الشرائع في كل عصر وأوان حتى بين الادباء الذين يجدون انفسهم في بعض الاحيان مضطرين لاستعمال الشدة دفاعا عن حقوقهم المشروعة لكي لا يمتهنها طلاب الشهرة وادعياء العبقرية والعبقرية منهم براء: «وسيبقى الاديب مكرها (قال ابو ماضي) بين حين وآخر على الزود عن حياضه لئلا يكدرها السفهاء والدفاع عن حومته لئلا تناله أوحال الادعياء»[1]. والى هذا المعنى قد قصد ايضاً وذلك حينما قال: [2]

قد يقيني الخطَرَ الشّوكُ الذي يَجْرَحُ كَفِّيْ

ويكون السّمُ في العِطْر الذي يملأُ أنفيْ

إنّما الوَرْدُ هو الأفضلُ في شَرْعي وعُرْفيْ

ـــ وهوَ شَرْعٌ كُلُّه ظُلْمٌ وَلَكنْ..

لستُ أدْرِي

لَقد فَكّرَ أبو ماضي كثيرا بمتاعب النَّاس فأراد ان يخفِّف عنهم بعض ما هم فيه من ضَنَك او عناء، فأوصاهم تبعا لذلك بالاخذ بمبدأ «القُوَّة» لكي يجنّبوا انفسهم الوقوع في العديد من المشاكل والازمات. اما مشكلته التي سبَّبَت له الكثير من

---

(١) السمير ١ تموز ١٩٣٤ م.

(٢) الجداول ص ١٧٠.

الضنى والسُهاد فهي مشكلة «الوجود» وما فيه من اسرار وكائنات. ولما وجد أنه لم يتمكّن بعدُ من ان يعثر على حل لهذه المشكلة، رفع رأسه الى السماء باحثا فيها ومفتشا عن «ضالّته المفقودة» تلك فما ان وقع نظره على النجوم المتلألئة المتوهّجة فيها، ثم شاهد بعد ذلك السُحب تركض خائفة تحتها لتلقي بأثقالها على الغاب، فتورق فيه الاشجار؛ وكل ذلك من غير أنْ تدري سرَّ اثمارها، او وجودها كما لا تدري النجوم سرَّ إشراقها وتوهجها حتى ايقن حينذاك بأنها لا بُدَّ بأن تكون وإيّاه متساويين في الجهل في هذا المضمار كل التساوي: (١)

قد رأيت الشُهْبَ لا تَدْري لماذا تُشرِقْ.

ورأيت السُحبَ لا تَدْري لماذا تَغْدِقْ.

ورأيت الغابَ لا تَدْري لماذا تُورِقْ.

فلماذا كُلُّها في الجهل مِثْلي؟

لستُ أدْرِيْ

فاستبدَّ به يأس قتّال، بسبب جهله هذا، حتّى اضحى كلما ايقن بأنه موشك على العثور على مبتغاه ضحكت «نفسه» ساخرة منه، ومن جهله، وغروره. فطلب منها ان تخبره حينما رآها تضحك منه ما اذا كان الجهل شقاء أم نعيما؛ ونحن لا نجد كبير عناء في فهم المغزى الرئيسي لتساؤلات ابي ماضي المتعمدة هذه التي قد شاء من وراءها ان يثبت لنا بأن صاحب العقل الراجح شقي دائما في حياته، أمّا الجاهل المُدَعِّي فهو كلما غاص في بحور جهله واغترار بنفسه كلما ازداد سعادة على سعادة، وحبورا على حبور: (٢)

كُلّما ايقنت أنّي قد أمطْتُ السِتْرَ عَنّيْ

وبلغت السِرَّ سِرِّي، ضَحكت نفسيَ منّيْ

قد وَجَدْتُ اليأس والحيْرَة لَكِنْ لم أجِدْنيَ

فهل الجُهْلُ نَعِيْم أم جَحِيْمٌ

لستُ أدْرِيْ

---

(١) الجداول ص ١٧٠.
(٢) الجداول ص ١٧١.

وكم كنت اتمنى لو ان ابا ماضي امعن الفكر قليلاً في قوله في البيت الثالث: «قد وجدت اليأس والحيرة لكن لم اجدني »لكان ادرك من تلقاء نفسه بأنه قد بلغ منه حد التعمية وذلك حينما جعل قافيته لفظة لم اجدني التي كان بامكانه ان يستبدلها بلفظة أخرى سواها تفي بالمراد ولكن كما يُقَال: للقوافي عند الشعراء ضروره واحكام. ولقد كان باستطاعة ابي ماضي ان يستبدل عبارة لم اجدني بعبارة من يُفِدْني فيستقيم المعنى بذلك مع استقامة الوزن أيضا على ان يجعل مَنْ اسم شرط جازم وفعل يُفِد فعل الشرط مجزوم بمَنْ. اما جواب الشرط فيصبح تبعا لذلك: من يفدني عن سري الكامن في نفسي وشخصي فأنا مُستَعِدٌ للاستفادة منه كُل الاستعداد ،وحذف جواب الشرط جائز وذلك من الناحيتين النَّحويَّة والبلاغية.

وبعد ان سألنا أبو ماضي عن الجهل اهو نعيم ام شقاء؟ انتقل بنا ليسألنا عن مصدر تلك اللذة الروحية التي نشعر بها كُلَّما شَنَّف آذاننا بلبل بصوته الرخيم، أو ترامت الى مسامعنا اصوات حفيف الاوراق، حينما تداعبها نُسيمات الربيع، والجداول تجرى من تحتها هامسة همسات العاشقين المغرمين، والنجوم تتلألىء فوقها كما تتلألىء المشاعل في الليل البهيم، إن كانت هذه اللَّذة صادرة من اعماق نفوسنا، أم سَبَبَها ما وقع نظرنا عليه من مناظر ممتعة ومباهج مفرحة للقلب والعين؟!. ولعل ابا ماضي نفسه قد ادرك تمام الادراك بأن مبعث هذه «اللذة» الروحية التي نشعر بها كُلَّما وقع نظرنا على منظر جميل فَتَّان مصدرها نفوسنا الجميلة التي لو لم تكن هي نفسها جميلة لما شاهدت ذلك الجمال «المُطلَق» الذي يشبهها في حسنها وجمالها.

افمن يستمع في نظره ونظرنا الى عصفور يُغَرِّد يشعر بما يشعر به من يستمع الى نقيق ضفدعة من الضفادع؟ ومن يقف على ضفة جدول مُتَرَنِّم يحس بما يحس به الواقف على حافة واد عميق القرار او وسط آثار متهدمة تحكي قصص العصور والاجيال فلولا جمال نَفسِ الجالس على ضفة جدول من الجداول، ولولا جمال ذلك الجدول ذاته لما كان هناك اي احساس بوجود مثل تلك «اللذة» في أي نفس من النفوس الجميلة الخَيِّرَة: (١)

---

(١) الجداول ص ١٧١.

لَذَّةٌ عِنْدِيَ أَنْ أَسْـمَعَ تَغْـرِيدَ الْبَـلابِل
وحفيفَ الوَرَقِ الأَخْضـرِ أو هَمْسَ الجَدَاوِلْ
وأرى الأَنجمَ في الظَّلمـاءِ تبـدو كـالمَشَاعِلْ
أتُرَى منها أمِ اللَّذة مِنِّي؟

لستُ أَدْرِي!

اننا نشعر ونحن نتابع دراسة وتحليل ابيات هذه القصيدة الغامضة بأن افكار ابي ماضي لم تكن فيها متسلسلة تسلسلا منطقيا، فهو ينتقل فيها من فِكرة الى فِكرة ومن موضوع الى موضوع قبل ان يمهد لفكرته الجديدة بفكرة قريبة منها تُهَيِّئ افكارنا لاستقبالها. فهو بعدما حدَّثنا عن تلك النشوة الروحية التي نشعر بها كُلَّما استمعنا الى تغريد بلبل او جدول مترنم، انتقل بنا بعد ذلك فجأة وبلا مقدمات ليحدِّثنا عن المصدر الاول للحياة متسائلا عن الارواح قبل حلولها في الاجساد، ما اذا كانت انغاماً في اوتار؟ او امواجا متكسرة على صفحة جدول، ام اريجا ام حفيفا ام نباتا؟ فأبو ماضي كما اسلفنا واثبتنا بالادلة والبراهين لم يكن مؤمنا بخلود الارواح التي لا توجد في الجسد الا بعد وجود التراب والماء والهواء فيه وقد ازددت ايمانا بصحة ما اقول وذلك بعد قراءتي لمقال له كان قد كتبه عن حياة عمر الخيام وقد جاء فيه قوله: (1) «كان يسيرُ في الروض (اي عمرالخيام) وبين الورود والرياحين، ولكن لا كما يسير الناس للنزهة والتفرج يرى البنفسجة فيحسبها مهجة عاشق ملت البقاء دفينة فخرجت من بطن الارض الى ظهرها لكي تتمتع بالهواء والنور ويطأ النبات النامي وكأنه يطأ قلوباً وأرواحاً».

وقد ظل معتقدا بهذا الاعتقاد نافياً ان تكون الارواح قد هبطت الى الارض من الكواكب السيَّارة الاخرى حسبما يعتقد بعض الفلاسفة والعلماء حتى قبيل وفاته بسنوات قليلة حيث نشر في جريدته «السَّمير بتاريخ ٩ حزيران ١٩٥٣م مقالاً جاء فيه قوله: «يقول العلماءِ الذين تقطعت اعمارهم في البحث عن المصدر الاول للحياة انها ابتدأت في البحر، في الماء... وقال البعض الآخر ان جرثومة الحياة

---

(1) السمير ١٥ شباط ١٩٣٠ م.

الاولى هبطت من الكواكب غير ان النظرية المتفق عليها هو ان الماء مصدر الحياة فإذا لم يكن هواء ولا ماء فلا حياة..»[1]

أتُراني كنتُ يَوماً نغماً في وَتَرِ
أم تُرَاني كنتُ قَبْلا موجةً في نَهَرِ
أم تُرَاني كنتُ في احدى النُجوم الزُّهَرِ
أم أريجاً أم حفيفاً أم نسيماً؟
لستُ أدْرِيْ

فالبحر إذاً كما يقول ابو ماضي هو مصدر الحياة، ولكنْ بعد أن تحولت مياهه المالحة الى مياه عذبة صالحة للشرب والإِرتواء.

واننا لنرى الاستاذ مخائيل نعيمة نفسه بالإضافة الى اعتقاده «بالتقمص وبخلود الارواح» يعتقد ايضاً بما يشبه هذا الاعتقاد الذي اعتقده ابو ماضي في البحر. وقد جاء على لسانه في كتابه عن حياة جبران خليل جبران قوله:[2] وجَمَحَ به الخيال (اي جبران خليل جبران) فإذا ما فَكَّر بالنُور في عينيه قال: هو مِنَ الشَّمس - فالشَّمس فيَّ وأنا فيها، او بالبحر قال: مِنَ البحر أرتوي فالبحر فيَّ وأنا فيه، وبالارض قال: مِنَ الارض اغتذي؛ فأنا الارض والارض أنا..»

فالاستاذ نعيمه قد كان يؤمن إذاً ايمان ابي ماضي وبعض الفلاسفة العلماء الذين اهتدَوْا الى القول بعد تفكير متواصل عميق؛ أنَّه ما دام الانسان مكونا من ماء، وتراب، وما دام البحر هو مصدر الماء، والارض مصدر التراب فهوإذاً «أرض» و «بَحْر» و «سماء»:[3]

فيَّ مثل البحر أصداف ورمل ولآل
فيَّ كالأرض مُروجٌ وسفوحٌ وجبالْ
فيَّ كالجو نجومٌ وغيومٌ وَظِلالْ
هل أنا أرضٌ وبحرٌ وسماء؟
لستُ أدْرِيْ

---

(١) الجداول من ١٧٢.
(٢) جبران خليل جبران تأليف مخائيل نعيمة ص ١٠٧.
(٣) الجداول ص ١٧٢.

فالانسان ليس إلا كياناً واحداً مكوناً من مجموعة كيانات بعد تلاشيها واستحالتها فيه.. فهو يشرب العسل المُصَفَّى الذي يصنعه النَّحل من رحيق الازهار، ويشرب الخمرة التي تجود علينا بها الدوالي في الكروم، ممزوجة بالماء الزُّلال، ويأكل البقول والأثمار، ولحوم الاطيار، والابقار، والاغنام، فتتحول كلّها بفضل الماء في جسده الى دماء تتدفق في عروقه - منْ وإلى قلبه - جاعلةً منه «قلباً» نابضاً بالحياة: (١)

مِنْ شَرابي الشَّهْدُ والخمرةُ والماءُ الزُّلالْ

مِنْ طعامي البَقْلُ والأثمار واللحمُ الحلالْ

كم كِيانٍ قد تلاشي في كياني واستحالْ

كم كيان فيه شيءٌ من كياني

لستُ أدرِي؟

فهذا الانسان الذي هو «مجمع الغرائب والألغاز» مهما كان لَبِقاً وفصيحاً، فهو ليس بألبق ولا أفصح من عصفورة الوادي؛ وهي ترتل على مسامعنا أناشيدها الملائكية. ولا هو أبهى ولا أكرم من الزَّهرة وهي توزّع أريجها على الكائنات منْ حولها بلا حساب. وَهُوَ وإِن يكن مُتَّصفاً بالمسايرة والملاينة والدَّهاء، فدهاؤه وذكاؤه لا يقلان عن دهاء الحية وذكائها ولا هو أمهر من النَملة ولا أغرب منها، وهي تَسْعى لرزقها، وتصنع مساكنها بطريقة تجعلها في مأمن من تسرب مياه الامطار اليها لكي لا تفسد عليها طعامها الذي احتجزته لنفسها مُتَّخذةً منه طعاماً لها في أيام الشتاء، ولياليه المظلمة الباردة.. فهذه المخلوقات قد جُبلَتْ والانسان منْ طينة واحدة الا وهي طينة التراب المجبول بالماء. وهي كذلك ستلاقي بعد موتها نفس المصير الذي سيلقاه أي انسان بعد موته. وكما أنها ليست بأقل منه في المرتبة والاصل فهي شبيهة به إذاً منْ وجوه شتّى؛ لأنَّها تحيا كما يَحْيَا، وتموت كما يموت، وتأكل كما يأكل، وتشرب مِمَّا يشرب، ولها رُقاد كرقاده وانتباه كانتباهه. وربما كان لها فيما بينها لغة اشبه بلغتنا. فنحن إِذاً قد لا نمتاز عنها إِلا بفضيلة النطق وهذه الفضيلة لم نَكْتسبْها إِلاَّ بعد أَنْ تحوّل «آخر افق الحيوان فينا الى اول

---

(١) الجداول ص ١٧٣.

افق الانسان». وهذا التَّحوّل آمن به ابو ماضي ذاته، كما آمَن به الاديبان الكبيران مخائيل نعيمة وجبران خليل جبران..»[1] وكان كلانا يؤمن (قال الاستاذ مخائيل نعيمة في كتابه عن حياة جبران) بأنَّ النفس في النوم تستجلي خيالات كثيرة من ماض سحيق، كأحلام الطَّيران التي تعود بالانسان الى زمان كان فيه طائرا قبل أن يصير انساناً؛[2]

أأنا أفصحُ من عصفورة الوادي وأعذَب؟

ومِنَ الزَّهرة أشهَى؟ وشذى الزهرة أطيَب؟

ومِنَ الحَيَّة أدهَى؟ ومن النَّملَة أغرَب؟

أم أنا أوضعُ منْ هذي وأدنى؟

لستُ أدري

كلُّها مِثْليَ تَحيا، كُلُّها مِثلي تَموتْ

ولها مِثْليَ شَرَابٌ، ولها مِثْليَ قُوتْ

ورقادٌ وانتباهٌ وحديثٌ وسُكُوتْ

فبِمَا أمتازُ عَنها ليتَ شِعْرِيْ؟

لستُ أدرِيْ

قد رأيتُ النَّمل يَسْعى، مِثْلَما أسعى لِرِزْقيْ

وله في العيش أوطارٌ وحَقٌّ مِثْلُ حَقِّيْ

قد تساوى صَمْتُه في نَظَرِ الدَّهْرِ ونُطْقيْ

فكلانا صائرٌ يوماً إلى مَا

لستُ أدرِيْ

ولقد شَبَّه ابو ماضي نشأة الروح، وتكوّنها في اجسادنا، بنشأة الخمرة وتكونها. لكي يثبت لنا بما لا يدع مجالا للشك بأن الخمرة والروح هما من مصدر واحد. وكما أن الخمرة مسجونة في وِعاءٍ من طين، وهي لا تفارق سجنها الا بعد ان

(١) انظر كتاب جبران خليل جبران لمخائيل نعيمة ص ١٧١.
(٢) الجداول ١٧٣ – ١٧٤.

ينزاح الختم عن فم دنها، فالروح كذلك لا تفارق سجنها الموجودة فيه الا بعد مجيئها إلى هذا العالم.. ولكن تلك الخمرة لم توجد فقط بوجود دَنّها. فهي قبل أن حُبِسَتْ فيه، كانت جارية في نظر ابي ماضي في عروق الدّالية وقبل وجودها في عروق الدالية كانت غيوماً سابحة في الفضاء الرَّحب. وتلك الغيوم لم تتحول الى غيوم إلاّ بعد أن تَبَخَّرت مياه البحار والمحيطات، وانعقدت غيوماً وضَبَاباً في السَّماء. فهذه الخمرة إذاً قَبْلَ أنْ أصبحت خمرة، كانت موجودة في مياه البحر. ومن هنا يتأكد لنا ان البحر المصدر الاول للحياة. ولكن مياهه قد لا تكفي وحدها لتجعل الحياة تدب في الكائنات الموجودة على سطح الارض من حيوان ونبات وانسان.. بل هناك بعض العوامل المساعدة المستقرة في باطن الارض او على سطحها التي تتفاعل هي والماء تفاعلا يؤدي الى وجود الحياة في بعض الكائنات.. فلولا اتصال الزوج بالزوجة مثلا اتصالاً روحياً مقدساً ولولا وجود التربة المناسبة في رحم الزوجة التي يغرس فيها الزوج «بذرته» الصالحة للحياة لما كتب لأي جنين أن يتكون في بطن أمه، بعد مُضي تسعة أشهر معدودات، يكون فيها قد أخذ ما هو بحاجة اليه من الغذاء غذاء الأم المؤلف من البقول والالبان والأثمار والحبوب واللحوم التي تكونت بواسطة الماء، والتراب، والهواء والنَّار: (١)

أنا كـالصَّـهْـبـاء، لَكِنْ أنا صَـهْـبـائي ودَنّيْ
أصلَها خـافٍ كـأصلي، سجنهـا طِينْ وسِجْنَيْ
ويُزَاح الخَـتْم عَنْهـا مِـثْلَمـا يَنْشقُّ عَنّيْ
وهي لا تَفْقَهُ مَعْناها؛ وإنّي
لستُ أدْري

غَلِطَ القـائل أنَّ الخَـمْـرَ بِنْتُ الخَابِيَـة
فـهي قـبل الزِّقّ كـانت في عُـروق الدَّالِيَـة
وحـواها قَـبْل رَحْمِ الكَرْم رحم الغَـادِيَة
إنّما مِنْ قَبْلِ هذا أينَ كانتْ؟
لستُ أدْري

(١) الجداول ص ١٧٥.

شبّه ابو ماضي المراحل التي يجتازها الجنين، قبل أن يصبح انساناً سويا بالمراحل التي تجتازها الخمرة قبل ان تصبح خمرة. وهذه الخمرة ايضاً قد لا تموت بعد شربنا لها مباشرة بل نراها تتحول الى احاسيس ومشاعر وربما الى دماء تجري في عروقنا فهي إذن كالانسان، ليست مستثناة من شريعة «التبديل والتحويل»،[١] «فالانسان الذي يعتقد انه مستثنى من شريعة التبديل والتحويل الابدية (قال ابو ماضي) هو بلا شك رجل أحمق، وأعيذك ان تكون ذلك الرجل..» فإيمانه إذن باستحالة الموجودات بعضها الى بعض دون توقف وانقطاع هو الذي جعله يؤمن ببقاء الانسان بعد موته ولكن بشكل مختلف عن الشكل الذي كان عليه.. واما الروح التي يعتقد ابو ماضي أنها نفحةٌ من الله..[٢] فهي لا توجد في أي جسد إلا بعد وجوده. إذْ إنّها مَعَه تأتي ومعه تذهب:[٣]

هيَ في رأسيَ فِكرٌ وَهيَ في عَيْنَيَّ نورْ

وَهْيَ في صَدريَ آمالٌ، وفي قَلبيْ شعورْ

وَهْيَ في جِسْمي دَمٌ يسرب فيه ويَمُوْرْ

إنّما منْ قَبل هذا كَيْفَ كانَتْ؟

لستُ أدْريْ

فتَبَعا لهذا الاعتقاد فلن يكون باستطاعة ابي ماضي ان يذكر شيئا من حياته الماضية لأنّه قبل ان أصبح انساناً سوياً ذا عقل وإدراك وأحاسيس، كان حيوانا ما، والحيوان لا ينطق وهو لا يعرف شيئا عن حياته الآتية لأنه سوف يتحول بعد موته الى تراب ثم جماد ثم نبات وهو ينكر معرفته «لذاته» التي يقصد بها هنا «الروح» وهي «روح» ليس بإمكانه أن يعرف عنها شيئاً وما الذي سَيَحُلُّ بها بعد مفارقتها للجسد وصيرورته ترابا في التُّراب:[٤]

أنا لا أذكرُ شيئاً من حياتي الماضيَة

---

(١) السمير ١٥ آب ١٩٣١ م.
(٢) السمير ٣ نيسان ٥٧ العدد ٦٠.
(٣) الجداول ص ١٧٦.
(٤) المرجع نفسه.

انا لا اعـرف شيـئـاً منْ حيـاتي الآتيـه

ليَ ذات غـيْـر أنيَّ لستُ أدري مـا هيَـهْ

فمتى تعرف ذاتي كُنْهَ ذاتي؟

لستُ أدْرِيْ.

ولقد جاء الانسان الى هذه الدنيا مكرها، وسيفارقها مكرها، فهو لا يعلم لذَهَابه مَوْعداً. فحياته لُغزٌ حَيّر عقول العُلَماء، وذهَابه لُغز أيضاً لا يعرف كُنْهه إلا الله عَزَّ وجَلَّ الذي رَجَع اليه ابو ماضي بعد أن أعياه البحث والافتراض. ليقينه التام بأننا كلما أوهمنا انفسنا باقترابنا من معرفة «حقيقة» وجودنا نكون قد ابتعدنا كل الابتعاد عن معرفتها الحقَّه. [1] ما اغرب الحياة واعجب أطْوارَها (قال ابو ماضي)، تخلع علينا الشباب المُؤْنِقَ حتى إذا وَثِقْنَا أَنَّه لنا استردته منَّا استرداد النَّادم، وَتخْلُق حولنا الفَرَاديس الجميلة، وتفتح ابصارنا عليها، حتَّى إذا أَحببناها وهِمْنا بِهَا، وصِرْنا على عِلْم بلذَّاتها صرخ القبر ونادَىْ: «اقتربوا مِنَ التراب يا أبناءَ التُّراب.» : [2]

إنَّني جئتُ وأَمْضي، وأنا لا أَعْلَمُ

أنا لُغزٌ، وذَهَابي كمجيئي طِلْسَمُ

والذي أوجد هذا اللّغزَ لُغزٌ مُبْهَمُ

لا تجادِلِ.. ذُوْ الحِجَىْ منْ قالَ: إنِّي

لستُ أدْرِيْ

---

(١) السمير أول ايار ١٩٣٢م.
(٢) الجداول ص ١٧٧.

وصف الطبيعة

حِضْن «الطبيعة» اشبه بحِضْن «الأُم» الرَّؤوم، فهي تحنو وتعطف على أبنائها كُلّما وجدتهم مقبلين نحوها، طلباً للراحة والهدوء.

فالاجساد المضنوكة المتعبة، قد لا تستعيد قوتها ونشاطها إلا بعد أن تستظل بظل اوراق أغصان الاشجار. والنفوس المتعبة المتضجّرة قد لا تنسى متاعبها ومشاكلها إلا بعد سماعها لاصوات الطيور وهي ترتل اناشيدها الملائكية السَّاحرة.

وهل هناك مكان ابهى وابهج للنظر من المكان الذي تترقرق فيه مياه الجداول والينابيع ولا يسمع فيه إلا حفيف اوراق الاغصان؛ والنسيم العَليل يداعبها مداعبة الأم الحنون لاطفالها الصِّغار والعصافير تتنقَّل بين الاشجار. والفراشات ترفرف بأجنحتها المزركشة بشتى الالوان فوق الورود والاعشاب.

ولقد يَسَّرت الاقدار لابي ماضي سبيل العيش وَسَط أَحضَان «الطَّبيعة» قبل ان يتجاوز العاشرة من عُمْره. ولم يبتعد عنها إلا حينما وجد نفسه مكرها اكراها على مغادرتها ليذهب ويعيش في المُدُن الكبيرة الصاخبة، سعياً وراء العيش، وابتغاء لحياة أفضل وأسمى.

ولقد كان كُلَّمَا تَقَدَّم به السِّن كُلَّما ازدادت همومه وكثرت مشاغله. فلم يكن ليجد ملجأ أَمينا يلجأ اليه عَلَّه ينسيه متاعبه في الحياة سوى حِضن «الطَّبيعة»، والاستغراق في هَواها استغراقا كُلّيا: «ولا شيء يَجْلِب الغِبْطة والحُبُور (قال ابو ماضي) الى النَّفس المضنوكة، مثل الاستغراق في هَوى «الطبيعة» والدُّخول إلى هيكلها لعبادتها. فكم غسل النَّظر الى الماء المُتَماوج الشَّادي من هموم. وكم مِنْ نَظرة الى القمر في ليلة صافية، دفعت إلى العلاء روحاً كانت من متاعب الحياة كأنّها في حَبْس..».(1)

---

(1) السمير ١٩ آب ١٩٤٠ م.

فَحُبُ أبي ماضي «للطبيعة» وتعلقه الشَّديد بها، وبكائناتها؛ مصدره إذاً حاجته الماسة اليها. فكثيراً ما كان يشعر اثناء اقامته بين احضانها، ولو لفترة قصيرة بما يشعر به الجالس في مَهْرجان أو في هيكل مقدَّس: «نظرة واحدة الى النجوم في ليلة صافية الاديم (يقول ابو ماضي) او نظرة الى الاشجار المتسربلة بالثلج او الى بحيرة جَمَدَ ماؤها في البَرْد. نظرة واحدة مع قليل من التأمل والتفكير تملأ النفس غِبطة او خشوعا اكثر من وجود المرء في مَهْرجان، او في هيكل من هياكل العبادة..» (١)

وقد أكد ابو ماضي نفسه رأينا الذي ارتأيناه فيما يتعلق بسر محبته للطبيعة وذلك حيث قال ذاكراً في احدى مقالاته السبب الذي ارغمه على مغادرة مكتبه في نيويورك في احد الايام: «لم اخرج من مكتبي لغرض مقرر أو نيَّة معلومة الا الرغبة ذاتها في الانعتاق من سيطرة الحِبْر والورق والشوق إلى رؤية الربيع ينبعث مِنَ الشجر خضرة ونضرةً ومِنَ الجداول والسواقي رقرقة وخريرا..» (٢)

احب ابو ماضي «الطبيعة» وهي ترتدي اجمل زينتها في ايام «الربيع» و «الصيف» ولكنه لم يكن يستسيغ كثيرا منظرها في ايام «الشتاء» اذ كثيرا ما كان يتمنى الغِنَى كلما قدم عليه ذلك الفَصْل «المخيف» ببرده وزمهريره وثلوجه وضبابه وهو مقيم في نيويورك عَلَّه يتمكن بواسطته من الانتقال منها فجأة ليذهب ويعيش في بلاد لا مطر فيها ولا رياح، وشمسها دائمة الاشراق، ومناخها معتدل لا هو بالبارد ولا بالحار: «كنت من قبل (قال ابو ماضي) أذُمّ الشتاء وأوَدّ لو أنَّه لم يوجد، أو أنَّه جاء وأنا في مكان قريب من خط الاستواء. او لو كنت غنيا، يمكنني ان انتقل الى موضع لا شتاءَ فيه فِراراً من البَرْد القارسِ والوحول والثُّلوج والغُيُوم السَّوداء». (٣)

ولم يكن يحزنه شيء مثلما كان يحزنه رؤيته للناس من حوله وهم يستقبلون الصَّيف الضَّاحك المتهلل بوجوه مكتئبة مُكْفهِرّة. فكان يدعوهم حينذاك الى نسيان متاعب الحياة وهم يُسَرِّحُون انظارهم في الجبال والوديان والأنْهر والغابات. عَلَّهم

(١) السمير ١٩ كانون الاول ١٩٤٠ م.
(٢) السمير ٢٠ نيسان ١٩٣٨ م.
(٣) السمير ١ كانون الثاني ١٩٣٥ م.

يتمكّنون ، بنسيانهم هذا ، أن يشاهدوا « الطَّرب » مشاهدة جليَّة ، وهو يلف الكائنات كلها بردائه المزركش بالألوان : « وإنَّ الذي يسرِّح النظر اليوم في الاودية والجبال والسهول يرى الطرب شائعاً في الاشجار والاغراس والانهر والسواقي والابتسام يتدفَّق من الورق خضرة ومن الازهار عطراً ، ومن الشَّمس نوراً . أجَل إنَّ الحياة تضحك في الصَّيف ضِحكا لا تَكَلُّفَ فيه ، ولا تَصَنُّع . فما أجدر الناس أن يتعلموا منها ، وأن يقتدُوا بها . فإن الهم كالقُطن كُلما شَدَدْتَ عليه تَلبَّد ؛ وكُلَّما عالجته انتشر وكثُر » . (١)

وكان ابو ماضي من جَرَّاء تعلقه « بالطبيعة » وعبادته لها عِبادةً تبلغ حَدَّ التَّقديس يُشَبِّه ذهاب الانسان الى الشواطىء ، والجبال ، في أيام الصَّيف فارّا من وجه المدينة العابس المتهجم الى وجه « الطبيعة » الضاحك المترنم ، « برجوعه من غربته الى وطنه الاول الى الاله الذي يصلي له الشعراء في خَلَواتهم » .

فالشعراء المتوجهون بصلواتهم الى تلك الارض الطَّيِّبة المعطاء ، التي خلقها لهم إلهٌ عادل رحيم . يعلمون في قرارة انفسهم بأنهم يتوجَّهون الى ارض تختلف كل الاختلاف عن ارضنا التي نطأها بأقدامنا كُلَّ يوم ، وتنتصب فوقها منازلنا ، وتُمر بها شوارعنا . فهي ارض طيبة طاهرةٌ لا آثرَ فيها للكذب ، ولا للرياء ، او المماطلة والخداع .. حتى النساء فقد وجد ابو ماضي أنَهنَّ بحاجة الى الانتقال الى تلك الارض الطَّيِّبة بشَرْط ألا يحملن معهن بعد انتقالهن اليها شيئا من رواسب مدينتهن المُضَلِّلة الفاسِدَة : « إذا خَرَجْتِ من المدينة (قال ابو ماضي مخاطباً امرأة مجهولة وهو بمخاطبتها كأنَّه كان يخاطب كافة النساء) فانفضي غبارها عن حذائك وأطلقي روحك من سلاسل التَّصنع والرّياء ، والتكلف فيها ، سلاسل المجتمع المغلوب على امره ، المأخوذ بسحره المدمن الشرب لئلا يصحُو من سُكره وإذا صِرت في الخَلاء فاستقبلي الهواء والنّور بملء صدركِ وبكلّ جوارحِكِ ، ولا تخافي أن تستوهبي الصَّيف الكثير منهما . فليس أحَبّ الى « الطبيعة » مِنَ العَطاء . عَرِّضي وجهك للشَّمس تَسكُبيْ عليه ذَوباً سحْرياً . وافتحي رئتيك في الخلاء الفسيح تمتلئا هواء نَقِيا . وامشي بين الاعشاب البليلة ، والازهار الجميلة تَفِضْ على أثوابك وفي نفسك عطراً زكياً . واصغي إلى همس الجَداول ، وخرير السواقي ، تَسْمَعيْ وَحْياً عُلويا . ولا تُهْملي

---

(١) السمير ٨ آذار ١٩٤٨ م .

الاصغاء الى شدْو الطيور عند الأصيل، وزقزقة العصافير عند الفجر. فإن للطيور لغةً كُلّها شِعْر وكُلّها سحر». [1]

فهذه اللغة السحرية المتصاعدة من افواه الطيور عند الشروق أناشيد شاعرية ساحرة لم يكن ليستسيغها او يستعذب سماعها إلا سكان المُدُن الذين وجدوا انفسهم وهم يقيمون داخل منازلهم القريبة منْ بَعْضها، كما لو كانوا مقيمين داخل أسوار سجن من تلك السجون المُعَدَّة خِصِّيصاً لتعذيب الخاطئين المُضَلّلينَ منَ البشر: «ليس في المدينة جمال (قال ابو ماضي) إلاَّ وهو مسروق او مستعار من «الطبيعة»، وليس في الطّبيعة قُبْح إلا وهو مدسوس عليها منَ المدينة.

كم من قلب أهرمه الهَمّ في المدينة رَجَع في ظلّ «الطَّبيعة» الرؤوم جديدَ الشّباب، وكم منْ رُوح صارت لمتاعب المدينة وأكدارها كالمُومِياء، فَمَسَّتها يَدُ «الطَّبيعة» الساحرة ففكّت عنها اللفائف والاكفان وردّت اليها حياتها الأُولى. ورفعتها الى السَّحاب بعد ان كانت تتمرغ في التُّراب.. هناك الجمال السائغ الذي لا تَصَنُّع ولا تَكَلُّف فيه. وهناك الغِنَى الذي لا تخلق ولا تَبْلى روعته، هناك السَّعادة التي لا مَنَّ فيها على قاطف ثمارها، ولا خوف منْ نضوب مواردها؛، وإنما على الانسان الذي يبغي الظفر بها ان يفتح عليها عينيه. وإذا رآها ان يَسْعَى إليها غير مكترث بما يوحى به اليه شيطان المدينة الرابض في قرارة نفسه عَلّه أنْ يطرده أو ينبذه قَصِيّا. ويمضي غير معترف لسلطان ولا لسيادة الا لسلطان السماء والضَّوء والنُّور. فيرجع أَخيرا وفيه من الازهار طهرها والعبير، وفي نفسه منَ الجداول صفاؤها والحَرير». [2]

فـ «الطبيعة» تُعلِّمنا العطاء دون الاخذ أما المدينة فهي تعلمنا الاخذ دون العطاء. وهذا التعلم الذي علمتنا إيَّاه المُدن هو الذي كَدَّر صفو سعادتنا. وذلك بعدما استطاع سُلْطان المال ان يسيطر كل السيطرة على عقولنا وافئدتنا خلال اقامتنا في مدننا.

وحينما قارن ابو ماضي بين الانسان وبين الكائنات في «الطبيعة» وجد انها «كائنات» وَفيَّة تحافظ على عَهْدها، ولا تغدر بنا. فأوصانا تبعاً لذلك بمعاشرتها

---

(١) السَّمير ٣ تموز ١٩٤٤ م.
(٢) السَّمير ٢٨ آذار ١٩٣٨م.

وبالابتعاد قدر المستطاع عن «العمران» عَلَّنا بعد ابتعادنا عنه، نتمكن من أن نتخلّص تخلُّصاً كُلّيا مِنْ غريزة «حب الذات» فينا. فضمائرنا قد لا تصفو صفاء كُلّيّا، ونفوسنا لا تتطهر مِنْ أدرانها كل التَّطهر إلا بعد ان نكون قد اقتربنا بعقولنا وأرواحنا وأجسادنا مِنَ الطبيعة كُلَّ الاقتراب: «اقترب من «الطبيعة» بروحك وعقلك مثلما تقترب منها بجسدكَ عِندما تقتربُ من المحيط الذي صنعه الانسان الى المحيط الذي صنعه الله. وَرَوِّض نفسك على تفهّم ما ترى مثلما تروّض جسمك. فإِنَّك لتستفيدُ من معاشرة الشَّجر والزَّهْر والطَّيْر والماء اكثر مِما تستفيدُ من معاشرة الناس؛ لأنَّ هذه لا تخادعك ولا تمكر بك ولا تصحبك لمأرب تطلبه عندك او حاجة تريد أن تقضيها بواسطتك». [١]

فأبو ماضي ينظر الى جميع الناس فيراهم كُلّهم في الغِشّ والخِداع سواسية. ففي نظرنا ان ارض الحقل تنبت الازهار والاشواك كما تنبت ارض «المدينة» لنا أناساً خيِّرين وأناساً أشراراً مفسدين. فوجود «الشَّرِّ» في نفوس بعض سكّان المدن لا يجعلنا نَيْأس من العثور على الكثيرين الخيرين من ابنائها وذلك لأَنَّ طبيعة الانسان، ونشأته وتطوره، لَيْسُوا مُخْتَلِفِين عن طبيعة ونشأة وتطور الكائنات في «الطبيعة». إذ إِنَّنا نجد فيها الغُراب والبلبل والجُنْدب والفَراشة يَتَغَذَّوْن مِنْ ارض واحدة ويشربون من مياه واحدة. وكذلك نجد في المدينة أصحاب النفوس «الخَيِّرة» يَتَغَذَّوْن نفس الغذاء ويشرَبُون نفس المياه التي يشرب منها أصحاب النفوس «الشِّرِّيرة».

إنَّ «الطبيعة» جميلة وخَيِّرة، واجمل ما فيها ربيعها؛ فلنجعل إذا من مدننا التي نحيا فيها ربيعاً دائما مُتَّصلاً مملوءاً بالسعادة والهناء والاطمئنان: «إنك إن فهمت كيف تصحب الربيع (يقول ابو ماضي) وكيف تدعوه الى روحك حينما يدعوك هو الى حِمَاه، وَيَعْرِض عليك بدائعه، أدركتَ حينئذ أن ساعة واحدة على تلك الحالة خير من اعوام تُقْضي في حالة سواها. فَتزَوَّدْ سويعات قليلة تعينك على الأيَّام والشهور التي تتضايق الروح في طَيَّاتها ومَثَانِيها». [٢]

فنحن كُلّما اشتقنا الى رؤية الله عن كثب فلنذهب الى «البرّيّة» التي توجد

---

(١) السمير ٢٨ آذار ١٩٣٨ م.
(٢) المرجع نفسه.

فيها السكينة والوقارُ إذ لا ضوضاء فيها ولا قرقعة عَجَلات، ولا تقاليد بالية موروثة وأصوات مرهقة للأعصاب. ففي الطبيعة يتجلّى لنا مجد الله وعظمته. أمّا في المدينة فيتجلى لنا مجد «الانسان»، وغروره بنفسه. ومجد الله خير لنا وابقى من مجد الانسان الزائل الفاني الذي لا يسعه الاستغناء عن الطبيعة مهما شيَّد وبنى واخترع واستنبط: «في المدينة» (قال ابو ماضي) يرى الانسان مجد الانسان فيعجب بقوته وذكائه ولكنه في البرية يرى مجد الله ماثلاً لعينيه في الغابات والانهر والجبال والاودية. وفي النجوم عندما تُرْخي الظلماء سُدُولها، وفي الشمس عندما يَنْشَقُّ عنها جَيْب الفجر. وفي «المدينة» لا يفكر الانسان بالله إلا قليلا، أمّا في الخَلاء فلا يفكر بالانسان إلاّ قليلا. في المدينة يكيِّف المرء نفسه كما يشاءُ الناس، أمّا في الخلاء فيُكَيِّفُ ذاته وشؤونه ورغباته طِبْقاً لمشيئة «الطبيعة». ففي «المدينة» ينام ويستفيق على قرقعة الدواليب، وعَنِينِ المحركات الكهربائية، اما في الطبيعة فينام ويستفيق على زقزقة العصافير وخرير السواقي وصَدْح الجَنَادب.. في «المدينة» يفتح عينيه كيفما اتّجه على آيات باهرة، تُخبر عن ذكاء الانسان وبراعته ولَكِنَّها آيات للبَلى والفَناء، لأن مبدعَها زائلٌ فانٍ..». [1]

وكلما اقتربنا من «الطبيعة» بأرواحنا وقلوبنا كُلّما غفت في صدورنا الوساوس السوداء التي يوسوس بها لنا شيطان المدينة الذي لا ينفك يعمل على تحويل نعيمنا بوساوسه المتّصلة الى شقاء دائم متَّصل وليس هناك من جلسة افضل من جلسة تحت شجرة يسترخي فيها جسدنا على الاعشاب الطرية الندية، او وقفة قصيرة على شاطىء بحيرة حالمة ونحن نقرأ على صفحتها والامواج تتكسر عليها صوراً وآيات لم تكن قد خطرت في بالنا من قبل حيث تنتفض ساعتئذ الذكريات المفرحة في قلوبنا وصدورنا تماماً مثلما تنتفض فيها اثناء وقوفنا على قِمّة جبل عالٍ او حافة جَدْول تترقرق مياهه بين الحصى والاعشاب:

«فكم مِنْ شجرة (قال ابو ماضي) شعرتَ وأنتَ في ظِلّها كأنَّك في ظل رُوحْ عطوفة نبيلة شفوقة. وكم من بحيرة سَرَتْ في قلبك الطمأنينة عندما وقفت على الشط تنظر اليها وكم من جبل أو وادٍ أيقظ في روحك ذكريات قديمة كانت هاجعة

---

(١) السمير ٢٨ تموز ١٩٣٨ م.

فانتفضت كطيور الفجر. وأحسست عند استيقاظها كأنك تستردّ ما مضى من العمر. وكم خِلتَ أنَّ همومك لا تنقضي فلما صرت في حمى «الطبيعة» انطوت في صدرك الهموم. واذا بك مرح طروب كأنّك لم تعرف الانقباض في حياتك». (١)

فهذه الغبطة الروحية قد لا نحس بها ونحن نلوذ بحمى الطبيعة المعطاءة الا بعد ان نخلع عن اكتافنا رداء المدينة المُلوث بالغُبار والدُخان، المتصاعد من مداخن المصانع والبيوت. لنرتدي بدلاً منه ثوبا مصنوعا من اوراق الشجر ومرصعا بخيوط الفجر ومزركشا بأشعة الشمس الذّهبيّة قبيل الغروب.

وقد شاءت الاقدار ان يعود ابو ماضي ليعيش في كَنَف الطبيعة من جديد، بعد وصوله الى الولايات المتحدة عام ١٩١٢م. وذلك عندما اقام في سنسناتي اوهايو - مدة خمس سنوات. حيث الجبال الشامخة، والمناظر الفاتنة الخلأبة. فأوحت اليه اقامته فيها بمقال له كتبه عام ١٩١٥م وجعل عنوانه «مرحبا بالربيع» فأخذت الكلمات في مقاله هذا تتدفّق من فمه موسيقى والحاناً وكل ذلك من شِدّة فرحه بقدوم ذلك الفارس الاصيل المُسمّى بفصل الربيع الذي اعاد الحياة الى الكائنات وايقظها منْ سباتها العميق وخَلّصها من جمودها وكآبتها إذ إنَّ الاجساد لم تعد بحاجةٍ الى معانقة اللهيب ولا الى ارتداء الثياب الخشنة الثقيلة والآذان لم تعد تصغي الى ولولة العواصف والعيون لم تعد تقع على تلك الرقيعات من الثلج وهي تتساقط الواحدة تلو الاخرى على اسطح المنازل وامام النوافذ، مُنذرة بالويل والثبور كل من تسوّل له نفسه الخروج من داره ولو لفترة قصيرة فجميع الكائنات قد ولدت من جديد في هذا الفصل الجميل ألاَ وهو فصل الربيع وذلك بعدما ظلّت مدّة طويلة مكتئبة صامتة لا شعور فيها ولا حياة. فلنستمع اليه وهو يقول في مقاله هذا: (٢)

جَدَّد الدّهر للأرض صِبَاها

فانفلتت من كآبتها وجُمُودِهَا

واستيقظت احلامها ورُوءاها

اليومَ لا تتعثر بالثلوج أقدامُنا

---

(١) السمير ١٤ نيسان ١٩٢٩ م.

(٢) السمير ٢١ آذار ١٩٤٠ م.

ولا يقرِضُ الزّمهريرُ جلودَنا
ولا تلفح الرِّياحُ السَّمُومُ وجوهَنا (١)
ولا نلوذ بالمواقد لنعانق اللّهب
نحن الآن في الربيع.

لقد اوجد عودة الربيع الى الارض في تلك المدينة الدّفء في التراب، فانبعثت منه البقول والاعشاب، واكتست الاغصان بالزهر والاوراق، وانطلقت مياه الجداول والينابيع مُخترقة السهول والحقول وراح نسيمه يتنفس في مياه البحيرات. فأذاب الجليد عن صفحتها، واطلق مياهها منْ عِقَالها، وما ان لاحت منه التفاتة عَجْلى الى الجبال النائمة الحالمة حتى ايقظها بنظرته تلك منْ رقادها، معيداً إليها اخضرارَها وجمالها وألقها: (٢)

آجل لقد رَجَع الساحر العجيبُ
الذي يَلمسُ التُّراب الصَّامت البارد
فتدُبُّ فيه الحرارةُ وتخرجُ منه كائناتٌ حَيَّة
ويمشي في المكان الخالي المُقفر
فتدوي فيه اصوات وتَنْبُتُ فيه ازهار واشجارٌ
ويَرفُّ على الأودية النائمة، فإذا هي جداول وسواقٍ وغدران.

ويَطيف بالشجر العاري الجريد فإذا هو أوراق تصفّق، وثمرٌ يتدلّى، وظل وَرِيفٌ ويتنفس في البحيرات فتذوب سلاسل الجليد، وقيوده تحت انفاسه الحارَّة.

ويَرْمُق الجبال الشاحبة الباهتة المهجورة فيشعُّ فيها الألق، ويموج الجمال.

ويتراءى للنجوم فتضحك حتى يترنح الافق وتبدو ابتساماتها في حواشي الظلماء.

ويلوح للطيور فتغرِّدُ حتى تملأ الفضاء أناشيد..

شَخَّصَ ابو ماضي في مقاله هذا، كائنات الطبيعة فجعلها تَنْطقُ وتُحِس وتشعر وتتنفَّس كما يتنفس الانسان. فالبحيرة تتثاءب متضجِّرةً من شدَّة وطأة الجليد

---

(١) السَّمُومُ: الرِّيح الحارّة تكون غالباً بالنّهار.
(٢) السمير ٢١ آذار ١٩٤٠ م.

الجاثم على صدرها، ولم يستطع احد أن يخلّصها من ضَيفها الثقيل هذا إلا الربيعُ. وذلك لدى قيامه بهذه الزيارة المفاجئة لها حيث راحت النجوم تُطلّ منْ عليائها متوهجةً، متلألئة، لمشاهدة ذلك المحسن المجهول وهو يرتدي ثيابه المزركشة بالازاهر، والورود. وأما الازهار فقد أبَتْ بدورها أن تكتم فرحتها بعد اطلالته عليها فراحت تُخرج كنوزها بدورها من صدرها ففاح عطرها وملأ الكون حتى كاد أنْ يَلمِسُ أذيال السُحُب: (١)

أهلا بالملك الطَّالع منْ قصر الشتاء

اللأبس الزَّهر والنُجومَ

المتعطّر بالنُّور والأنداء والأشذاء

المُتوَّج بذهب الأصيلْ

المُوَشَّىْ طيلسانُه بلُجَيْن الفجْر

. . . .

لقد فرشت لك الارض بساطا منْ زَبَرْجَدْ

ونصبتْ لك الجبال أرائك منْ نور

ومدَّتْ فوقك السماء قُبّة منْ لازُوَرْد

وتصاعدت التهاليل من الارض والحقول والسَّواقي

فأبو ماضي حينما كان يصف الطبيعة، وإنْ كان وَصفُه لها في بعض الأحيان يغلبْ عليه الخيال، لم يكن يصفها وهو جالس وراء مكتبه او مستلقٍ على سريره في غرفة نومه بل كان كُلّما سمع بروعة مشهد من المشاهد يُمَنّي نفسه برؤيته عن كَثَب ليقينه الشديد: «بأن الوصف مهما تناهى في الدِّقّة لا يُؤَثِّر في الانسان تأثير المشاهدة والعيَان». (٢)

وقد اسعفه الحظ ذات يوم بقضاء بضع ساعات بين احضان مشهد منَ المشاهد الذي ادهش بروعته الكثيرين من مشاهديه. حيث نجده يشعر وهو يمتّع انظاره

---

(١) السمير ٢١ آذار ١٩٤٠ م.
(٢) السمير ٨ تشرين أول ١٩٤٠ م.

بذلك المشهد العجيب بما يشعر به العابد في محرابه، والمتبتّل في صومعته فهو قد كان اثناء وجوده فيه يشاهد بأمّ عينه صوراً ورسوماً، لم يصنعها انسان بل صنعها الله وكان ايضاً يَسمَعُ بأذنيه اناشيد وتواتيل وتسابيح وتهاليل كان ينشدها المنشدون ويرتّلها المرتلون»[1]

«هو يومٌ وددتُ لو أمتد، فصار شهراً !

هناك تسابيح وتهاليل، ولا معابد ولا أديرة

وهناك اناشيد والحان ساحرة ولا مُغنّي ولا عازف.

وهناك صور ورسوم رائعة ولا رَسّام ولا مُصوّر

وهناك قصائدُ مُرقصة ولا شاعرٌ..

وقد غادر ابو ماضي ذلك المشهد الساحر وهو مؤمن كل الايمان بأن «الإنسان قد صنع المدينة أما البرّيّة فقد صنعها الله».

ولقد كان هناك تعاطف كبير بين روحه وبين كائنات «الطبيعة» في شتّى حالات بؤسها او نعيمها. فكان يفرح لفرحها بقدوم فَصلَي «الربيع والصيف» اليها. ويحزن لحزنها حينما يجد الشتاء يلفّها برياحه الهوجاء بعدما يكون الخريف قد زحف عليها بجنوده مجرّداً ايّاها من مفاتنها ومحاسنها بحيث تبدو الاغصان بعد قدوم ذلك الجاني عليها منحنية نحو الارض باحثة ومفتشة عن اوراقها الصفراء المتساقطة الواحدة تلو الاخرى وذلك بعدما تكون السَّواقي قد انقطعت عن الخرير والانشاد. وبعد ان يكون خريرها قد تحول الى عويل، وانشادها الى بكاء. أمّا العصافير فقد راحت بدورها تلوذ بأعشاشها مطلقةً صرخات الاغاثة والاستنجاد حزناً على انقضاء الصيف وايذاناً بمجيء الشتاء»[2]

«نحن في الطريق (قال ابو ماضي واصفاً رحلة كان قد قام بها في ايام الخريف) عيوننا ترى وقلوبنا تأسى لمصرع الصَّيف الذي تخضبت بدمائه الرّوابي، والحقول. فحيثما نظر الانسان رأى أشجاراً عالية حانية مكتئبة، كأنها جماعة من النُّساك او الزُّهاد. فهذه بحيرة كانت على عهد بعيد نغمة راقصة شادية مشت

(١) السمير ٢١ آذار ١٩٤٠م.
(٢) السمير ٥ تشرين الثاني ١٩٤١م.

عليها رياح الخريف فهي الآن تتلوّى في قبضة الدهشة والكآبة كعاشقة ضاع حبيبها وعزَّ عليها ان تستحدث بعده عاشقاً آخر. وهذه ساقية كانت تغنّي للاشجار والازهار التي حولها فصار غناؤها بعد ذهاب اولئك الجيران عويلا ونُواحا وهذا حقل عَرِيَ من البَقل والاعشاب فصار أرضاً جرداء فأمسى حزينا كأنه ملك زال عن ملكه وانفَضَّ عنه اعوانه واخوانه وهذه عيْن كان المسافرون يقفون عندها، وقلوبهم حرّى فتبرِّد غُلّتهم، فينصرفون عنها شاكرين، ولفضلها ذاكرين وأمّا اليَوم فلا يقف عندها مسافر ولا يَرِفُ فوقها طائر..»

وكان ابو ماضي شأنه شأن سائر الكتّاب والشعراء المغرمين «بالطبيعة» يرى في كائناتها الاصدقاء الاوفياء له إذ كان كُلّما بَثّهم شكواه يجد عندهم آذاناً صاغية وقلوباً مفتوحة، واعية، وكثيراً ما كان يلتقي باصدقائه هؤلاء إما في اماكنهم المعتادة في البَـرّيَّة او في منزل احد الاصدقاء وقد فُجعت عيناه ذات يوم برؤية «زَهْرة» مسجونة في إناء في أحد الصالونات الفخمة. فتألّم أشد الألم لدى رؤيتها وحزن كلَّ الحزن لأنَّه لم يكن باستطاعته ان يخلصها من سجنها وعذابها. وقد راح يلُوم صاحب تلك اليد الجريئة الذي شاء ان يتسلّى في احد الايام، فأخذ يعالج تلك الزَّهْرة حتى استقرَّت في يمينه. فعاد بها مَزهُوّا الى «مَغْناه» وهو يرتل أناشيد النصر والاطمئنان: (١)

لَعَمْرُكَ ما حُزْني لِمالٍ فَقَدْتُهُ	ولا خانَ عَهْدي في الحياة حبيبُ
ولكِنَّني أبكي وانْدُبُ زهرةً	جناها وَلوعٌ بالزُّهُور طروبُ
رآها يَحِلَّ الفجرُ عِقْدَ جفونها	ويلقي عليها تِبْرَهُ فيذُوبُ (٢)

فقد بدت تلك «الزهرة» المسكينة مكتئبة حزينة بالرغم من وجودها داخل غرفة قد زُيِّنت جدرانها بشتّى الصُوَر والالوان، واثّثت بأفخر الرياش والاثاث. وسرّ حزنها واكتآبها عائدان الى كونها قد اكرهت اكراها على مفارقة جيرانها من الزُهُوْر. فلم تعد اغصان الاشجار تنحني فوقها لتؤنسها وتداعبها، ولم تعد الغدران تعزف على مسامعها أناشيدها المطربة التي هي احبّ اليها من سماع أصوات رَبِّ القصر وضيوفه.

(١) الجداول ص ١٦.
(٢) الجَفْنُ: أصل الكرْم أو قضبانه.

فحنين هذه الزهرة المظلومة الى وطنها الاصلي الأمّ يشبه كل الشبه حنين الشعراء والفنّانين الى حضن «الطبيعة» الأمّ. انهم يعيشون بأجسادهم في المدينة وارواحهم تُحلّق دائما وابداً في اجواء «الطبيعة» الخالدة حيث الانس ينبعث من الارض خضرة وبهاء، وحيث الفراشات ترفرف بأجنحتها المزركشة بالدُر والفسيفساء فوق البطاح ووسط السهول والذُرى والجبال: (١)

لها الحُجْرة الحسناءُ في القصر إنَّما — أحَبُّ إليها رَوْضةٌ وكَثيبُ
وأجملُ منْ نُورِ المصابيحِ عندها — حَباحِبُ تَمْضي في الدُّجَى وتؤُوبُ (٢)
وأبْهَى من الدِّيباجِ والخزِّ عندها — فِراشٌ منَ العُشْبِ الخَضيْلِ رَطِيْبُ
تَحنُّ الى مَرْآى الغديرِ وَصَوْتِهِ — وتُخْرَمُ منه والغديرُ قَريْبُ (٣)

وقد اصيبت تلك «الزَّهرة» بالرّغم من أنها كانت مقيمة في تلك الحجرة الجميلة بالذبول والاصفرار. فهي كلَّما رُشَّ عليها الماءُ كُلّما ازدادت ذبولا على ذبول، واصفرارا على اصفرار. والسببُ في ذلك عائد الى كونها تعيش في موطن لا يشبه موطنها الأصلي الذي كانت فيه تحيا وتعيش: (٤)

اذا سُقِيَت زادت ذُبولاً كأنَّما — يُرَشُّ عليها في المياه لَهِيْبُ
وكانت قليلَ الظِّلِّ ينعشُ رُوْحَها — وكانت بميسور الشُّعاع تَطيبُ
بها من أُنوف العاشقين تَوَعُّكٌ — ومِنْ نظراتِ الفاسقين نُدُوبُ (٥)

اما هؤلاء «الفاسقون» الذين احدثت نظراتهم نُدُوبا في صفحة تلك «الزهرة» فلقد كان ابو ماضي يعني بهم بعض اصحاب الاموال الطائلة. إذ ان الاغنياء الكبار لا يزورهم الا اغنياء كبار مثلهم فهم لا يصادقون إلاَّ من يرجون عنده نفعاً لهم ثم لا يَتَورَّعُوْنَ بَعْدَ ذلك عن التخلي عنه لأَبسط الأَسباب. تماماً كما سيتخلى رب ذلك القصر عن تلك الزهرة السجينة عنده بعدما تصاب بالذبول، ولا يعود بإمكانها ان تجود عليه بعطرها. فيَطْرَحها ساعتئذ خارج قصره لتمسي رهينة

---

(١) الجداول ص ١٧ - ١٨.
(٢) الحباحب: ذباب ذو الوان يطير في الليل وفي ذنبه شعاع كالسراج.
(٣) المَرْأى: المنظر
(٤) الجداول ص ١٩.
(٥) النَّدْبَة: أثر الجرح الباقي على الجلد ج نَدْبٌ وج نُدُوْبٌ وأنداب.

لمشيئة الاقدار، تتلاعب بها وبمصيرها كيفما تشاء. والنّعال تطأها والارجل تدوسها كما تطأ وتدوس التراب والحَصَى والنِّمَال: (١)

أيَا زهرةَ الوادي الكئيبةَ إنَّنيْ حزينٌ لما صرتِ إليه كئيبُ
وأكثرُ حُزنيْ أن تَظنّي بَني الوَرَى سَواءٌ، وهم مثلُ النَّباتِ ضُروبُ
سيطرحك الانسان خارجَ داره إذا لم يكن فيكِ العَشيَّةَ طيبُ

لقد جاءت بعض الصُوَر التي رسمها ابو ماضي للطبيعة صوراً خيالية مفتقرة كل الافتقار الى شيء من الدِّقَّةُ والواقعية. حيث نراه مثلا في قصيدته «الأسْرار» يتمنَّى لو كان باستطاعته ان يتحوّل الى «لِصّ» ليسرق منَ النسيم السَاري في الضحى سرّ لطافته وانشراحه وليجس بأصبعه مؤتلق الجمال المنبعث من الافق اللازوردي، رونقاً، وبهاءً، وهو يتعرّى من ضبابه وغيومه: (٢)

يا ليتني لِصٌّ لاسرقَ في الضُحَى سِرَّ اللَّطافةِ في النَّسيمِ السَّاريْ
وأَجُسَّ مُؤتلَقَ الجَمَالِ بإصْبَعي في زُرقةِ الأُفُقِ الجميلِ العَاريْ

فهو قد كان يرى في الروابي الخضر جمالاً ومهابةً، وفي خرير الجدول المنساب جذلاً وحبوراً. وفي المرج الخصيب بشاشةً وابتساماً. وفي الوادي العميق الاغوار شعوراً بالكآبة والحزن. وكلّما ارخى الليل سدوله على الكائنات، كانت عيناه تُبْصران ما فيها من جمال. وحنينهُ يشتدّ إلى رؤْية القمر السابح في الفضاء: (٣)

ويُبيِّنُ لي كُنْهُ المَهابَةِ في الرُّبَى والسِّرُّ في جَذَلِ الغَديْرِ الجَاريْ
وبشاشةُ المَرجِ الخصيبِ وَوَحْشَةُ الوادي الكئيبِ وصولةُ التَّيَّارِ
واذا الدُّجَى أرخى عَلَيَّ سُدُوْلَه أدركتُ ما في اللَّيْلِ مِنْ أَسْرَارِ

وكان ابو ماضي قد آل على نفسه ان يكون رسول الطبيعة الأمين الى الناس كافَّة ليدلهم على مواطن الجمال فيها، وليحبّب اليهم العيش بين احضانها. والتقرّب من كائناتها. فإذا ما وجد الناس يَشْكُونَ الفقر والاعدام، عاتبهم اشد العِتاب، وانّبهم ارقّ التأنيب لشعورهم العميق بالفقر وهم في الحقيقة اغنياء؛ إنَّهم وإن لَم يملكوا المال والعَقَار فقد مَلَكوا ما هو افضل من المال، وابقى من العَقار، مَلَكوا

(١) الجداول من ص ١٩ - ٢٠.
(٢) الجداول ص ٧١
(٣) الجداول ص ٧١ - ٧٢.

السماء، ونجومها، والزهور وأريجها والجداول ومياهها الفضية المترقرقة، وخيوط الشمس العَسْجَدية وهي تبني في السفوح وفي الذُّرى قصوراً وابراجاً مزخرفة ثم لا تلبث ان تَهْدِمَهَا لتعود فتبنيها من جديد وكأنها يد فنان ساحر بدأ يعرض آياته ومعجزاته امام الناس لعلهم به يتأثرون وعلى هديه يسيرون: (١)

كم تَشْتكي وتقولُ إنَّكَ مُعْدِمُ والارضُ مُلْكُكَ والسَّما والأنجُمُ
ولكَ الحقولُ وزهرُها وأريجُها ونسيمُها والبلبلُ المترنِّمُ
والماء حولك فِضَّةٌ رَقْراقَةٌ والشَّمسُ فَوقك عَسْجَدٌ يَتَضَرَّمُ
والنُّورُ يَبني في السُّفُوح وفي الذُّرى دُوراً مُزَخْرَفَةً وحيناً يَهْدِمُ
فكأنه الفَنَّانُ يَعْرِضُ عابثاً آياتِه قُدَّامَ مَنْ يتعلَّمُ

فالندم على ما فات، لا يجدينا نفعا، ولا يرجع لنا عزاً قد مضى. ولا يُعَجِّل بعودة شبابنا الضائع الينا وقد لا يبعد عَنَّا تَجَهُّمُنا حلول كارثة او مصيبة ستحلّ بنا. ولكن نظرة واحدة الى عين تتفقد مياهها والى اغصان شجرة تصفّق اوراقها والى مروج او سهول قد فُتِنَ النسيم بحسنها وجمالها فسرى يدندن فيها ويهمهم وكأنه عاشق واقِفٌ بباب معشوقته ضارعاً مسترحماً علَّها تجود عليه بقُبلة او همسة او نظرة، قد تجعلنا نشعر وكأننا قد استرجعنا شبابنا الضائع مِنّا وأصبحنا في حصن حصين من النوازل والنَّكبات: (٢)

أُنظُرْ فما زالَتْ تُطِلُّ مِنَ الثَّرى صُوَرٌ تكادُ لِحُسْنِها تَتَكَلَّمُ
ما بين اشجارٍ كأن غصونَها أَيْدٍ تُصَفِّقُ تارةً وتُسَلِّمُ
وَمَسارح فُتِنَ النَّسيمُ بحُسْنِهَا فسرى يدندنُ تارةً ويُهَمْهِمُ
فكأنَّه صَبٌّ بباب حبيبهِ متوسِّلٌ مستعطفٌ مُسْتَرحِمُ

فهذه الآيات والصور البديعة المطلّة علينا من الثرى لها في القلوب مكانها الاسمى وذلك لانها جعلتنا ننسى بعد رؤيتها كل ما في صدورنا من الاحزانِ والآلام. ونحن كلَّما شاهدنا آية من تلك الآيات، نشعر بأنَّنا قد شاهدنا الله الذي

(١) الجداول ص ١٨٥.
(٢) الجداول ص ١٨٦.

ابدع كل هذه الآيات وسوَّاها:[1]

والجدولُ الجذلانُ يضحكُ لاهياً | والنَّرجسُ الوَلْهانُ مُغْفٍ يَحْلُمِ
فهنا مكانٌ بالأريجِ مُعَطَّرٌ | وهناك طَوْدٌ بالشُّعاعِ مُعَمَّمِ
صُوَرٌ وآياتٌ تفيضُ بَشاشةً | حتَّى كأنَّ اللّه فيها يَبْسِمِ

وكان ابو ماضي مفتوناً أشد الإفتِتَان بجمال ولاية فلوريدا المسمَّاة بولاية الشمس المشهورة بحدائقها ومنتزهاتها الجميلة وشواطئها الممتدة الضاحكة الطروبة التي لا تغيب الشمس عنها، صيفاً ولا شتاء. إذ كان يستنشقُ، وذلك قبل ان يراها، عبير ازهار بساتينها ويشنِّف اذنيه بسجع قماريها وهو بَعِيْدٌ كُلَّ البُعْد عنها. وما إنْ وقع نظره عليها لأوَّل مَرَّة حتى ادرك بأن اللّه لم يكتف فقط بخلقها بل اتخذ له مكانا فيها. فأدركه حينذاك زهد بكل جمال ما عدا جمالها وخاصة حينما شاهد «الحُوْر» وهن يطأن بأقدامهن رمال شواطئها الناعمة الممتدة والنسيمات تهب عليهن محملة بالعطر والأريج وذلك من الحدائق والبساتين المُطلَّةِ على شاطئها الجميل:[2]

قد كُنْتُ من قبلُ مثلَ النَّاس كُلِّهِم | أقولُ: أنَّ اله الكونِ باريْهَا
حتى نظرتُ إليها في جَلاَلتها | فصار كلُّ يقيني أنَّه فيْها!
لَمَّا رأيتُ الجمال الحَقَّ ادركني | زُهْدٌ بكلِّ جمال كان تَمْويْهَا
كأنما الحورُ مَرَّت في شواطئها | في ليلةٍ طَفْلَةٍ رَقَّتْ حَواشيها[3]
ففي الرمال سناءٌ منْ تضاحكِها | وفي المياه أريجٌ من أغانيها

وكما اجاد ابو ماضي في وصفه للطبيعة في ولاية «فلوريدا» أجاد في وصفه ايضاً «للطبيعة» في وطن النجوم لبنان. حيث رأى الشمس فيه تبطيء في المغيب متعمِّدةً بعدما عزّ عليها مفارقة سفوحه ورباه والنسيم يكحل في نيسان بالضياء كل العيون، والارض الحُبْلى قد أخرجت من بطنها شتَّى انواع البقول والاثمار،

---

(١) الجداول ص ١٨٧.
(٢) الخمائل ص ٢٠٢.
(٣) الطَّفْلُ: الرخص الناعم من كلّ شيء.

فارتدت البِطَاح والوهاد حُلَّة سُنْدسية خَضراء، وتعَطَّرَ الجوُّ بأريج الورود والازهار، بعدما هَبَّ عليها النسيم في الصَّباح، فجعلها تعانق تارة العشب المثقل بالنَّدى، وطورا تلامس اوراقها الاغصان المثقلة بالأثمار.(١)

وطَنَ النـجـــــوم أنـا هـنـا ... حَـــــدِّق أتـذكـــــر مَن أنـا

أنـا مـن طـيـــــورك بـلـبـلُ ... غَنَّى لمجـــدكَ فـــاغْـتَـنَى

حَـمـل الطَّلاقَــةَ والـبـشـاشـةَ ... مِــن رُبُــوعِــكَ لـلــدُّنَــى

كم عـــانـقـتْ روحـي ربـاكَ ... وصَـــفَّـــقَـتْ في المُنْحَنَى

لـلأرز يـهـــــزأ بـالـرِّيـاحِ ... وبـــالـــدُّهـور وبـــالـــفَـنَـا

للشُّـــمسُ تـبطـيءُ فـي وَدَاع ... ذراك كـي لا تَـحْـــــزَنَـا

للبـدرِ فـي نيـســـان يَـكْحُلُ ... بـالـضِّـيـــاءِ الأعْـيُـنـا..

فــيـذوبُ في حَـدَق المَهَـا ... سِـحْـراً لـطيـفـاً لَـيِّـنَـا

للحـــقـلِ يـرتجلُ الـرَّوائعَ ... زَنْـبـــقـــاً او سَـــوسَـنَـا

للعـــــشـب أثْـقـلـه الـنَّـدَى ... لـغُـــصْنِ أثْـقَـلـهُ الجَـنَى

كلُّ شيء في الطبيعة رائع فَتَّان، ففي اضواء النجوم المتلألئة جمال لا يعدله جمال، وفي رؤية الاشجار المُزْهرة وهي ملتفَّة بملاءة بيضاء سر وعذوبة وارتواء. وإنَّا لنرى الجمال قد تجسَّد حتى في تلك الجبال الوعرة الشاهقة وقد لفَّها الليل «بسرابيل الرَّهَابيْن» السوداء فهي بالرغم من اتشاحها بالسواد فجمالها لا يقل عن جمال الربى وقد نصب كف الاصيل لها سُرادقِ من النور والضياء. فأي صوت اعذب للسمع وألذّ في الاذن من صوت الغدير؛ وهو يثرثر ثرثرة الطفل البرىء، ومن سماع اصوات البروق والرعود وهي تضحك راكضة في الفضاء الرحب ضحْكَ المجانين. وحتى شهر تشرين الذي يحدث مجيئه في النفوس الحزن والأسى ففي مجيئه الينا سحر لا يقل عن سحْر شهر أيار كلما أَطَلَّ علينا بوجهه المشرق الوضَّاح وخاصَّةً في الاماكن ذات المُناخ المُعتدل:(٢)

---

(١) ديوان تبر وتراب ص ٧ ـ ٨.
(٢) الحمائل ص ٣٦

عِشْ للجمال تراه العينُ مُؤْتَلِقاً في أنجُمِ اللّيل أو زَهرِ البَسَاتينِ
وفي الرُّبى نصبتْ كفّ الاصيل بها سُرادقاً من نُضَارٍ للرياحين
وفي الجبال اذا طاف المساءُ بها ولَفَّها بسرابيلِ الرَّهابين
وفي السواقي لها كالطِّفل ثَرْثرةٌ وفي البروق لها ضِحْكُ المجانين
وفي ابتسامات أيَّارٍ وروعتِها فإن تُوَلّى ففي اجفانِ تِشْرِينِ

وكان ابو ماضي قد شاهد ذات صباح من خلال نافذة غرفته «فَراشة» مذعورة هاربة من وجه رياح الخريف، التي هَبّت على الحقول فجأة حيث جَرّدتها من ازهارها وعَرّت الاشجار من اوراقها. فطَفق يواسيها مواساة الحزين للحزين ويناجيها مناجاة الشاعر للشاعر. علّه يخفّف عنها بعض بلواها. ولكنّه قد عَتَبَ عليها اشدّ العتب حينما رأها تحاول ان تتّخذ من مأوى الناس مأوىً لها، تاركةً وراءَها المغانيَ والغدران التي طالما ارتوت من مياهها العذبة ورفرفت فوقها باجنحتها المزركشة بشتّى الخطوط والالوان، لتزيدها جمالا على جمال:[1]

لو كان لي غيرُ قلبي عند مَرْآكِ لَمَا أضافَ الى بَلْواه بَلْوَاكِ
فِيمَ ارتجاجُكِ هل في الجَوِّ زَلْزَلَةٌ أَمْ انتِ هاربَةٌ مِن وجهِ فَتّاكِ
وكم تدورينَ حول البيتِ حائرةً بنتَ الرُّبى ليس مأوى النَّاسِ مأواكِ

وكأنَّما تلك «الفراشة» كانت قد ادركت بفطنتها دنو أجَلها وخاصّة بعدما وجدت «القضاء» الظالم يَمدُّ كفّه ليسلب من «الطبيعة» الغنّاء حُلاها وبعضَ محاسنها، وهي محاسن ظلّ الناس يتزودون مَنْ زادها ويتمتّعون بمرآها ما شاء لهم التّمتّع. مُتّخذين منها لانفسهم الغذاء والمَسرَّة، ولأرواحهم المضنوكة المتعبة الهدوء والمتعة والاطمئنان:[2]

حَلمْتِ أنَّ زمان الصَّيْفِ مُنْصَرِمٌ وَيْلاهُ حَقَّقَتِ الأيّامُ رُؤْيَاكِ
فقد نَعَاهُ إليكِ الفَجْرُ مُرْتَعِشاً وليس منعاه إلا بَعْضَ مَنْعَاكِ
فالزَّهرُ في الحَقْلِ أشلاءٌ مُبَعْثَرَةٌ والطَّيرُ لا طائرٌ إلاّ جَنَاحَاكِ

---

(١) الخمائل ص ٥٠.
(٢) الخمائل ص ٥٢.

فَشتَّانَ ما بين ماضيها وحاضرها وذلك حينما كانت لا يحلو لها النَّوم إلاَّ عند مجاري الانهار ولا تغدو كُلَّ صَباح الا الى حيث الازاهر والاعشاب النَّدية. وكلما شنَّفت اذنيها اصواتُ خرير مياه ساقية جارية او جدول مترنم، طارت متجهة نحوهما، وحيثما رأت زنبقة قد نوَّرت او وردةً قد تفتَّحت اكمامها طربت اشد الطَّرَب. واخذت تصفق لهما بجناحيها مظهرة عرفانها وامتنانها. فعيناها لم تكونا لتقعا الا على كل حسن وجميل ورئتاها لم تكونا لتستنشقا الا العطر والعبير. فكانت شفتاها تلثمُ تارة شفاه الورد وطورا كانت تَرشِفُ دموع النَّرجس الحالم على ضِفَّة جدول او ينبوع. والآن فارقت جنتها تلك واصبحتْ تتوقَّع نهايتها المحتومة والصِّغار في الحقل قد افتقدوها، فراحوا يفتِّشون عنها علهم يعثرون عليها. لتعود فتغريهم من جديد بالركض خلفها مُمَنِّينَ أنفسهم بأسرها وامتلاكها: (١)

تُمْسينَ عِنْدَ مـجـاري الماءِ نـائمـةً	وللأزاهر والاعـشــاب مَـغْـداكِ
فَكُلَّمـا سـمـعتْ أُذْناكِ سـاقـيـةً	حـثـثتِ للسَّفح مِنْ شـوق مطاياكِ
وكُلَّمـا نَوَّرتْ في السَّـفح زنبـقـةٌ	صَـفَّـقْتِ مِنْ طربٍ واهتـزَّ عِطْفـاكِ
وكم لثـمتِ شـفـاهَ الورد هائمـةً	وكم مسحتِ دموعَ النَّرجس الباكي
وكم ركضتِ فـاغريتِ الصغارَ ضُحًى	بالرَّكض في الحـقل، ملهاهم ومَلْهـاكِ
مَنُّوا بأسـرِهِمِ إياكِ أَنْفُـسَـهـم	فـأصـبـحـوا بـتَـمَنِّيـهِمْ أسـارَاكِ
ها انتِ كـالحقل في نَزْعٍ وحَشْرَجَةٍ	وَهَتْ قِواكِ كـمـا استرخى جَناحاكِ

كان ابو ماضي يراقب تلك «الفراشة» المسكينة الهائمة على وجهها؛ والالم يعصر فؤاده لعدم تمكنه من انقاذها فازداد ايمانه بالله وبمشيئته الذي شاء ان يجعل من الطبيعة فصولاً مختلفة لكي لا تَمُلُّها النفس أو تزهد بجمالها. ولم يكن لديه من امنية يتمنَّاها إلاَّ رؤيته للرياح وقد كَفَّتْ عن عصفها بعد ان ملأت الارض بأشلاء ضحاياها فهي مهما قست وتجبَّرتْ وباعدتْ في انتقامها فلسوف تدور الارض دورتها فتستعيد الحقول رونقها وبشاشتها وتعود اليها «فراشاتها» التي ستحولها بعد رجوعها اليها من لحد الى مهد ترتل فيه اناشيد المحبَّة والجمال: (٢)

فـراشـةَ الحَـقْل في روحي كـآبتُـه	مِـمَّـا عَـراهُ ومِـمَّـا قـد تولاَّكِ

(١) الخمائل ص ٥٤ ـ ٥٥.
(٢) الخمائل صفحة ٥٦

أحْبَبْتُهُ وهو دارٌ تَلْعبينَ بها   فسوف تهواهُ نفسي وهو مثْواكِ
ما اقدرَ اللهُ أنْ يُحْيِيكِ ثانيةً   مَعَ الرَّبيعِ كما منْ قَبْلُ سوّاكِ
فيرجعُ الحقلُ يزهوُ في غلائِلِه   وتَرجَعِينَ فأغشاهُ وألقاكِ!

إنَّ «الطبيعة» في الصيف اشبه في نظر ابي ماضي بفتاة جميلة مرتدية اجمل ما عندها من الثياب المخططة المزركشة والشمس ترصع الافق بخيوطها الذهبية. وكلَّما حلَّ الظلام في هذا الفصل الجميل فاحت من الارض رائحة المسك والعطور ثم لا يلبث «الفجر» طويلا فيه حتى يطل بتباشيره، فيبدأ النسيم الرطب وشوشاته في آذان الازهار والطيور فيسمع النهر صدى وشوشاته، فتبدأ امواجه تتكسر على صفحته؛ والاقاحي تطل بأعناقها من فوق الاعشاب متمايلة تمايل الشارب السَّكران؛ والاطيار تنشد على مسامعها قصائد منَ «الشِّعْر» العذب الخالد الرَّصيْن: (١)

عاد للأرض مَعَ الصَّيْفِ صِبَاها   فهي كالخُوْدِ التي تَمَّتْ حُلاَها
صُوَرٌ منْ خُضْرة في نُضْرَةٍ   ما رأها أحَدٌ إلاَّ اشتهاهَا
ذَهَبُ الشَّمس على آفاقِها   وسوادُ اللَّيل مِسْكٌ في ثَراها
ونسيمُ الفَجْر في أقمارِها   وشوشاتٌ يُطربُ النَّهرَ صَدَاهَا
والسَّواقي فِتَنٌ راقصةٌ   ضُحْكها شَدْوٌ وتهليلٌ بُكَاهَا
والأقاحيْ صُوَرٌ خلاَّبةٌ   وأغاني الطَّيْرِ شِعْرٌ لا يُضَاهَى

أمَّا «الطبيعة» في أيلولَ فهي رائعة وجميلة أيضاً، كروعتها وجمالها في شهر «أيَّار» وما يستطيع ان يفعله هذا الشهر بالذات يعجز عن فعله في الطبيعة اي شهر آخر من شهور السنة. حيث إنَّ الطبيعة تكتسب بمجيئه اليها اجمل حُلاها، فهو ما ان يكاد يَلمس بأنامله صفحة السماء حتى نجدها قد اصبحت صفحة رائعة لا غيم فيها ولا ضباب واذا ما مَرَّ على التراب جعله مُنوّرا بالأزهار والاثمار والأشجار والأعشاب: (٢)

---

(١) ديوان تبر وتراب ص ٣١ - ٣٢.
(٢) ديوان تبر وتراب ٧١ - ٧٢ - ٧٣.

ايلولُ يمشي في الحقول وفي الرُبى
والأرضُ في أيلولَ أحسنُ منظرا

شَهرٌ يُوزِّع في الطَّبيعةِ فَنَّهُ
شَجَراً يُصفِّق أوسَناً مُتفَجِّرا

لا تَحسَبِ الأنهارَ ماءً راقصاً
هذي أغانيه استحالتْ أنهُرا

لِلّهِ مِنْ ايلولَ شَهرٍ ساحرٍ
سَبَقَ الشُهورَ وإنْ أتى مُتأخِّرا

مَنْ ذا يُدَبِّجُ أو يحوكُ كوَشْيِه
أو مَنْ يُصَوِّرُ مِثلما قد صَوَّرا

لَمَستْ اصابعُه السَّماءَ فوجهُها
ضاحٍ ومَرَّ على التُّرابِ فَنوَّرا

وحينما قام ابو ماضي بزيارة مفاجئة لمدينة «لُوس انجيلُوس» وجد هضابها تتنفس في الضحى تبِرا، وفي الاصيل مِسكاً. فاعتقد في قرارة نفسه انه كان يشاهد جنَّات الخلد عن كَثَب حيث الغبراء تُنبت سوسنا وسُندُساً. والانهار تجري مياهها وكأنها الكوثر. فشربت عيناه جمالها شُرُبا والتهمته انظاره التهاما وقد ازداد بأرضها تعلُّقاً ولها حُبّا، حينما وجد الزمان يلقي عليها بوُشاح السعادة والهناء لكي يجعلها واحة للمتعبين ومأوى لاصحاب الملايين، وجنَّة للعاشقين، فكلُّ مَنْ كان يشاهد زهورها وهي تُطلُ مِنَ الثرى؛ كأنَّه قد كان من خلال مشاهدته لها يشاهد امانيه المفقودة؛ وهي تعودُ إليه مِنْ جديد:(١)

ما «لُوس أنجلوس» سِوى أُنشودةٍ
اللّه غَنَّاها فَجُنَّ لها الوَرَى

خلعَ الزَّمانُ شبابَه في أرضِهَا
فَهْوَ اخْضرارٌ في السُّفوحِ وفي الذُّرَى(٢)

هي واحةٌ للمُتْعَبينَ وجَنَّةٌ
للعاشقينَ، وملعبٌ لِذَوي الثَّرا

كَفَّنْتُ في نيويورك أحلامَ الصِّبا
وطويتُها وحَسِبْتُها لن تُنْشَرا

لَكِنّني لَمَّا لمحتُ زُهُورَها
شاهدتُ أحلامي تَطلُّ مِنَ الثَّرَىٰ

فأبو ماضي قد كان وهو يصف ولاية «لوس أنجلوس» ذات الطبيعة الفتانة مدركاً في قرارة نفسه أنه ليس باستطاعته ان يصفها وصفا وافياً. إذ إنَّه قد كان في وصفه لها، يفعل كما يفعل وَلَد يحاول بلا جدوى ان يحوش بأصابعه مياه الانهر او البحيرات. وإننا لنجد ابا ماضي يعشق كل شيء فيها حتى الاشواك في صحرائها، وخاصَّة بعدما استرعى انتباهه منظر نخيلها وهو شامخ بأنفه نحو العلاء،

---

(١) ديوان تبر وتراب ٧٩ ـ ٨٠.
(٢) الذِّرْوَةُ: العلو، المكان المُرتفع ج ذُرى وذِرى.

فخراً، واعتزازاً لكونه قد تمكّن من التستر بالوَرَقِ اليابس عن اعين بقية الاشجار كما تستر آدم مستحياً مِنْ حَوَّاء:[1]

حاولتُ وَصْفَ جمالِها فكأنّني ... وَلَدٌ بأنمُله يحوشُ الأبحُرا
احببتُ حتَّى الشوكَ في صَحْرائها ... وَعشِقْتُ حَتَّى نخيلَها المُتكَبِّرا
اللاّبسَ الوَرَقَ اليبيسَ تَنَسُّكاً ... والمُشْمخِرَّ الى السَّماء تَجَبُّرا
هو آدمُ الأشجارِ أدركه الحَيَا ... لمّا تَبَدَّى عُريُهُ فتَستَّرا

أمَّا أشجارُ بساتين البُرتقال فيها فقد بدت مزهرةً بيضاء وهي مغروسة في صفوف مُتَراصَّة مُتَوازِيَة فأوحى اليه منظرها بمنظر ثوب ترتديه فتاة جميلة حسناء، مَصْفُوفَةٍ أزرارُه البيضاءُ صَفّاً صفّاً:[2]

وبدَتْ غياض البرتُقال فأشْبَهَتْ ... جِلبابَ خَوْدٍ بالنُّضار مُزَرَّرَا[3]

أمَّا قصور الأغنياء فبدت لعينيه فيها وكأنها حَبَّات عِقْد مِنَ اللؤلؤ مبعثرة على ارض مُخْضَرَّة، او سُفُنٌ تَمْخَرُ عُبَابَ بَحْر، مياهه خضراء اللون، والشمس ترسل بأشعتها مُذَهِّبةً صفحتَه. وهو لم يكَدْ يراها حتى انساه مرآها زمانَه الصَّعْب القَاسي:[4]

وكأنَّما تلك القُصور على الرُّبى ... عِقْدُ لغانيةٍ هَوى وَتَبَعْثَرا
لَمَّا تراءت مِنْ بعيدٍ خِلْتُها ... سُفُناً وخِلْتُ الأرضَ بحراً أخْضَرا
نَفَضَ الصَّباحُ سناهُ في جُدْرانِها ... وأتى الدُّجَى فرأى منائرَ للسُّرَى[5]
مُتَألِّقاتٍ كابتساماتِ الرِّضَى ... تنسيكَ رُؤيَتُها الزَّمانَ الأغْسَرا

وفي بعض الاحيان كان ابو ماضي يَتَمنَّى الاقامة في قرية «مِلْفرد» التي كان قد امضى وَسَطَ جَنَّاتها اعذب ايام شبابه. إذ نراه يتمنى لو كان باستطاعته ان يبني داره في اعلى قِمّة من قِمَم جبالها الشامخة بأنفها نحو العلاء ليتمكن مِنْ ان يكحل عينيه برؤية شروق شمسها قبل سكان «الحِمَى»؛ وليعانق في الضحى

---

(١) تبر وتراب ص ٨١.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) الخَوْدُ: المرأة الشابة ج خودات وخُود.
(٤) تبر وتراب ص ٨٢.
(٥) السُّرَى: سير الليل. ابن السُّرَى المسافر ليلاً.

نسيمات الاسحار قبل ان تعانقها الازهار والاعشاب في السهول والوديان وليتمكن من رؤية الرعاة وهُمْ يَرْعَوْن مواشيهم السارحة في المروج الخضراء والطيور واقعة على الارض من حولهم، والنَّحل هائم على وجهه، باحثا عن الازهار ليمتص منها الرحيق على انغام اصوات شَبَّابات الرُّعْيان وهم يعزفون عليها اعذب الالحان حتى اذا ما خيَّم السكون على الهضاب وبدأ الرعاة يعودون بأغنامهم الى حظائرها ولاذت الطيور بأعشاشها راح يَشْخَص بناظريه باحثاً، مفتِّشاً عن النجوم المتلألئة ليبثها اشواقه وحنينه وذلك بعدما يغفو سُمَّارُه :(١)

ذاتَ الجِبالِ الشّامخاتِ الى العُلاَ ... يا ليتَ في أعلى جِبالِكِ داري
لأرى الغزالةَ قبلَ سُكّانِ الحِمَى ... واعانقَ النَّسماتِ في الأسْحَارِ
لأرى رُعاتَك في المرُوجِ وفي الرُّبى ... والشاةُ سارحةٌ مع الأبْقارِ
لأرى الطيورَ الواقعاتِ على الثَّرَى ... والنَّحْلُ هائمةٌ على الأزْهارِ
لأُساجِلَ الورقاءَ في تَغريدِها ... وتَهزُّ روحي نَفْحةُ المِزْمَارِ
لأُسامِرَ الأقمارَ في أفلاكِها ... تحتَ الظَّلامِ إذا غَفَا سُمَّاري

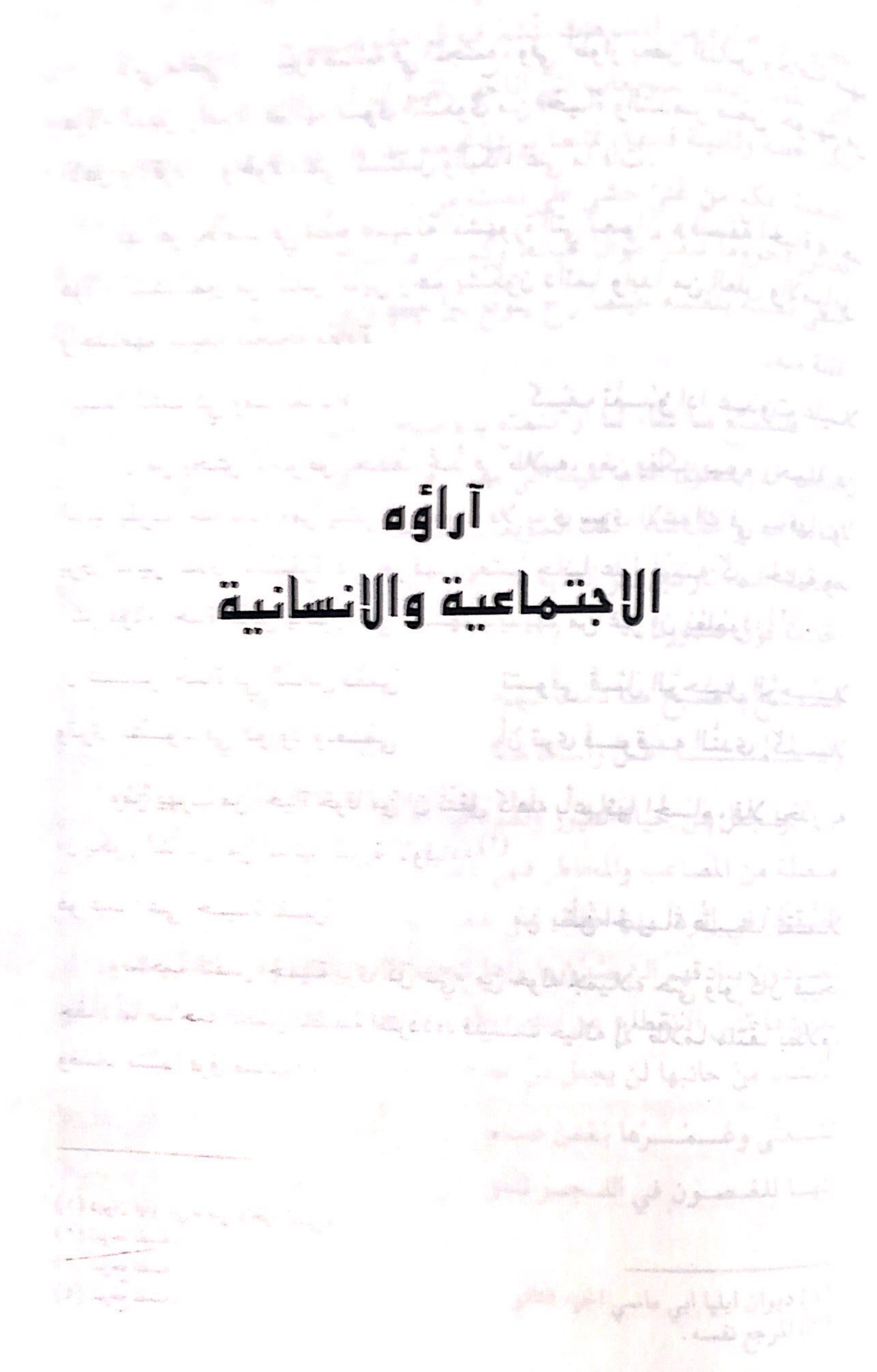
وكم كانت عَذبةً وجميلةً تلك الرحلاتُ التي كان ابو ماضي يقوم بها مع اصدقائه من حين لآخر، قاصدين قِمَم الجبال الشاهقة. حيث كانوا يتسلقون قِمَمَها ويندفعون في الهبوط من فوقها اندفاع الاعاصير والاحجارُ تَهْوِي تحت اقدامهم فتكاد اجسامهم ان تَهْوِي معها من عُلو حيث كان يسند بعضهم بعضا. ويتماسكون تماسك الرواد خلال اجتيازهم للغابات ذات الاشجار الكثيرة الملتفة الاغصان والجبال الشاهقة الوعرة المسالك التي كانوا اثناء اجتيازهم لها يُعَرِّضون انفسهم لشتّى المصاعب والاخطار وكل من كان يشاهدهم وهم على تلك الحال كان يُشْفِق عليهم كلَّ الاشفاق وذلك؛ لأنهم جهلة مغرورون لا يَحْسِبُون للمخاطر أيَّ حِساب. وهم قد كانوا يعودون سالمين بعد كل رحلة من رحلاتهم الجنونية تلك مُعَافيْن سالمين، والفضل في عودتهم سالمين للأقدار وحدها لانها قد شاءت ان تمد باعمارهم اثناء رِحْلتهم الجميلة تلك:(٢)

---

(١) ديوان ابي ماضي الجزء الثاني.
(١) ديوان ايليا ابي ماضي الجزء الثاني.

يا أُختَ دارِ الخُلدِ يا أمَّ القُرى ... يا رَبَّةَ الغاباتِ والأنهارِ
لِلّه يَومٌ فيكِ قد قَضَّيتُه ... مَعْ عُصْبَةٍ من خِيرةِ الأنصَارِ
نَمْشي على تلك الهِضَابِ وَدُونَنا ... بَحْرٌ مِنَ الأغراسِ والأشجارِ
تهْوي الحِجارةُ تَحْتَنا منْ حالِقٍ ... ونكادُ أن نَهْوي مَعَ الأحْجارِ
لو كُنْتَ شاهِدَنا نهرولُ من عَلٍ ... لَضَحِكْتَ مِنّا ضحكة اسْتِهتارِ
الرِّيحُ ساكِنةٌ ونحنُ تَظُنُّنَا ... للخَوفِ مُنْدَفِعِيْن مَعْ إعْصارِ
ما زال يَسْنُدُ بعضُنا بَعْضاً ... كما يتماسَكُ الرُّوَّادُ في الأسْفارِ
حتى رَجَعْنا سالمين ولم نَعُدْ ... لو لم يَمُدُّ اللَّهُ في الأعْمَارِ

فمن هنا يَتَبَيَّن لنا أن «الطبيعة» الناطقة لا الصامتة قد كانت عند أبي ماضي قَلْبا يَنْبِضُ، وفتاةً مرتدية اجمل الحلي والثّياب، وبحيرات تتنفَّس، ومروجا فسيحة، وجداول تُثَرْثر ثرثرة الاطفال وانهاراً ضاحكة الامواج ؛ والأغصانُ تتمايلُ فوقها تمايل الشارب السَّكران وكائناتٍ تحِس وتشعُر وتَنْطق، ولا تتوانى عن مشاركة الناس في افراحهم ومُوَاسَاتهم في أحزانهم.



آراؤه
الاجتماعية والانسانية

لابي ماضي آراء نَيِّرة صائبة في المجتمع، وفي أطوار بعض الناس وخاصَّة منهم هؤلاء الذين رأهُم لا هم لهم سوى الشكوى من الحياة والتّذمر مِمَّن حولهم منَ الاهل والاقرباء، والخوف على المستقبل والبكاء على ما فات.

فها هو يخاطب في مطلع قصيدته المشهورة التي بعنوان «فَلْسفة الحياة» احد هؤلاء المتشائمين من الناس الذين رأهم يَشكُون دائما وأبداً من العِلل والأمراض، واجسامهم سليمة صحيحة مُعَافَاة: (١)

أيُّهَـذا الشّـاكي ومـا بكَ داءٌ   كـيف تَغْـدُوْ اذا غـدَوْتَ عَليْـلاً

إنَّ مَنْ يَخْشَ الأمراضَ يَجِدْها تجِدُ في طِلابه، ومن يفكر بيوم رحيله عن الدنيا يُقرِّبْ أجله بيده ومَنْ ينظرْ الى الوردة فلا يرى سوَى الاشواك في ساقها، ولا يرَى اكاليل النّدى المُستَقرّة على اوراقها؛ يُعْتَبَرْ جانيا على نَفْسه كُلَّ الجناية وما أكثرَ هؤلاء الجناة الذين يجْنُونَ على أنفسهم بأيديهم من غير أن يَعْلمُوا: (٢)

إنَّ شـــرَ الجُناةِ في النّاس نَفْسٌ   تَتَـوَقَّى قَـبْلَ الرَّحِيلِ الرَّحِيْـلا
وتَرَى الشّـوكَ في الورود وتَعْـمَى   أنْ ترى فَــوقَــه النّدَى إكْليــلا

ومَنْ يَهربْ منَ الحياة خوفا منْ ان تُثْقِل كاهِلَه بأعبائها الجِسَام، فلا يَجْدُرَ به أن يكون ابناً بارا منْ ابنائها البرَرَة الاوفياء: (٣)

هُوَ عِبءٌ على الحيــاةِ ثقيــلٌ   مَنْ يظُنُّ الحيــاةَ عِبئـاً ثَقِيــلا

وصاحِبُ النفس الجميلة يَرَى كُلَّ شيءٍ منْ حوله جميلاً، حتى ولو كان قبيحا حَقاً؛ أمَّا صاحب النفس المظلمة المُتَرَدِّده، فليست حياته إلا ظلاما ملتفّا بظلام، وضبابا متلبّداً فوق ضَباب: (٤)

---

(١) ديوان ايليا ابي ماضي «الجزء الثاني».
(٢) المرجع نفسه.
(٣) المرجع نفسه.
(٤) المرجع نفسه.

والذي نفسه بغير جمالٍ لا يرى في الوجود شيئاً جميلا

وكلما وجدنا انفسنا منطلقين في رحلة خلّابة عَبر الجبال الشاهقة، او قادتنا خطانا الى منتزه من المنتزهات نَنْشدُ فيه الراحة والسُّلوان، فلا يجدر بنا أن نخشى على انقضاء تلك السُّويعات التي اتاحها القَدَر لنا قبلَ انقضائها بل علينا ان نتمتّع بكل لحظة وثانية فيها، تمتّعا بريئاً نجعله زادا لنا، نتزوّد به في أيّامنا القاسية الصَّعْبَةِ. فكم من غنيّ خَشي على نِعْمته منَ الزَّوال وعلى ثروته من التَّبَخُّر والذّوبان فعاش محروماً شقيّا طوال حياته! وكم من صاحب مركز عالٍ او وظيفة متواضعة، أشقى نفسه بنفسه حينما راح يتوقّع بين لحظة واخرى أنْ يخسر مركزه على حين غفلة منه.

فلنتمتع ما شاء لنا ان نتمتع بـ «صُبْح» الحياة منْ غير أن نفكّر بأن ذلك الصُّبح قد يتحوّل أمام أعيننا الى مساءٍ قبل أن يصبح هو نفسه مساءً. واذا ما انتابنا هم او غَمٌّ اثناء تلك السُّويعات القصيرة من حياتنا فلنقصرْ البحث فيه او الحديث عنه، تاركين أمرَ العناية به للزّمن وتقلباته؛ وهو الكفيل وَحْدَه بإزالة أثقاله الجاثمة فوق صدورنا: (١)

فتمتّعْ بالصُّبح ما دُمْتَ فِيْهِ	لا تَخَفْ أنْ يزولَ حتى يَزُولا
واذا ما اظلَّ رأسَكَ هَمٌّ	قَصِّر البَحْثَ فيهِ كي لا يَطُولا

ولنجعل من حياة الطيور وتصرفاتها الحكيمة مَثَلاً لنا يُحْتذى فحياتها سلسلة متصلة من المصاعب والمخاطر فهي كلّما طارت محلّقة في الفضاء الرَّحب جَدَّت الصُّقور في إثْرِها وإنْ حطت على غصن شجرة طالبةً النجاة لنفسها، صَوّب الصَّيادون بنادقهم الى صُدُوْرِها وإننا لنجدها والبنادق مصوَّبة نحوَها وقشاعمُ الجو تطاردها تأبى الانقطاع عن انشادها، ليقينها بأن ذلك الانقطاع المُتَعَمَّد عن الانشاد منْ جانبها لن يجعل منْ عمرها القصير عمراً طويلاً مديداً: (٢)

تَتَغَنّى وعُمْرُها بَعْضُ عامٍ	أَفَتَبكي وقد تعيشُ طَوِيْلا
إنَّها للغصونِ في الفجر تَتْلُوْ	صُورَ الوَجْدِ والهَوى تَرتيلا

(١) ديوان ايليا ابي ماضي الجزء الثاني.
(٢) المرجع نفسه.

وهذه الاطيار تأبى إلاّ أن تشارك في سعادتها جميع مَنْ حولها منْ الكائنات فهي كُلّما لاحت منها التفاتة نحو الاغصان ووجدتها ساكنةً بلا حِراك، طارت متّجهة نحوها، وهي تصفّق لاوراقها بجناحيها، طالبةً منها أن تستيقظ من سُباتها وكُلّما شاهدتِ الأصِيْلَ يُذَهّب بأنواره العَسْجدية الرّوابي والسُفوح الخضراء لِيُكسِبها جمالا على جمال؛ وبهاء على بهاء، وقعت فوقها لتناجيه، ولتقدم له بِصَوْتها الرخيم، اسمى آيات الشُكر والامتنان: (١)

كُلّما امسكَ الغُصُوْنَ سُكونٌ   صَفّقتْ للغصونِ حتّى تَميْلا

فاذا ذَهّب الأصيلُ الروّابي   وقعتْ فوقَها تناجي الأصِيْلا

فلْنَنشُدِ اللّهو مِثْلما تَنْشِدُ الاطيارُ وقت الهاجرة ظِلاّ ظليلا وما علينا إلا ان نلهو تارة ونجد طورا في كسب أرزاقنا، ولكن بشَرط أن نجعل منْ أيامنا أيّاما هي أقربُ الى العمل منها الى العَبَث واللّهو: (٢)

فاطْلُبِ اللّهْوَ مِثْلَما تَطْلُبُ الاطْ   يارَ عِنْد الفَجْرِ ظِلاّ ظَلِيْلاً

إنّ اللّهو الذي نَجِد أبا ماضي يحثنا عليه وينشُدُه، لا يقصد به ذلك اللهو المفسد للاخلاق، المؤدّيَ الى ارتكاب الرّذائل والآثام إنّما يقصد به تلك المتْعة البريئة التي يجب علينا ان نلجأ اليها لكي لا نُغْرِق ارواحنا إغراقا بأيدينا في بحور الشقاء والتعاسة فلنحبِ الحياة ولنهفُ الى جمالها، كما تحب الاطيار الطبيعة وتهفُو الى كائناتها ولكي تبلغ سعادتنا منتهاها، فيجدر بنا ألا نلجأ الى «القيل والقال» لكي لا نضطر بواسطته ان نستحضر شخصيات العباد الغائبين عَنّا لنضعها على موائد التشريح والتجريح أمامنا، لأنّنا كُلّما استحضرناهم الينا عَمدُوا هم بدورهم إلى استحضارنا ليشرّحونا كما شرّحناهم، ويبحثوا عن عوراتِنا ومثالبنا كما بحثنا نحن عن عوراتهم ومثالبهم فنصبحُ بعد ذلك كُلّما حاولنا الابتعاد عن اعدائنا، تماثلت اشباحُهم لمخيّلاتنا فنرى صورهم ترتسم حتى على اوجه اصدقائنا، فنعكّر حينئذ بايدينا صَفْو حياتنا، فَتَفْسُدُ نفوسُنا، فيفْسُدُ بفسادها مجتمعُنا الذي نعيش فيه ونحيا: (٣)

---

(١) ديوان ايليا ابي ماضي الجزء الثاني.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) المرجع نفسه.

وتعَلَّمْ حُبَّ الطَّبيعةِ مِنْهَا واتْرُكِ القَالَ للوَرَى والقِيْلا

فالذي يَتَّقيْ العواذلَ يَلْقى كُلَّ حَيٍّ في كُلِّ شَخصٍ عَذُولا

فالدُّنيا على رَحْبها واتساعها أَضيقُ مِنْ أن تتسع لنزواتنا وشكاوينا حتى الاموال التي نقضي حياتنا في جمعها فلسوف تندثر باندثارنا بعد موتنا وما علينا إذاً تبعا لذلك إلاَّ أنْ نتمتّع بها قبل زوالنا او زوالها عَنَّا ولْنُسابق الزَّمن الى حيث الحدائق الغنَّاء ، والازهار الجميلة الالوان قبل ان تسبقنا اليها يدُ الفَناء فتحكم عليها بالذُبول والاندثار وكلَّما نظرنا فوجدنا صفحتها ملبَّدة بالغيوم الدَّكناء يجدر بنا ان نترقَّب قرب هطول الامطار التي ستحي فينا الآمال إحياءها للارض المَوات.

وعندما نرى الحياة فاتحة لنا ذراعيها لتضمَّنا الى صدرها فلنسارع إليها وَحْدَها لا الى تلك الدموع التي تعوَّدنا دائما ان نَذْرُفَها كُلَّما وقعنا في ضيق او شدَّة ظَنّا منّا أنَّها ستبعد عن أَعيننا اشباح الأسى والضَّنى كُلَّ الابعاد : (١)

أنتَ للأرْض أوَّلا وأخيراً كُنْتَ مَلْكاً او كنت عَبْدا ذَليلا

لا خلودٌ تحتَ السماءِ لِحَيّ فلماذا تراودُ المُسْتَحِيْلا

فاذا ما وجدت في الارض ظِلاًّ فتفيَّأ به الى أنْ يَزُولا

وتوقَّع إذا السماء اكفهرَّتْ مطراً في السُّهول يحي السُّهُولا

قُلْ لقوم يستذرفُونَ المآقي هل شَفَيْتُم مَعَ البكاءِ غَليلا

كُلُّ مَنْ يَجْمَعِ الهمومَ عَلَيْهِ أَخَذَتهُ الهُمومُ أَخذاً وَبِيْلا

وحينما رأى أبو ماضي بعض الناس الذين حَوت خزائنهم الاموال الطائلة ويَسَّرَت لهم الايام سبل ارتداء الثياب الفاخرة، بعد ان كانوا يرتدون ثيابا رَثة بالية قد بدأوا يتمرَّدون على من هم دونهم مرتبة وجاها ، متناسين اصلهم الوضيع وماضيهم القديم طَفِقَ في قصيدته التي جعلها بعنوان «الطّين» يُحَدِّثنا عن واحدٍ من هؤلاء المغرورين. وهو مغرور قد حوى المالُ كيسه فتَمرَّد على من حوله، وكسى الخَزُّ جسدَهَ الترابي فراح يتباهى به على اجساد المحيطين به من الاقرباء والقرناء؛ وكل ذلك من غير ان يدري أنَّ جسده هذا مكوّن من نفس «الطّين» الذي كونت منه جميع الاجساد البشرية فلا فرق إذاً بينه وبينهم في النشوء والخَلق إلاَّ كالفَرق

---

(١) ديوان ايليا ابي ماضي الجزء الثاني.

ما بين «طيْن» مُهَان حقير و «طيْن» آخر نقيّ نظيف:[1]

نَسيَ الطِّيْن ساعةً أنّه طيْنٌ حقيرٌ فصال تيهاً وَعربَدْ
وكسى الخَزُّ جِسمَه فتباهى وحَوَى المالَ كِيْسُهُ فتمَرَّدْ

فلا يَجْدُرُ بغني إذاً أن يحتقر فقيرا لخصاصة حاله، وسوء مظهره، فيعامله كما يعامل فحمة سوداء؛ وهو يظن أنّه فرقد من فراقد السماء، لا تستطيع رياح الحياة القاسية مهما تعالت وسمت ان تناله بسوء؛ كما تستطيع ساعة تشاء أنْ تنال برياحها الهوجاء القاعدين على الغَبْراء مِنَ النّاس البُسَطاء:[2]

يا أخِي لا تَمِلْ بوجهكَ عَنّي ما أنا فحمةٌ ولا أنتَ فرقَدْ
انتَ في البُرْدةِ المُوشَّاةِ مِثْلي في كِسائي الرَّديم تَشْقَى وَتَسْعَدْ[3]

وقد تناسَىْ ابو ماضي أنّ أخاه الجديدَ هذا لن يشعر بشعوره، ولن يرق لحاله لأنّه لا يتَنَهّد كتنهداته أو يتأوَّهُ كتأوهاته فهو كُلّما فُجِعَ بفِراق حبيب إلى قلبه استعاض عنه بحبيب وحبيب وما اكثر الاحباء الذين يطلبون دائما مرضاة الاغنياء وكُلّما خانه صديق او ابتعد عنه رفيق، سارع الى طلب رضاه وكسب ثقته، العديد من الاصدقاء والرفقاء وهو قَلّما تجود عيناه بالدموع لتسيل مدرارة على خديه وذلك لان كل شيء متوفر لديه وبإمكانه أنْ يَحْصُلَ عليه بواسطة أمواله: (٤)

أيُّها المُزْدَهي إذا مَسَّك السُّقْـ ـمُ ألا تَشْتكي؟ ألا تَتَنَهّدْ؟
انتَ مِثْلي يَبَشُّ وَجْهُك للنُّعْـ ـمَى وفي حالة المُصِيبة يكمَدْ؟
أدُمُوعي خلٌّ ودمعُك شَهْدٌ وبكائي ذُلٌّ ونَوْحُك سُؤْدُدْ؟
وابتسامي السَّراب لا ريَّ فيهِ وابتساماتك اللآليْ الخُرَّدْ؟[5]

فالفُقَراء وخاصّة من بينهم العلماء والشعراء يجدون دائما انفسهم اغنياء بمعارفهم التي حصلوا عليها بواسطة الدرس والاستقصاء وكل ذلك بالرغم من ضيق الوقت لديهم، وضَعْف امكانياتهم المادية ومعارفهم هذه قد تُشْقيهمْ اكثر مِمّا

---

(١) الجداول ص ٣٩.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) الرديم من الثياب، الخَلَقُ البالي ج رُدُم.
(٤) الجداول ص ٤٠.
(٥) الخريده: اللؤلؤة لم تُثقب ج خرائد وخُرَّد.

تسعدهم فهم دائبو التفكير في الموجود واللاموجود على الارض فيحارون في الوجود، ولكنهم كلما ازدادوا حيرة على حيرة وشكا على شك كلما شعروا بلذة روحية تفوق بكثير تلك اللذة التي يشعر بها الاغنياء، وهم يحدقون في اكوام الحجارة الكريمة التي تحويها خزائنهم: (١)

فلكٌ واحـــدٌ يطلُّ علينا حـــار طرفي بـه وطرفكَ أرمـــدْ

أنتَ مِـثْلي من الثرى وإليـه فلماذا يا صاحبيَ التيـه والصّدْ

لستُ أدري من أين جئتُ ولا ما كنتُ أو مـا أكونُ في غـدْ

أفتـدري؟ إذن فـخبّـر وإلاّ فلمــاذا تظنُّ أنّك أوحَــدْ

وقد رأى ابو ماضي اخاه الغني «الجاهل» الذي لا يعرف كما يعرف هو من اين جاء الى الارض ولا ما سيكون بعد ذهابه عنها، قد بنى لنفسه قصرا مُنيفاً واقام حوله الاسوار واوقف دون أبوابه الحرس الشاكي السّلاح، ليطردوا عنه الشعراء والفقراء. فطلب منه ان يخبره ما اذا كان قصره هذا مُلك له ام لكائنات الطبيعة التي تسرح في داخله وتمرح كما تشاء. فالليل يلفّه بعباءته السوداء كلما أراد، والضّباب يتلبّد فوقه على هواه، والنور يَدخُلُه بلا استئذان فلا يستطيع صاحبه الذي سيكون آجلا أو عاجلا مرقده «التُراب» والنّمال تعيث في جسده كما تشاء أنْ يطرده كما يطرد المحتاجين لرعايته، الهاربين من العواصف التي تعدو في طلابهم والجو قاتم مَرْبَدٌ منْ حولهم، وفيما هو يقوم بطرد هؤلاء المحتاجين اليه أوصى خدَمَهُ باقتناء الكلاب والهِررَة في قصره المُشيّد: موجدا لهم فيه الدّفء والغذاء: (٢)

ألكَ القصرُ دونهُ الحرسُ الشاكي ومنْ حـولهِ الجدارُ المُشـيّـدْ

فـامنع اللّيلَ أن يَمـدَّ رُواقـاً فـوقـه والضّـبـابَ أن يَتَلَبّـدْ

وانظرِ النُّورَ كـيف يدخلُ لا يطـ لبُ إذناً؛ فـمـا له ليس يُطْرَدْ؟

مَـرْقَـدٌ واحـدٌ نَصيـبُكَ منه أفـتـدري كم فيكَ للذَرّ مَرقـدْ(٣)

ذُدْتني عنه والعـواصفُ تَغـدُو في طلابي والجـوُ أقـتَـمُ أرْبَدْ

---

(١) الجداول ص ٤٠ – ٤١.

(٢) الجداول ص ٤٢.

(٣) الذرّ: صغار النّمل.

بينما الكلبُ واجدٌ فيه مأوى وطعاماً والهرُّ كالكَلْب يَرْقُدْ

وشأنُ صاحب هذا القصر الذي لم يشأ ابو ماضي أن يذكر لنا اسمه بصراحة، شأن اكثر اصحاب القصور، والعَقَارات إذ إنَّه يَحْرِص أشد الحِرْص على انفاق الأموال الطائلة ليجعل نوافذ قصره تطل على الحدائق الغَنَّاء، والماءُ يجري فيها عذبا سلسبيلا، ليسقي ازهارها، والنَّدى اكاليل على اوراقها، والطيور تعزف لها اعذب أناشيدها فهذه الحديقة المعطاءة لهذا القصر ليست في نظر أبي ماضي مُلكا لصاحبها الذي اوجدها طالما أنَّه لا يستطيع أنْ يمنع الرياح منْ أن تتلاعب بأغصانِ أشْجارِهَا، فتجعلها تتأود رَغما عنها، والغدير يصفِّق لها بمائه تصفيق الفَرَح والنَّشوة، مهنئا إيَّاها، لاستطاعتها اقتحام حديقة هذا القصر وذلك بدون ان تطلب الإذن والمَشُورة منْ صاحبه. أمَّا الغدير غدير تلك الحديقة فهو عالم كل العلم في قرارة نفسه ان صاحبه المتباهي به لا يستطيع ان يرغمه على التصفيق طَرَبا إلاَّ حينما يكون واقفا امامه: (١)

أَلكَ الرَّوضةُ الجميلةُ فيها الماءُ والطَّيرُ والأزاهِرُ والنَّدْ

فازجُرِ الرِّيحَ أن تهُزَّ وتَلْوِيْ شجَرَ الرَّوْض إنَّه يتأوَّدْ

وازجُرِ الماءَ في الغَدير وَمُرْهُ لا يُصَفِّق إلاَّ وأَنْتَ بِمَشْهَدْ

فما على الاغنياء تَبَعا لذلك كلّه إلاَّ أن يأخذوا إذاً من طيور الحدائق الغَنَّاءة مَثَلا لهم يُحْتذى، في حسن المعاملة والمساواة. فهي لا هَمَّ لها إلاَّ أن تغنِّي لجميع الناس أكانوا فقراء أَم اغنياء ضعفاء أَم اقوياء وما تفعله اطيار السماء تفعله ايضا الازهار التي لا تحاول أن تَحْبِسَ عِطرها عن الضُّعفاء متودِّدة به الى الاغنياء. وذلك جَرْياً على عادة أكثر الناس الذين يَوَدُّون التقرب منْ أصحاب الجاه والسُّلْطان: (٢)

إنَّ طيرَ الأراك ليس يُبَالي أَنْتَ اصغيتَ أَمْ أَنا إنْ غرَّدْ

والازاهيرُ ليس تَسْخَرُ مِنْ فَقْرِي ولا فيكَ للغِنَى تَتَوَدَّدْ

فالنَّهر الذي نُسَخِّرُ مياهه لِمشيئتنا معتقدين في انفسنا اننا المالكون الوحيدون له، قد جعله النسيم الرَّطب درباً له والعصافير ترتوى منه، والنجوم

---

(١) الجداول ص ٤٢.
(٢) الجداول ص ٤٢ - ٤٣.

تستحم فيه في الليالي المقمرة بينما عروق الاشجار قد امتدت إلى قاعه لتأخذ نصيبها من مياهه. وهو بالرغم من جوده وعطائه فلا يخشى على نفسه من الاضمحلال والاندثار. كما يخشى بعض الاغنياء على ثرواتهم من النفاذ كلما جادوا على فقير محتاج، بدرهم مِعْطار.

وأمَّا دليلنا القاطع الدَّال على خلود هذا النهر. فهو عودته بعد سياحاته الكثيرة في الارض الى نفس المصدر الذي خرجت منه مياهه؛ ألاَ وَهوَ البَحر:(١)

أَلَكَ النَّهـرُ؟ إِنَّه لِلنَّسيم الـ — رَطْب دَرْبٌ وللعصافيرِ مَوْرِدْ

وَهو للشُّهْبِ تستحِمُ به في — الصَّيف لَيْلاً كأنَّها تَتَبَرَّدْ

تَدَّعِيه؛ فَهل بأمركَ يجري — في عُروقِ الأشجار أو يَتَجَعَّدْ؟

كان مِنْ قبْلِ أن تجيئ وَتَمْضي — وهو باقٍ في الأرضِ للجَزر والمَدْ

حتى تلك النَّملة الصغيرة الضَعيفة قد تجرَّأت على حقولنا، فأقامت بيوتها فيها، وأخذت تملأها بحبَّات القَمْح التي حصلت عليها من بيادرنا، لتتخذ منها غذاء لها في ايام الشتاء القارسة البرد لإيمانها بحَقّها في التمتّع بنفس الحقوق التي يتمتَّع بها كل انسان في ارضه. وحينما تَرَانا نحرثُ حقولنا، تعتبرنا جناة ولصوصا، لأنَّنا لم نراع حسن الجِوار معها. وما تعتقده النملة تعتقده وتحلم به النحلة وهي تمتص رحيق الازهار من حقولنا وحدائقنا لتعود به الى قُفرانها صانعة منه العَسَل المُصَفَّى لنفسها، ولنا؛ متوخِّية بذلك الا تكون انانية. فهي اذن بعملها هذا قد افادت نفسها وافادت الناس جميعاً. بحيث تمكَّنت من أن تردّ اليهم اضعاف ما جادوا به عليها:(٢)

أَلكَ الحقلُ؟ هذه النَّحل تجني — الشَّهدَ مِنْ زَهره ولا تتردَّدْ؟

وأرى للنِّمالِ مُلكاً كبيراً — قد بَنَتْهُ بالكَدْحِ فيه وبالكَدْ

انتَ في شَرعها دخيلٌ على الحَقْـ — ـل ولِصٌّ جَنَى عليها فأفسَدْ

وانك ايّها الغني (قال ابو ماضي مخاطبا ذلك الغني الذي كان من خلال مخاطبته كأنَّه يخاطب معظم الاغنياء)، تعتقد أنك قد اصبحت سعيدا بعد ان

---

(١) الجداول ص ٤٣.
(٢) المرجع نفسه.

كدّست أموالك في خزائنك وحبستها عن المُعوزين الفقراء وحتى عن نفسك ولكنّك مهما كدّست من ثروات؛ فثروتك هذه ليست في حقيقة امرها الا وَبالا عليك ولصّا شاهرا سيفَه دائما وابدا في وجهك ليسلبك سعادتكَ، وحُرِّيّتكَ في الحياة. فانت وان كنتَ في قرارة نفسكَ شاعرا بالسعادة فلستَ أسعد من فراشة الحقل ولا أهنأ منها حينما تتنقل جزلة فرحة وسط الحقول غير عابئة بتقلّبات الدهر ولا خائفة على ثروتها من الضَّياع إذا ما اضطرت ان تتشاغل عنها ولو الى حين. اما اذا كنت جميلا فلا اراك اجمل ولا أسخى من الورود وهي تجود علينا بروائحها العطرة الزّكيّة غير منتظرة مِنّا أنْ نلقي على مسامعها عبارات الشكر والعرفان. وأرى البعوض يتغذّى من خديك فيكدر عليك صفو الحياة ويرغمك على الاستيقاظ مِنْ نَوْمِكَ الهانيء العذب ساعة يشاء ولولا دودة القزّ التي اوجدت لك الحرير لتتخذ منه لجسدك العاري كساء، لما كان هناك أيّ فرق بيني وبينكَ ولأشبَهَتْ حالتُك حالتي وأراك تدّعي القوّة والجبروت بأموالك فهل باستطاعتك مقاومة الكرَى وهو يثقل اجفانك شيئا فشيئا ليحملك قسرا الى فراشك الوثير.

فانت كاذب أيّما كاذب فيما تقوله وما دمتَ العالِمَ الوحيد والجبّار العنيد فهاتِ حدثنا اذن حديث العارف المتبحّر في العلوم عنِ الخيال واين يُولد وكيف يسير ويظل سائرا متنقّلا من خاطر الى خاطر ومن نفس الى نفس بدون أن يتلاشى أو يتوقف ويجدر بك أثناء حديثك هذا أنْ تخبرنا عَمّا تعرفه عن «الحياة» التي لا تختفي في مكان إلاّ لتظهر في مكان آخر سواه، بشكل او بآخر وعن الزّمان الذي نَذمّه تارة ونحمَده طورا وكل ذلك من غير أن نَدْري بأنه لا وجود له إلاّ في مخيّلاتنا الضيّقة لأنَّ كل ما كان بالامس سيكون في المستقبل وذلك بعد أن يصبح الامس حاضراً والحاضر مستقبلا: (١)

لو مَلكتَ الحقولَ في الأرض طُرّاً ... لم تكنْ من فراشة الحَقْل اسْعَدْ

اجميل؟ ما انت ابهى منَ الور ... دةِ ذاتِ الشّذَى ولا انتَ أجْوَدْ

أمْ عزيز وللبعوض في خَدْ ... يْكَ قُوتٌ وفي يديك المُهَنّدْ

---

(١) الجداول ص ٤٤.

أمْ غنيٌّ؟ هيـهـات تختـال لولا   دودةُ القـزّ بالحبـاء المبـجَّـدْ(١)

أمْ قـويٌّ؟ إذن مُـر النّوم إذ يغـ   ـشـاكَ والليلُ عن جـفـونك يرتَدْ

وامنع الشـيـبَ أن يلمّ بفـوديـ   ـكَ ومُـرْ تلبثَ النّضـارة في الخـدْ

اعليم؟ فـمـا الخيـال الذي يطـ   ـرُقُ ليـلاً؟ في أيِّ دُنيـا يُولدْ

مـا الحيـاة التي تبينُ وتخفى؟   مـا الزّمـان الذي يُذمُّ ويُحْـمَـدْ

فما دام ذلك الانسان المصنوع من الطّين ليس أنقى ولا أزكى من التراب الذي تدوس عليه وتتوسد، فلماذا لا يجعل من قلبه «معبدا» للألفة والمحبة، لكي يتمكن الناس جميع الناس من الدخول اليه ساعة يشاءون طلبا للنسك والتقوى، وما دام الانسان ليس الا حيوانا تستعبده الشهوات، ويتلاعب به الدهر كيفما يشاء، فلماذا لا يعطفُ على أخيه في الانسانية الذي هو اولى بعطفه ورعايته من تلك الثياب الفاخرة التي تبْلى ومن ثروته الطائلة التي قد تنفدُ وتتبخّر بين ليلة وضحاها وثياب الحمد والثناء التي يرتديها بعض الناس الخيِّرين الفضلاء، هي ثياب قد لا يستطيع الدّهر مهما طغى وتجبّر ان يحكم عليها بالزوال او الفناء.(٢)

أيهـا الطينُ لستَ أنقى وأسْـمَى   من ترابٍ تَدُوسُ أوْ تتـوسَّـدْ

سُدْتَ أو لم تَسُـدْ فـمـا انتَ إلا   حيـوانٌ مُسَيَّرٌ مُستَعْبَدْ

لا يكن للخِـصَـام قَلْبُكَ مـأوَى   إنّ قلبي للحبِّ أصبحَ مَـعْـبَـدْ

وأنا أوْلى بـالحُبِّ مِنْكَ وأحْـرَى   مِنْ كِـسـاءٍ يَبْلَىَ ومالٍ يَنْفَـدْ

وكان ابو ماضي يعتقد بأن «الزّحام» في المدينة قد افسد اخلاق الناس اغنياء كانوا ام فقراء جاعلاً اياهم يعيشون عيشة مملوءة بالقلق والخوف من الحاجة فأدركَ أن لا شيء يرجع لهؤلاء سعادتهم المفقودة إلّا رجوعهم الى وطن الانسان الاوّل حيث كان يعيش فيه عيشة البساطة والقناعة. ولم يكن ذلك الوطن المنشود في نظره سوى حضْن «الطبيعة الأمّ». وها هو يوضّح لنا في قصيدته «في القفْر» توضيحاً وافيا هذا الرأيَ الذي كان مؤمنا به كل الايمان، كإيماننا به أيضا بدورنا،

---

(١) الحباء: العطية. البجاد: كساء مُخطط ج بُجُد.

(٢) الجداول ص ٤٤ – ٤٥.

وذلك حيث قال:[1]

سئمتْ نفسيَ الحياةَ مع النا ... س وملّت حتى منَ الأحبابِ
وتمشّتْ فيها الملالةُ حتّى ... ضجرتْ منْ طعامِهم والشرابِ
ومنَ الكذب لا بساً بُرْدة الصّدْ ... ق وهذا مُسَربَلاً بالكِذابِ

فشعوره إذاً منْ صلاح أمر فئة قليلة من الناس، جعله يهرب منَ المدينة طالبا العزلة في «القفر» حيث لا يوجد فيه منافقون كذّابون ولا اصنام تسجد لاصنام، ولا اناس صامتون صمت الافاعي وهم يلْبَسُون لكل زينة لباسها ويَهْزَجُون هَزَجَ الذُّباب. وقد كان ابو ماضي خلال سيره قاصدا ان يقيم اقامة قصيرة في «الغَاب» بعيدا عن الناس، يقول مخاطبا نَفْسَه:[2]

وليكُ الَّليل راهِبي وشموعي ... الشُهْبُ والأرضُ كُلُّها مِحْرابي
وكتابي الفضاءُ اقرأُ فيه ... سُوراً ما قرأتُها في كتابِ
وصلاتي الذي تقول السواقي ... وغنائي صوتُ الصَّبَا في الغَابِ
وكؤوسي الاوراقُ ألقتْ عليها ... الشمسُ ذوْبَ النُّضَارِ عند الغِيَابِ

فما ان وطِئتْ قدماه ارض الطبيعة الأُمّ حتى بدأ يقرأ في فضائها الرَّحْب اسطراً لم يكن قد سبق له وقرأ مثلها في أي كتاب من الكتب وذلك حينما بدت السماء لعينيه صافية. فلا دخان المصانع يعكر صفو اديمها، ولا انفاس بعض الاغنياء الاشحاء تدنس صفحتها فتتحول بِسَبَبِهَا غيومها الناصعة البيضاء الى غيوم مظلمة سوداء مُتَلَبِّدَة بعضها فوق بعض فأخذ وهو مقيم في «القفر» يمرح تارة في مُلاءَة من شُعاع وطورا في مُلاءَة من ضباب ولكنه فجأة وجد نفسه التي مَلّت «العُمْران» قد بدأت تَمُلّ ايضاً صَمْت «القَفْر» فأدرك بعدما اشتد حنينه الى المكان الذي فارقه، طالبا بعد مفارقته شيئاً منَ الهدوء والاطمئنان، بأنّ الإنسان أيَّ انسان وخاصّة اذا ما كان شاعراً مفكراً مرهف الإحساس، لن يستطيع مفارقة العُمْران، وبأنّه سوف يظل دائما وابداً عبداً لرغائبه واسيراً لمطامعه التي تمشي في ركابه

---

(١) الجداول ص ٤٨.
(٢) الجداول ص ٤٩

حيثما حَلَّ وأينما سار. وكل ذلك ما دام عاجزاً عن التخلص من العناصر المُكوِّنة لجسده ألاَ وهي الماء والهواء والتراب المُتَحَوِّل الى صَلصَال:(١)

عَلَّمَتْني الحيـاةُ في القَـفْـرِ أنّي أينمـا كُنْتُ سـاكِنٌ في التُّـراب

وسأبقى مـا دمت في قـفص الصَّلْـ ـصَالِ عَبْدَ المُنى أسيرَ الرِّغَابِ (٢)

خِلْتَ أني في القَفْرِ أصبحتُ وحدي فـإذا النَّاس كُلُّهم في ثيـابي!

وكان ابو ماضي قد شاهد ذاتَ مرَّة الناس واقفين امام تمثال احد الرجال الكبار في احد الشوارع العامة فوقف معهم محاوراً اياهم علّه يستطيع اقناعهم بأنهم قد اخطأوا كل الخطأ حينما ساهموا في تشييد هذا التمثال اعترافاً منهم بفضل صاحبه عليهم جميعا. فها هو شاعرنا يقول مستهلا قصيدته التي جعل عنوانها التِّمثال: (٣)

من المَرْمـر المَسنون صـاغُوا مِثَـالَه وطافُـوا به مِنْ كُلِّ نـاحِيَـةٍ زُمَـرْ

وقـالوا صنعناهُ لتـخليـد رَسْـمِـهِ فـقلتُ ألا يَفْنَىٰ كـمـا فَنِيَ الأَثَرْ

وقـالوا : نصبناهُ اعـترافـاً بِفَضْلِهِ فقلتُ إذن مَنْ يعرفِ الفَضْلَ للحَجَرْ

وقـالوا: غَنيٌّ كـان يَسْـخُـو بماله فقلتُ لهم: هل كـان أسْخَى مِنَ المَطَرْ

وقـالوا: قـويٌّ عـاش يَحْمي ذِمَـارَنا فقلتُ لهم: هل كـان أقوى مِنَ القَـدَرْ

أكـان غنيّـاً أم قَـويّا فـإنّـه بمالِكُمْ اسْـتـغنى وقُـوَّتِكُمْ ظفـرْ

ففي رأينا ان هذا التمثال المسنون من المرمر قد شيد خصّيصالرجُل سياسي رأى أبو ماضي أَنَّه قد كانَ وهو حَيٌّ يَدَّعي مَحَبْة الناس ويَظْهَرُ امام اعينهم دائما بمظهر المدافع عن مصالحهم الباحث لهم عن المستقبل الافضل البسّام فيما هو في حقيقة الامر لم يكن يبحث الا عن مستقبله ولا يهتمّ الا بشؤونه وبمنفعته الخاصة. وهناك فئة من الناس لا يقفون بسبب ضعف مستتر في نفوسهم الا مع القَويِّ، ما دام قويا وحينما يجدونه قد ضَعُفَ واستكان يتفرَّقون من حوله او ينقلبون عليه. فها هو أبو ماضي يقول مستطردا في رائيته هذه محرِّضا النَّاس على صاحب هذا

---

(١) الجداول ص ٥٢.
(٢) الصلصال : الطين اليابس.
(٢) الجداول ص ٥٣ – ٥٤.

التّمثال بالذّات: (١)

فلم يتــعــشّــقكُمْ ولا هِمْــتُمْ بِهِ كــمــا خِلتُمْ لكِنَّه النَّفعُ والضَّـــرَرْ
فلستم تحـبـون الغنيَّ إذا افــتــقــر ولستم تُحِبّون القَوِيّ إذا انْدَحَرْ

ففي بعض الاحيان نجد ابياتا عند ابي ماضي مختلة الوزن ودليلنا على ذلك البيت الاول من هذين البيتين الذي كان بإستطاعةِ أبي ماضي في نظرنا ان يورده على النحو التالي:

فلم يتعشقكمْ ولم تأبَهُوا لَهُ ولكِنَّكُمْ ترجونَ نفعاً بلا ضَرَرْ

ولقد وجد أبو ماضي بعض الناس يتظاهرون بعمل الخير لا لشيء الا لمنفعتهم الشخصية فهم لا يَلقُوْن بالدرهم الى فقير محتاج الا بعدما يكونون قد ربطوه بخيط ليتمكنوا بواسطته من اعادة ذلك الدرهم نفسه الى جيوبهم ساعة يشاؤن.

فلو كان الناس في نظره يُكَرِّم بعضهم بعضاً بدون هدف يتوقعون تحقيقه او مطمع يرجون تحقيقه لكان حريا بهم بدلا من تكريمهم لصاحب ذلك التمثال ان يكرِّموا تلك النجوم المتلألئة التي لولا تلألُؤها لما وجد السُّمَّار والعشاق فيها مؤنسا لهم يؤنسهم في وحدتهم، ويخفف عن نفوسهم المتعبة بعضاً منْ آلامها.

فالاجدر إذن والأَوْلى بجميع الناس ان ينصبوا تمثالا للضُّحى او للشمس او للقمر بدلا من ان ينصبوه لتلك الفئة من الناس التي هي مستطيعة بغيرها، وخاصة من بينها فئة كبيرة من رجال المال أو السياسة: (٢)

ارى أنّكم لا تَغــرُجُــوْن برَوْضَــة إِذا لم يكن في الرَّوض فَيءُ ولا ثَمرْ (٣)
ولا تَعْلِفُــون الشــاةَ الا لِتَـسْــمَنُوا ولا تَـقْـتَنُونَ الخَـيلَ إِلاَّ على سَـفَـرْ
اذا كـان حُبُّ الفَـضْل للفَضْل شَـأنُكمُ ولم تُخْطِئوا في الحِسِّ والسَّمعِ والبَصَرْ
فـما بالُكم لم تُكرِمُـوا اللَّيلَ والضُّحَى ولم تَنْصِبُوا التّمثال للشّمسِ والقَمَرْ

اننا لا نوافق ابا ماضي على هذا الرأي الذي يراه وَهُوَ رأي متجسّد في طلبه

---

(١) الجداول ص ٥٤.
(٢) الجداول ص ٥٥.
(١) في الديوان رايتكم.. والصواب ما اثبتناه.

من هؤلاء الناس الذين كان يخاطبهم اثناء التفافهم بذلك التمثال ألا يقيموا التماثيل لرجال المال او السياسة او الحرب بل يجدرُ بهم حَسْبَ زعمه اقامتها لكائنات الطبيعة لأنها أولى بالتكريم واجدر به من هؤلاءِ جميعا.

فالتماثيل في رأينا يجب ان تقام للمصلحين الاجتماعيين واصحاب الفكر والالهام. كما يجب ايضا ان تقام لبعض رجال السياسة او المال الذين يستحقون بعد موتهم التخليد والاكبار والاجلال.

فكم من رجل سياسي استطاع ان يقود امته في معارج التقدم والقوّة والمجد والازدهار. فالتاريخ يحمل لنا في طيّاته امثلة ودلائل تؤيد قولنا هذا. وليس علينا أيّ حَرَج اذا ما اقمنا التماثيل ايضا لبعض رجال المال الخيّرين الكرماء الذين ينفقون قسما من اموالهم في سبيل المشاريع الانسانية العائدة بالفائدة على قسم كبير من الناس عَلّنا نجعل من تكريمنا لهم بعد موتهم عظة يَتَّعِظ بها الاغنياء الذين يُمْسِكُون ايديهم عن العطاء وفعل الخير مع مستحقيه.

وكان ابو ماضي يرى أن الانسان مُقَيَّد بقيود العادات والتقاليد السائدة المعروفة في مجتمعنا. فهو ليس بوسعه ان يتمرَّد او يثور على تلك التقاليد مهما كانت جائرة وظالمة بالنسبة اليه. فهو اذا ما طاب له أنْ يُصَرّح بآرائه الجريئة المتعلّقة بالحياة والموت سمي كافرا زنديقاً. واذا ما شعر بميل نحو فتاة وراحت تلك الفتاة تبادله حبا بحب وعطفا بعطف عُيِّر من الجارة والجار. واتهم بشتى الاتهامات. واذا ما لعب الورق كي يطرد بواسطته عن نفسه بعض الملل والسأم والضجر سمي مقامرا متلافا غير جدير بالعطف ولا الاحترام. فها هو يقول في قصيدته التي بعنوان «إذا» (١).

اذا جَدَّفْتَ جُوْزيتَ على التَّجديفِ بالنّار
وإن أَحْبَبْتَ عُيِّرْتَ مِنَ الجارةِ والجارِ
وإن قامرتَ او راهَنْتَ في النَّادي او الدَّارِ
فأنتَ الرَّجلُ الآثِمُ عِنْد النَّاسِ والبَاري

---

(١) الخمائل ص ١٨٤.

فلو لمَ يتّفق الناس كلهم فيما بينهم على القول بوجوب معاقبة كل مُجدّف على الله عزَّ وجَلَّ واحتقار كل مقامر متلاف او عاشق، وخاصة اذا ما كان متزوجا لَمَا صَلُح في نظرنا المجتمع الذي لا يَصلُحُ إلا بَعد صَلاح كُلّ افراده تقريبا. حيث إنّه لا شيء يثني الناس عن المقامرة إلا خوفهم من احتقار أهلهم وأصدقائهم لهم. أمّا الذين يجدّفون على الله فليسُوا في نظرنا سوى ملحدين زنادقة فاقدي الايمان. وكل من يفقد ايمانه بالله لا يتوانى عن ارتكاب الاثام والفحشاء ويصبح ضرره في مجتمعه اكثر من نفعه فيه. والرَّجل القوي هو ذلك الرجل المنتصر بقوة ارادته على مصاعب الحياة؛ وهو الذي لا يلجأ الى الخمر كُلّما حلت به كارثة او ألَمّتْ به مصيبة عَلّه ينسى بعد أنْ يَشرْبَها المصائب والكوارث التي فُجع بها. فهذا الرجل يجد بعد أنْ يتبدد خُمَار تلك الخمرة من رأسه ان حالته قد ازدادت سوءا على سوء. وبأنه قد اصبح مَقُوداً بعدما كان قائدا لنفسه ومالكا لارادته. وكُلُّ ذلك بسبب لجوءه الى تلك الخمرة التي فَزِعَ اليها ناشدا بواسطتها الصَّبر والنّسيان: (١)

وإنْ تسكرْ لكي تَنْسيَ هموماً ذاتَ أوتـارِ

خسرتَ الدِّيْنَ والدُّنيا ولم تَربَحْ سوى العَارِ

فيأس شاعرنا من صلاح المجتمع قد جعله يحبّب الى النفوس في قصيدته هذه السُّكر والعَرْبدة والتَّجديف والعِشْق حتى وصل به الحال الى حد تحليل شرب السُّمّ لبعض الناس بُغْية الانتحار وذلك كُلّما شعروا بالأسى والضِّيق: (٢)

وان قلتَ: إذن فـالعـيش أوزارٌ بأوزارِ

وإن الموت اشـهى ليْ اذا لم أقضِ أوْتاري

واسـرعتَ الى السّـيف او السُّم او النَّارِ

لكي تخرجَ من دنيا ذووها غَيْـرُ أحْـرارِ

فهـذا المُـنْكرُ الأعظـم في سـّرٍ وإضمـارِ

إذاً فاحْيَا وَمُتْ كالناس عبدا غَيْـرَ مُـخْتارِ

ولقد جاءت هذه الآراء لابي ماضي وخاصَّة مِن بينها تحليله للانتحار مخالفة

(١) الخمائل ص ١٨٤ - ١٨٥.
(٢) الخمائل ص ١٨٥.

كل المخالفة للآراء السديدة السائدة في المجتمع الراقي المتحضر المتنوّر. فإنَّ المتحرين في نظرنا ونظر اكثر الناس الواعين المدركين هم جديرون بالاحتقار والازدراء وذلك لان الانسان القوي الباحث عن «الظُّهيرة العظمى» كما يقول بعض الفلاسفة لا يلجأ الى مثل هذه التُّرَّهَة، تُرَّهَةَ الانتحار التي يلجأ اليها ضُعَفَاءُ النفوس من البشر ليتخلَّصُوا بواسطتها من الحياة واوزارها واثقالها. فلو اننا عَمِلنا بكل هذه المشورات التي اشار علينا بها ابو ماضي في قصيدته الرائية هذه، وتركنا الناس يتصرَّفون كما يحلو لهم ويشاءُون لفَسد الكون بأسره وفَسد كل مجتمع، وذلك لانه يوجد في كل مجتمع قوانين وشرائع سائدة فيه. وهي شرائع وقوانين لها تأثير وفعالية كتأثير وفعاليّة القوانين والشرائع التي سَنَّتها الحكومات واصدر بموجبها القُضاة أحكامهم.

وابو ماضي لم يشأ في قصيدته هذه التي جعلها بعنوان «إذا» ان يسارع الى السيف او النار او السم وان يَحثَّ جميع الناس الى المسارعة ايضا معه اليهم آملاً بذلك أن يخرج من دنيا اهلها غَيْر احرار إلا لكونه قد كان يشعر في تلك الفترة من حياته؛ وهي الفترة التي كتب فيها قصيدته هذه التي نشرها لاول مرة في مَجَلَّتهِ السَّمير بتاريخ ١٥ أيلول ١٩٣٠م. بيأس شديد قَتَّال من صلاح احواله في المستقبل القريب أو البعيد.

فهو قد كان يشعر في ذلك العام بالذات وخاصَّة في العام الذي تلاه بما يشعر به كل مسافر في احدى الصحارى القاحلة الواسعة التي لا يوجد فيها سوى رمال ملتفَّة برمال وهي خالية من الماء والشجر والنَّبات. ولم يكن ابو ماضي في تلك الفترة من حياته شاعراً وحده بهذا الشعور، بل كان يشعر به معه جميع الناس الذين كان يراهم يمرُّون به اثناء سيره في الطرقات؛ وفي وجوههم المُصْفرَّة الكالِحَة المكفَهرَّة وفي نظراتهم الحائرة ابلغ الادلة على مدى شعورهم باليأس القاتل من صلاح احوالهم الاقتصادية في المستقبل القريب. وذلك نظراً لوجود تلك الضائقة المالية التي كانت تجتاح الولايات المتحدة في تلك الفترة.

فأبُو ماضي بدلا من ان ينصح هؤلاء الناس اليائسين من الحياة بالمسارعة الى السُّم او النَّار او السيف كي يتمكنوا بواسطتهم من الخروج من دنياهم التي هي مملوءة باناس غير احرار وذلك كما وجدناه يفعل في قصيدته السابقة التي بعنوان

«إذا»، راح ينصحهم في تضاعف قصيدته التي بعنوان «الغبطة فكرة» والتي كتبها عام ١٩٣١م ونشرها أوّل ما نشرها في مجلته السّمير بتاريخ ١٥ كانون الثاني، باستقبال عيدي رأس السنة والميلاد بالفرح والسرور محتفلين بقدومهما عليهم كُلّ الاحتفال ومتعمدين تعمداً ان يتناسَوْا في خلال ذلك ولو الى حين تلك الضائقة المالية ورياحها العاتية الشديدة التي سَبَّبت لهم الكثير من المتاعب والويلات. وهو قبل ان يدعوهم الى اعتناق مبدإه التّفاؤليّ هذا ألاَ وهو مبدأ «الابتسام» في غمرة المصائب والويلات، شاء ان يضع امام اعينهم صورة واضحة المعالم، مظهرا من خلالها مشاعر القلق التي كانت آنذاك تنتاب اكثرهم بسبب تلك الضائقة المالية الخانقة وقد استهل رَسْمه لتلك الصورة بقوله في مطلع قصيدته الرائيَّة هذه: (١)

أقبلَ العِيدُ ولَكنْ ليس في النّاس المَسَرَّة

لا ارى الا وجـوها كـالحـاتٍ مُكفَـهِـرَّة

كـالرّكـايا لم تدعْ فيـهـا يدُ الماتِح قَطْرَة (٢)

او كمثل الرَّوض لم تترك به النَّكباءُ زَهْرَة (٣)

وعيوناً دَنِقَتْ فيـهـا الامـاني المُسْتـحِـرَة

فـهي حيـرى ذاهلاتٌ في الذي تَهْوىَ وتَكْرَة

وخـدوداً باهتاتٍ قـد كـسـاها الهَمُّ صُـفْـرَة

وشفـاهاً تحذَرُ الضّحْكَ كأنَّ الضِّحْكَ جَمْرَة

لقد وجد ابو ماضي جميع الناس حائرين في امر هذه الازمة المالية الحادَّة التي استطاعت ان تصبغ الوجوه بالاصفرار بسبب حِدَّتها وان تيبسَ الضحك على اكثر الشفاه التي وجدَ أصحابَها يمدّون انظارهم الى الافق البعيد عَلَّهُم يجدون خلفه أيَّ دليل او بشير من دلائل وبشائر الامل بالخلاص المُتَوقَّع القريب.

واننا لنجد ابا ماضي يستطرد في قصيدته هذه واصفا حالة الذُّعْرِ التي كانت

---

(١) الخمائل ١٧٠.
(٢) الركية ج ركايا: البئر ذات الماء.
(٣) النكباء ج نُكبٌ ونكباوات: الريح الهوجاء المدمِّرة.

مستولية على جميع الوجوه تقريبا في تلك السنة بالذّات، وذلك بقوله: (١)

ليس للقوم حديثٌ غَيْرُ شكوى مُسْتَمِرَّهْ

قد تساوى عندهم لليأسِ نَفعٌ ومضَرَّهْ

لا تسلْ ماذا عراهُمْ كُلُّهُم يجهل أمْرَهْ

حائرا كالطائر الخائف قد ضَيَّع وَكْرَهْ

فوقه البازيُّ والأشراكُ في نَجْدٍ وحُفْرَهْ

فهو إنْ حطَّ على الغَبْراء شكَّ السَّهمُ صدرَهْ

واذا ما طار لاقى قَشْعَمَ الجوِّ وصَقْرَهْ (٢)

كلهم يبكي على الامس ويخشى شَرَّ بُكْرَهْ

فهمُ مِثْلُ عجوزٍ فَقَدَتْ في البَحْرِ إبْرَهْ

لقد شَبَّه أبو ماضي حالة هؤلاء الناس الخائفين المذعورين على مستقبلهم الغامض بحالة الطائر الذي بدَّدت العواصف وَكْره. فباتَ يطير هائما في الجو على وجهه مفتِّشا عن مأوى له على الارض وذلك خشية ان تدهمه فجأة احدى العواصف القوية وتلقى به في مهاوي التَّهلكة والدمار. وهو لم يشأ ان يقنع بهذا التشبيه الجيّد وحده الذي شبَّه به حالة هؤلاء القوم، بل قرنه بتشبيه آخر وذلك حيث شَبَّه حالة المتموّلين الكبار الذين فقدوا اموالهم فجأة بسبب تلك الضائقة المالية الخانقة بحالة امرأة عجوز مقتِّرة بخيلة فقدت ابرة لها في البحر، فانحنت فَوْقه بقامتها باحثة عنها فيه بيديها ولكن من غير جدوى.

ولم يكد ابو ماضي ينتهي في قصيدته الرائية هذه من رسم الصورة الحيّة التي عبَّر فيها اصدق تعبير عمَّا كان يختلج في نفوس الناس آنذاك من مشاعر وشكوك وما كان يرتسم على قسمات وجوههم المصفرة الكاحلة المكفهرة من علامات الحيرة والاستفهام حتى تذكّر ان مهمة الشاعر التي هي مهمته ليست مهمة الرجل الضعيف المتباكي الذي لا يستطيع الوقوف على قدميه كلّما اعترضت سبيله احدى

---

(١) الخمائل ص ١٧١.
(٢) القشعم: المسن من النسور.

العواصف المدمرة، محاولةً أنْ تعيقه عن تقدمه. فطفقَ بعد تذكُّره هذا يصف للناس المتباكين على ما فات، والخائفين من المستقبل الغامض المجهول، دواءه الناجح الشافي؛ ألاَ وهو دواء النسيان والاغتباط بالمصائب والمصاعب، مهما كانت قوية شديدة وهما دواءان شافيان، للانسان الخائف المتوجع، شرط ان يتعاطاهما وهو مؤمن بجدواهما كل الايمان: (١)

أيهـا الشّـاكي اللّيـالي إنّما الغِـبطة فِكْرَة

ربما استوطنتِ الكوخَ وما في الكوخ كِسْرَة

وخَلَت منها القصورُ العالياتُ المُشْمَخِرَّة

تَلْمُسُ الغُصنَ المُعَرَّى فاذا في الغصن نُضْرَة

واذا رَفَّتْ على القَفْرِ استوى ماءً وخُضْرَة

واذا مَسَّتْ حَصَاةً صقلتها فهي دُرَّة

لك ما دامت لك الأرض وما فوق المَجَرَّة

فاذا ضَيَّعْتَهـا فـالكون لا يَعـدلُ ذَرَّة

فبواسطة هذه الغبطة الفكرية الوهمية لا بسواها يستطيع الانسان ان يظل متمتعا في حياته بالسعادة الدائمة المتَّصِلة حتى ولو كانت حياته التي يحياها مملوءة بالمصاعب والعراقيل.

ولقد كان ابو ماضي مؤمنا كُلَّ الإيمان بأن البكاء على ما فات وانقضى لا يجدي نَفْعاً وهو حينما يزهر لا يثمر الا ثمارا فَجَّةً طعمها مُرُّ المَذاق ولونها غريب وأمرها عجيب. ومن كان قادراً على البكاء، فهو يقدر ايضا على الضَّحِكِ ساعة يشاء.

فهذه الدعوة التي دعا ابو ماضي الناس المتعبين في الحياة اليها طالبا منهم ان يلبوها ليستطيعوا بعد ذلك ان يخلِّصوا صدورهم من شوائب الحزن والالم المُسْتَقِرَّة في اعماق اعماقها، هي دعوة مباركة خيِّرة وقد قلَّ نظيرها في ادبنا العربي

---

(١) الخمائل ص ١٧٢.

قديمه وحديثه. فلنستمع الى ابي ماضي وهو يقول في هذا المَعْنى: (١)

ايها الباكي رُوَيْداً لا يسدُّ الدَّمعُ ثُغْرَهْ

ايها العابِسُ لن تُعْطَى على التَّقطيب أُجْرَهْ

لا تكن مُرّاً ولا تجعلْ حياةَ الناس مُرَّهْ

إنَّ مَنْ يبكي له حَوْلٌ على الضَّحْكِ وَقُدْرَهْ

فتهلَّلْ وترنَّمْ فالفتى العابس صَخْرَهْ

فجميع هذه الابيات تتسم بسمة الجزالة وإصابة المعنى المراد بواسطة الفاظ دالة بعيدة عن الحُوشية او التَّعْقيد. واذا كنا نريد ان نختار دُرَّة للعِقْد الذي نُظِمَتْ فيه هذه الابياتَ فاختيارنا يقع بلا شك على هذا البيت:

لا تكن مُرّاً ولا تجعلْ حياةَ النَّاسِ مُرَّهْ

وهو بيت قد تضمَّن مَعْنىً فريدا مبتكرا. ويعتبر من اجود الابيات التي قيلت في الحكمة والموعظة في ادبنا العربي حديثه وقديمه.

وكان ابو ماضي قد نظم في عام ١٩٣٠م قصيدته المشهورة التي بعنوان «ابتسم» وقد استهلها بقوله: (٢)

قال: السَّماءُ كئيبةٌ! » وتَجَهَّما ... قلتُ ابتسمْ يَكْفي التَجَهُّمُ في السَّمَا!

انني لم استطع ان ادرك مغزى قول ابي ماضي في هذا البيت وكذلك مغزى اقواله كلها في جميع ابيات قصيدته الميمية هذه الا بعد ان عثرت على هذه القصيدة له منشورة لأوَلَ مَرَّة في مجلة السَّمير بتاريخ ١٥ كانون اول ١٩٣٠م. فعثورنا على تاريخ نظم هذه القصيدة المشهورة قد اكدَّ لنا حقيقتين رئيستين ألاَ وهما:

اولاً: انَّ هذه القصيدة نظمها ابو ماضي في شهر كانون الاول من عام ١٩٣٠م. وهو شهر عيدي رأس السنة والميلاد المجيدين.

ثانياً: ان ابا ماضي نظم قصيدته هذه عام ١٩٣٠م وهو عام كانت تلك الازمة الاقتصادية الخانقة التي اجتاحت الولايات المتحدة وظلَّت مجتاحة لها مدة اربع

---

(١) الخمائل ص ١٧٢ - ١٧٣.
(٢) الخمائل ص ٥٨.

سنوات قد بلغتِ الأَوْجَ شدَّةً وضيقاً.

فمن هنا نستطيع القول تبعا لِما اسلفنا ان ابا ماضي لم يكن يقصد بقوله: «قال: السماء كئيبةٌ...» سماء نيويورك نفسها التي كان يراها خلال نظمه لقصيدته هذه ملَّبدة بالغيوم والضَّباب وذلك حسبما زعم بعض الادباء. وانما كان في نظرنا يقصد من وراء قوله هذا الاشارة ولو بطرف خفي الى تلك الضائقة الاقتصادية التي كانت غيومها السوداء المكفهرة لا تتلبد فقط في سماء مدينة نيويورك وحدها في ذلك العام الذي نظم فيه أبو ماضي قصيدته هذه بل ايضا في سماء سائر مدن وقرى الولايات المتحدة الاميركية.

فأبو ماضي في نظرنا لم يكن في البيت الاول من ابيات قصيدته هذه وكذلك في سائر ابياتها يخاطب فرداً معيناً رآهُ متجهِّمَ الوجه بسبب خشيته من تلك الضائقة الخانقة بل كان يخاطب جميع الناس الذين كانوا يَحْيَوْنَ في ذلك العام بالذات الا وهو عام ١٩٣٠م.

فشاعِرُنا قد كان حسبما ذكرنا لدى ترجمتنا لحياته صاحب مجلة ادبيَّة اسمها «السَّمير» وهي مجلة كانت تعتمد في بقائها ونموها على بدل الاشتراك الزهيد فيها. وذلك لان صاحبها لم يكن له مورد رزق غيرها، وتوقفها عن الصدور او ضياعها من يده معناهما ضياع امله الوحيد في المستقبل المشرق الوَضَّاح، وهو مستقبل لم يكن يتأتى لأبي ماضي الحصول عليه الا بعدما تَنْجلي عن عينيه غيوم تلك الضائقة الخانقة.

واضافة الى ذلك فهو كان قد بلغ الاربعين من عمره حينما نظم قصيدته هذه والدَّليل على ما نقول قوله الذي قاله في البيت الثاني من ابيات قصيدته هذه وهو قول قد سلك فيه اسلوب السؤال والجواب. فأَصاب واجاد: (١)

قال الصِّبا ولَّى! فقلت لَهُ ابتسِمْ   لن يُرْجِعَ الأسفُ الصِّبا المُتَصَرِّما!

فهو بدلاً من ان يبكي متأسفاً على انقضاء زمن صباه هذا راح يبتسم ابتسامات الظافر المنتصر علَّه يستطيع بواسطة ابتساماته هذه ان ينسى ولو الى حين ذلك الواقع المرير الذي كان يعيش، في تلك الاثناء، ايامه ولياليه.

---

(١) الخمائل ص ٥٨.

وأمّا فيما يتعلق بقوله مستطرداً فيما بعد في قصيدته الميمية هذه : (١)

قال : التي كانتْ سمائي في الهوى صارت لنفسي في الغرام جهنّما

خانت عهودي بعدما ملّكتها قلبي فكيف أطيقُ أن أتبسّما؟

قلت ابتسم واطرب فلو قارنتها قُضّيتَ عمرَكَ كلّه متألما

فهو قول قد أراد من خلاله ان يوجه نصائحه وارشاداته الى جميع العاشقين الفاشلين في الحب طالباً منهم الابتسام لكي ينسوا بواسطته احزانهم التي خلّفَها في نفوسهم صدود المحبوبة وهجرانها وعدم ايفائها بالعهد. ومّما يُؤكد ايضاً ان ابا ماضي قد نظم قصيدته الميمية المشهورة هذه في خلال سنوات تلك الازمة المالية التي بدأت تجتاح الولايات المتحدة منذ عام ١٩٢٩م. وظلت مجتاحة لها اربع سنوات متتالية حديثه فيها عن التجار والتجارة الكاسدة البائرة حيث نراه يشبه فيها التجارة في تلك الايام الصعبة القاسية بالمسافر السائر في البيداء الذي يكاد العطش والتيه ان يقضيا عليه كل القضاء كما نراه يشبّهها ايضاً بغادة مسلولة محتاجة الى الغذاء، والغذاء ليس متوفراً لديها، بحيث اضحت كلما تنفّست لتفرّج عنها كربتها بواسطة انفاسها المتصاعدة من صدرها تزداد حالتها سوءاً على سوء ويزداد الدم تدفُّقاً من صدرها قطعة بعد قطعة.

فطالما الداء قد استشرى واستفحل والاطباء عاجزون عن القضاء عليه قضاء مبرماً في القريب العاجل فلماذا اذاً يُتْعِبُ المتضررون منه أنفسهم تَعَباً غير مُجْدٍ ولا مفيد. فما عليهم إذاً في نظر أبي ماضي إلا اللّجوء الى النسيان ولا يتأتى لهم ذلك الا بعد أن يرغموا انفسهم ارغاما على الغوص في بحور الفرح بالمصائب والابتسام لها علهابذلك تزول عنهم : (٢)

قال : التّجارةُ في صراعٍ هائلٍ مثلُ المسافر كاد يقتله الظَّمَا

او غادةٍ مَسْلولةٍ محتاجةٍ لِدَمٍ وتنفثُ كُلّما لَهَثَتْ دَمَا!

(١) الخمائل ص ٥٨ - ٥٩.

(٢) الخمائل ص ٥٩.

قلتُ: ابْتَسِمْ ما أنتَ جالبُ دائها وشفائها، فإذا ابتسمت فربما
ايكون غيرُكَ مجرماً وتبيتُ في وَجَلٍ كأنكَ انتَ صِرتَ المُجْرِما

وإنّنا نجد ابا ماضي لا يكتفي بوصف دوائه الناجح الشافي، الا وهو دواء الابتسام للتجار فقط بل وَصَفَهُ ايضاً لنفسه ولكلّ انسان في الارض قد وجد الاعداء يكثرون من حوله محاولين الايقاع به والعمل على اهلاكه والنيل من سمعته. واعداء ابي ماضي قد تكاثروا عليه في تلك السنة من حياته وفيما تلاها ايضاً من السنوات. وذلك بسبب مهنته الصحفية التي تعاطاها طوال حياته وكذلك بسبب بعض اشعاره المتّسمة بالجرأة والصراحة وخاصة منها تلك التي تتعلق بما وراء الطبيعة. وفي كثير من الاحيان كان ابو ماضي يتعمّد عَدَم الاهتمام بما كان يقوله عنه هؤلاء الاعداء وكُلُّ ذلك من أجل ألا يجعلهم يرتفعون الى مستواه: (١)

قال: العِدىٰ حَولي عَلَت صَرَخَاتُهُم أَأُسَرُّ والاعداءُ حَوْلي في الحِمَى؟
قلت: ابتسم لم يطلبوك بِذَمِّهِمْ لو لم تكن مِنْهم أجَلَّ وأعظَما!

ان هذا الاسلوب الا وهو اسلوب السؤال والجواب الذي ظل ابو ماضي محافظاً عليه ومُتَّبعاً له، وهو يطرق في ميميته هذه بعض الموضوعات الانسانية مبدياً فيها رأيه مع وصفه للدواء الناجع الشافي يعتبر اسلوباً جيداً. ولم نجد له مثيلاً الا لدى قلة من الشعراء الذين سبقوه أو عاصروه.

ولله دَرُّ ابيْ ماضي وذلك حيث قال مستطرداً في ميميته هذه: (٢)

قال: المواسمُ قد بدتْ اعلامُها وتعرَّضت ليْ في الملابس والدُّمَى
وعَلَيَّ للأحبابِ فرضٌ لازمٌ لَكِنَّ كَفِّي ليس تملكُ دِرْهَمَا
قلتُ: ابتسمْ يكفيك أنك لم تَزَل حيَّا ولستَ مِن الأحِبَّة مُعْدِمَا

ان لفظة «المواسم» التي اوردها ابو ماضي في البيت الاول، يعني بها موسمي عيد الميلاد ورأس السنة ودليلنا على ما نقول يكمن في كونه قد نظم قصيدته هذه ونشرها لأوّل مرّةٍ في مجلته «السّمير» بتاريخ ١٥ كانون الاول ١٩٣٠م.

---

(١) الخمائل ص ٥٩ - ٦٠.
(٢) الخمائل ص ٦٠.

وهو في هذه الابيات كما في اكثر الابيات التي سبقتها لم يكن مُوجّها كلامه لصديق من اصدقائه الذين وجدنا العيْد يطل عليهم ببشائره وهم لا يملكون الدراهم التي تمكنهم من شراء الهدايا التي يحتاج اليها اولادهم والتي هي فرض لازم على كل أب رؤوف حنون بِقَدْرِ ما كان يوجهه الى نفسه التي راحت تعاتبه بسبب عدم مقدرته نظراً لضعف حالته المادية آنذاك من شراء الهدايا التي يجب عليه ان يقدّمها لاولاده في صبيحة هذين العيدين المباركين اللذين وجدهما يطلان عليه في ذلك العام بالذات الا وهو عام ١٩٣٠م وهو عام كان ابو ماضي في خلاله منصرفاً بكليته رغم الضائقة الاقتصادية الخانقة الى مجلته «السَّمير» وهي التي وجد نفسه غارقاً في الديون من اجلها من قمة رأسه حتى اخمص قدميه وذلك بعد ان اصدر اول عدد من اعدادها في عام ١٩٢٩م. وهو بَدَلاً من ان يقنط من صلاح احواله المادية في تلك الفترة قنوطاً يحمله على اليأس، راح يبتسم فرحاً بالرغم من شعوره بالحرج تجاه احبابه الذين وجد أنه من الواجب عليه اسعادهم كل الاسعاد في ليلتي عيد الميلاد ورأس السنة. وكان مُؤمّلاً ان تتحسّن احواله المادية في المستقبل القريب وكل ذلك بفضل الاحباء الذين وجد انهم لا يزالون يحيطون به حيثما حل واينما سار. غير باخلين عليه في العطاء لكي تظل غرسته «السَّمير» شجرة مزهرة مثمرة ثماراً حلوة شهية طيّبة المذاق.

ولقد كان ابو ماضي فيما يبدو مؤمناً أشد الايمان بالقول المأثور «شر المصائب ما يضحك» لذلك وجدناه يوصينا في قصيدته هذه بالابتسام والفرح كلما أَلَمَّت بنا مصيبة او حلت بنا نكبة حتى إذا ما وقع نظر حزين باكٍ خلال تَبَسُّمِنا هذا الذي لجأنا اليه لننسى بواسطته ولو الى حين ما حَلَّ بِنا من كوارث وصادفنا من عقبات، طرح جانباً عنه كآبته وراح يشاركنا الفرح والابتسام مقتدياً بِنا كُلَّ الاقتداء. وما دمنا في نظر ابي ماضي لن نخسر شيئاً بـ«الابتسام» بل نربح به اشياء واشياء فعلام اذن لا نظل عليه محافظين وعلى دربه سائرين: (١)

قال اللّيالي جَرَّعَتني عَلْقَماً ... قلتُ ابتسمْ ولَئِنْ جَرِعْتَ العَلْقَما

فلعَلَّ غيرك إن رآك مُرنَّماً ... تركَ الكآبةَ جانباً وترَنَّما

أتُرَاك تغنمُ بالتَّبَرم درْهَماً ... أم أنتَ تخسرُ بالبَشَاشَةِ مَغْنَما؟

(١) الخمائل ص ٦٠.

فما دمنا في نظر أبي ماضي لا نستطيع حينما نتبرَّم منَ انفسنا ومنَ المحيطين بنا جميعاً ان نربح درهماً واحداً، وما دمنا ايضاً حينما نلجأ الى الابتسام هاشين باشين في وجه المصائب والكوارث والنكبات التي تحل بنا لا نخسر شيئاً لَهُ قيمة، فلماذا إذن لا نترك «البشاشة» مرتسمة دائماً وأبداً على وجوهنا بأحرف من نور ونقلعُ عن «التبرم» من الحياة ومن الأشرار المحيطين بنا.

وحتَّى هؤلاء الفلاسفة من الناس الذين يعتقدون بأن «البَشَاشة» عاجزة عن اسعاد مَنْ يرى أنَّه قد جاء الى هذا العالم مرغماً بعد ان كان يحيا في عالم آخر سواه. وأنه لا بُدَّ له من مفارقته ايضاً إن عاجلاً او آجلاً، وهو ايضاً مكره كُلَّ الإكراه فقد اوصاهم ابو ماضي بالمواظبة على تناول دوائه الشافي هذا الا وهو دواء الابتسام وان يظلّوا مداومين على تناوله حتى وهم يشاهدون بأم اعينهم شبح الموت مرفرفاً بأجنحته السوداء فوق رؤوسهم:(١)

قال: البَشَاشَةُ ليس تسعدُ كائناً ... يأتي إلى الدُّنيا ويذهبُ مُرْغَماً
قلتُ: ابتَسِمِ ما دام بينكَ والرَّدَى ... شِبرٌ فإنَّكَ بَعْدُ لن تَتَبَسَّمَا!

فبفضل كل أبيات هذه القصيدة الميمية وكذلك بفضل ابيات كثيرة سواها شبيهة بها في معناها استحق ابو ماضي لقب استاذ مدرسة التفاؤل في ادبنا العربي: قديمه، وحديثه.

ولقد ثار ابو ماضي على بعض التقاليد الموروثة والعادات البالية، التي تقف دائماً حَجَر عَثْرَة في وجه تقدّم المجتمع، ونموه وازدهاره. فراح يَعِظُنا ويُرْشِدُنا عَلَّه يستطيع اقناعنا بالتخلّي عن تلك العادات التي ورثناها عن آبائنا واجدادنا لكي لا نَتّبع بدلاً منها الا كل ما يؤدي الى تقدُّمنا ورُقيِّنَا.

وهو قد كان مدركاً كل الادراك ان الناس يعتبرون «رأي الاكثرية» رأياً سائداً وشريعة يجدر بنا أن نعمل بها ونرتضيها حتى ولو كانت شريعة خاطئة فاسدة، يسبِّب لنا اتباعها الكثير من الظلم والأذى. إذ إننا قد نجد فتاة لا ترضى الزواج بمن هو اكبر منها سناً إلا ارضاءً لرغبة والدها او والدتها، فتقضي من أجل

---

(١) الخمائل ص ٦١.

ذلك حياتها بائسة معذبة في كَنَف زوج لم يخلق ليكون لها كما انها لم تخلق لتكون له، لاختلاف في الامزجة والطبائع فكم من شاب اختار لنفسه طريقاً ليسلكه فأرغمه والده على سلوك طريق آخر اختاره هو بنفسه له. فكان مصيره الفشل والضيَّاع ووالده غير دار بأنه كان سبباً رئيساً في هذا الضَّياع الذي لحق بولده، لا لشيء الا ارضاء لميوله واقتداء بالتقاليد الموروثة البالية السائدة في مجتمعه.

ولكي يصلُحَ المجتمع وتتقدَّم البشريَّة يجدر بنا ان نهدم تلك السُدود والأسوار التي بناها اجدادنا لعصر يختلف كل الاختلاف عن العصر الذي فيه نحيا ونعيش فالامم الطامحة الى الرقي والتَّقدُم هي تلك الامم التي لا تعتمد على تقاليد آبائها واجدادها ولا تنام على امجاد اسلافها بل نراها تَسُنّ لنفسها قوانين وشرائع ملائمة لعصرها الذي هي فيه ولا تتوانى عن اعتناق تقاليد ومبادئ الامم الرّاقية حتى تصبحَ لها شخصيتها المستقلَّة، وهي شخصية تؤثر اكثر مما تتأثر ولا هدف لها الا توفير السعادة والتقدم والرُقي لاصحابها: (١)

لَمَّا سألتُ عن الحقيقة قيل لي:	الحَقُّ ما اتَّفقَ السَّوادُ عَلَيهِ
نَرضى بحُكم الأكثرية مِثْلَما	يَرضى الوَليدُ الظُّلمَ مِن أبَويْهِ
إما لِغُنْمٍ يرتجيه مِنهُما	أو خِيفَةً مِنْ أن يُساءَ إلَيْهِ

أمَّا «المَدَنيَّة» فهي التي افسدت طبائع الناس كُلَّ الافساد، في نظر أبي ماضي وذلك بعدما جعلتهم يتكالبون على حُطَام الدُنيا، فقادهم تكالبهم هذا الى العداوة والبغضاء فيما بينهم، فأضحَوا في معظمهم وصوليين نفعيين لا هم لهم سوى الثراء العاجل بشتّى السُبل والوسائل حتَّى ولو كانت سبلاً مُعْوجَّة ترغم سالكيها على ان يضعوا على اوجههم براقعاً يَخفُون خلفها نواياهم الشرِّيرة،ومقاصدهم الخبيثة فيتظاهرون بالصِّدق امام الناس وهم اكذب البرية، وينهَوْن عن قتل النَّفس البشرية، وحينما تتاح لهم الفرصة يمعنون فيها القتل، والتعذيب فهم يذُمُّون الرِّقَّ ثم يَستَرقون العباد، ويحبِّبون الظُّلم وكأنَّه عدل يستحق التمجيد والاحترام. وكل ما يراه هؤلاء هو الصَّواب بعينه امَّا ما يراه الآخرون فهو الخطأ كُلُّ الخطأ فبسبب وجود هؤلاء الطفيليين في المجتمع اصبح المرء يَشُكُّ حتَّى في اقرب المُقرَّبين إليه،

---

(١) الخمائل ص ٧٨

لاعتقاده بأنَّ الارض قد فسدت بمن فيها ولا شيء يُصْلحها إلا انقراض سكانها، انقراضاً كُلّيًا، لكي يعود فينشأ عليها بعد انقراضهم، جيلاً جديداً لا يعرف الكَذِب ولا الرِّياء. ولا ينظر فيه الانسان الى اخيه الانسان تارة بعين الاحترام وطوراً بعين مملوءة بالاحتقار: (١)

تَتَلْمَذْتُ للإنسان في الدَّهرِ حِقْبَةً فلقَّنني غَيّاً وعلَّمني جَهْلا

نهاني عَنْ قتل النُّفوس وعِنْدَما رأى غِرَّةً مِنّي تَعَلَّم بيَ القَتْلا

وذَمَّ إليَّ الرِّق ثمَّ استرقني وَصَوّر ظُلْماً فيه تمجيدُه عَدْلا

وكاد يُريني الإثمَ في كُلْ ما أرى وكُلَّ نِظَام غير ما سَنَّ مُخْتَلاً

فصارَ الوَرَى عِنْدِي عَدُواً وصاحباً وأنفُسهم صِنْفَيْن: عَلْياء أو سُفْلىٰ

وصِرتُ أرى بُغْضاً وصِرتُ أرى هَوى وصِرتُ أرى عبداً وصِرتُ أرى مَوْلىٰ

فالناس لَيسوا كُلهم سواء بسَواء؛ فمنهم الصالح، ومنهم الشّرِّير. فوجود الاشرار على الارض لا يحملنا على فُقدان الثقة بجميع الناس فنعمل بسبب فقداننا الثقة بهم على ايذائهم، فيحاولون بدورهم إيذاءنا، حتى ولو لم يكن الايذاء من طبيعتهم فلرُبَّ إساءةٍ وجِّهت إلينا اصبحت بمثابة قوة جديدة لنا تدفعنا دفعاً إلى الامام، بدلاً من ان تشدَّ خطانا الى الوراء ولَرُب عَمَل نعمله ونظنه خيراً لنا فَيَجُرُ علينا فعله الكوارث والويلات فالأَوْلى بنا والاجدر ان نَبقى تلاميذ تتلقى عن الناس دروساً في المحبة والوفاء بدلاً من آن نُلَقِّنهم نحن بدورنا دروساً في الكَذِب والتَّصنع والرِّياء. فما علينا ونحن ندخل مدرسة الحياة إلا التَّشَبُّه في نظر ابي ماضي بما تعمله بعض الكائنات في الطبيعة، لكي نتَّخذ من افعالها عظاتٍ لنا قد نتَّعظ بها في مُعْظم الاحيان فنحن حينما نمتّع انظارنا في النجوم المتلألئة في السَّماء نراها توزع انوارها على جميع الكائنات بلا حساب، ولا فرق عندها بين صاحب مقلة «حَسْرى» او مُقلة «جَزْلى» والنهر في نظره ايضاً يبذل ماءه للاعشاب وللعَطَاشَى دون أن يَبتغي شُكراً منها او يَدَّعي فضلاً عليها وهذه الارض لا تحبسُ غذاءها وعطاءها عن اشواكها لتجود به فقط على ورودها واشجارها ورياحينها؛ فلنَفْعَلْ فعل

(١) الخمائل ص ٨١.

الارض والنجوم والنهر، ولنسامح اذن المسيئين الينا علّهم يهتدون ويَزعوون، فتتبدَّل اطوارهم، ويعتنقون بدلاً من مذهبهم السابق الذي اعتنقوه بالنسبة الينا مذهب الانسانية الواحدة المُوَحَّدة. وهذا المذهب هو الذي اعتنقه ابو ماضي وحاول جاهداً ان يقنعنا باعتناقه إذْ إنَّه وجده بعد الاختبار والتَجربة المَذهَبَ الامثل والافضل الذي يقود خطانا دائماً وابداً إلى المجتمع السعيد؛ (١)

ويا رُبَّ شرٍ خِلتُه الخيرَ كُلَّه ... ويا رُبَّ خيرٍ خِلتُه نَكبةً جُلّى

الى ان رأيت النَّجم يَطْلُعُ في الدُّجَى ... لذي مقلةٍ حَسْرى وذي مُقلةٍ جَذْلى

وشاهدتُ كيف النَّهرُ يبذُل ماءَهُ ... فلا يبتغي شُكراً ولا يَدَّعيْ فَضْلاً

وكيف يَزِيْنُ الطَّلُ ورداً وعَوسَجا ... وكيف يُرَوِّيْ العارضُ الوَعْرَ والسَّهْلا

وكيف تُغَذِّيْ الارضُ الأمُّ نَبْتَها ... وأقبحَهُ شَكْلاً كأحسنِه شَكْلا

فاصبح رأيي في الحياة كرأيها ... واصبحتُ؛ لي دينٌ سوى مَذهبي قَبْلا

واننا لنرى ابا ماضي في قصيدته «كُن بلسماً» التي نظمها خِصّيصاً لتلقى في احدى المناسبات التكريمية في نيويورك، والتي نشرها في مجلته لأوّل مَرَّةٍ بتاريخ ١٥ تشرين الثاني ١٩٣٥م. يحدّثنا في مطلع ابياتها وذلك قبل ان يتطرق الى الحديث عن أرْيَحِية وصفات المحتفى به؛ عن المراحل الشَّاقَّة التي يجب على الانسان ان يجتازها بصبر وجَلَد حتى يصل الى الافضل والاعلى والاسمى في كل شيء. أمَّا اكثرُ هذه المراحل واشدّها صعوبة فهي مرحلة الانتصار على «الدَّهر» الذي يناصِبُنا دائماً العَداء فيحوّل سعادتنا إلى شقاء، ولياليَنا الناصعة البياض الى ليالٍ مكفهرَّة حالكة السواد. فكلَّما صَوَّب ذلك الدهر الخؤون نحونا سهماً من سهامه الطائشة القاتلة كلما ازددنا قوة وقدرة على مقاومتها، لكي لا تصيب منا مَقْتلاً. وإذا ما سقانا العُشَراء والأنسباء كُؤوساً من «العَلْقم» فلنقدمْ لهم نحن بدورنا كؤوساً طافحة بالعسل المُصَفَّى ولْنَفْرُشْ طريقهم بالزهور والورود عَلَّهم يعودون عن غَيّهم وضلالهم فيقتلعون بدورهم الأشواك التي كانوا قد غرسوها في

(١) الخمائل ص ٨٢.

طريقنا متعمّدين: (١)

كُنْ بلسماً إن صار دَهْرُكَ أرْقَما وحلاوةً إن صار غيرُك عَلْقَما

فالحياة مملوءة بالكنوز، كنوز المتعة والرَّخاء التي توزعها علينا بالتساوي وبلا حساب. فلماذا نَحْبس إذاً عطاياها عن انفسنا وعن الناس خَشْية الفقر والإملاق. ولننفق من تلك الكنوز ما شئنا من الانفاق، ولْنَغْرف من بحر الحياة الزاخر بالعطايا والهبات ما يَرْوي عَطَشنا ويَسُدُّ حاجتنا وحاجة الآخرين. لأننا كُلمَّا غرفنا من مياه ذلك البحر الخالد كلما ازداد امتلاء على امتلاء: (٢)

إنَّ الحياةَ حَبَتْكَ كُلَّ كُنوزِها لا تَبْخَلَنَّ على الحياةِ ببعضِ مَا

وَلْنفعلِ المعروف مع اعدائنا واصدقائنا منْ غير أن نتوقَّع منهم سماع كلمات الشكر والعرفان. فأيّ ثناء تنتظره الزهرة، وهي تفوح علينا بعطرها، وأيّ معروف يرتجيه المَطَر عندما يحي النبات والاعشاب، ويسقي الحيوان والاشجار، فتفيض الانهار وتترقرق الجداول، وتكثر الخيرات. فنحن مهما كُنَّا كرماء اسخياء فلسنا باسخى ولا بأكرم مِنَ الزهرة ولا المطر، فلنأخذ عنهما علم المحبة فيصبح لا هَمَّ لنا بعد ذلك سوى اسعاد البشر جميعاً علّنا بعد ان نسعدهم نرغمهم على ان يعملوا جاهدين على إسْعادنا: (٣)

أحسنْ وإن لم تُجْزَ حتى بالثَّنا أيَّ الجزاءِ الغيثِ يَبْغي إنْ هَمَى
مَن ذا يكافيءُ زهرةً فوّاحَةً؟ او مَنْ يُثيبُ البُلبُلَ المُترنِّمَ
عُدَّ الكرامَ المحسنين وقِسْهُمُ بِهِما تَجِدْ هذين منهم أكْرَمَا
يا صاحِ خُذْ عِلْمَ المحبَّةِ عنهما إنّي وجدتُ الحُبَّ عِلْماً قَيِّمَا
لو لم تَفُحْ هذي وهذا ما شَدَا عاشت مذمَّمَةً وعاش مُذَمَّمَا
فاعْمل لاسْعادِ السِّوى وهنائِهم إن شئْتَ سَعْداً في الحياةِ وَمَنْعَمَا

وقد رأى ابو ماضي بعض الناس لا تستيقظ مشاعرهم الا في سويعات معدودة ثم يعودون بعدها فيتحوَّلون من جديد الى «دُمَى» تُحَركها اصابع

(١) الخمائل ٨٧.
(٢) الخمائل ٨٧.
(٣) الخمائل ٨٨.

الشهوات والمطامع الشخصية، فيتحوّل عندئذ الكون في اعينهم الى سجن مظلم كئيب. فما عليهم إذا ما ارادوا الخروج من ذلك السجن الرّهيب إلاّ اعتناقهم لمبدأ «المحبة»؛ وهو المبدأ الذي بدونه يصبح الانسان في نظره هيكلاً عَظميّاً لا حِسّ فيه ولا شعور، ولا يعود له في الحياة قيمة تتعدى قيمة الكأس الفارغة من خمرها:(١)

لولا الشُّعُورُ النَّاسُ كانوا كالدُّمَى — أيقِظ شعورَك بالمَحَبَّة إن غفا
أبغُضْ فيمسيْ الكونُ سِجناً مُظلِمَا — أحِبب فيغدو الكُوخُ كوناً نيّراً
والمرءُ لولا الحُبُّ إلا أعْظُمـَا — ما الكأسُ لولا الخمرُ غيرَ زجاجةٍ

فلو لم يكره الليل ذاته ويحقد على العوالم المحيطة به لَمَا حُكِمَ عليه بارتداء ذلك الثوب الشديد السواد المرصّع بالنجوم البَرَّاقة التي ظلت محافظة على بريقها ولمعانها لكي تظهر امتعاضها واستغرابها من اطوار ذلك الشبح المجلل بالسواد، وهي اطوار غريبة حقاً. إننا نحب تلك العوالم المتلألئة ونشتاق دائماً رؤيتها لانها جميلة ضاحكة فالمرء يُحبُّ الجمال ويهواه ويُجْهِدُ نفسه باحثاً عن مواطنه، واماكنه أمّا الرجل الكاره دائما للحياة المتبرّم بمحيطه المتضجّر من نفسه ومن اقرانه، فيصبح في أعين الناس اشبه بالليل الداجي الذي لا تشتاق العيون مرآه ولا تهوى القلوب لقياه:(٢)

بَقِيتْ لِتَضْحَكَ مِنْهُ كيف تَجَهَّمَا — كَرِه الدّجى فأسْوَدَّ إلاّ شُهْبَه

فاذا ما عَشِقنا البيداء، بعد أن يطيب لنا فيها المُقام، تتحوّل رمالها الصفراء امام اعيننا الى ازاهر فوّاحة، وحدائق غنّاء حتى سرابها الخداع يمسي في مخيلاتنا ماء ترتشفه الشفاه فتستعذب طعمه، كما تستعذب طَعْم ومذاق الماءِ العذب الزُّلال:(٣)

زَهراً وصار سَرابُها الخَدّاعُ مَا — لو تعشقُ البيداءُ أصبح رَمْلُهَا

حتى تلك الارض المعطاءة الخيِّرة التي توزِّع علينا خيراتها وهباتها متكفّلةً بنموّنا وبقائنا دون ان تُمَيز بين جماد اونبات او بين انسان وحيوان تضيق ذرعاً

(١) الخمائل ٨٨.
(٢) الخمائل ص ٨٩.
(٢) الخمائل ص ٨٩.

بوجود المُتَفَجِّرِيْنَ الناقمين على الحياة والناس، حتى ولو لم يبق على سطحها الا واحدٌ منهم: (١)

لو لم يَكُن في الأرض إلا مُبْغِضٌ لَتَبَرَّمَتْ بوجودِهِ وتَبَرُّمَا

فالحياة جميلة وهي تحب الجمال في الارض، ولكن لا يرى جمالها إلا اصحابُ النفوس الجميلة. أما الجهلاء الذين ضاقت بهم الارض على رَحْبِها واتساعها. فلا تكاد اعينهم تقع على شيءٍ جميل فيها حتى يصيبهم دوار شديد، وتنتابهم الافكار السوداء والهواجس المخيفة فيأخذون في الظن والتخمين وقد تسبِّب لهم نفوسهم المريضة تلك الكثير من القلق والازعاج: (٢)

لاح الجمالُ لذى نُهَى فأحَبَّهُ وراه ذو جَهْلٍ فَظَنَّ وَرَجَّمَا

وقد كان العجب العُجَاب يستولي على ابي ماضي في كثير من الاحيان عندما يجد ان بعض عُبَّاد المال، لا هَمَّ لهم في الحياة سوى تكديس الاموال، واقتناء العقارات، حتى إذا ما اصبحوا اغنياء راحوا يتباهَون بغناهم، ويفتخرون على اقرانهم بثرواتهم. وربما غاب عن اذهان هؤلاء المتبجِّحين المغرورين بأن الكراسي التي اجلستهم عليها اموالهم الطائلة ليست إلاَّ كراسي وَهمية قد صنعتها يَدُ الاقدار خِصِّيصاً لهم من ورق. فهم قد لا يكتشفون حقيقة امرهم إلا بعد ان تمتد ايدي اللصوص الى خزائنهم لتستولي على ما فيها من نقود ثم تتركها لهم بعد ذلك خاوية خالية إلا منْ بعض الذكريات المؤلمة فيفقدون بعد فقدانهم لها مكانتهم التي كانت لهم في نفوس النَّاس الذين انخدعوا بالمظاهر الغشَّاشة الكاذبة لهؤلاء: (٣)

عَجَباً لِمَن أمسى وكُلّ فَخَارِهِ بِنُضَارِهِ المخبوءِ في الصندوقِ
ماذا يقول اذا اللّصوص مَضَوا به وأقام بعد نُضَارِهِ المَسْرُوقِ؟

فأبو ماضي لم يكن من اعداء اقتناء الثروات، او الحصول على الاموال بطريقة مشروعة ولكنَّه كان يرى بعض الناس الذين استعبدتهم اموالهم قد باتوا مُحْتَقَرِين مذمومين بعد ان سجدوا للبَغْل الذهبي كُلَّ السجود. ففقدوا بتعبِّدهم، وسجودهم

(١) الخمائل ص ٨٩.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) الخمائل ص ٩٥.

له، كرامتهم وهانت النفوس لديهم ولم يعد يهمهم ما يقوله الناس عنهم ما دامت
تلك الاقوال لن تحول بينهم وبين وصول المزيد من المال الى جيوبهم أمَّا كرماء
النفس منهم فهم وحدهم يَستَحِقُّون عن جَدَاره اقتناء الاموال، لاعتقادهمَ الأكيد بأن
ما يملكونه ليس لهم وَحْدَهم بل يشاركهم في امتلاكه كل محتاج فقير من ابناء
السبيل: (١)

إن يَرفَعِ المال الكريم فإنَّهُ   للنَّذل مِثلُ الحَبلِ للمَشنُوقِ؟

ولا شيء كالمال يجعل الصديق يتنكَّر لصديقه فيأنف من مجالسته، وحتّى من
التَّحدث اليه، لانه لم يستطع ان يلحق به ويصل الى مستواه حينما يَتَيسَّر له ان
يصبح مقتنياً ما اقتناه من ذهب وعقَّار فيعمد جاهداً الي مقاطعته وهجرانه قدر
الامكان. وذلك من غير ان يكون قد اقترف بحقِّه ذنباً يستحق ان يُعَاقِبَه من اجله
بمثل هذا العِقابِ الظَّالم القاسي: (٢)

لَمَّا صديقي صار منْ أهل الغِنَى   أيقنتُ أنِّي قد أضعتُ صَديْقِي

وقد نرى الناس تتدحرج من افواههم كلمات الاعجاب، والثناء كُلَّما شاهدوا
قصراً بناه غنيًا من الاغنياء، وهم لا يدرون ان ذلك القصر قد بناه صاحبه ليخفي
عن اعيننا داخل اسواره وغرفه المفروشة بأفخر الاثاث، ذنوبه وخطاياه. فتلك
الاموال الطائلة التي انفقها على بناء قصره هذا ليست وذلكَ في نظر ابي ماضي
وحده سوى ثَمَن لِدَمٍ مسفوك لبعض الفقراء او لعرق كان قد تصبَّبَ من جباه بعض
الاغبياء الذين انخدعوا بحسن نوايا رب ذلك القصر فأسلموا له قياد امرهم
فاستولى على اموالهم واستحَلَّ اتعابهم دون ان يجد من يناقشه الحساب، ومن غير
ان يؤنبه ضميره على فعلته الشنعاء تلك وكُلَّمَا شاهدنا رجلاً يرتدي بذلة جديدة
مرتفعة الثمن انخدعنا بمظهره وذلك حسب زعم شاعرنا نَفْسِهِ ورحنا نؤمن بأقواله
اشدّ الايمان، واحترمناه كُلَّ الإحْترام وقد يكون هذا الشخص المحترم في نظرنا
مديوناً بثمن بذْلَته هذه إما للخياط او لصديق من الاصدقاء الغيورين على حسن
مظهره بين الناس: (٣)

---

(١) الخمائل ص ٩٥.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) تبر وتراب ص ١٠٤.

إنّي لأعجب منّا، كيف تخدُعنا عَن الحقائق امثالٌ وأشباهُ
إذا بنى رَجلٌ قصراً وزَخْرفَهُ سبقْنا إليه التَّهاني وامتدحناهُ
وما بنى قصرَه إلا ليَحْجُبَ عن أنظارنا في زواياهُ خطاياهُ
ونَمْدَح المرءَ من خزٍ ملابسُه وذلك الخزُّ لم تَنْسُجْهُ كَفّاهُ
وقد يكون نُضارٌ في خزائنه دمَّاً سفكناه او جَهْداً بَذَلْنَاهُ

أمَنَ ابو ماضي اشد الايمان بالانسان القَوي الفاضل الذي لا تَغُرّه الاوهام، ولا يقنعُ بتَافهات الامور بل يَحْلم دائماً بالوصول الى المستصعبات من الامور مهما صادف من عَقبات او وضعت في طريقه الاشواك فالانسان الذي يهاب الاقتراب او الدنو من نور المعرفة او يخشى ان يلمس بأنامله درجات سلم الخلود والامجاد، لهو انسان مَيّتٌ وهو لم يزل حياً فالحياة التي نقضيها في التَّوقّي والوَجَل والخوف من عواقب الاعمال، ليست حياة مَجيدة تدعو للإكبار او الإعجاب: (١)

لا أحبُ الإنسانَ يَرضخُ للوهـم ويرضى بتافهات الأماني
إنَّ حَيّاً يهابُ أن يلمس النُّورَ لَمَيْتٌ في ظُلْمَةِ الأكفانِ

وكان ابو ماضي كلما امعن النظر في الوجود وفي مصير الانسان كُلَّما ازداد ايماناً بجدوى مبدإه التفاؤلي الدّاعيْ الى التمتّع بمباهج الحياة تمَتُّعاً بريئاً. وذلك ما دمنا على التمتّع قادرين قبل ان تمتد الينا يد الفناء وقبل ان نرى القبور تفتح لنا ذراعيها لِتَضُمَّنا برفق الى صدرها كما ضَمَّتْ الملايين من قبلنا، وظلَّت هي نفسها خالية وقد امتزجت فيها عظام السَّيِّد بالمَسُود، والملك بالصعلوك، والقوى بالضعيف، والغني بالفقير ولم يَبْقَ من آثارهم سوى تلك العظام النخرة البالية التي بقيت لِتُحَدِّثَ المغرورين بمباهج الحياة الباكين على ما فات، المتبرِّمين بالأهل والاقرباء والعُشَراء بأنّهم سيلاقُون نفس المصير الذي لَقِيَهُ الذين سبقوهم من قَبْلُ الى ذلك المكان المظلم المجهول. فما عليهم الا ان يتمتَّعوا بكل لحظة من اللحظات التي اتاحها لهم الزمن الغاشم إذْ إنَّ حياتهم ليست سوى قصيدة كتبوا بأيديهم كلمات ابياتها ولَمَّا جاءهم الموت ختم لهم قافيتها: (٢)

---

(١) الخمائل ص ١٠٨.
(٢) تبر وتراب ص ١١٦.

ما للقبور كأنّما لا ساكنٌ فيها وقد حوَت العُصورَ الماضيَه

طوتِ الملايينَ الكثيرةَ قبلنا ولسوف تَطوِينا وتَبقى خاليَه

اين المُها وعيونُها وفتونُها أينَ الجبابرُ والملوكُ العاتيه

زالوا من الدنيا كأن لم يُولَدوا سحقتهُم كفُّ القضاءِ القاسيه

إن الحياة قصيدةٌ أعمارُنا ابياتُها، والموتُ فيها القافِيَه

الفهرس